الجزء الثاني

السلطنة في أوجها

الفصل الثامن

سلاطين، قديسون ومصادر

المراجع التي تخص الفترة الممتدة إلى سنة 752 هـ/1351م

فيما يخص الفترة الممتدة من عهد علاء الدين (695 ـ 715 هـ / 1296 ـ 1316م) وحتى أوائل خمسينيات القرن الرابع عشر كلها، ما زلنا مستمرين في الاعتماد، إلى حد كبير، على ثلاثة مؤلفين، كتبوا من داخل الهند هم: برني وعصامي وسرهندي، جنباً إلى جنب مع مذكرات الرحالة المغربي ابن بطوطة ـ بالنسبة إلى عهد محمد بن تُغْلُق (724 ـ 752 هـ / 1324 ـ 1351م). أما المؤلفون الذين كتبوا عن الحقبة المغولية ـ وأبرزهم نظام الدين أحمد هروي (المتوفى سنة 1003 هـ / 1594م، وعبد القادر بداؤوني (أواخر القرن السادس عشر)، ومحمد قاسم هندوشاه (آسترابادي فرشتا) ـ فيعتمدون عموماً على برني وسرهندي، ولا يتمتعون بأية قيمة كمراجع أولية؛ غير أنهم يزودوننا، بين الحين والآخر، بتفاصيل ملتقطة من أعمال سابقة لم تعد موجودة. من الجدير بالملاحظة، أن هناك طبعة أقدم، لكتاب برني: **تاريخي فيروز ـ شاهي** (أفاد منها الكاتب بيهامادخاني المنتمي إلى القرن الخامس عشر)، لم يبق منها إلاّ ثلاث مخطوطات[1]، والتي لا تلبث، من علاء الدين

(1) في المقام الأول اعتمدتُ هنا على مخطوطة إيليوت 353 بالبودليان مع مخطوطة أخرى في مجموعة السيد دبغي الخاصة؛ غير أن قرارات معينة جرى تقييدها على مخطوطة RRL الفارسية 2053.

وصاعداً، أن تبدأ بالافتراق عن النص المدقَّق؛ كما أن مخطوطات هذا التنقيح الأول، فيما يخص عهده على الأقل، يختلف بعضها عن البعض الآخر. إن من شأن أية قراءة للنص المعتمد، أن توحي، في حقيقة الأمر، بأن برني ربما كتب رواية أولية لقصة عهد علاء الدين، كعمل مستقل، ثم ما لبث، لاحقاً، أن أقحمها في متن تاريخ أوسع، ولكن دون تعديل معالجته للأشهر القليلة الأولى[2].

ليس التأريخ، بمعنى الجدولة الزمنية، أقل صعوبة بالنسبة إلى هذه الفترة، قياساً مع القرن السابق. فاهتمام برني بالتحليل، على حساب التاريخ بالذات، يثير أمام دارس عهد محمد بالتحديد، جملة من المصاعب. لا يورد، شأنه شأن عصامي، إلاَّ القليل من التواريخ، على الرغم من وجود عدد أكبر من التواريخ في تهذيبه الأول، مقارنة مع النص المدقَّق؛ حيث ينكر برني، صراحةً، أنه يقدم أزمات عهد محمد في تسلسلها الزمني الصارم[3]. ثمة قدر من الصعوبة يكتنف عملية إعادة تركيب أي إطار سردي، بالاستناد إلى هذه المعلومات، مع شيء من الاستفادة من ابن بطوطة، على الرغم من أن الأخير مقل أيضاً في التواريخ، فضلاً عن الكثير من الأحداث التي يلمح إليها، والتي وقعت قبل وصوله سنة 734 هـ / 1333م[4].

لسنا في وضع يمكِّننا من معرفة مقدار ما ضاع. ينبئنا برني أن حكم علاء

---

(2) وبالتالي فإن الأحداث التي وقعت بين عامي 695 و696 هـ تمت تغطيتها مرتين: TFS، 242 ـ 246.

(3) المصدر نفسه، 468، 478.

(4) يقوم كُتَّابٌ متأخرون بمضاعفة الصعوبات، بدءاً بـ TMS، حيث يتم ارتكاب خطأ مماهاة حملة السلطان على ناغاركوت عام 738 هـ / 1337م مع حملة سابقة أُرسلت إلى منطقة قاراتشيل؛ وأدَّى هذا إلى تضليل إشواري پراساد، **تاريخ أتراك القاراؤون في الهند** (الله آباد، 1936م)، 126 وما بعدها. وبالتالي فإن الإطار الأقدم المبني على هذا التسلسل التاريخي المغلوط من 739 هـ وصاعداً محرف: انظر السير ولسلي هيغ، «خمسة أسئلة في تاريخ الأسرة الحاكمة التُغلُقية بدهلي»، JRAS (1922م)، 336 ـ 335: وعن بعض المشكلات، ن. فنكاتا رامانايّا، «تاريخ حركات التمرد في تيلانغ وكامبيلا ضد السلطان محمد بن تُغلُق»، **الثقافة الهندية** (1938 ـ 1939م)، 135 ـ 146، 261 ـ 269 (وإن كان تاريخه لعصيان فخر الدين في البنغال، **المصدر نفسه**، 138، 140، متأخراً بالتأكد أكثر مما ينبغي).

الدين خَلْجي، كان مميزاً بوجود عدد من المؤرخين المرموقين (مؤرّخان). يقال إن كبير الدين **أمير دادي لشگر** لدى السلطان، كان متفوقاً في مهارتي أمانة السر **(دابيري)** والتأليف **(الإنشاء)**. يزعمون أنه أنجز مجلدات من الـ **فتح نامات**، كما كتب كتاباً بعنوان **تاريخي علائي**. كان أمير أرسلان كلاهي، متمتعاً، هو الآخر، بذاكرة استثنائية بالنسبة إلى مآثر السلاطين السابقين، حتى أنه كان قادراً على الإجابة عن أسئلة علاء الدين، دون العودة إلى الكتب. أما برني، الذي يكتفي بالقول بأن كتابه: تاريخي فيروز ـ شاهي مستند، ببساطة، إلى تلخيص عدد من التواريخ السابقة، فلا يقر صراحة بأن تلك التواريخ كانت تشمل أيَّ شيء كتبه كبير الدين، أو أمير أرسلان[5]. على أية حال، فإن عمل أيٍ من الرجلين لم ينجُ من الضياع، وما يقال لنا عن أمير أرسلان، لا يوحي أنه قد كتب تاريخاً يخصه.

إن بعضاً من المراجع، المعروف بدقة أنها كانت موجودة، ربما كان بالغ القيمة، لا يقدر بثمن: مثل **ملحقات** بيجابوري، و**القصيدة** «المطولة التي تتحدث عن مآثر فيروز شاه، تأليف مطهَّر، و**الشاهنامه** التي ألفها شاعر بلاط محمد بن تُغْلُق، بدري تشاتش، والتي اعتبرها بداؤوني «كنزاً»[6]. أما عفيف، الذي يضفي على نفسه لقب مؤلف «تواريخ السلاطين»[7]، فيدعي أنه كتب سيراً **(مناقب)** عن حياة كل من علاء الدين وغياث الدين تُغْلُق، ومحمد بن تُغْلُق، ومحمد بن فيروز، فضلاً عن سرد قصة استباحة تيمور لدلهي سنة 801 هـ / 1398م **(ذكري خرابايي دهلي)**[8]؛ غير أن أيَّ أثر من هذه الأعمال، ليس

---

(5) TFS، 14، 361. عن تاج الدين عراقي، انظر **المصدر نفسه**، 358.

(6) مطهّر: بيهامادخاني، ملف 407 أ، 413 أ ـ 414 ب (تر. زاكي 4، 15). بدر: بداؤوني، ا، 241؛ 1. جاكسون، «بدري تشاتش»، Enc. Isl.، **ملحق**؛ تاريخ إكمال **الشاه نامه** وارد في جدول زمني في **قصائد** بدر، تحقيق م. هادي علي (كانبور، بلا تاريخ)، 85 (انظر أيضاً III, ED، 572 ـ 573).

(7) عفيف، 256.

(8) علاء الدين: **المصدر نفسه**، 478 غياث الدين: **المصدر نفسه**، 27، 36. محمد بن تُغلُق: =

موجوداً اليوم. وكتاب آخرُ، مفقود، أيضاً، بعنوان: **تاريخي فيروز ـ شاهي** ينسبه شخص يدعى عبد العزيز [؟] شمس بها ناوري إلى نفسه، في مقدمة ترجمته لـ **كتابي باراهي**(9). وثمة شخص يدعى حسام خان، قام في أربعينيات القرن السادس عشر، في گوجرات، بتأليف **طبقات (أو تاريخي) بهادر شاهي**، وهو كتاب لم يعد موجوداً، ولكن أُلُغخاني استفاد منه وأتى فرشتا على ذكره(10). يتضح من المقتطفات المتوافرة، أن حسام خان كان قادراً على الوصول إلى مصادر أخرى غير سرهندي أو بيهاماندخاني؛ غير أن التسلسل الزمني، ينطوي على أوجه شبه ملحوظة بنظيره لدى سرهندي.

إن التاريخ الوحيد المتزامن مع علاء الدين، الذي وصلنا، هو عمل أمير خسرو النثري، **خزائن الفتوح**، الذي أُنجز سنة 711 هـ / 1311 ـ 1312م، وهو يقدم رواية زاهية طنَّانة لقصص انتصارات السلطان على الاعتداءات المغولية المختلفة، ولقصص حملات كافور في الجنوب؛ والشاعر نفسه يطلق على الكتاب اسم: «**فتح ـ نامه**»(11). أمّا مؤلفات خسرو التاريخية الأخيرة فهي: سفرنوح (**نوح سفر**)، الذي كُتب سنة 718 هـ / 1318م في ظل حكم قطب الدين مبارك شاه، متضمناً سرداً لقصة حملة السلطان على الدكّان؛ ودول الرانات (**دول راني**) الذي أُنجز بُعَيْد انتهاء الفترة الخَلْجية مباشرة، في 720 هـ / 1320م، ويتضمن تفاصيل غير موجودة في الأماكن الأخرى؛ و**التُغْلُق نامه**، الذي يسجل ذكرى الإطاحة بالمغتصِب

= **المصدر نفسه**، 42، 51، 92، 274، 394، 451. محمد بن فيروز: **المصدر نفسه**، 148 ـ 149، 273، 428، 440. استباحة دلهي: **المصدر نفسه**، 182 ـ 185.

(9) مخطوطة IOI الفارسية 1262، ملف 2 ب؛ **لائحة الأعراق** 1112 (رقم 1997) تفترض أن المؤلف هو عفيف.

(10) عن حسام خان، انظر مقدمة AHG، طبعة روس لـ **ظفر الواله**، II, XXVII - XXIX. مقتبس في فيريشتا، I، 3، وII، 512.

(11) KF، 170؛ انظر **المصدر نفسه**، 26، عن العام الجاري.

ناصر الدين خسرو شاه، واعتلاء غياث الدين تُغْلُق للعرش (720 ـ 724 هـ، 1320 ـ 1324م)[12]، إضافة إلى **رسائل الإعجاز** التي كتبها خسرو في 719 هـ / 1319 ـ 1320م، والتي يبدو أن بعض الوثائق التي تتضمنها، تستند إلى أصول حقيقية[13]، على الرغم من أن هذه الدراسات التي تتناول النشر الفني، مغلَّفة بشيء من الشك.

وعلى الرغم من أن علينا، على ما يبدو، استبعاد مذكرات محمد بن تُغْلُق المزعومة، المجتزأة، التي لم تَعُد أكثريةُ الباحثين تعتبرها صحيحة[14]، فيما يخص الحقبة التُغْلُقية، فإن لدينا مادة أغنى وأكثر تنوعاً، بالمقارنة مع ما نملكه عن سائر الأسر الحاكمة السابقة الأخرى. ثمة عدد من الأعمال المؤلفة لتخليد ذكرى أحداث معينة، مثل **بساتين الأُنْس** (726 هـ / 1325 ـ 1326م التي يصف فيها تاج الدين محمدي صدري أعلى أحمدي حسن عيدوسي، المعروف باسم اختساني دبير، حملة تُغْلُق على لخناوتي في 724 هـ / 1324م[15]، وبعض قصائد شاعر بلاط محمد، بدري تشاتش. أمّا الرسائل الكثيرة (**الإنشاء**) التي كتبها عن الملك بن ماهرو، الذي كان يعمل لدى فيروزشاه والياً على مُلْتان،

---

(12) ثمة تلخيص مفيد للمضمون في سيد هاشمي، «التُغلُق نامه»، IC 8 (1934م)، 301 ـ 312، 413 ـ 424.

(13) للاطلاع على أحد التحليلات، انظر س. هـ. عسكري «رسائل الإعجاز لأمير خسرو: تقويم»، في **مجلد تقديم الدكتور ذاكر حسين** (دلهي، 1968م)، 116 ـ 137؛ المصدر ذاته، «مادة ذات أهمية تاريخية في «إعجاز ـ ي خسروي»، MIM 1 (1969م)، 1 ـ 20.

(14) مخطوطة BL 25785 (د TN)، ملف 316 وما بعده؛ تر. في أ.م. حسين **أسرة تُغلُق الحاكمة** (كالكوتا، 1963م)، 265 ـ 276، وثمة صورة عن النص في الختام. انظر المصدر نفسه، 567 ـ 572. للاطلاع على نوع من التحليل للوثيقة، تحليل اعتقَدَ حسين أنه صحيح وأصيل؛ وعن وجهة النظر المقابلة، نظامي، **دراسات في تاريخ الهند الوسيط**، 76 ـ 85، **وتاريخ... ومؤرخيها**، 198 ـ 205؛ الآراء مستعرضة في ستيفان كونرمان، **حدود الهند في رحلة ابن بطوطة**، IU، 165، برلين، (1993م)، 47 ـ 49.

(15) س. هـ. عسكري، «القيمة التاريخية لبساتين الأنس»، JBORS 48، الجزء: 2 (1962م)، 1 ـ 29. احسان، **بساتين**، مخطوطة BL 7717، ملف 19 ب، يقدم العام الجاري بوصفه عام 726 هـ.

والذي توفي قبل 772 هـ / 1370م[16]، فتتضمن قدراً ذا شأن من المواد المتعلقة بالشؤون المالية والعسكرية، العائدة بأكثريَّتها إلى عهد فيروزشاه، رغم أن بعض الرسائل مؤرخة في أيام محمد. أما في **دستور الألباب**، الذي بدأه الحاج عبد الحميد غزنوي في 734 هـ / 1333 ـ 1334م، وأنهاه سنة 766 هـ / 1364 ـ 1365م، فنجد دراسة عن إدارة السُّلْطَة بقلم أحد الموظفين (**محرر**)، تنطوي على قيمة خاصة، حول موضوع الضرائب والرسوم[17]. وعن القرن الرابع عشر، أخيراً، لدينا أيضاً مادة متعلقة بالطرق **الصوفية (السلاسل، الطرق)**، التي تتضمن، أحياناً، إشارات إلى أحداث سياسية معاصرة. لعل أبرز هذه المواد، لأغراضنا نحن، هي مجموعات سِير حَيَوات **شيوخ** الصوفية، **سِيَر الأولياء**، تأليف محمد بن مبارك كرماني (أمير خورد؛ متوفى سنة 770 هـ / 1368 ـ 1369م)؛ وكتاب أمير حسن دِهلوي بعنوان **فوائد الفؤاد**، الذي يتضمن خُطَب (ملفوظات) الشيخ التشيشتي المرموق، والمتنفذ نظام الدين أوليا (المتوفى سنة 725 هـ / 1325م)؛ و**خير المجالس** (حوالى 755 هـ / 1354م) لحميد قلندر، الذي يتضمن خُطَب الشيخ ناصر الدين محمد، الملقب بـ **تشيراغي دهلي** («مصباح دلهي»)[18].

ولدى الالتفات إلى مصادر من خارج الهند، لا بد من استبعاد ما يعرف باسم مراسلات (**مكاتبات**) رجل الدولة الإيلخاني، رشيد الدين، بوصفها مرجعاً معاصراً عن الشؤون الهندية: صحيح أن الكثير من الرسائل تعكس، بصورة غير قابلة للإنكار، قدراً غير قليل من الاطلاع على طبيعة الآلة الإدارية

---

(16) مَوْنُه مذكور في SFS، 154.

(17) يقول المؤلف إنه كان في الرابعة والأربعين عام 734 هـ، وإنه كان يبلغ 917 شهراً من العمر أي في عامه السابع والسبعين، لدى إنجازه الكتاب. يقال إن هذا حدث في 760 هـ: ملف 3 أ، 4 ب، أورده رشيد دون مساءلة، «دستور الألباب»، 59. غير أن التفاصيل تتناقض فيما بينها والتاريخ الصحيح هو 766 هـ.

(18) عن هذه وغيرها من الأعمال (المزورة غالباً)، انظر محمد حبيب، «سجلات تشيشتي الصوفية العائدة إلى فترة السلطنة، MIQ، 1 (1950م) رقم: 2، 1 ـ 42؛ نظامي، تاريخ . . . ومؤرخيها، 163 ـ 180.

في إيران، وعلى كُنْه التجارة الهندية، غير أنه من الصعب، على ما يبدو، تجنب استنتاج روبن لقي، الذي يقول إنها مستمدة من الهند نفسها، في القرن الخامس عشر[19]. ومع انطلاق الحقبة التُغْلُقية، لا تلبث البيانات المأخوذة من مصادر خارجية أن تصبح أكثر وفرة. فمعلومات وَصَّاف الأخيرة عن السلطنة، تعود إلى اعتلاء محمد بن تُغْلُق العرش[20]؛ غير أن فتح أبواب الهند المسْلِمة، خلال حكم محمد أمام التواصل الدبلوماسي مع أجزاء بعيدة من العالم الإسلامي، خصوصاً مع مصر المملوكية، ينعكس في **مسالك الأبصار** للعمري (المتوفى سنة 749 هـ / 1349م)، الذي تمكن من تجميع ملف حقيقي من المعلومات، عن الهند؛ كما في الملاحظات والتعليقات على محمد وإمبراطوريته الواردة في كتب التراجم ـ مثل **الوافي بالوفيات** و**أعيان العصر** ـ للصفدي (المتوفى 764 هـ / 1363م)، وتواريخ ابن أبي الفضائل (1340م) والشابانْكَرائي (738 هـ / 1337 ـ 1338م)[21]، وسيرة رحلات ابن بطوطة. ومن بين هذه جميعاً؛ فإن كتاب **تحفة النظار** (**الرحلة** ببساطة في الغالب) لابن بطوطة، الذي قضى عدداً من السنين في السلطنة، يقدم صورة عن الحياة في بلاط محمد، كما في الأقاليم الخاضعة لحكمه بين سنتي 734 هـ / 1333م وحوالي 748 هـ / 1347م، صورة نابضة بالحياة، لا تضاهيها أية صورة أخرى،

---

(19) ر. لقي، «رسائل رشيد الدين فضل الله»، JRAS (1946)، 74 ـ 78. انظر الآن أ. هـ. مورتون، «رسائل رشيد الدين: بين الواقع الإيلخاني والخيال التَمُري؟»، في آميتاي ـ برايس ومورغان، **الامبراطورية المغولية وتراثها** (قيد الطبع). ك. أ. نظامي، «رشيد الدين فضل الله كمبعوث إيلخاني إلى بلاط علاء الدين خلجي»، PIHC 29 (**باتيالا** 1967م) (باتنة، 1968، جزءان)، ١، 139 ـ 143، وفي **تاريخ**... ومؤرخوها، 99 ـ 104، يعترف ببعض المشكلات، ولكنه ميال للتسليم بصحة الرسائل.

(20) موضوع خطأ في 723 هـ / 1323 م. غير أن العام الجاري يظهر في إحدى النقاط وكأنه 727 هـ (وصّاف 607. أما تاريخ 718 هـ (المصدر نفسه، 608) فهو خطأ واضح والصحيح هو 728 هـ: بارتولد، **تركستان**، 49 هـ. 2.

(21) د. پ. ليتل، «الصفدي كاتب سير حياة معاصريه» في ليتل (محرراً)، **مقالات عن الحضارة الإسلامية قُدمت إلى نيازي بركس** (لايدن، 1976م) 190 ـ 210. سي. إ. بوزوورث وپ. جاكسون، «شابان قارا ـ ي»، Enc. Isl².

في باقي المراجع. أما محفوظات شيوخ جام في خراسان، وهي موجودة في **فرائدي غياثي** ليوسف بن محمد بن صاحب الجامعي (يوسفي أهل)، فتتضمن المراسلات الجارية مع حكومة دلهي، خلال عهدي كل من محمد وخَلَفه[22].

المراجع التي تخص الفترة من سنة 752 هـ / 1351م فصاعداً

لم يحتضن التنقيح الأول من كتاب **تاريخي فيروز ـ شاهي** لبرني، سوى أربع سنوات من عهد فيروز شاه، وقد تم إنجاز النص المحقق، بعد ذلك بسنتين اثنتين. يقال إن السلطان، حين رغب في الحصول على تاريخ لعهده، والتمس طلبات من مؤرخين مرشحين بعد وفاة برني في حوالي 762 هـ / 1360 ـ 1361م، لم يتقدم أحد بأي عرض، فاضطر لأن يبادر إلى تأليف قصته بنفسه؛ إنها القصة التي أمر بنقشها على قبة المسجد الجامع، **جامعي مسجد**، في عاصمته الجديدة، فيروز آباد[23]. غير أن ما يبعث على السرور، أن هذا العزوف عن المشروعات التأريخية لم يدم طويلاً، وعن عهد فيروزشاه (752 ـ 790 هـ / 1351 ـ 1388م) نستطيع الوصول إلى كنز من المراجع الأدبية. يتمثل فيما يمكن اعتباره تاريخاً «رسمياً» بنسخة منقوشة فيروزشاه المطولة، التي وصلتنا تحت عنوان **فتوحاتي فيروز ـ شاهي**[24]، و**سيرتي فيروز ـ شاهي** القائمة على المديح والإطراء، التي كُتبت للسلطان بُعَيْد سنة 772 هـ / 1370م من قبل مؤلف مغفل الاسم، قد يكون الشاعر مطهَّر[25]. أما كتاب **تاريخي فيروز ـ شاه**

---

(22) حول هذا العمل، انظر جان أوبان «خانات جغتاي وخراسان (1334 ـ 1380م)» **ترجيكا** 8 (1976م)، 20 هـ. 19؛ III, PL، الجزء: 2، 251 ـ 252 (428).

(23) عفيف، 176 ـ 177: حول زمن عودة السلطان من حملته الجاجناغارية التي كانت في شعبان 762 هـ / حزيران ـ تموز 1361م حسب SFS، 74، وفي رجب / أيار ـ حزيران حسب TMS، 130. هوديغالا **دراسات**، ا، 129، يحذر من اعتبار الأمر دليلاً دقيقاً على تاريخ وفاة برني.

(24) ك. أ. نظامي، «فتوحات ـ ي فيروز ـ شاهي منقوشاً وسيطاً»، في PSMI، 28 ـ 33 وفي كتابه **تاريخ... ومؤرخوها**، 205 ـ 210.

(25) كما جاء في ك. أ. نظامي، **ملحق تاريخ الهند لإيليوت ودوسون**، III (دلهي، 1981م)، 63.

الذي هو أكمل مرجع عن حكم الرجل، فلم يكتبه عفيفي حتى أوائل القرن الخامس عشر. لقد أراد عفيفي، المنتمي إلى الأسرة البيروقراطية التي خدمت العائلة التُغْلُقية، وكان هو نفسه يعمل في ديوان الوزارة، **ديواني وزارات**، أواسط ثمانينيات القرن الرابع عشر[26]، أن يجعل من سيرته عن حياة السلطان، ذيلاً ملحقاً بكتاب برني، المؤلف من **المقدمات** التسعين، التي كان المؤرخ، الأكبر سناً، قد أعلن اعتزامه كتابته، غير أنه لم يعش ليتمكن من إنجاز ما وعد به[27]. ومما يؤسف له، أن النص ناقص في آخره، كما نستنتج من فهرس المحتويات الذي زودنا به عفيفي نفسه. إن كلاً من سرهندي (838 هـ / 1434م) وبيهاماندخاني (842 هـ / 1438م) يقدم معلومات، عن عهد فيروزشاه، ليست موجودة في **تاريخ** عفيف؛ وما زالا مرجعينا الرئيسيين من ثمانينيات القرن الرابع عشر، فصاعداً. وتاريخ بيهاماندخاني الذي يحمل عنوان **تاريخي محمدي**[28]، والذي يعتمد حتى سنة 755 هـ / 1354م التنقيح الأول لكتاب برني، لا يلبث أن يصبح، عندئذ، مرجعاً أصيلاً؛ وعلى الرغم من أنه أقل تفصيلاً من عمل سرهندي، فقد تمتع بميزة أنه لم يؤلَّف في دلهي، بل في أمارة كالبي المستقلة حديثاً، بما مكّنه من تزويدنا بوجهة نظر مختلفة عن تلك التي اعتمدها المؤرخون السابقون.

من الطبيعي أن تكون التواريخ التيمورية قد غطت غزو تيمور للهند، بشيء من التفصيل. ولعل أكثر هذه التواريخ التصاقاً بالعصر، هو كتاب **روز ـ نامه ـ ي فتوحاتي هندوستان**، تأليف القاضي ناصر الدين عمر الذي رافق الفاتح

---

(26) عفيف، 487 ـ 488: السياق هو فضيحة شمس الدين أبورجا التي كانت في 785 هـ / 1383 ـ 1384م (المصدر نفسه، 497 ـ 498). عن أسلاف عفيف الذين خدموا التُغلُقيين، انظر المصدر نفسه، 37، 127، 130 ـ 131، 138، 145، 196، 197، 339.

(27) المصدر نفسه، 29 ـ 30؛ قارن TFS، 529 ـ 30، 602.

(28) انظر بيتر هاردي، «تاريخ ـ ي محمد ـ ي بقلم محمد بيهاماندخاني»، في غوبتا (محرراً)، **مقالات مقدمة إلى السير جادونات ساركار**، 181 ـ 190.

(الغازي). وقد أوجز كل من غياث الدين علي يزدي، الذي نجا كتابه: **روز ـ نامة ـ ي غزوتي هندوستان** من الضياع، ونظامي شامي، الذي أدخله في كتابه **ظَفَر نامه**، الذي هو سرد لقصة حياة تيمور العملية، أُنجز سنة 806 هـ / 1404 م. وقد أفاد شرف الدين علي يزدي، حين قرر كتابة مؤلَّفه الخاص **ظَفَر نامه** سنة 828 هـ / 1424 ـ 1425م[29]، من الكتابين كليهما (كما من نص ناصر الدين الأصلي ربما) على التوالي.

السلاطين الخَلْجيون

يصور برني، علاء الدين خَلْجي، جندياً غير متعلم، لا يملك وقتاً يخصصه لـ «علماء» الدين، غير أنه صاحب طموحات لا حدود لها، كان لا بد من إقناعه بالافتراق عن التأسيس لديانة خاصة به؛ وقد أدهشه أن سلطاناً كهذا، وضَعَ مقتضيات **السياسة الواقعية** فوق وصايا الشريعة، تمكَّن من تحقيق ما حققه من ازدهار باهر[30]. ومع ذلك، فإن التناقض بين علاء الدين، الذي فعل الشيء الكثير لغَرْس بذور الإسلام في الهند والسلطان المعاصر، محمد بن تُغْلُق الذي تولّىٰ في زمن الانهيار، بلغ أقصى حدوده الممكنة، بنظر عصامي[31]. وفي زمن زيارة ابن بطوطة لدلهي قبل بضع سنوات، كان المواطنون يترحَّمون، بوضوح، على حقبة علاء الدين، معتبرينه عصراً ذهبياً[32]. صحيح أن العهد كان مطبوعاً بصد الغزوات المغولية الهائلة من جهة، وبأشكال مثيرة من التقدم على حساب قوى هندوسية مستقلة في راجستان والجنوب، من جهة ثانية. لقد تم رفع قدرة السلطنة على تجنيد قوات عسكرية كبيرة وفعالة، إلى مستوى

---

(29) عن العلاقة بين هذه الأعمال، انظر جون إ. وودز، «صعود التاريخ التَمُري»، **مجلة دراسات الشرق الأدنى**، 46، الجزء: 2 (1987م)، 93 ـ 95.

(30) TFS، 261 ـ 266، 289. عن نظرة برني إلى السلاطين بصورة عامة، انظر هاردي، **مؤرخون**، 32 ـ 34.

(31) FS، 604، 605 ـ 606 (تر. 898، 900 ـ 901).

(32) III, IB، 184 (تر. حبيب، 640).

جديد، عن طريق اعتماد إصلاحات اقتصادية، أبقت الأسعار في العاصمة، متدنية. يقول برني عن هذه الإنجازات، إنها أشبه بالمعجزات[33]. غير أنه لا يهمل، أيضاً، إيراد، رأي الشيخ الصوفي بشير، الذي أشار إلى أن نظام علاء الدين، وهو نظام قام على اغتيال عم السلطان، حاملٌ لبذور عدم الاستقرار في صلبه[34]؛ وبرأي المؤرخ بالذات، فإن مصائر أبناء علاء الدين، لم تكن إلاّ عقوبة لجريمة اغتيال جلال الدين[35].

خلال مرض علاء الدين الأخير، وهو مرض سماه برني **استسقاءً**، تعرض وريثه، خفرخان، للاعتقال في غواليور، بتحريض من نائب السلطان، المملوك كافور، وما لبث أن سُملت عيناه، غداة وفاة والده، في السابع من شوال 715 هـ الرابع من كانون الثاني / يناير 1316م[36]؛ وقد لقي أخوه، شادي خان المصير ذاته. فكافور، الذي تركز هدفه، إذا كان برني جديراً بالتصديق، على تدمير العائلة الحاكمة الخَلْجية كلها[37]، مارس الحكم عبر ابنٍ طفلٍ لعلاء الدين، يدعى شهاب الدين عمر؛ غير أنه لم ينعم بالسلطة إلاّ لمدة خمسة وثلاثين يوماً، قبل تعرضه للاغتيال، على أيدي مُشاة، **بايكات** علاء الدين. جاء ابن آخر وأمسك بدفة الحكم، غير أنه ما لبث أن حل محل السلطان الطفل، بحجة أن أم الأخير حاولت دسّ السم له، وأصبح سلطاناً يحمل اسم قطب مبارك شاه (716 ـ 720 هـ / 1316 ـ 1320م). سنة 718 هـ / 1318م، خلال رحلة العودة من إحدى الحملات في دكّان، جرى إعدام أبناء عمومة قطب الدين، ذرية شقيق جلال الدين خاموس (يوغروس خان)، بعد اتهامهم

---

(33) TFS، 339.

(34) المصدر نفسه، 377 ـ 378.

(35) المصدر نفسه، 337.

(36) تاريخ وفاة علاء الدين الوارد في DR، 259 محدد في TMS، 81، على أنه السادس من شوال، وهو مساء ذلك اليوم في TFS، 369؛ أما FS، 344 (تر. 524)، فيقول إنه 11 شوال.

(37) TFS، 375.

بالتآمر على حياة السلطان[38]؛ جرى إعدام كل من خفرخان وشادي خان وعمر؛ أما الباقي من إخوتهم وأشقائهم، فقد تم إبعادهم إلى غواليور. وفي جمادي الثانية 720 هـ / تموز / يوليو 1320م، أقدم مملوك السلطان الأثير والمفضل، الغلام الهندي حسن، الملقب خسروخان، على تدبير عملية اغتياله، واعتلى العرش باسم ناصر الدين خسروشاه ـ العاهل الوحيد، الذي كان، في الحقيقة، هندياً اعتنق الدين الإسلامي في دلهي. كان جميع أبناء علاء الدين الناجين قد تعرضوا للذبح[39]. يبدو أن الأسرة الحاكمة الخَلْجية قد تم استئصالها. وحين بادر غازي ملك تُغْلُق، أحد كبار قادة علاء الدين، مُقْطَع ديوباليور، زاعماً أنه عازم على الانتقام لورثة سيده وولي نعمته، إلى الزحف على دلهي، وتمكن من الإطاحة بخسروشاه، لم يكن العثور على أي عضو من أعضاء العائلة الحاكمة يتولى العرش ممكناً»[40]. وبالتالي، فقد نودي على غاوي مالك، نفسه، حاكماً تحت اسم السلطان غياث الدين تُغْلُق شاه (720 هـ ـ 724 هـ / 1320 ـ 1324م)[41].

يقول برني، إن التناظر بين عهدي معز الدين كيقباد وقطب الدين مبارك شاه خَلْجي، كان مذهلاً بنظر البعض[42]. ففي الحالتين كلتيهما، ثمة حاكم شاب متهتك وطائش، جاء بعد سلطان متشدد مستبد، مما تمخض

---

(38) المصدر نفسه، 393، FS، 363 ـ 364 (تر. 562 ـ 563).

(39) DR، 273 ـ 285؛ **تُغلُق ـ نامه**، 23 ـ 24، 31 ـ 32، 47؛ TFS، مخطوطة بودليان، ملف 172 أ / ديغبي، مجموعة مخطوطات، ملف 146 ب (ليس في TFS، 408). وللاطلاع على رواية مفصلة نسبياً لقصة مصائرهم، كما باتت متداولة في دلهي بعد بضع سنوات، انظر III, IB، 189 ـ 190، 191 ـ 194 (تر. جيب، 643، 644 ـ 645)، الذي اعتقد، مع ذلك، أن جميع أشقاء قطب الدين قُتلوا خلال حياته.

(40) TFS، 421 ـ 422؛ وانظر أيضاً 237. **تغلُق ـ نامه**، 140 ـ 141، لا يؤكد في الحقيقة أن الأسرة الحاكمة الخلجية قد انطفأت.

(41) عن تاريخ وفاة تُغلُق، وهو يرد عادة على أنه 725 هـ / 1325م، انظر الملحق رقم: 5.

(42) TFS، 383، 387 ـ 388.

عن ارتخاء عام في قبضة السلطة، وعلى صعيد الأخلاق العامة. ومع ذلك، فإن قطب الدين أظهر نشاطاً عسكرياً أكبر من سلفه، إذ قاد حملة، ما لبثت أن أعادت فرض الحكم الإمبراطوري (السلطاني) على إقليم الدكّان في 718 هـ / 1318 م. ولبعض الوقت، على الأقل، كسب السلطان الشاب شعبية كبيرة، عبر إلغاء تدابير والده القمعية. غير أن أشياء كثيرة تبقى دون تفسير، كما أن برني يصر، بعناد، على أن يظل متناقضاً، وغير مطرد، كما هي عادته السيئة الدائمة. ليس واضحاً، على سبيل المثال، حتى بعد التساهل مع المبالغة، لماذا كان السلطان مستعداً لإرسال خسروشاه إلى مهمة طويلة، في أقصى الجنوب، إذا لم يكن قادراً على تحمل مفارقته، ولو لساعة واحدة؟[43] كما أن المؤرخين، لا يشيرون إلى السبب الذي دفع الأمراء الذين هددوا بإفشاء مخططات المفضل الغادرة والخيانية، الموجهة ضد السلطان، في أثناء تلك الحملة، إلى الاصطفاف تحت رايته ضد تُغْلُق، بعد بضع سنوات خصوصاً لأن ثورة الأخير، صورها كل من أمير خسرو وبرني، حرباً مقدسة (**جهاداً، غزواً**)[44].

لعل إحدى الإجابات عن هذه المسألة الثانية، تكمن في أن حكم ناصر الدين خسروشاه، كان أقل إثارة للاشمئزاز مما تحاول مصادرنا إقناعنا به. يبدو أن برني على حق، حين يزعم أن عبادة الأوثان كانت تُمارَس داخل القصر الملكي، ربما من جانب أنصار خسروشاه، أولئك ممن لم يكونوا قد اعتنقوا الإسلام بعد. أما كلامه عن أن خسروشاه ومعاونيه وقادته، كانوا يتعاملون مع القرآن، بكثير من عدم الاحترام الصارخ، ويضعون الأصنام في المساجد، فيكاد، بالمقابل، ألاّ يكون جديراً بالتصديق؛ ومما يلفت النظر، أن **التُغْلُق ـ**

---

(43) المصدر نفسه، 382.

(44) المصدر نفسه، 399 ـ 400، عن تهديد الجيوش **تُغلُق ـ نامه**، 62، 100؛ وTFS، 415 ـ 416، عن الحرب المقدسة (الجهاد).

نامه يتحدث عن عبادة الأوثان بعبارات أقل تحديداً، وأن قصة الأحداث التي سمعها ابن بطوطة، الذي يكتفي بذكر تحريم ذبح الأبقار، تبقى أقل تطرفاً إلى حدود معينة[45]. ومع ذلك، فإنه من الضروري، حتى في حال تعذر اعتبار نظام خسروشاه، معادياً للإسلام، بالمقابل، تفسير الإذعان الواسع، والسكوت على عملية اغتيال قطب الدين مبارك شاه. ربما كان اتخاذ قطب الدين لقب الخلافة، وهو أمر لا تذكره المراجع الأدبية، غير أنه من الممكن إرجاعه إلى سنة 727 هـ / 1317 ـ 1318م[46]، قد أدى إلى إثارة حفيظة الكثير من المسلمين، وترويعهم. وثمة تلميح ما، قد نجده أيضاً، في زعم برني القائل، بأن قطب الدين كان على علاقة سيئة مع الشيخ التشيشتي نظام الدين أَوْليا، نتيجة اغتيال خضرخان[47]. ونظراً لعلاقة السلطان المتدهورة مع الخاناقاه التشيشتي، فإنه من المعقول أن يكون الهندي الغر قد بدا، في نظر الشيخ والمتعاطفين معه، أفضل من الخَلْجي. وبالتالي، فإن قطب الدين، ربما استعدى الناس فصب الماء في طاحونه خسروخان وحِزْبه.

شيوخ ومؤرخون

كتب عصامي يقول: إن كلاً من السلاطين والملوك، كان تحت حماية أحد القديسين (الأولياء الصالحين)؛ وخطوة السماء الأولى، حين كانت تشاء

---

(45) المصدر نفسه، 410 ـ 411. **تُغلُق ـ نامه**، III, IB44 .، 200 (تر. ، حبيب 648). وللاطلاع على تقويم متوازن لعهد خسرو شاه، انظر لال، **تاريخ الخلجيين**، 313 ـ 316؛ أيضاً هاردي، «القوة والعنف»، 172.

(46) يطلق عليه الاسم المجرَّد: **قاسم أمير المؤمنين** في منقوش يحمل تاريخ الخامس من محرم 718 هـ / التاسع من آذار 1318 م: ز. أ. ديساي، «منقوش جالور عيدغاه عن قطب الدين مبارك شاه خلجي»، EIAPS (1972م)، 12 ـ 19. ولقب الخليفة موجود في نقوش مؤرخة في تواريخ لاحقة من ذلك العام: يزداني، «نقوش عن سلاطين دلهي الخلجيين»، 38 ـ 40؛ ز. أ. ديساي، «منقوشات خلجية وتُغلُقية من گوجرات»، EIAPS (1962م)، 4 ـ 5. غير أنه يظهر على القطع النقدية العائدة إلى عام 717 هـ: CMSD، 99 ـ 101. تتردد تسمية قطب الدين بالخليفة في US.

(47) TFS، 394.

تدمير أحد البلدان، كانت تتمثل برحيل القديس وهجره[48]. وهكذا، فإن رحيل نظام الدين عن العالم، جلب جملةَ الأهوال التي ابتليت بها دلهي، في فترة محمد بن تُغْلُق[49]، كما يمكن إرجاع الازدهار الذي عاشته دولت آباد، قبل التمرد على محمد منذ سنة 745 هـ / 1344م فصاعداً، إلى وجود شيخين اثنين هما: برهان الدين وزين الدين[50]. ثمة صوفيون من خراسان وُجدوا في الهند، منذ الحقبة الغورية، ونشأت طريقتان هما: السهروردية التي اتخذت مُلْتان قاعدة لها، والتشيشية التي كان مقرها القيادي في دلهي. كانت الطرق متباينة في مواقفها من الدولة: فبالنسبة إلى السهروردية، كان التحالف مع الأقوياء مسموحاً به؛ في حين كان شيوخ التشيشي يتجنبون الاتصال مع البلاط والأرستقراطية، ويرفضون الموارد والوظائف (**شغل**) الحكومية. لقد كانت العلاقات بين هذين الفريقين متناغمة، ومستندة إلى أساس من الاحترام المتبادل[51].

تبقى وجهة النظر التي عبَّر عنها عصامي سائدة وشائعة، خصوصاً، بطبيعة الحال، بين أولئك الذين قاموا بتسجيل خُطَب الشيوخ، وكتابة سِير القديسين مثل كرماني (أمير خورد)، الذي كان يعتبر وجودَ المسلمين في الهند، إحدى معجزات (كرامات) الشيخ التشيشي معين الدين[52]؛ أما أمير حسن دهلوي، فكان يعتقد بأن تدخل الشيخ قطب الدين بختيار كاكي[53]، هو الذي

---

(48) FS، 455 ـ 456 (تر. 687 ـ 688).

(49) المصدر نفسه، 456 ـ 457 (تر. 688 ـ 689).

(50) المصدر نفسه، 458 ـ 459، 461 ـ 462 (تر. 691 ـ 692، 696 ـ 697).

(51) ك. أ. نظامي، «أوائل الصوفيين المسلمين ـ الهنود وموقفهم من الدولة»، IC، 22 (1948م)، 388 ـ 392، 395 ـ 398، و23 (1949م)، 13 ـ 21. عزيز أحمد، «الصوفي والسلطان في الهند المسلمة فيما قبل الحقبة المغولية»، مجلة إسلام 38 (1962م)، 142 ـ 147. س. ديغبي، «الشيخ الصوفي مصدراً للسلطة في هند العصر الوسيط»، في غابوريو (محرراً)، **الإسلام والمجتمع**، 63 ـ 65.

(52) **سِيَر**، 47، وارد في ديغبي «الشيخ الصوفي مصدراً...»، 72.

(53) أمير حسن دهلاوي، **فوائد الفؤاد**، 185.

أنقذ مُلْتان من المغول، في عهد قوبتشا. غير أن مثل هذه المعتقدات كانت موجودة لدى كتاب آخرين، ممن كانت أنماط حياتهم ومصائرهم أقل ارتباطاً بالطرق (الصوفية). فقد آمن عفيف، بأن مزار قطب الدين منوّر، هو الذي حفظ هانسي، خلال غزو تيمور[54]. ومستذكراً طغيان علاء الدين خَلْجي واستبداده، لم يستطع برني أن يتصور سبباً آخر لاستمرار نجاح نظام السلطان، غير حقيقة كون نظام الدين أَوْليا، قد بارك عاصمته[55].

كان من شأن القوة الخارقة أو الطاقة الروحية (البَرَكة)، المتجسدة بالشيخ، أن تُعتبر قوة، أو طاقة أرضية، ومشكِّلة بؤرة سلطان ونفوذ (ولاية) منافسة لولاية السلطان[56]. ثمة نوادر كثيرة تُروى عن شيوخ، يقومون بإضفاء عباءة السيادة والسلطة، على هذا الأمير أو ذاك. ومن القصص الشائعة في أيام الجوزجاني، أن **الدراويش (الفقراء)**، هم الذين منحوا المُلْك، لكل من حسام الدين عوض وإلتُتْمش؛ وهناك حكايات مماثلة تُروى عن بلبان وعلاء الدين خَلْجي؛ ويورد عفيف ما لا يقل عن أربع قصص ظريفة، وُعد فيها فيروز شاه بالتاج من قبل الشيوخ، بمن فيهم نظام الدين أَوْليا[57]. وقد جرى إبراز إمكانية تحويل زاوية الشيخ (تكيّة أو مقر) إلى مركز للساخطين أيضاً، عبر قصة سيدي مولّه في عهد جلال الدين خَلْجي.

من شأن العلاقات بين القصر والحَوْزة الدينية (الخانقاه ـ التكية) ألاّ تكون متناغمة على الدوام، في ظل هذه الظروف[58]، وأحد أهم معايير تقويم حكم

---

(54) عفيف، 82: وقارن أيضاً 133، حيث يُعرف الأمر إلى **بركة** وريث منوّر.

(55) IFS، 324 ـ 325.

(56) ديغبي، «الشيخ الصوفي...»، 62 ـ 63؛ المصدر نفسه، «الشيخ الصوفي والسلطان: صراع على السلطة في هند العصر الوسيط»، **إيران** 28 (1990م)، 71 ـ 81.

(57) المصدر نفسه، 75 ـ 78. انظر أيضاً، **صعود الإسلام**، 82 ـ 86.

(58) نظامي، «المتصوفة المسلمون ـ الهنود»، IC 23 (1949م) 312 ـ 321؛ عن علاقات جيدة، المصدر نفسه، 165 ـ 170.

أي سلطان، بالنسبة إلى مؤرخينا، كان متمثلاً بأسلوب معاملته للأولياء الصالحين. وهنا، فإن علاء الدين، الذي أظهر قَدْراً متزايداً من التودد للشيخ نظام الدين أَوْليا خلال سنواته الأخيرة، أثبت، رغم أخطائه وخطاياه الكثيرة، أنه على جادة الصواب، بصورة نسبية[59]. غير أن حكم نجله قطب الدين مبارك شاه، ما لبث أن فَسَد جراء علاقاته المتدهورة مع نظام الدين. فحين بادر القديس (الشيخ الجليل) إلى شجب خضر خان الذي كان أحد تلاميذه (مريديه)، جاء رد السلطان مثقلاً بالاستخفاف والتهديد، ومصحوباً بالسعي إلى تمكين الشيخ زاده المهاجر شهاب الدين جامي والشيخ السهروردي ركن الدين المُلْتاني، من أن يصبحا منافسين له في دلهي[60]. لقد كان نظام الدين واسع النفوذ إلى الحدود القصوى: يحدثوننا عن وجود أعداد من النبلاء والأمراء بين تلاميذه (مريديه)[61]. فخلال فترة حكم ناصر الدين خسرو شاه القصيرة، تلقى نظام الدين هدايا وأُعطيات من المال من المغتصب، وأنفقها على الأعمال الخيرية، مما أدى إلى إكسابه عدواً جديداً تمثل بغياث الدين تُغْلُق شاه، حين حاول هذا السلطان استعادة المبالغ التي وزعها سَلَفُه[62]. استمر العداء بين الرجلين: يقال إن تُغْلُق كان يخطط للمزيد من التحرك ضد نظام الدين، خلال رحلة العودة من البنغال، قُبَيْل وفاته؛ على الرغم من أن أي مؤلف قبل سرهندي لم يورد نص التعليق الساخر للشيخ، الذي قال: **ديلي آزتو دور آست** («تبقى دلهي بعيدة بعض الشيء عن متناول يدك!»)[63].

لم يعش نظام الدين إلاّ أشهراً قليلة في عهد محمد بن تُغْلُق، الذي كانت

---

(59) TFS، 332.

(60) المصدر نفسه، 394، 396. عن علاقات قطب الدين الوثيقة بالشيخ زاده جامي، انظر III, IB، 294 (تر. جيب، 697)؛ أيضاً ديغبي، «الشيخ الصوفي مصدراً...»، 64.

(61) عفيف، 69، 445؛ وقارن أيضاً TFS، 396.

(62) عن إلغاء الهبات الممنوحة من الخزانة من قبل خسرو شاه، انظر المصدر نفسه، 439.

(63) TMS، 96 ـ 97: الملاحظة مزخرفة في مصادر لاحقة. للمزيد من التفصيل، انظر ديغبي، «الشيخ الصوفي والسلطان»، 72 ـ 74.

علاقاته مع الأخير، ودية للغاية: فقد قيل لابن بطوطة، إن محمداً حمل نعش الشيخ[64]. ويبدو أن صلاتهما قد ساهمت في توتر العلاقة بين تُغْلُق، وبين وريثه الشرعي. ومع ذلك، فإن علاقات السلطان الجديد الخاصة بالشيوخ، أثبتت أنها مثقلة بالمشكلات، حين حاول تجنيد مواهب شيوخ الصوفية لخدمة أغراض الدولة[65]. أدى هذا إلى خلق مشكلة بالنسبة إلى الطريقة السهروردية، التي لم تعترض، قط، على الانخراط في شؤون العالم: يبدو أن معز الدين، نجل الشيخ السهروردي علاء الدين أجودهاني، قد قبل بولاية گوجرات، دون تردد[66]. كذلك كانت علاقات السلطان مع أبناء وأحفاد الشيخ التشيشي حميد الدين في نغوار، ودية أيضاً[67]. غير أن سياسته كانت، بنظر أكثرية أتباع الطريقة التشيشية، مصدر أزمة كبرى. فابن بطوطة، يقوم بإعادة سرد السلسلة الطويلة من النوادر والقصص، التي تسلط الضوء على حقيقة مقاومة الشيوخ والعقوبات القاسية، التي عانوا منها نتيجة لذلك. لقد كانت النهاية البائسة لمحمد، بعيداً عن العاصمة، برأي أمير خورد، نتيجة أسلوبه في معاملة الأَولياء الصالحين، وعلى رأسهم **(خليفة)** نظام الدين، ناصر الدين **تشيراغي دهلي** (سراج أو مصباح دهلي)[68].

من غياث الدين إلى فيروزشاه

أثبت التُغْلُقيون (720 ـ 815 هـ / 1320 ـ 1412م) أنهم الأطول عمراً، بين

---

(64) III, IB، 211 (تر. جيب، 653 ـ 654)؛ انظر أيضاً MA، محرراً، جواسيس، 20 (تر. ألمانية، 46) تحقيق، فارق، 38 (تر. صدّيقي وأحمد، 45).

(65) III, Ib، 294 (تر. جيب، 697).

(66) TFS، 507، SFS 512، 20 ـ 21 (تر. باسو، في JBORS 23 [1937]، 98. سِيَر، 196.

(67) ك. أ. نظامي، «بعض الوثائق عن السلطان محمد بن تُغلُق» MIM 1 (1969م) 305 ـ 306، 307، 309 ـ 313.

(68) سِيَر، 245 ـ 246، ورد في ديغبي، «الشيخ الصوفي والسلطان»، 74. عن محمد والتشيشيّة، انظر عموماً نظامي، «متصوفة أوائل المسلمين ـ الهنود»، IC 24 (1950م)، 60 ـ 65.

سائر الأُسر الحاكمة التي حكمت السلطنة. فخلال فترة حكم تُغْلُق شاه الوجيزة، تم إخضاع البنغال، ثانية، لسيادة السلطان، وجرى ضم مملكة كاكاتيا الآرانغالية (التيلانغية؛ التلينغانية)، وأمكن فرض النفوذ الإسلامي على أجزاء كبيرة من مملكة باندیا المعْبَرية (نسبة إلى مَعْبَر). تبقى نظرة برني إلى غياث الدين، أحادية الجانب، بعض الشيء. فهو يفضل أن يتغافل عن علاقات السلطان المتوترة مع نظام الدين، ويكيل المديح لتُغْلُق، كونه حاكماً مسلماً نموذجياً من نواح كثيرة. لقد كان أشبه بالأب، بالنسبة إلى جنوده؛ كانت الأراضي الخاضعة لسلطته، تنعم بالعدل والأمن؛ كانت تَقْواه وأخلاقه الشخصية فوق النقد. يقال إن تُغْلُق أنجز ما كان علاء الدين قد فعله، ولكن دون إراقة دماء[69]. أمّا عندما يصل إلى وصف العقوبة في دلهي سنة 721 هـ / 1321 ـ 1322م، تلك العقوبة التي نزلت بأولئك الذين تمردوا، في أثناء الحملة في تيلانغ، فإن برني يتخلى عن تحفظه، فيكشف النقاب عن حقيقة أن أزواج وأطفال رؤوس الفتنة، قد قُتلوا[70]. ومع ذلك، فليس ثمة أي أثر للإدانة والشجب هنا، لممارسة كانت قد بدأت في ظل علاء الدين، وكان برني، عبر عن سخطه منها، بصورة صريحة واضحة[71].

لقي تُغْلُق حتفه حين انهار فوقه مبنى شيد حديثاً في أفغانبور. وعلى الرغم من أن برني لا يسوق أي اتهام محدد، فإن الشكوك التي تحوم حول احتمال قيام نجله البكر ووريثه المعين، محمد (أُلُغ خان) بتدبير الوفاة، راودت عصامي ومخبري الصفدي أيضاً، في حين يعزوها ابن بطوطة لمهارة ناظر المباني (**شحنة ـ ي عمارات**)، أحمد بن أياز، الذي كافأه محمد، بمنصب وزير[72]. من شأن الانتقال السَّلِس، الذي تم بعد موت تُغْلُق، أن يكون قد بدا

---

(69) TFS، 445.

(70) المصدر نفسه، 449.

(71) المصدر نفسه، 253.

(72) FS، 420 (تر. 633. الصَّفَدي، **الوافي**، III، 172، جزئية م. س. خان. «مصدر عربي غير مكتشف =

مؤكِّداً الانطباع، بأن حقبة جديدة من الاستقرار قد أشرقت، لأن محمداً كان، على ما يبدو، السلطانَ الأول المتمتع بخلافة سِلْمية. إن صورة السلطان، المنقولة من قبل كتاب أجانب، وكانت تحظى برعاية آلته الدعائية الخاصة، هي صورة مقاتل قوي في سبيل قضية الإسلام، انتصاراته غير مسبوقة، حيث زرع الرعب في قلوب المغول، خلافاً لحال أسلافه[73]. أما في الحقيقة، فإن عهد محمد بن تُغْلُق (724 ـ 752 هـ / 1324 ـ 1351م) كان متميزاً بحركات التمرد والكوارث. فعلى الرغم من أن عدداً من الثورات في سنوات 727 ـ 728 هـ / 1326 ـ 1328م، قد تم إخمادها، فإن السلطان أطلق مجموعة مختلفة من المشروعات الطموحة، التي كبدت نفقات كبيرة. وقد تضاعف تأثير إخفاقها جراء الطاعون والمجاعة. ثمة موجة أخرى من حركات التمرد والعصيان، ما لبثت أن باتت تشغل اهتمام محمد وأعوانه، من سنة 734 هـ / 1334م فصاعداً، وتمخضت عن فقدان معبر وتيلانغ والبنغال، في حين برزت قوة هندوسية جديدة على الساحة، منذ حوالى سنة 1336م في فيجاياناغارا. وعلى الرغم من أنه ضمن فترة راحة مؤقتة بعد 741 هـ / 1340م، ونجح في التماس منشور تولية من الخليفة العباسي في القاهرة سنة 744 هـ / 1343م، فإن سنواته الأخيرة كانت شاهداً على تمرد واسع النطاق، من قبل أعداد من الطبقة العسكرية، **الأميراني صدا** («أمراء المئة») في دكّان وگوجرات. صحيح أن عصاة گوجرات هُزموا، لكنّ زعيم المتمردين، حسن غانغو، مؤسس الأسرة الحاكمة الرحمانية، بادر، في ديوغير (دولت أباد)، سنة 748 هـ / 1347م، إلى تأسيس سلطنة مستقلة.

= عن تاريخ السلطان محمود بن تُغلُق»، IC 53 (1979م)، III, IB187 .، 212 ـ 215 (تر. جيب، 654 ـ 656.

(73) فتوحات الإسلام وانتشاره: شعبان قرائي، 87 ـ 88، 287؛ MA، محرراً، جواسيس، 29 (تر. ألمانية، 55)/ تحقيق فارق، 53 (تر. صدّيقي وأحمد، 54). المغول: MA، تحقيق ليخ، 40 (تر. ألمانية، 118). انظر نداء محمد بالذات الموجه إلى أعيان ونبلاء ما وراء النهر في FG، مخطوطة SK، فاتح 4012، ملف 456 ب.

وحين قضى نحبه، بالقرب من ثاتّا، في الحادي والعشرين من محرم 752 هـ / العشرين من آذار / مارس 1351م، لم يكن محمد يتمتع بأية سلطة إلى الجنوب من الڤيندايا.

كان محمد بن تُغْلُق مشكلة بالنسبة إلى المؤرخين: فحتى سرهندي، الذي لا يعرف معنى الخيال، قَطَع برنامجه الحولي للأحداث، ليحاول تفسير الأسباب الكامنة وراء إخفاق السلطان[74]. غير أننا لا نستطيع التسليم بجميع الاتهامات الموجهة إلى السلطان، في مراجعنا الرئيسية. نرى أنها تتقاطع حول عدد من العناوين؛ لعلها ترسم الصورة نفسها لشخصية محمد. فكل من برني وعصامي وابن بطوطة يعلق، مثلاً، على اهتمام السلطان بالفلسفة[75]؛ غير أن ذلك لا يعني، أنهم كانوا يفهمونها. لقد جادل البروفسور نظامي بصورة مقنعة، مؤكداً أن محمداً كان شديد التأثر بالعالم والفقيه الشامي ابن تيمية (المتوفى سنة 728 هـ / 1327م)، الذي لقي تلميذُه عبد العزيز أردبيلي، استقبالاً حاراً في بلاط محمد[76]. كان هدف ابن تيمية متركزاً على إعادة الحياة والنشاط إلى ما اعتبره مجتمعاً إسلامياً غارقاً في الانحطاط. ولتحقيق هذا الغرض، سعى إلى تشجيع **الاجتهاد** (التفسير الجديد للشريعة) من جهة، و**الجهاد** (الحرب المقدسة) من جهة ثانية، ورفض فكرة الفَصْل بين الدولة والدين، كما كانت تدعو الطريقة التشيشية مع آخرين. وبرأي نظامي، فإن وجهة نظر محمد، المشهودة والقائلة بأن «الدين والدولة توأمان»[77]، ومحاولاته الرامية إلى إقحام الصوفيين في خدمة الدولة، وتبنيه للقب **المجاهد في سبيل الله**، كانت جميعاً

---

(74) TMS، 113 ـ 115.

(75) TFS، 464 ـ FS465 .، 510 (تر. 759). IV, IB، 343 (تر. جيب وبكنغهام، 929). عن عداء برني للفلسفة، انظر FJ، 16، 168 ـ 169؛ تر. في و. ت. دي باري، **مصادر التراث الهندي** (نيويورك، 1958م)، 481 ـ 482.

(76) II, IB، 75 ـ 76، وIII، 252 ـ 253 (تر. جيب، 312 ـ 313، 676).

(77) سِيَر، 196.

من أعراض انتسابه إلى إيديولوجية ابن تيمية؛ غير أن أولئك الذين لم يكونوا مطّلعين على التيارات الفكرية السائدة في العالم الإسلامي الأوسع[78]، مثل برني وعصامي، أساؤوا فهم مواقفه.

يتحدث كل من برني وعصامي وابن بطوطة بصوت واحد، عن وَلَع محمد بفرض العقوبات القاسية[79]. غير أن برني وابن بطوطة، مثل مصادر معلومات العمري، متأثران، أيضاً، بكَرَمه وحرصه على أصول الدين[80]، في حين يبقى عصامي ـ وهو شاهد خصم يكتب لصالح عاهل منافس في سلطنة دكّان، الباهمانية المنفصلة ـ عازفاً عن قول أي شيء إيجابي عن الرجل، غداة حصول تغيُّر مزعوم في مزاج محمد، بعد انقضاء سنتين على تسلمه لزمام السلطة[81]. ليس محمد بن تُغلُق، بنظر عصامي، إلاّ مرتدّاً آثماً يتآمر مع الهندوس، مما يجعل رفض سلطته والإجهاز على حياته، أمرين مشروعين بالنسبة للمسلمين الملتزمين بأصول دينهم. فقيامه بتعليق خُطْبة الجمعة، انتظاراً لوصول شهادة التنصيب من الخليفة (في سياق أَوْرَدَه برني)، يتعرض للتشويه، باعتباره إلغاء لمتطلبات العبادة الإسلامية[82]. لا يأتي عصامي، بالطبع، على ذكر أي شيء عن الشهادة أو البراءة الصادرة عن الخلافة الإسلامية. ففي روايته لقصة التصدي الأول لقوات ناصر الدين إسماعيل موخ، المتمردة في الدكّان،

---

(78) ك. أ. نظامي، «تأثير ابن تيمية على جنوب آسيا»، JIS 1 (1990م)، 120 ـ 134.

(79) TFS، 459، FS460 .، 446، 468، 472 (تر. 675، 704، 708 ـ 709). III, Ib، 216، 295 ـ 316 (تر. جيب، 657، 695 ـ 708)، يوفر عدداً كبيراً من الأمثلة.

(80) سخاء محمد: TFS، 460 ـ 462؛ III, IB، 216، 217، 243 وبعدها (تر. جيب، 657، 658، 671 وبعدها)؛ MA، جواسيس، 21 ـ 25 (تر. ألمانية 47 ـ 51)/ تحقيق فارق، 41 ـ 47 (تر. صدّيقي وأحمد، 46 ـ 50). اهتمامه بالأصول: TFS، 459، 460؛ III, IB، 216، 286 ـ 288 (تر. جيب، 657. 693 ـ 694)؛ MA، جواسيس، 21، 25 ـ 26 (تر. 46 ـ 47، 51 ـ 52)/ تحقيق فارق، 38 ـ 41، 47 ـ 48 (تر. صدّيقي وأحمد، 45 ـ 46، 50 ـ 51).

(81) FS، 424 (تر. 650).

(82) المصدر نفسه، 515 (تر. 764 ـ 765)؛ انظر أيضاً: 451 ـ 452 (تر. 681 ـ 682)، حيث يقارن محمد سلبياً بالطاغية الملحمي الضحّاك. عن إيقاف الصلوات، انظر TFS، 492.

يجري تصوير العصاة على أنهم هم «المؤمنون» (**مؤمنان**) وجيش محمد على أنه عنصر الفوضى (الفتنة»[83].

أما موقف برني فنجده أكثر تعقيداً، حيث يَعْتبر محمداً «أعجوبة العصر»، الذي مَثَّل مزاوجة مذهلة، حقاً، لجملة من الصفات المتناقضة المطلوبة في أي حاكم: وخصوصاً لأنه أخفق في التمييز بين واجبات السلطان وواجبات النبي[84]. وتظهر أوجه الاختلاف بين صياغتي مؤلَّفه (كتابه) بأجلى صورها وأكثرها تناقضاً في تناولهما لعهده، وقد قام الدكتور هاردي، في مقارنة له بين الصياغتين، بلفت الأنظار إلى حقيقة، أن الثانية أكثر اتصافاً بالنزعة الأخلاقوية من حيث النبرة، وتضفي على السلطان قَدْراً أكبر من المسؤولية[85]. من الواضح أن برني، حين يهدي عملَه لخليفة محمد، وهو خادم أمين للسلطان الراحل، والذي ما لبث عهده هو الآخر، أن شهد، على أية حال، نوعاً من رد الفعل على تجاوزات محمد المتطرفة، يبدو شديد الحرص على النأي بنفسه عن النظام السابق. ويبدو أن حاجته لفعل ذلك، تنامت خلال الفترة الزمنية الفاصلة بين صياغتي **التاريخ**[86]. فأبشع سمات حكم محمد تمثلت، بنظر برني، بذبح المسلمين، ولا سيما تلك العقوبات القاسية، التي نزلت على رؤوس «العلماء» (رجال الدين) والمشايخ والسادة والصوفيين والدراويش (**القلندرية**) وأعضاء الأجهزة البيروقراطية المدنية والعسكرية[87]. غير أن برني، الذي بقي ملازماً لمحمد أكثر من سبع عشرة

---

(83) FS 535 (تر. 790)؛ انظر أيضاً 538 (تر. 793)، و520 (تر. 771) عن وصف بعض مؤيدي محمد واعتبارهم «أعداء لعقيدة النبي». وللاطلاع على التعارض بين المؤلفين، انظر نظامي، **عن تاريخ... ومؤرخيها**، 133 ـ 134؛ كونرمان، **كتابات هندية**، 112 ـ 123.

(84) TFS، 457، 460. انظر تعليقات هاردي **مؤرخون**، 37، و«الكتابة التاريخية الوعظية»، 49 ـ 51.

(85) المصدر نفسه، 51 ـ 57.

(86) اقتدار حسين صدّيقي، «أضواء جديدة على ضياء الدين برني: شيخ المؤرخين الهنود الفرس في العصر الوسيط»، IC 63 (1989)، 71 ـ 77.

(87) TFS، 460، 472، 497، عن المسلمين عموماً؛ 459، 465 ـ 466 عن «رجال الدين» (العلماء) والخ.

سنة، سميراً (**نديماً**)[88] له، كان هو نفسه متواطئاً في جملة هذه الجرائم. وبالتالي، فإننا نجده مضطراً للتعبير عن الندم، وتأنيب الضمير لامتناعه، جُبناً، عن رفع صوته احتجاجاً على سياسات السيد الراحل، أو عن تقديم النصح الصادق إلى محمد[89]. من الصعب، على أية حال، تقويم الفوائد التي جناها برني من توظيف كتابه **فتاواي جهانداري** كأداة انتقاد للسلطان الراحل. فالصورة التي يرسمها للطاغية يَزْدَجِرْد، مثلاً، تذكّرنا، من بعض (لا كل) النواحي، بمحمد[90].

رغم كل عيوبه، يؤدي **تاريخ** برني (الصياغة اللاحقة خصوصاً) وظيفة على مستوى أعلى من مؤلَّف عصامي. والهوة الفاصلة بين الرجلين تبرز، بجلاء، في معالجتهما لمسألة إيجاد عاصمة ثانية في دولت أباد، في إقليم الدكّان، ولمشروعات أخرى، مثل اعتماد ما عرف باسم النقد الرمزي، وحملة قراشيل غير الموفقة. يكرس عصامي، الذي كان جَدُّه قد توفي بُعَيْد الرحيل عن دلهي نحو الجنوب، في عملية الهجرة الأصلية، مجالاً واسعاً لمدى هول مشروع دولت أباد[91]. فهو يرى طغيان محمد واستبداده، عقاباً سماوياً نزل على مواطني دلهي، المستعدين للتساهل مع أشكال الهرطقة وصنوف **البدع** الدينية؛ إن وفاة (الولي الصالح) نظام الدين أَوْليا (725 هـ / 1325م) تحرم

---

(88) في TFS، مخطوطة بودليان، ملف 196 أ، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 163 ب، يعتبر نفسه **دار مياني ندماء**. TFS، 504، عن عدد السنوات؛ قارن أيضاً 466، 497، حيث يعتبر نفسه أحد المقرَّبين.

(89) المصدر نفسه، 466 ـ 467، 497، 517، عن صمته؛ انظر أيضاً تعليقات ع. حبيب، «نظرية برني»، 102.

(90) FJ، 264 ـ 266. يقوم يزدجرد برشوة أحد الغزاة للاستقالة، وما أشبهه بمحمد الذي تقول إحدى الروايات بأنه قام برشوة الخان الجغتائي تارماشيرين؛ وبعد ذلك يبادر، مثل محمد، برفع الخراج (ضريبة الأرض) بنسبة الخُمس والعُشْر (**ماكي بانجو وياكي باداه**) من أجل تجنيد جيش جديد. غير أن مصيره (حيث جرى تمزيقه إرباً على أيدي رعاياه الساخطين) ليس شبيهاً بمصير محمد.

(91) FS، 447 ـ 448 (تر. 677 ـ 678).

المدينة من الحماية، التي كانت قوته الروحية توفرها؛ أما العملية الرمزية (النقد الرمزي) وحَمْلة قراشيل، فتغدوان وسيلتين إضافيتين لتعذيب العاصمة، حين رأى محمد أن خروج عائلاتها النبيلة الرئيسية لم يكن كافياً لإحداث الشلل في مظاهر ازدهاردها[92]. ونحن هنا، نصادف صدى لقصص تتحدث عن حقد السلطان على أهالي العاصمة، كانت متداولة، لدى قيام ابن بطوطة بزيارة دلهي، بعد بضع سنوات[93]. أما الفكرة التي تقول بأن محمد بن تُغْلُق، مثل بعض أسلافه، كان ينظر إلى أهالي دلهي بعين الريبة والعداء، فليست غريبة، كما قد تبدو للوهلة الأولى، على الرغم من أن السبب الكامن وراء ذلك، يبقى لُغْزاً. أما فيما يخص الدافع الرئيسي، الكامن وراء تأسيس العاصمة الثانية، فإنه يبقى سبباً غير مقنع. ومما لا شك فيه، أن برني أكثر واقعية، في الإشارة إلى الموقع الجغرافي لدولت أباد، هذا الموقع، الذي جعلها مركزاً نموذجاً لسلطنة مترامية الأطراف، إلى حد كبير. إنها وجهة نظر نجدها أيضاً، في مصادر خارجية؛ على الرغم من أن سبباً آخر لقيام السلطان باختيار دولت أباد عاصمة كان، كما لاحظ روي، متمثلاً بالرغبة في غرس الإسلام، بقدر أكبر، من الثبات والضمان في إقليم الدكّان[94].

باختصار يبقى تحليل عهد محمد بن تُغْلُق، الوارد في **تاريخ** برني المنقح، أفضل ما لدينا، وهو يزوّدنا بإطار عملي معقول. من القابل للتصور أن

(92) المصدر نفسه، 424، 446، 454 ـ 456، 459 ـ 460، 466، 468 (تر. 650 ـ 651، 675 ـ 676، 686 ـ 689، 693، 702، 704). عن منظور عصامي، انظر أيضاً HN، 507.

(93) IB, III، 314 ـ 315 (تر. جيب، 707 ـ 708).

(94) TFS، 473 ـ 474؛ أيضاً TFS، مخطوطة بودليان، ملف 190 ب ـ 191 أ/ مجموعة مخطوطات ديغبي ملف 159 ب ـ 160 أ. الصَّفَدي، **الوافي**، III، 174 (تر. خان، 188)؛ انظر أيضاً الصَّفدي **أعيان العصر**، مخطوطة SK، آشيرافندي 588، ملف 2 أ. ن. ب. روي، «نقل العاصمة من دلهي إلى دولت آباد»، JIH، 20 (1941م)، 159 ـ 180 (خصوصاً 160 ـ 168).

جواً من الأَلَق طغى على السنوات الأول من الحكم، وأفضى إلى تضليل محمد، الذي كان يتمتع بالموقع القوي المتمثل بكونه الوريث المسمى الأول، الذي يخلف أباه سلطاناً لدلهي، ودفعه إلى التوهم بأنه قادر على كل شيء. فمنذ لحظة اعتلائه العرش، تقريباً، جرى إخضاع المساحات الواسعة التي باتت مدينة بالولاء، لتحكم أكثر تشدّداً مما في أيّ وقت آخر، أيام سابقيه[95]. يزعم برني أنه لو تسنّى له فَتْح العالم كله، لما تحمل أن تبقى أصغر الجزر أو الزوايا، خارج سلطته (وهي وجهة نظر تردد صدى خافت لها في حديث مخبر، عند العمري كان يعتقد أن الجزر وشريطاً ضيقاً على الشاطئ فقط، بقيت خارج دائرة نفوذ إمبراطورية محمد)[96]؛ من الواضح، بصورة لا تقبل الشك، أنه كان عازماً على فرض التجانس على ممتلكاته (على الأقاليم الخاضعة لسيطرته). غير أن ما يبعث على الأسف، هو أن حُلْمه ما لبث أن ثبتت استحالة تحقيقه. كما أن محاولاته الرامية إلى ترجمته على أرض الواقع، أفضت إلى ضياع أجزاء كبيرة، وذات شأن، من إمبراطوريته. ومع أن رؤى برني ليست، بالتالي، جديرة بالاستبعاد والرفض، بصورة مباشرة، فإن التأكيد في الصياغة الثانية، على الطابع الوهمي الحالم لمشروعات محمد، يبقى مفرطاً في التحيز، حين يصر على الإقلال من شأن الروابط التي كانت قائمة بينهما (انظر الفصل الثالث عشر).

لدى وفاة محمد سنة 652 هـ / 1351م، تمكن قادة الجيش وشخصيات قيادية أخرى حاضرة في السِّنْد، من السيطرة على ابن عم السلطان الراحل، **والأمير ـ الحاجب** عنده، فيروز بن رجب، وإقناعه بقبول العرش؛ فبعد أن عبر عن شيء من التردد والتمنع، اللذين لم يكونا متوقعين قط، أذعن لما هو مطلوب. لم يمر اعتلاء فيروز شاه للعرش دون تحديات وصعوبات. فمطالب

---

(95) TFS، 468، TMS469 .، 97 ـ 98.

(96) TFS، MA458 .، جواسيس، 5 (تر. ألمانية 23) تحقيق فارق، 11 (تر. صدّيقي وأحمد، 29).

ابن أخت العاهل الراحل، دوار ملك التي قدمتها أمه خوداوندزاده بنت تُغْلُق، ردها الأمراء بذريعة افتقار ابنها للخبرة[97]. وفي العاصمة، كان الوزير خواجا جهان أحمد بن أياز، قد نصَّبَ ابناً صغيراً مزعوماً لمحمد، سلطاناً، باسم غياث الدين محمد شاه[98]. وما إن تحرك فيروز شاه زاحفاً على دلهي، حتى التحق به عدد كبير من الأمراء والنبلاء، الذين كانوا قد تخلوا عن خواجا جاهان. ثم ما لبث الوزير نفسه، أن ظهر على المسرح ذليلاً يقدم آيات الولاء والخضوع. كان فيروز شاه ميالاً إلى الرأفة، غير أنه أذعن للضغوط الصادرة عن أمرائه، الذين أصروا على إسالة دم الوزير العجوز. فخواجا جاهان، الذي تم إبعاده إلى إقطاعه الجديد في سامانا، لحق به المُقْطَع الجديد شيرخان وأعدمه. ثمة عددٌ من زملائه أُعدموا[99]؛ غير أن مصير السلطان الطفل، الذي كان قد نصّبه على العرش، يبقى لُغْزاً.

وحول هذه القضية، تتباين المصادر. فكتاب **سيرتي فيروز ـ شاهي**، الذي يشير إلى عدد غير قليل من المؤامرات اللاحقة، المدبَّرة ضد فيروزشاه، بأكثر التعابير غموضاً، يكون أقل صراحة حول رد الفعل في دلهي، على نبأ موت محمد، عازفاً عن إيراد أي ذكر للسلطان الطفل، ومكتفياً بمجرد شجب خيانة الوزير[100]. لعل أكثر الروايات قدرة على الإقناع، هي تلك التي يقدمها عفيف. إن الوزير، الذي كان العُضْوَ الوحيد الموجود في دلهي، من الهيئة

---

(97) اتُهمت، مع زوجها خسرو ملك، فيما بعد بتدبير مؤامرة لاغتيال السلطان، وعوقبت: عفيف، 45، 100 ـ 104. عن أبوة داوار ملك والالتباس في المراجع بينه وبين خسرو ملك (الذي كان أباه بالتبني فعلاً)، انظر هوديغالا، **دراسات**، ا، 309 ـ 310.

(98) TMS، 120، هو المصدر الكتابي الوحيد الذي يعطي لقب العاهل الطفل، الذي يمكن الاطلاع على قطعه النقدية في CMSD، 154 (رقم 648 ـ 648 ب)؛ ج.غ. دلمريك، «ملاحظة عن قطعة نقدية ذهبية جديدة باسم محمود شاه بن محمد شاه بن تُغلُق شاه الدهلوي»، JASB، 43 (1874م)، 97 ـ 98.

(99) TFS، 534 ـ 547. عفيف، 57 ـ 58.

(100) SFS، 12 ـ 13 (تر. باسو، JBORS، 22 [1936]، 265 وبعدها). عن المكائد، انظر المصدر نفسه، 7 ـ 12(تر. باسو، 101 ـ 107)؛ أيضاً TFS، 552، عن محاولة لدس السم لفيروز شاه.

الثلاثية التي كان محمد قد شكلها لقيادة الحكم ورئاسة الحكومة، في أثناء غيابه، سمع تقارير تحدثت ليس، فقط، عن موت محمد، بل وعن موجة من الانتفاضات وحوادث الشغب، التي أدت إلى اختفاء كل من فيروز وتترخان. وبعد استكمال مراسم الحداد على كل من السلطان الراحل وفيروز، الذي كان شديد التعلق به، بادر الوزير إلى تنصيب ابنٍ طفلٍ لمحمد على العرش، وإلى توزيع الهدايا والهبات لتدعيم موقع الحاكم الطفل. ولم يعلم بقيام وحدات الجيش الموجودة في السند، برفع فيروز شاه إلى مرتبة سلطان، إلاّ بعد أن كان وقت التراجع قد فات[101]. يبدو أن عفيفاً يسلم بأن الصبي هو ابن السلطان الراحل حقيقة[102]، ويبادر، صراحة، إلى تحدي القصة التي كانت متداولة في أيامه ـ وقد أعاد برني، مثلاً، روايتها ـ تلك القصة التي زعمت أن الوزير قام باصطناع «ابن غير شرعي» **(ولد الزنا)** بعد الاطلاع على خبر اعتلاء فيروزشاه للعرش، وبادر إلى بعثرة الهبات والمنح، يميناً وشمالاً، ترقباً للصراع الوشيك على العرش[103]. من الجدير بالملاحظة، أن برني هو المؤلف الوحيد الذي يزعم أن محمداً كان قد عَيَّن فيروزشاه وريثاً له **(ولياً للعهد)**[104].

ليس تفسير هذه المفارقات أمراً سهلاً. إن الأساس الذي يستند إليه برني مثقل بالإشكاليات. معروف أنه عانى من الإهمال في ظل السلطان الجديد،

---

(101) عفيف، 50 ـ TMS53 .، 119 ـ 120، يقدم رواية مشابهة ولكنها أكثر إيجازاً.

(102) عفيف، 50، 60، 68، 396؛ قارن أيضاً 54، حيث رَأْيُ قادة الجيش في السند القائل بأن محمداً لم يكن أباً لابن يجري إيراده دون تعليق.

(103) TFS، 539؛ TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 212 أ، يطلق على الطفل اسم **غلام زاده**. TMS، 120، يعتبره «ذا نسب مجهول وسلالة غير موجودة» **(مجهول النسب ومفقود الحسب)**. الصَّفَدي، **الوافي**، III، 172 ـ 173 (تر. خان، 187)، سمع أن محمداً كان عاجزاً عن الإنجاب. إن هيغ، «خمسة أسئلة»، 365 ـ 372، وجامينى موهان بنرجي، **تاريخ فيروز شاه تُغلُق** (دلهي، 1967م)، 15 ـ 16، يسلّمان بأن الصبي ابنٌ حقيقي لمحمد، أما حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 387 ـ 388، وب. ي. ساكسينا، في HN، 569 ـ 571، فليسا مؤيدين.

(104) TFS، 532؛ قارن أيضاً، 539.

وأودع السجن لبعض الوقت، في قلعة بهاتنر[105]. تبقى الصياغة الأولى لكتابه أكثر صراحة، حول طرد خَدَم محمد وإعدامهم من قبل فيروزشاه؛ غير أن الطبعة المنقَّحة تحاول، بالمقابل، أن تعزف لحناً أكثر إيجابية، معارضة لين الحاكم بحمامات الدم، التي كان ضمان انتصار سلاطين دلهي السابقين، قد تطلَّبها[106]. وبالتالي، فإن أحد الأهداف الكامنة وراء إعادة صياغة كتاب **تاريخي فيروز ـ شاهي**، كان متمثلاً، على ما يبدو، بخطب مودة العاهل الجديد. أما عفيف الذي كتب بعد زمن غير قصير من موت فيروزشاه، فربما لم يكن يعاني من القَدْر نفسه من الضغط لإضفاء المشروعية على اعتلائه للعرش، على الرغم من أنه، حتى هو، يعيد رواية قصص وحكايات عن أن (أولياء صالحين) مرموقين، مثل الشيخين الصوفيين: نظام الدين أَوْليا وعلاء الدين أجودهاني تنبؤوا بسلطنة فيروزشاه، ويؤكد أن براءات الخلافة (الإسلامية) التي وصلت إلى فيروزشاه جاءت دون التماس، خلافاً للاعتراف الذي لم يحصل عليه محمد، إلاَّ بعد الطلب والرجاء[107].

كان برني، الذي أكمل الطبعة المنقحة لكتابه **تاريخي فيروز ـ شاهي** سنة 758 هـ / 1357م، في وضع يستطيع معه أن يقيّم سياسات فيروزشاه خلال سنوات حكمه القليلة، الأولى فقط. ومع ذلك، فإنه كان واثقاً من وقوفه على حقيقة تلك السياسات. لم يكن ثمة حاكم أكثر رأفة من فيروزشاه، منذ احتلال دلهي؛ وما من سلطان كان قد تجنب المذابح إلى المدى الذي فعله فيروزشاه، فيما يخص أعوان خواجا جهان[108]؛ باتت

---

(105) برني، **مفتي محمدي**، وارد في م. حبيب، «حياة وفكر ضياء الدين برني»، في م. حبيب وأ. يو. س. خان، **نظرية سلطنة دلهي السياسية** (دلهي، 1960م)، 162 (طُبع ثانية في نظامي، **السياسة والمجتمع**، II، 348 ـ 349). انظر أيضاً TFS، 125، 554، 557، وإشارات أخرى في PL ,I، 506. ع. حبيب «نظرية برني»، 102.

(106) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 217 أ؛ TFS، 547 ـ 552. صدّيقي، «أضواء جديدة»، 78 ـ 79.

(107) عفيف، 27 ـ 29، 273 ـ 274، 276.

(108) TFS، 548، 551 ـ 552.

عقوبات الحكام السابقين القاسية جزءاً من التاريخ؛ لم يعد للبصّاصين (الجواسيس) والمخبرين أي وجود[109]. بات الجند يمتعون برخاء غير مسبوق: صاروا قادرين على الإفادة من موارد قراهم، دون الاضطرار، حتى إلى الخدمة الميدانية[110]. وكذلك، فإن حرص السلطان الجديد على رخاء «الطبقة الدينية»، ذلك الحرص الذي يخصص له جزءاً كاملاً من عمله[111]، كان قد تجلى منذ البداية الأولى، في أثناء رحلته الطويلة، من تاتّا إلى دلهي. ففي سيويستان، كان قد أعاد لد «علماء» (رجال الدين) والشيوخ وغيرهم من الأعيان، جملة المعاشات والمرتبات والمزارع التي كان محمد قد صادرها (ربما في أثناء حركة قايشار التمردية) وأجرى الصدقات على الدراويش (الفقراء) وأبناء السبيل. وفي أوتشش، أعاد بناء الخانقاه (التكية ـ الملجأ) الخربة، العائدة للشيخ جمال الدين، كما أعاد لأحفاد الشيخ مزارعهم وبساتينهم، التي كان سلفه قد استردها لصالح الخالصة. تمت الاستجابة لمطالب أهالي مُلْتان، وجرى توزيع الهدايا والهبات على العائلات الفقيرة، العائدة للشيخ فريد الدين في آجودهان[112].

من بعض النواحي، يمكن اعتبار هذه الأمور، سياسات عاهل جديد، لم يكن صاحب حق مضمون في العرش، ومحتاج، بالتالي، لأن يشتري الدَّعم والتأييد. وقد أقدم السلطان، للسبب نفسه ـ تجنباً لتكرار حوادث الشغب التي كان سلفه قد ابتُلي بها ـ على تقديم التنازلات للنبلاء والطبقة العسكرية. ومما انطوى على ضرورة استثنائية بالنسبة إلى فيروزشاه هو القيام بترسيخ صورة مناقضة لصورة محمد؛ وبالفعل، فإن السياسات التي اتبعها تقول لنا أشياء كثيرةً، عن سياسات محمد، التي كانت قد أثارت كل ذلك القَدْر من السخط

(109) المصدر نفسه، 557، 572 ـ 574.

(110) المصدر نفسه، 553.

(111) المصدر نفسه، 558 ـ 561.

(112) المصدر نفسه، 537 ـ 539، 543.

والاستياء. ففي كتابه، **فتوحات** يكشف السلطان نفسه، بجلاء، عن جملة الميزات الإسلامية المتشدّدة، التي كان يرغب في أن يتذكره الناس بها: إلغاء العقوبات الفظيعة؛ شطب الضرائب غير القانونية؛ قمع الأشكال المنحرفة من الممارسات الإسلامية؛ هدم المعابد الهندوسية المشادة حديثاً؛ تشجيع اعتناق الإسلام بين صفوف السكان الهندوس؛ إقامة الجوامع والمدارس (الكتاتيب) الجديدة؛ إصلاح المنشآت المقامة من قبل سلاطين المسلمين السابقين؛ والرعاية المتواضعة (للأولياء الصالحين). ثمة هموم ومشاغل مماثلة ـ ولو مع إضافة الحرب المقدسة (الجهاد) ضد الكفار ـ نجد أصداءها مترددة في **السيرة** (سيرت)[113].

قد لا تكون مثل هذه المواقف منبثقة، بالضرورة، من التقوى وحدها. فكتاب **تاريخي فيروز ـ شاهي** لعفيف، يكشف النقاب عن أن فيروزشاه درج على عادة زيارة أضرحة الأولياء والسلاطين السابقين للصلاة، عشية جميع حملاته وغزواته، كما فعل، على سبيل المثال، قبل الزحف ضد ثاتا[114]؛ كما أن تردداته على الأضرحة والمزارات في السِّنْد، كانت مصممة، دون أدنى شك، لضمان الانتصار على كتلة خواجا جهان. يقال لنا فيما بعد، على أية حال، إن السلطان كان شديد الحرص على زيارة الأضرحة والمزارات، كلما خرج في رحلة على ظهر جواده[115]. يوحي عفيف بقوة، في الحقيقة، أن فيروزشاه استمر يعتبر نفسه متشدّداً في تقواه وورعه، وشديد الحرص على مصالح النخبة الدينية، خلال حكمه كله، حتى إلى حد حَلْق شعر رأسه على غرار أي تلميذ (**مرشد**) صوفي بعد وفاة وريثه فاتح خان سنة 778 هـ / 1376 م؛

(113) للاطلاع على تقويم مثير للسلطان، انظر خُرّم قادر، فيروز شاه (تُغلُق): دراسة لإحدى الشخصيات، JCA 9 (1986م)، رقم: 2، 17 ـ 39.

(114) عفيف، 194 ـ 196؛ وانظر أيضاً 230 ـ 231، 250.

(115) المصدر نفسه، 371.

وبعد ذلك مباشرة، جاء حَظْرُه لجميع الممارسات المتعارضة مع الشريعة، في الأقاليم الخاضعة لسيطرته[116].

أمّا على الصعيد العسكري، فإن عهد فيروزشاه لم يكن متميزاً. لقد اضطر لأن يذعن لفقدان الدكّان والجنوب، فضلاً عن أن حملاته القليلة في الشرق ـ على البنغال في 754 هـ / 1353م و760 هـ / 1359م، وعلى جاجنَغَر حوالي سنة 761 هـ / 1360م ـ لم تحقق إلاّ الشيء القليل. تمثلت نجاحاته اليتيمة بإخضاع حاكم ناغاركوت (كانغرا) الهندوسي سنة 766 هـ / 1364 ـ 1365م، واستسلام قوم الجام الثاني، بعد غزوتين (767 هـ / 1365 ـ 1366م). ثمة جزء كامل من **تاريخ** عفيف، جرى تخصيصه لتخلي السلطان عن الحملات البعيدة (فالأقاليم الأقرب منالاً، مثل مرتفعات السيرمور وكايتهر وإيتاوا، كانت لا تزال أهدافاً للإغارات)[117] وتركيزه على تسوية شؤون الدولة وحل مشكلاتها[118]. غير أن الأسباب المطروحة، متباينة. يقول لنا عفيف، أولاً، إن فيروزشاه، حين قام الوزير خان جهان (الأول) بحرفه عن اجتياح الدكّان، قطع وعداً بألاّ يقود جيشاً ضد إخوته في الدين، مرة أخرى[119]، وهو موقف يذكّرنا بموانع جلال الدين خَلْجي. ويقوم عفيف، في أماكن أخرى، بإيراد ما يبدو، أشبه بتفسير بديل، لعملية التخلي عن الجهود العسكرية: يقال إن فيروزشاه أقسم، في أثناء محاصرة ثاتّا، على الالتفات إلى شؤون أخرى، إذا تم له إخضاع المكان[120]. وفي منعطفات لاحقة أخرى، في سيرة حياته، يقال

(116) المصدر نفسه، 372، 373. يرد التاريخ على أن عام 777 هـ / 1376 م: المصدر نفسه، 379. غير أن موت فتح خان يؤرخ لاحقاً في صَفَر 776 هـ / حزيران ـ تموز 1376م، المصدر نفسه، 493 ـ 494، مع أن TMS، 131 ـ 132، يورد تاريخ 12 صفر 776 هـ / و23 تموز 1374 م.

(117) المصدر نفسه، 134 ـ 135، عفيف، 493، 497. التواريخ ليست متطابقة.

(118) المصدر نفسه، 261 ـ 267.

(119) المصدر نفسه، 266.

(120) المصدر نفسه، 216.

إن السلطان أقلع عن شن الحملات بعد وفاة خان جهان، المتمتع بقدر كبير من الكفاءة والثقة سنة 770 هـ / 1368 ـ 1369م (التي يجب أن تكون قد حصلت بُعَيْد انتهاء مشروع ثاتّا)[121]. وفي الحقيقة، فإن من شأن هذه المحاولات المتباينة لتفسير عزوف السلطان عن النشاط العسكري في سنواته الأخيرة، أن تشي بأن كَتَبَة سيرة حياته، ربما وجدوا المسألة مصدراً للإزعاج والحرج. فحين يتم التأكيد على أن انتصارات فيروزشاه دفعت الناس إلى نسيان الحرب، وإهمال العتاد والأسلحة، ثمة نوع من الغمز والتلميح، إلى أن حكومته عملت على تقويض قدرة السلطنة العسكرية[122].

يزعم عفيف، ومعه المؤلفان اللذان يغطيان العهد كله، أعني سرهندي وبيهاماندخاني، أن الحقبة كانت مطبوعة بالازدهار والعدل والرحمة والأمن. ثمة معمِّرون أكدوا لسرهندي، أنه لم يسبق أن كان هناك حاكم أعدل أو أرحم أو أكثر خوفاً من الله منه، منذ ناصر الدين محمود شاه[123]. وبرأي عفيف، فإن الرُّخْص والوفرة اللذين ميزا العهد، دفعا رعايا فيروزشاه إلى نسيان الرخاء الذي ساد، حتى في أيام علاء الدين؛ فضلاً عن أن الأسعار المتدنية تحققت، في ظل فيروزشاه، دون أي تدخل من جانب الحكومة، في حين أن علاء الدين كان قد فَرضَها بقوة المراسيم والقوانين[124]. ومع ذلك، فإن كلاً من بهامادخاني وسرهندي كان يكتب في زمن، لم تعد فيه السلطنة سوى ظل باهت لواقعها الغابر؛ أمّا عفيف، فقد أكمل سيرته، في أعقاب سنوات صراع الإخوة ممن

(121) المصدر نفسه، 399، 424. عن عام وفاة خان جهان الذي يتأرجح بين 770 هـ (المصدر نفسه، 345) و772 هـ (المصدر نفسه، 422، TMS، 131)، انظر هوديغالا، **دراسات**، 391، الذي يميل إلى تبني التاريخ الأبكر.

(122) عفيف، 23. انظر تعليقات إضافية من هاردي، «القوة والعنف»، 178.

(123) TMS، 140 ـ 141. عفيف، 94، 99 ـ 100، 178 ـ 180، 193، 456، 512. بيهاماندخاني، ملف 407 ب (تر. زكي، 4). انظر أيضاً الملاحظات في TFS، 553 ـ 554.

(124) عفيف، 293 ـ 294.

جاؤوا بعد فيروزشاه، ذلك الصراع الذي كان قد اندلع حتى قبل موته، في الثامن عشر من رمضان 790 هـ / العشرين من أيلول / سبتمبر 1388م، وبعد الزلزال الهائل الذي تمثل باستباحة تيمور لمدينة دلهي سنة 801 هـ / 1398م[125]. وبالتالي، فقد بات ممكناً أن تتمّ مناجاة فيروزشاه بعبارات تذكر بالنبي نفسه، مثل «**خاتم** سلاطين دلهي». ومما قد يثير قدراً أكبر من الدهشة، أن عفيفاً يقدم السلطان ولياً صالحاً؛ والقول بأن سقوط دلهي جاء بعد موته، بما ينطوي عليه من تلميح إلى أن وجوده فيها، كان قد حمى المدينة من التدمير، هو ترديد قوي لفكرة الطاقة الروحية (البَرَكة) الواردة في الأدبيات الصوفية، التي أتينا على ذكرها، من قبل[126]. وإذ قام برني بتقويم السنوات الأولى من العهد، على أساس خلفية نظام محمد، فإن أيام فيروزشاه ازدانت، بالنسبة إلى هؤلاء الكتاب اللاحقين، بألوان عصر ذهبي، بالمقارنة مع ما جاء بعدها[127].

(125) المصدر نفسه، 133، حيث تُعتبر الاستباحة حدثاً جديداً. غير أن حقيقة أن يشار، على الصفحة 314 ـ 315، إلى تَمُر على أنه «صاحب قران»، بدلاً من نعته بأوصاف سلبية، وفقاً لما هو مستحب في المراجع التَمُرية، تشير بأن عفيفاً كتب في ظل حكم السادة (الأسياد ـ السادات) (أي بعد سنة 1414م)، الذين كانوا يعترفون بالسيادة التَمُرية

(126) عفيف، 21 ـ 22، 28. ديغبي، «الشيخ الصوفي والسلطان»، 77، وهـ. 69. عن استعراض عام لمعالجة عفيف للسلطان، انظر هاردي، **مؤرخون**، 41 ـ 51.

(127) عفيف، 292 ـ 293. عن أهمية هجوم تَمُر بنظر عفيف، انظر هاردي، **مؤرخون**، 41 (وقارن أيضاً 55).

الفصل التاسع

الأرستقراطية الخَلْجية والتُغْلُقية

نشوء نخبة جديدة

رأينا من قَبْلُ كيف أن الأرستقراطية لم تكن، لدى اعتلاء علاء الدين خَلْجي للعرش، قد اختلفت كثيراً عن نظيرتها الغياثية. فالسلطان الجديد، لم يتحرك ضد الأرستقراطية القديمة التي كان قد ورثها عن عمه، ولم تنبثق طبقة أمراء ونبلاء مختلفة جوهرياً عن نظيرتها، في عهدي بلبان وكيقباد، إلاَّ بَعْدَ سنة أو اثنتين. يقسم برني عهد حكم علاء الدين إلى ثلاث مراحل: كانت أولاها، حقبة رجال وثيقي الارتباط بعملية وضع اليد على العرش؛ أما الشخصيات المهمة، في المرحلة الثانية، فقد بدت شخصيات بيروقراطية بأكثريتها؛ والمرحلة الثالثة، التي دامت أربعاً أو خمساً من السنوات، كانت خاضعة لهيمنة النفوذ الخبيث والمشؤوم للقائد المملوكي كافور، الذي ما لبث أن أصبح نائباً للملك، وتُجْمع المصادرُ، بالتالي، على إعطائه لقب: نائب الملك «ملك نائب»[1].

لم يكن الغموض الذي يلف أصول أعيان ونبلاء علاء الدين، إلاَّ أمراً متوقعاً. لقد كان بعض أعضاء النخبة الجديدة ذوي أصول خَلْجية، وبادر

(1) TFS، 336 ـ 337.

السلطان الجديد، حاذياً حذو سلفه، إلى ترقية الأقارب والأهل مثل أخيه آلماس بك، أُلُغ خان الحالي، الذي عُيّن **باربغاً (أمير ـ حاجب)** ومُنح إقطاع بهايانا؛ كما منح لاحقاً سنة 700 هـ / 1301م أراضي إقليمي رنثانبور وجهاين، المفتوحين حديثاً، إقطاعاً له[2]. أما سنجر، الملقب آلب خان، الذي خدم علاء الدين **(أمير مجلس)** [أميراً للمجالس]، فقد كان شقيق زوجه: يقول عصامي، في إحدى المناسبات، إن علاء الدين قد تولى تربيته منذ الطفولة. تولى شؤون مُلْتان لبعض الوقت، ثم ما لبث أن نقل إلى إقطاع گوجرات حوالى سنة 1310م[3]. ومن أبناء شقيق علاء الدين، أصبح سليمان شاه وكيلاً للدار **(وكيلي دار)**، وحصل على لقب إيكيت خان، فيما مُنح آخر، لقب قُطْلُغ خان[4]. وثمة ابن أخ، غير شقيق، يدعى هِزَبْر الدين يوسف، صار ظفر خان **وعارضاً** (حاجباً)[5].

كان الأميران الرئيسيان في السنوات الأولى من العهد، عدا أقارب السلطان، كلاهما ممن كانوا يؤلفون جزءاً من حاشية علاء الدين في قارا وأوَذ، قبل اعتلائه العرش. فعم برني، علاء الملك، عمل أولاً ياوراً (معاوناً) للسلطان الجديد، في قارا وأوَذ، ثم ما لبث أن استُدعي إلى دلهي، ليصبح كوتوالاً، خلفاً لملك الأمراء السابق، فخر الدين[6]. أمّا الآخر، ملك نصرت جاليساري، فقد حصل، لدى اعتلاء علاء الدين للعرش، على لقب نصرت خان؛ ثمة احتمال قوي بأنه كان ذا جذور متواضعة، مثله مثل الكثير من هؤلاء

---

(2) المصدر نفسه، 242، 272، 283.

(3) FS، 287، 288 (تر. 461، 463)، عن إقطاعاته؛ المصدر نفسه، 338 (تر. 519)، عن تربيته. ترد عبارة ح ر ب و ن جنباً إلى جنب مع اسم آلب خان في TMS، 71، وهي قراءة خاطئة لكلمة **خُسْر بورا** («ابن والد الزوج»)، الواردة في إحدى المخطوطات؛ إنها مستعملة أيضاً للدلالة عليه في TFS، 242.

(4) المصدر نفسه، FS273 .، 259، 279 (تر. 341، 453).

(5) TFS، 240، 242، 248، TMS، 71.

(6) TFS، 250، 257.

الأصحاب السابقين، دون شك[7]. لقد كان نُصرت خان، الذي لعب دوراً في تأمين مبالغ كبيرة للخزينة، عن طريق الإجهاز على الأرستقراطية الجلالية واستئصالها، أحد أكثر أمراء السلطان الجديد تمتعاً بالثقة، ومن اللافت للنظر، أن علاء الدين خالف أسلوب أَسْلافه، حين جعل نُصرت خان نائباً وكوتوالاً لدلهي، في الوقت نفسه. وفي السنة التالية، أصبح وزيراً، فتخلى عن منصب الكوتوال لعلاء الملك، وبعد ذلك حصل على إقطاع قارا[8].

شكل زوال جميع أعوان علاء الدين الذين شاركوا في اغتيال عمه من الوجود، في غضون سنوات قليلة، مصدراً لقناعة مقيتة بالنسبة إلى برني[9]. فظَفَر خان، الذي كان قد اضطلع بدور مميز في محاربة الغزاة المغول، سقط في المعركة حوالى سنة 1300م[10]. وإذا صدقنا المؤرخ، الذي يستخدم عمه أداة لإيصال النصائح إلى السلطان، فإن علاء الملك، كان ما يزال على قيد الحياة، حين شنّ قُطْلُغ قوتشا هجومه؛ غير أنه، ربما قضى نحبه، بُعَيْد ذلك. أما نُصرت خان، فقد هلك في أثناء حصار رنثانبور سنة 700 هـ / 1300 ـ 1301م[11]. ومن الممكن للمرء تخمين القِمم التي كان هذا الضابط المقدام، مؤهلاً لصعودها، لو بقي حياً. ثمة أعضاء من عائلته برزوا أيضاً: لقد قُتل أحد إخوته، ملك عز الدين، **أمير ـ حاجب** أُلُغ خان، على يد المسلمين الجدد من المغول، الذين تمردوا خلال حملة گوجرات؛ وثمة ابن أخ يدعى ملك فخر الدين قوتشو، نَجده، لاحقاً، حائزاً عل إقطاع قارا (ربما خلفاً لعمه) وآمراً لجيوش «الشرق والبنغال وتيرهوت» في 702 ـ 703 هـ / 1302 ـ 1303م، حين

---

(7) اقتدار حسين صديقي، «الارستقراطية في ظل السلاطين الخلجيين»، IC، 37 (1963م)، 59 ـ 60.

(8) TFS، 248، 249، 250، 272.

(9) المصدر نفسه، 236 ـ 237. كان منهم أيضاً ملك أصغري **ساري دواة دار** وملك جاونا **الدادبك**، اللذين لا نعرف عنهما إلاّ الشيء القليل عدا عن منصبيهما.

(10) المصدر نفسه، 253 ـ 254، 260 ـ FS261 .، 259، 262 ـ 267 (تر. 431، 434 ـ 440).

(11) TFS، 255 ـ 257، 266 ـ 272، عن علاء الملك؛ 272 عن نُصرت خان.

رافق **الداد بك** فخر الدين إلى جاونا، في الحملة الفاشلة على آرانغال[12]. غير أن التاريخ اللاحق لهذه العائلة الأستقراطية الناشئة، يبقى مجهولاً.

من المحتمل، بقوة، أن يكون بعض أقرباء السلطان قد خيّبوا أمله. سمع برني أن أُلُغ خان فارق الحياة، بصورة مفاجئة، في أثناء قيامه بالتخطيط لحملة طموح على الجنوب الأقصى: ينقل عصامي إشاعةً تقول، إنه مات مسموماً لمبالغته المفرطة في المسارعة إلى الرد على شائعات زائفة، تحدثت عن موت السلطان[13]. كان إكيت خان يتوق لتقليد نجاح عمه في الاستيلاء على العرش. ففي رحلة صيد بمنطقة تيلبات، الواقعة على الطريق إلى رنثانبور (حوالى سنة 1301م)، قام رجاله بإطلاق النار على علاء الدين، الذي نجا، وإن أصيب. وتحت تأثير تضليل حرس السلطان البايك (المشاة) الذين أوهموه بأن علاء الدين، قد مات حقاً، سارع إكيت خان إلى إعلان نفسه سلطاناً. ولكن الجيوش ما لبثت أن التفَّت حول علاء الدين، حين عاد إلى الظهور على المسرح، وقُتل إكيت خان في أثناء الهرب؛ كذلك فإن أخاه قُطْلُغ، قُتل هو الآخر[14]. وبعد وقت غير طويل، جرى إعدام اثنين من أبناء شقيقة علاء الدين هما: عمر خان ومنغوخان اللذين كانا صاحبي إقطاعي بداؤون وأوَدْ على التوالي، بتهمة التورط في مخططات تآمرية غادرة[15].

تبقى معلوماتنا عن الأمراء الذين كان علاء الدين يعتمد عليهم، خلال الجزء المركزي من عهده، ضئيلة نسبياً؛ غير أن القائمة التي يوردها برني تظهر بأن هؤلاء كانوا، بأكثريتهم، ينتمون إلى الجهاز البيروقراطي. منهم ملك حميد

---

(12) عز الدين، المصدر نفسه، 252. فخر الدين TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 113 أ؛ TFS، 300.

(13) TFS، 783، FS، 281 ـ 282 (تر. 456 ـ 457).

(14) TFS، 273 ـ FS276 .، 279 ـ 281 (تر. 453 ـ 455). ثمة رواية أكثر إيجازاً في IB ,III، 185 ـ 186 (تر. جيب، 641). للاطلاع على رواية مشوهة وصلت إيران المغولية، انظر قاشاني، 190 ـ 192.

(15) TFS، 277 ـ 278.

الدين، ابن عماد الملك خواجا علائي دبير، الذي ما لبث أن أصبح **نائب وكيلي دار**، وأخوه ملك عز الدين، الذي عُين سكرتيراً رئيسياً للإمبراطورية **(دبيري ممالك)**: يبدو أن صعود الأخوين، تزامن مع مؤامرة إكيت خان وحملة رنثانبور، بصورة تقريبة. ثمة شخصيات رئيسية أخرى مثل شرف قائني، **نائب الوزير**، الذي يعتبر صاحب فضل فَرْض نظام ضريبي موحد، على عدد غير مسبوق من الأقاليم (انظر الفصل الثاني عشر)؛ وعين الملك مُلْتاني، الذي كان قد بدأ حياته الوظيفية سكرتيراً **(دبيراً)** لأُلُغ خان؛ وخواجا ناصر الدين سراج الدين حاجي، الـ **نائب عارض ممالك**، الذي رافق كافور، فيما بعد، خلال حملاته الجنوبية[16]. على الرغم من أن صعود هؤلاء الرجال، ربما، كان ناجماً عن عزوف علاء الدين، المتنامي، عن الاعتماد على أقاربه، فإنه مرتبط أيضاً، كما يتجلى بوضوح، بإصلاحاته الإدارية والعسكرية التي مكنته من الاحتفاظ بجيوش استطاعت، أن تتصدى للخطر المغولي الهائل، من جهة، وأن تحتل عدداً من الولايات الهندوسية في راجستان ومملكة يادافا في إقليم الديوغير، من جهة ثانية، وأن تنهب الجنوب الأقصى، من جهة ثالثة.

وبما يتناسب تماماً مع سلطان اتسم عهْدُه بالكثير من المعارك مع الغزاة المغول، فإن علاقات علاء الدين مع الأمراء المغول، داخل الهند، لم تكن ميسورة وسلسة. يوحي برني بأن كثيرين منهم، أو جميعهم، فقدوا رواتبهم[17]. عددٌ معين من هؤلاء القادة المسلمين الجدد، رافقوا حملة گوجرات سنة 698 ـ 699 هـ / 1299 ـ 1300م، وتمردوا، حين حاول قادة السلطان حرمانهم من جزء مما نهبوه من غنائم. غير أن الثورة انهارت، وفر

(16) عن لائحة برني، انظر المصدر نفسه، 337. عن حميد الدين وأخيه انظر المصدر نفسه أيضاً، 274 ـ 275، 282. عن نشاطات شرف قايني، المصدر نفسه، 288 ـ 289؛ انظر أيضاً هوديغالا، **دراسات**، ا، 278. خواجا حاجّي: KF، 82، 85، حيث يرد لقبه الكامل؛ II, RI، 56 ـ 60؛ TFS، 326، 328، 333.

(17) المصدر نفسه، 334.

البعض إلى كارناديقا، ملك گوجرات الفاغهيلي، في حين لاذ آخرون برنثانبور. جاء انتقام علاء الدين، رهيباً، من أُسَرِهم في دلهي[18]. تمكَّن إكيت خان، في السنة التالية، من كسب تأييد بعض الفرسان، من المغول المسلمين الجدد من مرؤوسيه، في سعيه للاستيلاء على العرش؛ وقد بقي مصير هؤلاء مجهولاً[19]. ومرة أخرى، في وقت لاحق، خلال حملة كافور على المَعْبَر، خطط قائد مغولي يدعى آباتشي للغَدْر بقوات دلهي لصالح العدو، ولقتل كافور. غير أن المؤامرة أخفقت، وأمر السلطان بإعدام آباتشي في دلهي. وفي ردهم على ما حصل، بادر مغول العاصمة، الذين يقال إنهم كانوا يعدون أكثر من عشرة آلاف، إلى التآمر لاغتيال علاء الدين، واستبداله بمرشحهم الخاص، مما دفع السلطان إلى إصدار أمرٍ إلى مُقْطعيه قضى باعتقال جميع المغول في الإمبراطورية، وإعدامهم[20]. ربما كان علي بك وترتق الذي كان قائد القوات المغولية الغازية في 705 هـ / 1305م وقد جرى تجنيده لخدمة السلطان[21]، بين الضحايا.

يبدو أن المماليك الأتراك باتوا يلعبون دوراً محدوداً أكثر، بالمقارنة مع دورهم، في ظل السلاطين الشمسيين والغياثيين. يتضح من الأسماء أن عدداً قليلاً، فقط، من الأمراء ـ كان أبرزهم اختيار الدين تيمور، الذي نجده مُقْطَعاً لتشاندري وإيراتش في أحد المنقوشات العائدة إلى سنة 711 هـ / 1312م، تحت اسم «سلطاني» (أي مملوك السلطان الحاكم)، واختيار

---

(18) المصدر نفسه، 252، FS253 .، 253 ـ 255 (تر. 424 ـ 425).

(19) TFS، 273.

(20) FS، 296 ـ 297، 298 ـ 299 (تر. 470 ـ 471، 473 ـ 474). TFS، 334 ـ 336، جاعلاً العدد الإجمالي لمن تعرضوا للذبح عشرين إلى ثلاثين ألفاً. TMS، 75، يضع تاريخ الحدث في 697 هـ ومن الواضح أنه يخلط بينه وبين التمرد الحاصل في أثناء حملة گوجرات.

(21) KF، FS41 .، 305 (تر. 481 ـ 482).

الدين يغين، مقطع أوَذ ـ كانوا من الأتراك[22]. ربما كان السبب الكامن وراء التراجع الواضح، في عدد الأمراء من المماليك الأتراك، ذا جذور سياسية ـ عزوفاً من جانب علاء الدين عن تمكين الغلمان الأتراك، من احتلال المواقع الإدارية القوية التي سبق لهم أن كانوا يتمتعون بها في القرن الثالث عشر، وقد يكون أيضاً انعكاساً للتكاليف المتصاعدة لأمثال هؤلاء المماليك، لأن برني يشكو من أن أسعارهم قد ارتفعت ارتفاعاً فاحشاً، في أيامه[23]؛ على الرغم من أن هذا، لم يمنع سلطان المستقبل محمد بن تُغْلُق، من مراكمة أعداد من المماليك الأتراك أوائل عشرينيات القرن الرابع عشر.

ثمة احتمال قوي أن يكون الأفول النسبي لنجم الأمراء من المماليك الأتراك، مرتبطاً بصعود مجموعتين جديدتين نسمع عنهما للمرة الأولى، في الفترة المتوسطة من عهد علاء الدين. كان الأفغان قد خدموا بلبان وكيقباد، وباتوا، على ما يبدو، يشكلون بصورة منتظمة جزءاً من جيوش الثغور (الحاميات) في إقليم مُلْتان، حيث نجدهم تحت قيادة «الأمير الشهيد» محمد، وبإمرة كوشلوخان في السنوات الأولى من الحقبة التُغْلُقية[24]. أما الآن، فنجدهم، للمرة الأولى، وقد خرج من صفوفهم ضباط برتب عالية، مثل مالك اختيار الدين مال، الذي يورده برني في قائمة أمراء السلطان، ويصفه لاحقاً، على أنه أحد كبار مُلاَّك السلطان[25]. والفئة أو المجموعة الثانية، هي مجموعة الضباط من المماليك الهنود، عند علاء الدين. يزعم مصدر متأخر، أن علاء

---

(22) يجب تصحيح القراءات الواردة في TFS (241، ن ك ي ن، ج ب ا ر؛ 323 ب ك ت ن) وفق مخطوطة BL، ملف 125 ب ـ 126 أ، 160 ب. عن تَمُر، انظر أيضاً ديساي، «منقوش تشاندري».

(23) TFS، 314.

(24) TS، مخطوطة IOL الفارسية، 412، ملف Ib52 ,III .، 322 (تر. جيب، 712).

(25) TFS، 240 ـ 241، 448. انظر إ. ح. صدّيقي، «الأفغان وظهورهم في الهند كنخبة حاكمة خلال فترة سلطنة دلهي»، CAJ، 26 (1982م)، 252 وهـ. 45.

الدين كان يملك خمسين ألفاً من المماليك[26]، ممن تألفت غالبيتهم من الهنود. فالحملات الظافرة لقواته، ضد عدد من الممالك الهندوسية المستقلة، وفرت فرصاً أكبر، لامتلاك العبيد الهنود، النخبة، ونحن نصادف ترقية هؤلاء إلى مناصب رفيعة، للمرة الأولى، في عهد علاء الدين. لعل أول من تم ذكرهم هو شاهين، شخصية مغمورة، يعتبرها عصامي ابن السلطان بالتبني وسَلَف كافور كنائب. فبعد تعيينه قائداً لتشيتور عند احتلالها سنة 703 هـ / 1303م، لاذ بالفرار لاحقاً، غداة موت بلبان، والتحق بحاكم گوجرات المنفي[27]. وقد كان ملك دينار، الذي عمل لدى علاء الدين **شحنه ـ ي بيل**، هو الآخر، مملوكاً هندياً[28]. ثمة مملوك آخر يدعى مالك ناناك، ساعد في إنقاذ حياة علاء الدين، حين حاول ابن أخيه إكيت خان، الاستيلاء على العرش حوالي سنة 1301م، وكان **آخور بك** (آمر اصطبلات ومقطعاً مسؤولاً عن سامانا وسنّام مع حلول سنة 705 هـ / 1305م)، حين نجح في إلحاق الهزيمة بأحد الجيوش المغولية الغازية[29]. لم يكن الضباط من المماليك الهنود، من معتنقي الإسلام، بالضرورة: يشير أمير خسرو صراحة، إلى هذا الارتباط، بوصفه، تعبيراً عن انتصار أحد الكفار على كفار آخرين[30].

أمّا القائد المملوكي الأشهر لدى علاء الدين، فهو كافور، بطبيعة الحال؛ لقد كان هذا هندياً جرى انتزاعه من صاحبه كانبهايا (كامباي) خلال الغزوة الأولى، لگوجرات سنة 698 هـ / 1299 م. حصل الخصي كافور على لقب

---

(26) عفيف، 272.

(27) FS، 281 ـ 283 (تر. 456 ـ 457).

(28) TFS، 388 ـ 389.

(29) المصدر نفسه، 273، 320، KF323 .، 38 ـ 39، مؤكد أنه كان مملوكاً شخصياً (باندا ـ ي خاص). FS، 302 ـ 305 (تر. 479 ـ 481).

(30) DR، KF61 .، صدّيقي «الأرستقراطية في ظل السلاطين الخلجيين»، 60 هـ. 47. انظر أيضاً أمير خسرو **بقية نقية**، مخطوطة IOL الفارسية، 412، ملف 357 ب ـ 358 أ.

خازارديناري («ذو الألف من الدنانير») نسبة إلى الثمن الذي دفعه السلطان للحصول عليه[31]. ليس هناك أي وصف لحياته الوظيفية المبكرة في خدمة علاء الدين، غير أنه قاتل ضد المغول الغزاة، وكان يحمل رتبة **باربك**، مع حلول سنة 607 هـ / 1306 ـ 1307م، حين بات متمتعاً بثقة السلطان، إلى درجة أهّلَتْه لتولي قيادة الجيش الذي أعاد فرض الجزية على مملكة ياديف الديوغيرية[32]. كانت قاعدة كافور المعروفة، الأولى هي رابري، على اليمونه، التي كانت إقطاعاً له مع حلول سنة 709 هـ / 1309 ـ 1310م[33]؛ غير أنه ما لبث، مع اقتراب نهاية العهد، أن أصبح قائداً لديوغير، التي كانت قد أصبحت ملحقة بالسلطنة؛ أما تاريخ تعيينه نائباً، فمجهول.

خلال المرحلة الأخيرة من العهد، بدأ علاء الدين يفقد السيطرة: يعتبر برني تعيينه لحميد الدين مُلْتاني، وهو مرافق مخلص وحاجب أمين (كاليد ـ دار)، قاضياً لقضاة الإمبراطورية، أمراً ذا دلالة[34]. غير أن ملاحظات برني، المبعثرة هنا وهناك، توحي بأن السلطان كان قد فقد الثقة بأكثرية كبار مرؤوسيه، وخَدَمه. تزايدت مقاومته لقبول النصائح، محاولاً الإشراف شخصياً، على سَيْر جميع شؤون الدولة، مما دفعه، على ما يبدو، إلى الاستغناء عن منصب الوزير الذي بات، هو نَفْسُه، يؤدي مهامه. صحيح أن عدداً معيناً من كبار الضباط، من أمثال ملك قيران **والأمير شيكار** وملك قرانبك، كانوا لا يزالون يتمتعون بعطف علاء الدين، غير أنهم لم يكونوا أصحاب نفوذ، بل أشبه بالمراسلين. ثم تمّ استبعاد الكثير من الإداريين

(31) TFS، 251 ـ IB252 ,III ، . 187 (تر. جيب، 642)، يورده على أنه **الألفي**، دلالة مرة أخرى إلى الثمن الذي دُفع للحصول عليه. أما كونه خصياً (مجبوب) فيظهر من DR، ، 257، وTFS، 368. انظر عموماً س. ديغبي «كافور، ملك». Enc. Isl.[2] .

(32) KF، 65؛ عن إشارات أخرى إليه **كأمير حاجب**، انظر المصدر نفسه، 89، 114.

(33) TFS، 328، 333. يزداني، «منقوشات عن السلاطين الخلجيين»، 30.

(34) TFS، 352؛ قارن أيضاً 298.

المخضرمين وأصحاب المهارة والخبرة، وراح السلطان يعتمد، بدلاً من أولئك، على الذين ينعتهم برني بالمماليك الكسالى: **(غلمانباتشاغان)** والخصيان الحَمْقى. كذلك أراد السلطان تركيز السلطة بأيدي أفراد أسرته وعبيده، مما أدى إلى ترفيع وريثه المتهتك: خضرخان قبل الأوان، وإلى المبالغة في الاعتماد على كافور[35]. ومن حقيقة عزل الأخوين حميد الدين وعز الدين عن منصبيهما، وإعدام شرف قايني[36]، يبدو أن كافوراً صار يرى هؤلاء الضباط مصدر خطر، وأقنع علاء الدين بضرورة القيام بعملية تطهير.

كانت أشْهُر علاء الدين الأخيرة، المشوَّهة أساساً بالمرض، مثقلة بكابوس تنافسٍ مرير، بين نائب الملك كافور، وآلب خان، تنافس، تمخض، بنظر برني، عن تدمير النظام[37]. وقد كان آلب خان، بوصفه خال وريث السلطان خضرخان، محتفظاً ببعض النفوذ والسلطة، حتى الأيام الأخيرة من العهد، لأن السلطان، في محاولة صريحة منه لضمان الخلافة، زَوَّج إحدى بنات آلب خان لخضرخان، وأُخرى لابن أصغر سناً اسمه: شادي خان[38]. غير أن آلب خان وصهريه (زوجي ابنتيه) ما لبثوا، جميعاً، أن راحوا ضحية دسائس كافور. لاحظ النائب أن السلطان بدأ يمل من زوجه الرئيسية، شقيقة آلب خان وأم خضرخان، وبادر إلى العمل لتقويض نفوذ جماعة العائلة. ثم جلب علاء الدين لمباركة اغتيال آلب خان في القصر الملكي، وجرى إبعاد خضر خان من القصر إلى آمروها أولاً، وسجنه، بعد ذلك، في غواليور. تقول الرواية التي وصلت إيران إن خضرخان وأمه وآلب خان (خاله) كانوا قد دسوا

---

(35) المصدر نفسه، 334، 337 ـ 338، 367 ـ TFS²368 .، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف، 138 أ، يقول إن كافوراً عُيِّن وزيراً.

(36) المصدر نفسه، 337.

(37) المصدر نفسه، 368. عما يلي، انظر عموماً لال، **تاريخ الخلجيين**، 265 وما بعدها. تبقى المراجع الرئيسية، إضافة إلى TFS، 368 ـ 369، متمثلة بـ FS، 337 ـ 344 (تر. 517 ـ 524)، وTMS، 79 ـ 81.

(38) TFS، FS368 .، 336 (تر. 516).

السم لعلاء الدين، الذي تمكن، رغم ذلك، من إعدامهم جميعاً قبل وفاته؛ وهي رواية يؤيدها ابن بطوطة، الذي سمع أنهم تآمروا لاستبدال السلطان بابنه، إلى حدود معينة[39]. قد لا تكون القصة، بطبيعة الحال، أكثر من مادة دعائية نشرها كافور.

سارع السلطان المحتضر إلى تغيير الخلافة، لصالح ابن أصغر سناً، يدعى شهاب الدين عمر، كانت أمه ابنة راماديفا، ملك يادافا الديوغيري، ونصّبه كافور، أصولاً، بعد موت علاء الدين في 715 هـ / 1316م[40]. ثمة إغراء في رؤية حزب هندي مؤلف من مماليك يتصدرهم سلطان دمية، هو نفسه نصف هندي (ابن أم هندية)؛ غير أن الأدلة المتوافرة لا تسمح لنا بذلك. يبدو أن كافوراً كان متمتعاً بتعاون كمال الدين **غورغ** («الذئب»)، المتحدر من عائلة كابُلية[41]. فهذا الضابط، هو الذي أوفده لإخضاع گوجرات، حين ثارت الولاية إثر سماع أنباء موت آلب خان؛ ويؤكد سرهندي، أن كمال الدين كان شريكاً لكافور، حتى في اغتيال آلب خان[42]. وبالتالي، فإن الاحتمال الأقوى هو أن تكون المجموعتان، اللتان نحن بصددهما، لا تمثلان إلاّ «المؤسسة» القديمة، القائمة، ربما، على أشخاص ذوي أصول خلجية، وكتلة مؤلفة من قادمين جدد نسبياً، من أصول شديدة التباين، كانوا ينظرون إلى النائب، التماساً للترقية.

رغم نشاطات كافور المحمومة، نجا من الأمراء والملوك العلائيين، أعداد كافية لتوفير نوع من الاستمرارية. وكان من هؤلاء، ليس فقط، تيمور

---

(39) قاشاني، 193 ـ IB194 .، III، 187 (تر. جيب، 641 ـ 642).

(40) TFS، 374، مع قراءة رام دي وبدلاً من زاي دهـ، كما هو مقترح من هوديڤالا، **دراسات**، ا، 106، وموجود في مخطوطة BL، ملف 185 ب. يأتي FS، 343 (تر. 524) ليؤكد العلاقة.

(41) انظر ديساي، «منقوشة جالور إدغاه»، حيث يظهر على أنه محمود بن محمد بن عمر كابولي.

(42) TFS، 369 TMS، FS80 .، 340 ـ 341 (تر. 520 ـ 522) تتحدث عن كافور أيضاً وهو يوفد ديناراً لقمع متمردي گوجرات.

وتگين، بل واثنتان من الشخصيات المهمة ذات العلاقة الوثيقة بالفترة المتوسطة ـ ألاوهما خواجا حاجّي وعين الملك مُلْتاني، اللذان بقيا **عارضاً** (حاجباً) ووالياً لمالوا، على التوالي[43]. أما هوشانغ، وهو ابن كمال الدين «غورغ»، الذي قُتل في أثناء موت علاء الدين، وهو يحاول إخماد ثورة في گوجرات، فخلف أباه في إقطاع جالور[44]. أضفى قطب الدين مبارك شاه، لقب ظفر شاه، على ملك دينار، وأرسله ليحكم گوجرات[45]. ومن فضائل السلطان الشاب، أيضاً، أنه بادر لاحقاً إلى تعيين ذي الخبرة وصاحب النسب الرفيع وحيد الدين قريشي، والياً على گوجرات. لا يُعْرَف إلاّ الشيء القليل عن أقارب السلطان من ناحية الأم الذين خرج منهم محمد مولاي، ليصبح شيرخاناً[46].

لم تفض إزاحة كافور إلى وضع حد لنفوذ المماليك الهنود. بل نجد، على العكس من ذلك، أن العاهل الجديد بالغ، خلال عهد حكمه الوجيز الذي لم يدم سوى أربع سنوات (716 ـ 720 هـ / 1316 ـ 1320م)، في الاعتماد على مملوك هندي يدعى حسن، أُسِر خلال حملة ماولا في 705 هـ / 1305 م. وحسن هذا، الذي كان السلطان قد أخذه من **النائب خاص ـ حاجب** عنده، مالك شادي، والذي عمل، أولاً، عنصراً في فرقة الحرس (الپاسبان)، حصل على شرف الوزارة ولقب خسروخان[47]. ومثله مثل كافور، كان حسن طموحاً، وقد حاول التمرد، وهو على رأس حملة موجهة إلى الجنوب؛ غير أن السلطان المفتون به، رفض تصديق تقارير زملاء حسن عن مخططاته التآمرية، وأمر بمعاقبتهم[48]. ما لبث خسروخان أن اغتال سيده وولي نعمته (720 هـ /

---

(43) NS، 100، TFS112 .، 379، 388.

(44) كمال الدين؛ المصدر نفسه، 369، 388. هوشانغ: المصدر نفسه، 379 ـ 380؛ **تُغلُق ـ نامه**، 57، 65.

(45) TFS، 381، 388 ـ 389؛ وقارن أيضاً FS379 .، 360 (تر. 558).

(46) TFS، 381.

(47) المصدر نفسه، TMS، 82 ـ 83، عن خسروخان **كباسبان**؛ أيضاً 86.

(48) TFS، 399 ـ 400.

1320م) وأصبح هو نفسه سلطاناً. أما ما مكنه من فعل ذلك، فهو أن قطب الدين كان قد سمح له بمراكمة حاشية شخصية من مقاتلي البارواري القادمين من مسقط رأسه، في إقليم بهيلمال وگوجرات، الذين ما لبث أن أدخلهم إلى قصر هزارسوتون[49]. (القصر ذو الأعمدة الألف).

الانقلاب التُغْلُقي وجوقة المستفيدين

تشكل أصول تُغْلُق، الذي كان قد خدم علاء الدين لسنوات كثيرة مُقْطَعاً لدَيْبلْپور، مسألة خلافية[50]. ليس ثمة أي مصدر آخر، يؤيد تأكيد بعض المؤلفين المعاصرين القريبين، الذين كتبوا في الإمبراطورية المملوكية، على أنه كان مملوكاً[51]. كذلك نستطيع، فيما أرى، أن نستبعد جملة التفاصيل التي حصل عليها فرشتا في لاهور، بعدما يزيد عن ثلاثة قرون، أعني تلك التفاصيل التي تقول إن والد تُغْلُق، الحامل للاسم نفسه أيضاً، كان مملوكاً عند بلبان، الذي كان قد تزوج امرأة من الجات. وابن بطوطة، الذي وصل إلى دلهي في غضون عشر سنوات من وفاة تُغْلُق، سمع أن السلطان الراحل كان أحد الأتراك المعروفين باسم القاراؤونا، الذين كانوا يقيمون في المناطق الممتدة بين السِّنْد وتركستان (أي النغودريين)، وكان قد وصل إلى الهند، خلال عهد علاء الدين. يبدو أن عفيفاً قد سمع القصة

(49) المصدر نفسه، 402؛ انظر أيضاً هوديفالا، **دراسات**، ا، 288. كان شقيق خسروخان، حسن قد حاول جمع قوم البارواري خلال زيارة قصيرة لگوجرات والياً عليها: TFS، 396 ـ TFS397 .، مخطوطة بودليان، ملف 173 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 147 ب، يوحي بأن البارواري جاؤوا من جالور كما من گوجرات. انظر س. س. شارما، «ناصر الدين خسرو شاه» في **ماهاما هوبادهايايا: البروفسور د. ف. بوتدار... كتاب تذكاري** (بونا، 1950)، 70 ـ 81، عن هذه الجماعة القتالية.

(50) عمّا يلي، انظر ر. سي. جوهري، «غياث الدين تُغلُق ـ اسمه الأصلي ونسبه»، في هورست كروغر (محرراً)، **كونوار محمد أشرف: باحث وثوري هندي، 1905 ـ 1962م** (برلين، 1966)، 62 ـ 66.

(51) ابن أبي الفضائل، تحقيق كورتانتامر، 27 (تر. ألمانية 104). الصفدي، **الوافي**، III، 172 (تر. خان، 187).

عينها، بعد عدد من العقود، لأنه بالمثل يعتبر تُغْلُق وأخويه، أناساً قادمين من خراسان أيام علاء الدين. إلاّ أن البيان الأول الذي نملكه ـ والأكثر جدارة بالثقة ـ هو ذلك الوارد في كتاب أمير خسرو الذي يحمل عنوان، **تُغْلُق نامه**، الذي جرى تأليفه على شرف اعتلاء تُغْلُق للعرش في 720 هـ / 1320 م. وغداة الإطاحة بناصر الدين خسرو شاه، يجعل خسرو تُغْلُق يعلن أمام النبلاء والأعيان المجتمعين، عن أنه كان «بدوياً» (أواره مردي) وقد جاء في عهد جلال الدين خَلْجي. وهذا يوحي بأن تُغْلُق كان، في الحقيقة، من أصول مغولية أو تركية ـ مغولية، كما زعم مخبر ابن بطوطة؛ ربما كان أحد أتباع الزعيم المغولي ألوغو، الذي التحق بخدمة جلال الدين سنة 691 هـ / 1292م واستقر قرب دلهي.

يجب أن يكون مستوى الدعم الذي لقيه تُغْلُق، في صعوده، قد أثار سخطه وخَيَّب أملَه. فعصامي، الذي يزعم أن عدداً كبيراً من الأمراء والملاّك العلائيين والقطبيين، التحقوا بركبه في أثناء مسيرته إلى دلهي[52]، لا يورد أي أسماء. وفيما عدا بهرمي آيبا، مُقْطَع أوتشش، الذي ربما كان أبوه أحد ندماء (نديمان)[53] السلطان علاء الدين، لم يبادر أي وال أو حاكم، فيما نعلم، إلى الوقوف في صفه. ومن الأمراء الذين كانوا جيرانه، حاول ياكلاخي في سامانا، وهو هندي، أن يتحرك ضد تُغْلُق، ولكنه رُدّ على أعقابه وما لبث أن قُتل على يد شعبه بالذات. لقي أمير مُلْتان، المدعو موغالتاي، الذي كان قد أعلن الولاء لخسروشاه، هو الآخر، المصير ذاته. أمّا محمد شاه لور في سيويستان فقد أجبره عناصر من المدينة على تأييد تُغْلُق، ولكن بعد فوات الأوان. وبعيداً، في

---

(52) FS، 381 (تر. 584).

(53) ركن الدين آيبا: TFS، 358. يتضح أن آيبا كان اسم والد بهرم من FS، 388 (تر. 593).

العمق، لم يكن مالك هوشانغ في جالور مستعداً للالتزام، كما أن عين الملك ملتاني لم يلتحق بركب خسروشاه، إلاّ ليهجره عشية المعركة ولينسحب إلى إقطاعه في دهار وأوجاين بإقليم مالوا[54]. كان أنصار تُغْلُق من الأقارب والأهل، مثل نجله ملك جاونا (السلطان محمد مستقبلاً)، وصهْرٌ يدعى ملك شادي، واثنين من أبناء الأخوة هما: أَسَد الدين أرسلان وبهاء الدين غارشاسب؛ أو من المرؤوسين والأتباع مثل يوسف، نائب تُغْلُق في دَيْبلْپور، وعلي ـ ي حيدر[55]. أما فيما عدا ذلك، فإن جيشه كان مؤلفاً من الغرباء. وما يقوله أمير خسرو عنهم ـ «إنهم من المرتفعات بأكثريتهم (إقليمي بالا)، لا هم من الهنود ولا من زعماء الهنود (هندو ـ والا): إنهم من الغُز الخالصين»[56] ـ ليس أكثر من مَكْرٍ لا قيمة له. إنه يتجاهل الخوخار، بقيادة زعيمهم ساماج راي، وغول تشاند، اللذين يعتبرهما، عصامي، صاحبي فضل كبير في الانتصار في سارساتي[57]، ولكن ظهورهما بجانب تُغْلُق، كان صعبَ التوفيق مع خطاب الحرب المقدسة (الجهاد). كان انتماء تُغْلُق، بعبارة أخرى، إقليمياً مميزاً؛ فأعوانه كانوا قادة، قاتلوا معه جنباً إلى جنب، على الجبهة المغولية، بل وكانوا، أحياناً، مرتَدّين مغول، أو أمراء حرب هندوس، من جيرانه القريبين، في البنجاب الغربي.

كان أنصار تُغْلُق أقل شأناً بصورة عامة من خصومه. كانت النواة مؤلفة، بالطبع، من الباراواري بزعامة راندهاول، خال خسروشاه. غير أنه

---

(54) انظر حسين، **الأسرة الحاكمة التغلُقية**، 38 ـ 41. يظهر محمد شاه نور بين أمراء عهد علاء الدين؛ TFS، 240. عن انتماء ياكلاخي الهندي، انظر **تُغلُق ـ نامه**، 68.

(55) المصدر نفسه، FS95 .، 380، 382، 383 (تر. 582، 585، 586).

(56) **تُغلُق ـ نامه**، 84.

(57) FS، 378، 379 ـ 380، 384، 385 (تر. 580، 582 ـ 583، 585، 588 ـ 589). عن الـ س هـ. ج في النسخة المطبوعة، تعتمد مخطوطة IOL الفارسية 3089، ملف 208 ب، عبارة سم ج ر ا ي.

بين القادة الذين أرسلهم خسروشاه لكبح المتمردين، كان تيمور، مقطع تشاندري، **أمير شيكار قُطْلُغ**، وطولابوغا بوغدا[58]. وما أن تمكن تُغْلُق من الوصول إلى دلهي، حتى لاقاه خسروشاه على رأس قوات، ضمت فيمن ضمت، كلاً من طولابوغا بوغدا، وطولابوغا نغواري، وتگين مُقْطَع أوَذ، واختيار الدين سنبل، **الأمير الحاجب**، وكافور حامل الأختام (المهردار)، وقابول مراقب السوق (**شحنة ـ ي ماندا**)[59]. ما من أحد من هؤلاء الأمراء كان حديث نعمة، مديناً بفضل ترقيته للمغتصب؛ فالجميع كانوا يحتلون مناصب رفيعة في ظل قطب الدين مبارك شاه والكثير ـ مثل تيمور وتگين وقُطْلُغ وقابول ـ كانوا قد خدموا أباه علاء الدين، قبله. إن دعماً بهذا المستوى، يدحض وجهة النظر المألوفة، التي تقول إن خسروشاه كان كافراً مكروهاً على نطاق واسع، في حين كان منافسُه، البطل الذي انتقم لأسرة الخَلْجي وأنقذ الإسلام.

شاعراً، ربما، بالدعم المحدود نسبياً الذي كان يتمتع به، أبدى غياث الدين تُغْلُق، بعد اعتلائه العرش، حرصاً ملحوظاً على اجتذاب المُلاّك (الأمراء) العلائيين وضمان رضاهم، عن طريق إغراقهم بالمناصب والإقطاعات[60]. تم الاحتفاظ بخواجا حاجّي **عارضاً** (حاجباً) وبقي عين الملك مُلْتاني محافظاً لمالوا، رغم أن، أياً منهما، لم يعش بعد تُغْلُق، على ما يبدو (يجب تمييز عين الملك هذا عن ابن مهرو الذي حمل اللقب نفسه فيما بعد: انظر الملحق رقم: 4). غير أن التحالف مع الكثير من زملاء السلطان السابقين، لم يكن، على ما يبدو، سهلاً. ما لبث التوتر أن برز على السطح في 721 هـ / 1321 ـ 1322م، حين انتدب تُغْلُق عدداً من أمراء النظام

---

(58) **تُغلُق ـ نامه**، 101، FS102 .، 379 ـ 380 (تر. 582 ـ 583).

(59) **تُغلُق ـ نامه**، FS118 .، 382 ـ 383، 386 (تر. 585، 586، 589 ـ 590). TFS، 420.

(60) المصدر نفسه، TMS. 426، 92.

القديم، جنباً إلى جنب، مع آخرين من صنعه هو، لمرافقة ابنه ووريثه، الذي بات يحمل لقب أُلُغ خان، إلى آرانغال. فنتيجة لدسيسة كان على رأس مدبريها شاعرٌ في خدمة أُلُغ خان، يدعى عُبَيْد، دسيسة لا تجهد المصادر لتسليط الأضواء عليها، ثم، وبسهولة، إقناع كل من تيمور وتگين وكافور (الذي كان قد أبدل منصب **حامل الأختام (المهردار)** بوظيفة وكيل الدار **(وكيلي دار)**) بأن أُلُغ خان كان عازماً على الاستغناء عنهم، فانشقوا وتمردوا مع فصائلهم ووحداتهم، معرضين الحملة كلها لأفدح الأخطار. نجا أُلُغ خان بنفسه، وتم إرسال جيوشه لمحاربة الأمراء الساخطين. وما لبث أن قُتل كلٌّ من تيمور وتگين كلاهما، فيما كانا يحاولان الفرار إلى المناطق الهندوسية، طلباً للنجاة؛ في حين تم أسر كافور وأُعدم في دلهي؛ وتم الإجهاز على أفراد أُسَرهم جميعاً[62]. جميع الأمراء المعنيين كانوا في خدمة علاء الدين؛ ومما قد ينطوي على مَغزى أن يكون حتى عُبَيْد قد فعل ما فعل، إذا كان هو نفسه، كما نرجح، عبيدي حكيم الذي يأتي برني على ذكره بين ندماء السلطان[63]. والأهم من ذلك، أن بعض هؤلاء الأمراء، كما لاحظنا من قبل، كانوا قد أيدوا خسروشاه سنة 720 هـ / 1320 م. من الصعب مقاومة الشك، بأن يكون الحادث قد وفّر للسلطان ذريعة مقنعة، للإجهاز على مجموعة من العائلات الأرستقراطية المتنفذة، التي لم يكن يستطيع أن يضع فيها ثقته الكاملة. ومع إزاحة هذه العائلات، غاب عن المسرح عدد لا يستهان به من شخصيات حقبة علاء الدين، القيادية.

وكما هو متوقع من أي حاكم جاء إلى السلطة بمساعدة عناصر من

---

(61) عن خواجا حاجّي، انظر TFS، 438؛ FS، 395.

(62) براساد، **أتراك القراؤون**، 29 ـ 33، وحسين **الأسرة الحاكمة التُغلُقية**، 65 ـ 69، يلخصان المعلومات الواردة في المصادر المختلفة. يورد TFS، 448، 449، بين الفارين اسم الأفغاني ملك اختيار الدين مال؛ أما FS، 395 ـ 396 (تر. 603) فيقول إنه بقي مخلصاً، وعن مرتبة كافور، انظر المصدر السابق، 394، 400 (تر. 599، 606).

المناطق الشمالية ـ الغربية، كان تُغْلُق يميل إلى الضباط القادمين من هناك. فبرهان الدين، الذي حصل على منصب كوتوال ولقب عالم ملك، كان مؤسس أسرة أرستقراطية ذات شأن، كانت قد استقرت في هانسي، ولكنها ذات أصول غزنوية[64]. ومن أبنائه، كمال الدين الذي ما لبث أن أصبح قاضياً للقضاة، وصدري جاهان في ظل محمد، ومكانته الرفيعة في الإمبراطورية تؤكدها مصادر معلومات كل من ابن بطوطة والعمري[65]. وكان ثمة آخر، هو قِوام الدين الذي شغل منصب نائب الوزير (**نائبي وزير**) في ديوغير، ثم ما لبث، في ظل حكم محمد بن تُغْلُق، أن حمل لقب قُطْلُغ خان ورُفِّع إلى مرتبة **وكيلي دار**. وفي أثناء حملة المَعْبَر الفاشلة للسلطان حوالي سنة 1335م، تم إرساله ثانية إلى ديوغير (التي كانت قد أصبحت دولت أباد)، حيث بقي صاحب الأمر والنهي على امتداد عشر سنوات. يبدو أن استدعاءه في 745 هـ / 1344 ـ 1345م أنزل ضربة موجعة بنفوذ محمد، في إقليم الدكّان، وساهم في انفصاله بعد ثلاث سنوات[66]. كان محمد بن قُطْلُغ خان قد حصل من سميِّه على لقبي آلب خان ونظام الملك، جنباً إلى جنب مع إقطاع گوجرات. غير أنه من الواضح، أنه لم يشغل هذا المنصب لمدة طويلة، ونصادفه أواخر عقد ثلاثينيات القرن الرابع عشر، قائماً مقام أبيه في دولت أباد خلال العمليات التي شُنّت ضد المتمرد نُصرت خان[67]. وهناك ابن ثالث لبرهان الدين هو نظام الدين، نجده واحداً من مُلاّك (أمراء) تُغْلُق، ولا يلبث، فيما بعد، في ظل محمد، أن يصبح

---

(63) TFS، 360.

(64) المصدر نفسه، 424، عن برهان الدين. عن أصول العائلة، انظر IB III، 143، 161 (تر. جيب، 617، 628). زوج برهان الدين، أم كمال الدين، كانت شقيقة مولانا فخر الدين هانساوي: **سير**، 274.

(65) TFS، TMS454 .، IB98 .، III، 161، 215، 229 (تر. جيب، 628، 657، 664). MA، تحقيق سبايز، 16 (تر. ألمانية 41) / تحقيق فارق، 30 (تر. صديقي وأحمد، 41).

(66) TMS، TFS98 .، 454، 481، 501 ـ FS502 .، 422، 426 (تر. 648، 653)، يبين أنه بقي في ديغور في السنوات الأولى من عهد محمد.

(67) TMS، FS98 .، 477 (تر. 717). لا يظهر بين أمراء (ملوك) محمد في النص المطبوع لـ TFS، ولكن قارن بمخطوطة BL، ملف 225 ب.

عالم ـ الملك ووالي بهاروتشي (بروانش)(68). ومن هناك نُقل إلى دولت أباد، ليحل محل أخيه قُطْلُغ خان، مؤقتاً، إلاّ أنه أسر من قبل المتمردين، ثم ما لبث أن أُطلق سراحه، وأُرسل إلى دلهي(69).

ثمة سلالة أخرى، هي عشيرة أبو رِجا، اكتسبت قَدْراً من الشهرة وبرزت في ظل التُغْلُقيين، يقال أيضاً إنها جاءت من «المرتفعات» (**مُلْكي بالا**)، أي من شمال ـ غرب البلاد. كان قطب الدين مبارك شاه خَلْجي قد جعل أحد أفرادها، مجير الدين، **نائباً للوزير** في ديوغير(70). وقد كان هذا ما يزال موجوداً في المنطقة، في أثناء الحملة على آرانغال، حين قدَّم إلى أُلُغ خان مساعدة قيمة، في عملية الإطاحة بالأمراء المتمردين. لعل ذلك هو ما أكسبه ثقة السلطان في المستقبل، لأن ابن بطوطة، يعتبره أحد «الأمراء العظماء» في عهد محمد بن تُغْلُق، ويضعه برني في قائمة الوُشاة وأصحاب التأثير الخبيث على ذلك العاهل. لقد خدم محمداً بإخلاص، إذ شارك قواته في الحملات على المتمرد بهاء الدين غارشاسب، كما ضد عين الملك بن مهرو، بعد عشر سنوات ونيف، حين كان حاكماً لبهايانا(71). ربما كان حسام الدين أبو رجا، وشهاب الدين أبو رِجا أخويه. حصل الثاني على منصب «**ملك التجار**». وإقطاع ناوساري لدى اعتلاء محمد للعرش(72). أما حسام الدين، فقد كان **مستوفياً**، في ظل غياث الدين تُغْلُق، وجرى اختياره لمهمة حراسة عائلة تگين، في

---

(68) TMS، TFS98 .، FS502 .، 495، 503 (تر. 739، 749).

(69) المصدر نفسه، 519 (تر. 770). TMS، 111.

(70) FS، 369 (تر. 569). TFS، 398، موضحاً من قبل هوديڤالا، **دراسات**، I، 287 ـ 288؛ في لائحة أمراء (ملوك) قطب الدين في TFS، 379، يظهر باسم «فخر الدين»، ولكن قارن مخطوطة BL، ملف 188 ب. انظر عفيف، 454، عن أصل هذه العائلة.

(71) TFS، FS472 .، 397 ـ 399، 427، 473 (تر. 603 ـ 605، 653، 711). TMS، IB101 .، III، 230، 318، وIV، 5 (تر. جيب، 665، 710، 775)، معلقاً أيضاً على قسوته. وللاطلاع على سيرة موجزة، انظر هوديڤالا، **دراسات**، I، 287.

(72) TMS، 98.

أعقاب أحداث الشغب في آرانغال. احتفظ بمنصبه حتى عهد محمد، الذي أنعم عليه بلقب نظام الملك: ولدى إرساله إلى لخناوتي **نائباً للوزير**، ساعد على إخماد حركة التمرد الأولى لفخر الدين («فاخرا») في سونارغاؤون (حوالى سنة 1335 ـ 1336م)[73]. وكان لمجيد الدين ابن أخ يدعى: شمس الدين، الذي كان سيكسب سمعة سيئة بسبب ممارساته **كمستوفي** في ظل فيروزشاه، أحد أبناء حسام الدين[74]. وهناك شخص آخر من العائلة، تبادل الرسائل مع ابن مهرو، كما أن بعض أبناء عشيرة أبو رجا، استمروا في خدمة سلاطين گوجرات، في العقود الأولى من القرن الخامس عشر[75].

الأرستقراطية في ظل محمد بن تُغْلُق

لا نعرف إلاّ الشيء القليل عن أبناء تُغْلُق، الذين لم ينج أحد منهم، ليعيش بعد حكم محمد، على ما يبدو. صحيح أن واحداً يدعى مبارك خان عمل قاضياً، خلال العهد الجديد، غير أن ابن بطوطة سمع أن آخر يدعى مسعود خان، جرى إعدامه، ربما لأن أمه كانت إحدى بنات علاء الدين خَلْجي[76]. أما فيروز (سلطان المستقبل)، ابن شقيق الملك الراحل، رجب، فقد خدم محمداً في منصب **الباربك**. من المؤكد أن اثنين ممن تبناهم تُغْلُق، تمتعا بشعبية كبيرة: فتتار ملك (ابن أحد الأمراء المغول الذين كانوا قد غزوا الهند في أثناء قيادة تُغْلُق للجيش في دَيْبَلْپور) اكتسب بعض الشهرة، رغم

(73) TFS، TMS455 .، 94، 98، 104.

(74) عفيف، 451، 454. مجهول المؤلف، **غُنيةُ المنيةِ**، تحقيق شاهاب سرمدي (دلهي، 1978)، 6 ـ 7، يورد اسمه الكامل: شمس الدولة والدين إبراهيم ـ ي حسن: حسام الدين معروف بأنه كان يدعى حسن.

(75) IM، 157 ـ 159 (ملك بهاء الدين نصر الله، **نائب ـ ي خاص حاجب**). ز. أ. ديساي، «منقوشات عن سلاطين گوجرات من ساوراشترا»، EIAPS (1953 ـ 1954م)، 51.

(76) مسعود خان: I، III، 292 (تر. جيب، 696). مبارك خان: المصدر نفسه، III، 230، 287 ـ 288 (تر. 664، 694)؛ مذكور في TFS، 454.

الإبعاد الموقت، عقب شجار مع السلطان، في حين ائتمن بهرم خان على إدارة سونارغاؤون[78].

وما لا يقل عن نصف التعيينات التي أصدرها محمد، لدى جلوسه على العرش، ذهب إلى أناس عرفوا بأنهم من ذوي الجذور الشمالية ـ الغربية، وشمل أمراء، كان قد ورثهم عن أبيه، وكانوا قد لعبوا دوراً بارزاً في ثورة تُغْلُق ضد خسروشاه[79]. غير أن محمداً ما لبث، في غضون سنوات قليلة، أن جوبه بحركتي تمرد قادهما اثنان من هؤلاء الرجال، هما: بهاء الدين غارشاسب وكوشلوخان، استثارتهما، على ما يبدو، محاولاته الرامية إلى تشديد قبضته على الأقاليم ربما أدى ذلك إلى توفير الدافع لتجنيد فريق جديد من الخدم. يبدو أنه وضع قدراً كبيراً من الثقة في أحمد بن أياز، الذي استوزره في 732 هـ / 1331 ـ 1332م، تحت اسم خواجا جهان، الذي نجده في عدد من المناسبات، قائد قوات عسكرية ضد العصاة والمتمردين[80]. لقد ظل خواجا جهان، يخدم محمداً بإخلاص، خلال السنوات العشرين التالية، ولم يفقد نفوذه إلاّ بعد أن أصبح بؤرة مقاومة اعتلاء فيروزشاه، العرش. وحين غادر محمد دلهي، للمرة الأخيرة، أناب عنه خواجا جهان وابن عمه فيروز وملك قابول

---

(77) المصدر نفسه. عفيف، TMS42 .، 98.

(78) سيرة حياة تتار ملك في عفيف، 388 ـ 394. كان صاحب إقطاع ظفر آباد في ظل تُغلُق (TFS، 428، 451)، وحصل لاحقاً على لقب تتارخان من خلف محمد (TMS، 124). ومؤلف لاحقاً للعديد من كتب الفقه وقد كان طليقاً بالعربية: IB، III، 281 (تر. جيب، 690). عن بهرم خان، انظر FS، 422، 444، 472 (تر. 648، 673، 709)؛ TFS، 480؛ IB، III، 230، 317 (تر. جيب، 665، 709) معتبراً إياه خطأ ابن شقيق محمد (تر. جيب، 665 هـ. 36، ثمة خلط بين بهرم خان وتتار خان).

(79) يظهر هذا من اللائحة الواردة في TMS، 98.

(80) تاريخ تعيينه: سِيَر، 218. كقائد عسكري: TFS، 481؛ FS، 425 ـ 431، 471 (تر. 651 ـ 658، 707 ـ 708)؛ IB، III، 318، 324، 332 ـ 333، 348 ـ 349 (تـر. جيـب، 710، 713، 716 ـ 717، 723 ـ 724).

خليفتي (ومعروف أيضاً باسم «ملك كبير»)، لتولي شؤون السلطة في العاصمة[81].

وبوصفه وريثاً شرعياً دون منازع، خلال فترة حكم أبيه كلها، يبدو أن محمداً كان قد كوّن لنفسه مركز قوة ونفوذ. فتأكيد نيغام على أن نظام المماليك والغلمان لم يحظ، إلاّ بالقليل، من التشجيع خلال فترة حكم محمد[82]، لا يأتي، ببساطة، منسجماً مع الشهادات الواردة في مصادرنا. فمملوكه ملك قابول، المحتمل أن يكون ذا أصل هندي، كان من أمرائه الأكثر تمتعاً بالثقة؛ كما نعلم أن السلطان، كان أيضاً، يستجلب مماليك وغلماناً من الزنوج (الأحباش)، وربما كان بدر الحبشي، واليه في آلابور، أحدهم[83]. من المحتمل أن يكون الأتراك قد عادوا إلى اكتساب بعض النفوذ والشهرة، مرة أخرى. لقد سمع ابن بطوطة كلاماً يقول إن محمداً كان قد وجه إنذاراً لأبيه، عن طريق حشد جيش من المماليك الأتراك. وطبقاً لابن بطوطة الرحالة المغربي فقد رأى أربعة آلاف منهم متمركزين في آمروها، وحدها، فإن العدد الإجمالي لمماليك محمد الأتراك، البالغ عشرين ألفاً حسب، رواية العمري، ربما كان أقل من الواقع[84]. ومن شأن الوصف المفعم بالحياة، لمواكب محمد من قبل

---

(81) TFS، 509، 522. عفيف، 50، 452.

(82) نيغام، **أرستقراطية**، 85.

(83) قابول: TFS، 493؛ IB، I، 365، وIII، 230 (تر. جيب 226، 665)، وأماكن أخرى. الأحباش: المصدر نفسه، IV، 31 (تر. جيب وبكينغهام، 786)؛ لاحقاً، IV، 59 ـ 60 (تر. 800)، يشير إلى حرس مؤلف من خمسين مسلحاً حبشياً سافروا معه إلى قاندهار.

(84) المصدر نفسه، III، 211 (تر. جيب، 654؛ وانظر III، 439 (تر. جيب، 763)، عن آمروها. MA، تحقيق سبايز، 13 (تر. ألمانية 38) / تحقيق فارق، 25 (تر. صديقي وأحمد، 37)؛ عن إشارة أخرى، إلى 12000 مملوك رافقوا السلطان، المصدر نفسه، تحقيق سبايز، 19 (تر. 45) / تحقيق فارق، 37 (تر. صديقي أحمد، 44). IB، III، 334 (تر. جيب، 717)، يقول إن فريقاً من المماليك رافق محمداً في حملته المعبرية حوالى سنة 1334 م. غير أننا لا نستطيع أن نتأكد من أن هؤلاء كانوا أتراكاً، لأن المؤلف نفسه يستخدم الكلمة للدلالة على المماليك الذين نعرف، من مصادر أخرى، أنهم كانوا هنوداً: انظر، مثلاً، المصدر نفسه، III، 190، 191 (تر. جيب، 643).

ابن بطوطة، أن يوحي بأن عدداً كبيراً من أمرائه، ربما كانوا من المماليك[85]. لا نعرف أسماء سوى عدد قليل من هؤلاء الأتراك والذين تقلدوا مناصب رفيعة. لقد كان عماد الملك سرتيز، الذي أصبح **عارضاً** ووالياً لمُلْتان، ثم نُقل لاحقاً إلى دكّان، حيث سقط في المعركة وهو يقاتل **الأميران صدا**، مملوكاً وتركياً ربما[86]. وإذا انطلقنا من اسمه أساساً للتخمين، فإن ملك قِران صفدار ملك سلطاني كان واحداً بالتأكيد[87]. وهناك، أخيراً، تركي آخر هو طغاي، الذي انتقل من ملك قِران إلى حيازة السلطان محمد، وما لبث أن رُفّع إلى منصب **شحنه ـ ي بارغاه**[88]؛ وقد كانت ثورته في گوجرات، أواخر العهد، الأكثر استعصاءً بين جملة الحركات التمردية التي اضطر السلطان لمواجهتها.

في هذه الأثناء، كانت السلطنة ما تزال بؤرة جذب بالنسبة إلى الأمراء المبعدين والمغامرين والانتهازيين القادمين من الغرب. كان عصيان كوشلوخان في السند، قد استند إلى «الأتراك والأفغان ورجال خراسان»[89]. ويتحدث العمري عن وجود أتراك ومواطنين من «خِطا» («شمال الصين» حرفياً، والمقصود منغوليا دون شك) وإيرانيين في جيش السلطان، ويشير ابن بطوطة،

---

(85) المصدر نفسه، III، 231 (تر. جيب، 665).

(86) المصدر نفسه، III، 44، 94 (تر. جيب 562 ـ 563، 593): في الموقع الثاني ترد عبارة **عارضي مماليك** «مفتش المماليك العام» بدلاً من **عارضي مملك**؛ ولكن انظر ملاحظة الناشرين الفرنسيين في IB، III، 458 ـ 459. على الرغم من أنه موصوف هنا وفي III، 107 ـ 109 (تر. جيب، 600)، على أنه والي السند، فقد جرى تعيينه في هذا المنصب بعد ثورة شاهو لودي، حوالى سنة 1337: انظر TMS، 107. وبالتالي فإن ابن بطوطة ربما خلط بين زيارتين إلى الإقليم: انظر سي. ف. بكينغهام، «ابن بطوطة في السند» في خوهرو (محرراً)، **السند عبر القرون**، 140 ـ 141. فيريشتا، I، 522، يعتبر سارتيز «تركمانياً».

(87) انظر هوديڤالا، **دراسات**، I، 300 ـ 301. عن تو. **قران**، «ذاك الذي يذبح»، انظر ص: 63 من هذا الكتاب، هـ. 6.

(88) يوجد العرض الأوفى لحياته العملية في SFS، 19 ـ 28 (تر. باسو، JBORS 23 [1937 م]، 97 ـ 106). عن منصبه، انظر، IB، III، 235 (تر. جيب، 667). اسمه تو. **تاغاي** «خال»: كلاوسون، **قاموس**...، 474.

(89) IB، III، 322 (تر. جيب، 712).

أكثر من مرة، إلى «أمراء من خراسان» بين ضباط محمد[90]. وما كان جذاباً، بصورة استثنائية، لأعداد كبيرة من النبلاء المهاجرين، هو سخاء محمد الذي ضُرب به المثل[91]؛ فقصة كرمه مع السيد عضد الدين اليزدي، وهو مبعوث جاء من إيران المغولية، تناقلها الناس على نطاق واسع[92]. يقدم ابن بطوطة، وهو من المستفيدين من هذه السياسة، وصفاً لكيفية تقديم الأجانب لشغل المناصب الرفيعة والولايات، والتعامل معهم بكثير من التقدير والتمييز عبر مخاطبتهم، تنفيذاً لتوجيهات محمد، الصريحة، بلقب **الأعزاء** (جمع عزيز) الخاص[93]. ففي حوالي سنة 733 هـ / 1332 ـ 1233م وصل نظام الدين، وهو سليل عائلة قيس، الحاكمة سابقاً، في الخليج الفارسي، إلى بلاط محمد، حيث أمضى سنتين وهو يحاول، عبثاً، الحصول على مساعدة السلطان في تمكينه من استعادة إرثه[94]. وبعد بضع سنوات، التقى ابن بطوطة بالحاج كيئون، أحد إخوة موسى الإيلخاني، الذي كان ضيفاً عند السلطان: ما لبث أن عاد إلى جنوب ـ غرب إيران في 743 هـ / 1342م، وقُتل وهو يحاول الاستيلاء على شابانكاره[95]. ومن المعروف أن محمداً كان قد أرسل عملاء

---

(90) MA، تحقيق سبايز، 13 (تر. ألمانية 38) / تحقيق فارق، 24 (تر. صديقي وأحمد، 37)، IB، III، 344، 348 (تر. جيب، 721، 723)؛ قارن أيضاً III، 332 (تر. 716)، عن «الخراسانيين».

(91) المصدر نفسه، II، 72 ـ 77، وIII، 97 ـ 99، 243 ـ 266 وأماكن أخرى، 270، 279، 284 (تر. جيب، 311 ـ 313 ـ 595، 596، 671 ـ 683 وأماكن أخرى، 685، 689، 692). MA، تحقيق سبايز، 22 ـ 25، 38 (تر. ألمانية، 48 ـ 51 ـ 65 ـ 66) / تحقيق فارق، 41 ـ 46، 70 (تر. صديقي وأحمد، 48 ـ 50 مع حذف جملة عن الأجانب، 48؛ 63 ـ 64).

(92) شبان قارائي، 288 ـ MA289. تحقيق سبايز، 22 (تر. ألمانية، 48 ـ 49) / تحقيق فارق، 42 ـ 43 (تر. صديقي وأحمد، 47 ـ 48). الصفدي، **الوافي**، مكتبة أكاديمية لينتسي بروما، مخطوطة فوند وكايتاني 21، 435 ـ 36. تلميح وجيز في TFS، 461.

(93) IB، III، 97 ـ 98، 243 (تر. جيب، 595، 671).

(94) جان أوبان، «أمراء هرمز بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين»، JA 241 (1953م)، 105؛ شبان قارائي، 219. تلك هي الأسرة الحاكمة التي كان سيراجي تقي ينتمي إليها (208 من هذا الكتاب).

(95) IB، III، 256 ـ 258 (تر. جيب، 677 ـ 679). جان أوبان. «مسألة سيرغان في القرن الثالث عشر»، =

وجواسيس له إلى الخليج الفارسي، من أجل تجنيد أمراء عرب مع أتباعهم، لخدمته[96]. وهذا الإفراط في الرعاية، كان يُعْزىٰ، جزئياً، لمخططاته التوسعية في أفغانستان الحالية وبين الكثير من نبلاء المناطق المغولية، الذين وصلوا مع ابن بطوطة، كان كل من خداوندزاده قوام الدين، قاضي (ترمذ)، وابن عمه غياث الدين، وأميرين من بلاد ما وراء النهر وبهرم، ملك غزنة؛ وفيما بعد، وصل أميران مغوليان هما قابتاغا وأحمدي إقبال، كان أولهما سليلاً معروفاً للقائد المغولي تيمور، الذي كان قد أطاح بابن بلبان سنة 683 هـ / 1285م[97].

وعلى الرغم من شهادة ابن بطوطة، التي تؤكد أن محمداً كان يفضّل الأرستقراطية الأجنبية على نظيرتها المحلية الوطنية، وأن «الهنود» كانوا، بالتالي، يكرهون النبلاء «الخراسانيين»[98]، فإن هناك ما يشير بوضوح، إلى أن الوضع كان أكثر تعقيداً؛ فدائرة عطف السلطان كانت تتسع لعدد أكبر من **الموالي**؛ وهناك هنود محليون، من أمثال متمرد المستقبل، عين الملك بن مهرو (انظر الملحق رقم: 4)، استفادوا، أيضاً، من سخائه وثقته. كان المغربي نفسه على علاقة ودية مع حامل الأختام (المهردار) «أبو مسلم»، أحد الأبناء الكثر لراي (ملك) كامبيلا الذي احتفظ به محمد في بلاطه، منذ تاريخ

= **ستوديا إيرانيكا** 6 (1977م)، 289، مقتبساً مقطعاً غير موجود إلاّ في مخطوطة تبريز للصياغة الثالثة **لمجمع** شبان قارائي، التي استخدمها المؤلف المجهول لتاريخ أعم محفوظ في جامعة لايدن، مخطوطة، رقم: 1612، ملف 357 أ، وناتانزي في كتاب **منتخب التواريخ** (816 هـ / 1413 ـ 1414م)، تحقيق جزئي، ج. أوبان، **مقتطفات من منتخبات التواريخ** (طهران، 1957م)، 9 ـ 10.

(96) IB، IV، 104 (تر. جيب وبكينغهام، 818 ـ 819).

(97) أمراء من بلاد ما وراء النهر: المصدر نفسه، III، 374 ـ 375 (تر. جيب، 735، 743 ـ 744) بهرم: المصدر نفسه، III، 264، 265 (تر. جيب. 682). أحمد وكتبغا: TFS، 520، 584 ـ 585؛ عن الاسم الثاني، انظر لسينغ، **قاموس مغولي ـ إنجليزي**، 899. ب. جاكسون، «المغول وسلطنة دلهي في عهد محمد تُغلُق (1325 ـ 1351 م» CAJ 19 (1975م) 147 ـ 148.

(98) IB، III، 344، 349 (تر. جيب، 721 ـ 722، 724).

فتح ذلك الإقليم[99]. أما الأشهر منه فكان كتّو، وهو براهماني، أُخذ أسيراً إلى دلهي بعد الاستيلاء على تيلانغ حوالى سنة 1322م، فالتحق بخدمته واعتنق الإسلام، حاصلاً على اسم مقبول، أولاً، وعلى لقب قيام الملك فيما بعد. عينه محمد والياً على مُلْتان بعد قمع انتفاضة كوشلوخان سنة 728 هـ / 1327 ـ 1328م، وحكم تيلانغ فترة قصيرة، إلى أن اندلعت ثورتها حوالي 1336، ثم ما لبث أن أصبح نائباً أو وكيلاً للوزير خواجاجهان أحمد بن أياز. وبعد اعتلاء فيروز شاه للعرش، حصل على لقب خان جهان، وخلف خواجا جاهان كوزير، وهو منصب احتفظ به إلى أن قضى نحبه، فانتقل إلى ابنه[100].

ومع ذلك، فإن برني يصِف خدمَ محمدٍ الهنودَ بوضاعة النسب، بصورة عامة[101]. لقد كان عزيز خمّار ذو السمعة السيّئة، الذي أنعم عليه السلطان بولاية مالوا، واحداً منهم[102]. إن عدداً منهم كانوا من غير المسلمين كما كانوا ـ رغم جميع التعليقات المتحيزة الصادرة عن المؤرخين، والتي تتحدث عن تجار الأقشمة (**البزازين**) والصاغة، ومن شابههم[103] ـ حسب أقوى الاحتمالات، من **الخايستا**، أعضاء طبقة إدارية، مثل رابان، الموصوف بأنه «شخص ماهر في الحساب والكتابة»، كان مؤتمناً على الإدارة المالية للسّند؛ ومثل بهيران، المراقب (**المتصرف**) في غولبارغا؛ ومثل ساماراسينغ، الذي أصبح والياً على تيلانغ؛ ومثل دهارا الذي أرسله محمد إلى دولت أباد وكيل

(99) المصدر نفسه، III، 320 ـ 321 (تر. جيب. 711).

(100) مُلْتان: TMS، 98، 101. تيلانغ: TFS، 481، 484. **نائب وزير**، المصدر نفسه، 454، 512. سيرة حياة في عفيف، 394 ـ 424. يجب تمييزه عن ملكين آخرين يحملان اسم محمد هما **قابول ومقبل**: انظر هوديڤالا، **دراسات**، II، 112، 115 ـ 116.

(101) اللائحة في TFS، 504 ـ FJ505 .، 167 ـ 168.

(102) TFS، 501 ـ 502، 503، 504.

(103) FJ، 180 ـ 181؛ انظر أيضاً 595 ـ 302 (في 298 يحذر القارئ من الانبهار بمهاراتهم الإدارية).

وزير سنة 745 هـ / 1344 ـ 1345م، قبيل انهيار سلطته هناك، وانفصال الإقليم في ظل الأسرة الحاكمة البراهمانية[104].

حقبة فيروزشاه

في صياغته المنقحة الأولى، يتحدث برني عن عدد الأمراء المنتمين إلى النظام السابق، الذين تعرضوا للتحجيم لدى اعتلاء فيروزشاه للعرش[105]. غير أن مقبولاً كان في الحقيقة، وبكل بساطة، الأكثر حظوة بين عدد لا يستهان به من الرجال، الذين انتقلوا إلى صف العاهل الجديد، متخلين عن خواجا جهان، خلال الأسابيع الأولى، وقد تم الحفاظ عليهم في مواقع الثقة. فحسام الدين، نجل ملك نووا، أصبح نائباً لأوَذ وحصل على لقب حسام الملك[106]. أما ملك مبارك، نجل كبير أمراء محمد المعروف ملك قابول خليفتي، فقد شغل منصب الـ **سلاحداري خاص**، والـ **وكيلي دار** فيما بعد، وبقي على قيد الحياة، بعد فيروزشاه نفسه[107]. حتى أعظم ملك شيخ زاده بسطامي، الذي كان، كأحد أصحاب خواجا جهان، قد طُرد من أقاليم فيروزشاه، حصل على العفو لاحقاً، حين عاد إلى الظهور مرتدياً ثوباً خليفياً، وجرى تقريبه ثانية مع إعطائه لقب أعظم خان[108].

---

(104) راتان: IB، III، 105 ـ 106 (تر. جيب، 599). بهيران: FS، 485 (تر. 726 ـ 727). سمارا سينغ: ك. هـ. كامدار، في **أعمال المؤتمر السابع للاستشراق الهندي (بارودا، 1933)** (بارودا، 1935)، 629 ـ 633. دهارا: TFS، 501. الأسماء الأخرى مذكورة في المصدر نفسه، 504 ـ 505. عن هذه الطبقة، انظر عموماً يوسف حسين، «. . . والثقافة الإسلامية في الهند»، REI 1 (1927م) 455 ـ 458.

(105) TFS، مخطوطة بودليان، ملف 217 أ. صديقي، «أضواء جديدة»، 78.

(106) TFS، 528 (مع الاستكمال بقراءة لحقها بعض التشويه في مخطوطة BL، ملف 261 أ). TMS، 133. بيها مادخاني، ملف 417 أ (تر. زكي، 22).

(107) المصدر نفسه، 416 ب ـ 417 أ (تر. زكي، 21). عفيف، 287، 338، داعياً إياه بغموض: مباركي كبير.

(108) TMS، 127 ـ 128؛ قارن أيضاً عفيف، 281؛ وعن انتمائه إلى خواجا جهان، TMS، 120 ـ 123 وTFS، 543 ـ 545.

وعلى الرغم من أن برني يذكر ـ بشماتة غير خافية ـ كيف قام السلطان الجديد بطرد الأجانب، الذين كانوا قد تدفقوا، متزاحمين، على بلاط محمد من كل من هراة وسجستان وعدن وقوصدار، طمعاً في الهدايا والهبات[109]، فإن صفوف طبقة النبلاء والأمراء لدى فيروزشاه كانت تضم أيضاً، بعض أكثر المهاجرين تميزاً وتألقاً، ممن كانوا في العهد السابق. فخداوند زاده قوام الدين (الترمذي)، **نائبي وكيلي دار** محمد، ما لبث أن أصبح خداوندخان **وكيلي دار**، في حين حصل ابن أخيه على لقب سيف الملك وعُين **أمير شيكاري ميمنه**[110]. وكذلك فإن الأميرين المغوليين قبتغا وأحمدي إقبال، كانا متمتعين بعطف فيروزشاه، فضلاً عن أن حسيناً بن أحمدي دخل بدوره في خدمة السلطان وتزوج ابنته[111].

وبادر فيروزشاه حاذياً حذو أسلافه، إلى تشكيل كوكبة من الأمراء من صنعه هو. لعل أحد التطورات الأهم، ذات الأمد الطويل في العهد، كان متمثلاً بتجميع الوظائف والإقطاعات بأيدي مماليكه. ثمة مؤلفون مختلفون كتبوا في ظل أحداث العهود التالية يعتبرونهم مماليك وأمراء «أتراك» (**باندغاني ترك، أمرائي أتراك**)، وهندوساً «هندوستاني». من الممكن حل التناقض الظاهري، إذا اعتبرنا أن كثيرين منهم كانوا من أصول شرقية هندية: فقبل قرن كامل من الزمن، كان الجوزجاني قد اعتبر أهل التيبت واركان «أتراكاً»[112]. وحسب ما يقوله عفيف، فإن فيروزشاه بذل جهوداً أكبر من أي من أسلافه في سبيل اقتناء المماليك: تم الإيعاز لولاة الأقاليم، بتقديم أفضل المماليك

---

(109) TFS، 538.

(110) المصدر نفسه، 454، TMS580 .، 124.

(111) TFS، 527، 544، 584 ـ 585. عفيف، TMS280 .، 140، عن الزواج.

(112) بيهامادخاني، ملف 420 أ، 421 أ، 423، 424 ب، 432 ب (تر. زكي، 27، 29، 32، 33، 34، 47). TMS، 150. قارن ديغبي، «إلتُتمِش أم إلتتمش؟» 57 هـ. 1. عن استخدام الجوزجاني، انظر TN، 1 429 وهـ. 3 (تر. 566، 567).

والغلمان وأكثرهم تميزاً إلى البلاط، كجزء من هداياهم السنوية المقدمة إلى السلطان، والعدد الإجمالي لمماليك القصر، ارتفع إلى مئة وثمانين ألفاً. وكان أربعون ألفاً منهم مكلفين بالخدمة في القصر، أو كانوا يشكلون جزءًا من حاشية فيروزشاه؛ أما الباقي، فكانوا يتولون القيام بمهمات مختلفة، إذ كان يجري تعليم بعضهم مِهَناً تتطلب مهارة[113]. بات غلمان القصر عنصراً بالغ الأهمية في الدولة، إلى درجة أن المسؤولية عن شؤونهم، نُقلت من مكتب الوزير (ديواني عالي وزارت) إلى مكتب جديد كلياً، عرف باسم **ديواني باندغان** (ديوان المماليك)، كان يديره جهاز خاص من الموظفين، برئاسة مسؤول يحمل اسم **عارضي باندغاني خاص**[114].

بعضُ مماليك فيروزشاه كانوا في خدمته، قبل اعتلائه للعرش، مثل ملك بشير الذي أصبح **عارضي ممالك** بلقب عماد الملك[115]؛ أو ملك ديلان الذي خدم السلطان الجديد **أمير شيكار**، وهو منصب، تزايدت أهميته في ظل عاهل شديد الولع بالمطاردة والصيد[116]؛ أو ملك قبول، الملقب توراباند، الذي أصبح أمير بداؤون[117]، وهو غير مملوك آخر يحمل الاسم نفسه: **ملك قبول قيران ـ خوان**، **الأمير مجلس** ومقطع سامانا[118]. ومن شأن عمليات الاقتناء اللاحقة، أن تكون شملت ملك اختيار الدين مفرِّج سلطاني، **الداوادار**، الذي أصبح نائباً لإقطاع گوجرات، وما لبث أن حصل،

---

(113) عفيف، 267 ـ 268، 269 ـ 270، 272: الأرقام واردة في 270.

(114) المصدر نفسه، 271.

(115) TFS، 583. عفيف، 285، 436 ـ TMS437 .، 119.

(116) TFS، 582. عفيف، 115، 318. شوكوهي، **راجاستان**، ا، 62. عن أهمية منصبه، انظر TFS، 600.

(117) المصدر نفسه، 528. انظر أيضاً عفيف، 159 ـ 161. بيهامادخاني، ملف 417 أ: النص مشوّه قليلاً وثمة خلط بينه وبين قابول قران خوان، كما في TMS، 135، لدى الإتيان على ذكر توليته على بداؤون.

(118) عفيف، 454 ـ 455. بيهامادخاني، ملف 417 أ (تر. زكي، 23). TMS، 134. تمّ إرساله لمواجهة الغزاة المغول في 759 هـ / 1358 م: المصدر نفسه، 127.

فيما بعد، على لقب فَرْحة الملك[119]. ولدى موت فيروزشاه كان مماليكه وذراريهم، يشكلون عنصراً رئيسياً من عناصر الطبقة الأرستقراطية؛ يجب أن يكون من حقنا أن نتكلم عن خلق نخبة جديدة. ففعاليات هؤلاء المماليك كان من شأنها أن تفضي، في ظل خلفائه، إلى تقويض استقرار الإمبراطورية بصورة جدية وخطيرة.

ثمة، مع ذلك، عدد غير قليل من النبلاء الأحرار، كانوا لا يزالون موجودين، ولو تم استبعاد الأمراء الذين كان فيروزشاه قد ورثهم من ابن عمه. فظَفَرخان (الثاني)، مُقْطَع گوجرات، كان ابن ظفرخان (الأول) وخلفه، الذي كان اسمه الكامل: تاج الدين محمد لورفارسي، مما يشير إلى أن عائلته ربما جاءت من جنوب ـ غرب إيران[120]. أما مالِكْزاده فيروز (جد الأسرة التي حكمت كالبي في القرن الخامس عشر)، الذي كان صاحب **شق** فيروزبور الواسع الجديد، فقد كان ابن تاج الدين ترك، الذي كان قد خدم غياث الدين تُغْلُق شاه[121]. وكذلك، فإن الملاك الأحرار كانوا يشكلون جماعة من الأمراء الأفغان هم: ملك بايّو، مقطع بيهار؛ وملك خطّاب، المعين والياً على **شق** سانبهال سنة 1782م / 1380 م؛ وملك محمد شاه، مقطع تُغْلُق بور في إيتاوا[122]. ثمة مهتدون هنود على علاقة نسب مع السلطان، كانوا أيضاً،

---

(119) المصدر نفسه، 133. يظهر في منقوشات من سنة 762 هـ فصاعداً: ديساي، «منقوشات خلجية وتُغلُقية من گوجرات»، 9 ـ 13، 19 ـ 21، 26 ـ 27، إلخ (ولتكوين فكرة عن حياته العملية انظر المصدر نفسه، 13 ـ 14)؛ أيضاً، «ضريح كوكاني يعود إلى القرن الرابع عشر»، EIAPS (1965م)، 9 ـ 10.

(120) TMS، 2126؛ قارن أيضاً SFS، 91. ديساي، «منقوشات خلجية وتُغلُقية من گوجرات»، 15 ـ 17.

(121) بيهامادخاني، ملف 412 ب (تر. زكي، 13 ـ 14)؛ عن التاريخ، انظر TMS، 134، وعن جذوره، عفيف، 480. عن تاج الدين ترك، انظر TFS، 424.

(122) بايّو: بيهامادخاني، ملف 417 أ (تر. زكي، 22، حيث ترد على صيغة «بابّو» [؟]»، TMS، 133، انظر أيضاً ز، أ ديساي منقوشات عربية وفارسية من المتحف الهندي كالكوتا EIRPS (1955 ـ 1956م). 6 ـ 8 عن ضريحه العائد إلى 753 هـ / 1353م (ويدعى ابراهيم بايوحنا ق أحمد مجموعة 34 ـ 37 (رقم: 11 ـ 13 خطاب TMS 135. محمد شاه: بيهامادخاني، ملف 412 أ، 417 أ (تر. زكي، 13، 23).

يجدون مكاناً لهم في صفوف الطبقة الأرستقراطية. وإذا استطعنا أن نصدق مؤرخ القرن السابع عشر الگوجراتي، فإننا نجد أن سادمارانا، الملقب وجيه الملك، جد السلاطين المستقلين، كان شقيق إحدىٰ أزواج فيروزشاه؛ وكان قد رافق السلطان إلى دلهي واعتنق الإسلام[123]. وثمة رموز قيادية بين الأمراء المحليين، باتوا، أخيراً، يتمتعون بمكانة ذات شأن في البلاط. فبعد حملته على دامريلا، قام السلطان بإعادة أميريها: الجام وأخيه بانبهينا إلى دلهي[124]. وكذلك، فإن أودهاران، شقيق تومارا، راي غواليور، وسومر راي إيتاوا التشاوهاني، كانا، كلاهما، في الخدمة عند موت السلطان[125].

النسب والاستمرارية

بودّنا أن نعرف، أكثر، عن أسلاف كبار نبلاء الحقبتين الخَلْجية والتُغْلُقية المذكورين في مصادرنا. يحدثنا عصامي، مثلاً، عن أن آلب خان، أحد أوائل أعوان علاء الدين، ووالي گوجرات فيما بعد، كان ذا أصل ملكي، ويلمّح لاحقاً إلى النسب الرفيع والشهير لبهاء الدين غارشاسب، الذي كانت أختُ تُغْلُق أمَّه[126]. غير أنه في الحالين، كلتيهما، لا يكشف لنا عن هوية أجداد أي من الأميرين المعنيين. وبالمحصلة، فإن جَهلنا بالنسب، ربما يعني أن الطبقة الأرستقراطية ضمت عدداً من **حديثي النعمة** (القادمين الجدد) أقل مما بدا عليه الواقع، ولا يتعين علينا التأثر، دونما حاجة، بهوس برني الجلي حول النسب

---

(123) سيكاندار بن محمد، المعروف بمانجو، **مرآتي سيكانداري**، تحقيق س. سي ميسرا ومحمد لطف الرحمن (بارودا، 1961م) 4 ـ 10، تر. في السير إ. سي. بابلي، **الأسر الحاكمة المحمدية المحلية، گوجرات** (لندن، 1886م)، 67 ـ 70.

(124) SFS، 93 ـ 94. عفيف، 247 ـ 248، 252 ـ 254. رياض الإسلام، «صعود السامّا في السند»، IC 22 (1948م)، 377 ـ 379.

(125) عفيف، TMS281 .، 134. بيهامادخاني، ملف 414 ب (تر. زكي، 17). عن هويات هؤلاء الأمراء، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 394 ـ 395؛ ك. س. لال، **غروب شمس السلطنة**، طبعة منقحة (نيودلهي، 1980)، 6 ـ 7د هـ. 35.

(126) آلب خان: FS، 250. بهاء الدين: المصدر نفسه، 384 (تر. 588).

أو الأصل، كإحدى المواصفات المطلوبة لشغل هذه الوظيفة أو تلك. يبقى برني، على أية حال، شديد التخبط وعدم الاتساق، إذ يغفل حقيقة أن العائلات الأرستقراطية الكبرى والعظيمة في عهد بلبان، كانت متحدرة من أقران ذلك السلطان من المماليك، الذين يكاد يتعذر وصفهم بأنهم كانوا من ذوي النسب الرفيع؛ وحين يقوم بتفنيد صحة نسب أولئك الذين شغلوا مناصب رفيعة، في سنوات علاء الدين الأخيرة، فإنه يتجنب توجيه الاتهام نفسه إلى النبلاء والأمراء المبتدئين، الذين ينتمون إلى الفترة الأولى من عهده[127].

ونظراً للطريقة المفاجئة والمتعسفة التي يمكن اتباعها في حرمان الأمراء من الحياة والممتلكات، إضافة إلى حرمان أسرهم من التَّرِكَة، فإن إغفال الاستمرار أمل سهل. على الدوام، كان ثمة أعيان كانت فترات خدمتهم تخترق عدداً من الأسر الحاكمة. فالخواجا جهان أحمد بن أياز، وزير محمد بن تُغْلُق، كان ابن علاء الدين أياز، كوتوال حصاري ناو بدلهي (أي قلعة سيري الجديدة) في ظل علاء الدين خَلْجي، وكوتوال العاصمة سنة 720 هـ / 1320م، حين أرسل ابنه إلى خارج المدينة، ومعه المفاتيح لاستقبال غياث الدين تُغْلُق؛ لقد سمع ابن بطوطة أن العائلة كانت ذات أصول رومية (يونانية)[128]. من المحتمل أن يكون ملك بشير مُعزِّي، **نائبي خاص ـ حاجب** لدى قطب الدين مبارك شاه، هو نفسه ملك بشير سلطاني، الذي يظهر بين نبلاء معز الدين كيقباد، قبل ثلاثين سنة[129]. وأحد أمراء قطب الدين مبارك شاه كان آرام شاه، نجل ملك خُرَّم كوهي جودي، الذي كان قد خدم الغياثيين[130]. أما والد أحمدي

---

(127) ع. حبيب، «نظرية برني»، 107. صدّيقي، «الأرستقراطية في ظل السلاطين الخلجيين»، 64 ـ 65.

(128) IB، III، 144 (تر. جيب، 617 ـ 618). عن آياز، انظر TFS، 278؛ FS، 386 ـ 387 (تر. 590). المصدر الذي اقتبس منه أ. م. حسين، **رحلة ابن بطوطة**، (باروده، 1953م)، 54 هـ. 3، التي تجعل أحمد بن آياز ذا أصل هندي، يجب اعتبارها أقل جدارة بالثقة. HN، 447، 457، يخطئ إذ يجعل الأب أحمد والابن محمداً.

(129) TFS، TMS126 .، 83.

(130) المصدر نفسه، 84.

تشهيتام، **القيرابك** عند علاء الدين، الذي تقلد هو وأبناؤه عدداً من المناصب، في ظل قطب الدين وغياث الدين تُغْلُق، فقد كان مملوكاً لبلبان، يحمل اسم ملك بقبق[131]. ولدى اعتلاء محمد بن تُغْلُق العرش، تم إرسال ملك حسام الدين بيندار خَلْجي، الذي خدم قطب الدين وحصل من غياث الدين على لقب قادرخان، ليتولى حكم لخناوتي، وما لبث أن اغتيل هناك، لدى اندلاع انتفاضة في حوالي 1336[132]. أمّا أبوه جمال الدين خَلْجي، وهو **نائبي أمير داد** في ظل كل من بلبان وجلال الدين، فقد كان من مؤيدي أبناء جلال الدين سنة 695 هـ / 1296م، غير أنه كان من القلة القليلة جداً من العبيد الذين أبقى علاء الدين على حياتهم، في حملته التطهيرية التي استهدفت النبلاء الجلاليين، بعد وقت قصير[133]. وكما رأينا فإن من الممكن أن يكون الياور الخَلْجي جمال الدين علي، هو الذي سبق له أن اضطلع بدور عامل بلبان في إحدى البعثات المسيَّرة إلى المغول.

غَطَّت خدمة بعض العائلات الأرستقراطية ثلاثة أجيال أو أكثر، وإن لم تكن عن طريق شغل المناصب بالتحديد، على الدوام. ويبدو أن برني، الذي شغل كلٌ من أبيه وعمه وجده، والد أمه، وظائفَ ومناصبَ في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، لم يكن إلاّ واحداً من ندماء محمد بن تُغْلُق. ومما يقوله عن أبناء وأحفاد الوزيرين جنيدي ومهذّب الدين من القرن الثالث عشر، يتضح أنهم كانوا يعيشون كمواطنين عاديين حتى عهد غياث الدين تُغْلُق، الذي أعادهم

---

(131) بُقبُق: TFS، 40. **قيرابغ**: المصدر نفسه، 331 ـ 332، 337، 396، FS424 .، 287 (تر. 461)، يورد اسمه، أبناؤه: TFS، 409، 410. عن الأصغر سناً بدر الدين أبو بكر بن أحمد، وارد أيضاً في منقوشة تعود إلى 723 هـ / 1323م، انظر TFS، 379؛ ج. هـ. يزداني، «منقوشات في ضريح بابا آرغون شاه، تبيلاد (ولاية بارودة)، EIM (1915 ـ 1916)، 16 ـ 18؛ ARIE (1975 ـ 1976م)، 145 (هـ. د 114).

(132) TFS، 379، 424، 450، 454، FS480 .، 396 (تر. 601)، TMS. 98.

(133) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 132 أ، داعياً إياه «جمال الدين خلجي، **نائب ـ ي أمير ـ ي داد**»؛ المقطع المقابل في TFS، 251، يحدد أنه كان والد قادر خان، ولكنه يدعوه «أمير جمال خلجي» فقط.

إلى دائرة العطف، بما يمكّن حسام الدين جنيدي من شغل وظيفة رئاسة تقويم مجمل النظام الضريبي في الإمبراطورية، أيام حكم فيروزشاه، كما يمكّن ابنه ركن الدين جنيدي («جندا») من شغل منصب وزير، لدى أبي بكرشاه في 791 هـ / 1389م، لفترة وجيزة[134]. كان **سيد الحجاب**: معروف، نديم فيروزشاه، مجرد ضابط عسكري (بيشوا) تحت قيادة سرتيز، أحد أمراء محمد؛ على أن أباه ما لبث أن غدا شخصية مرموقة، هي شخصية وحيد الدين قريشي، **نائب الوزير** ووالي گوجرات في ظل قطب الدين مبارك شاه[135]. أما ملك محمود بك، الذي كان صاحب سُنام وسامانا في ظل محمد بن تُغْلُق وفيروزشاه على التوالي، فكان ينتمي إلى أسرة من بيلاهور، أنجبت سلسلة من كبار أصحاب المناصب الرفيعة. ونظراً لقدم شيرخان في السن (حوالي التسعين، حسب كلام برني الذي يكاد أن يكون غير قابل للتصديق)، فإن أباه رُسْتمي يحيى، مقطع بيدار، يجب أن يكون قد رُفع في وقت ما، خلال الحقبة الخَلْجية[136]. أما نَجْلا شيرخان نفسه، ملك أبو مسلم وملك شاهين بك، فيرد ذكرهما، لاحقاً، بوصفهما اثنين من ضباط فيروزشاه[137]. لعل النموذج الأكثر إدهاشاً للاستمرارية، هو ذلك الذي نجده في نسب داور ملك، الذي هو ابنُ أختٍ وصِهْرٌ، في الوقت نفسه، لمحمد بن تُغْلُق. وعلى الرغم من أن أباه صدر

---

(134) غياث الدين تُغلُق: المصدر نفسه، 427. حسام الدين: عفيف، 94، 460، 469 ـ 470، 481. ركن الدين: المصدر نفسه، 482؛ TMS، 143 ـ 144؛ وانظر أيضاً هوديڤالا، **دراسات**، ا، 391 ـ 392.

(135) سيد الحجاب: عفيف، 445 ـ 446. قريشي: TFS، 397 ـ 398.

(136) المصدر نفسه، 545، TMS583 .، 119، 120 ـ 121. ملك رستم ـ ي يحيا موجود بين ملوك (أمراء، مماليك) محمد بن تُغلُق فقط في مخطوطة BN لـ TFS، الملحق الفارسي 251، ملف 282 ب. عن **النسبة** بيلاهوري، انظر IM، 106؛ عن بيلاهور (فيلاّور الحديثة)، على الضفة اليمنى لسوتلج، عند نقطة 31 درجة / ا دقيقة شمالاً، 75 درجة / 48 دقيقة شرقاً، **كراريس أقاليم البنجاب**، XIVA. **جولّونذر** (لاهور، 1904)، 301. شيرخان كان ميتاً مع حلول سنة 765 هـ / 1364م، حين قام «ملك فخر الدولة والدين، ابن شيرخان محمود بغ»، ببناء جامع في باتان: ديساي، «منقوشات خلجية وتُغلُقية من گوجرات»، 14 ـ 15.

(137) TMS، 122. لعل أحدهما هو باني المسجد المذكور في الهامش السابق.

الدين عارف، نائب قاضي القضاة علاء الدين خَلْجي، فقد كان ابن حفيد المؤرخ الجوزجاني، قاضي قضاة لدى اثنين من أنجال إلتُتْمش، كما في ظل غياث الدين بلبان[138].

لم يكن بقاء العائلات الأرستقراطية واستمرارها من عهد، أو أسرة حاكمة إلى أخرى، جديراً بالملاحظة، إلاّ بمقدار ما كان سقوط أمراء راسخي الأقدام، أو تقديم «رجالات جدد» مثيراً للاهتمام على الدوام؛ كان الأمر يتطلب قدراً أقل من الانتباه، من جانب المؤرخين. فبرني يقول بكلمات، قليلة إن غياث ـ الدين تُغْلُق حرص على إبقاء أمراء عهد علاء الدين خَلْجي في مواقعهم؛ غير أنه يكرس مجالاً أوسع لولع محمد بن تُغْلُق بالخدم ذوي النسب الوضيع. ومع ذلك، فإن غياث الدين، لم يدأب، ببساطة، كما سبق لنا أن رأينا، على رعاية الأرستقراطيين الممثلين للحقبة الخَلْجية فقط: لقد قام أيضاً بجلب أعضاء حاشيته الخاصة، أولئك الذين كانوا قد برهنوا على امتلاك الموهبة والشجاعة والإخلاص في خدمته، على امتداد السنوات العشرين السابقة، على الجبهة المغولية، من دَيْبلْپور، وعيّنهم في المناصب. أما في عهد محمد، بالمقابل وعلى النقيض من ذلك، فإن هناك مؤشرات ودلائل غير قليلة، تُثْبِت أن عائلات عريقة قديمة بقيت ممثلة بين صفوف أصحاب المناصب.

لا نملك إلاّ القليل من المعلومات عن الأرستقراطيات المحلية. فالمصادر توفر الصورة العابرة لإحدى قواعد القوة المحلية ـ قاعدة علاء الدين خَلْجي المتمثلة بقارا مثلاً، حيث نجح نفوذ الأعوان السابقين لملك تشهاجّو في مضاعفة قُدْرَته على التآمر وتدبير الدسائس[139]؛ أو ملك كافور في رابري وسط اليمونة، وفي ديوغير لاحقاً[140]. غير أننا لا نصبح قادرين على تعقب ما يمكن

(138) TFS، TMS351 .، 98. انظر أيضاً هوديڤالا، **دراسات**، ا، 309 ـ 310.

(139) TFS، 224.

(140) المصدر نفسه، 328، 333. يزداني، «منقوشات عن سلاطين دلهي الخلجيين»، 30.

أن نطلق عليه اسم «التاريخ المحلي» عن جدارة، تاريخ المنطقة المحيطة بكالبي، في هذه الحالة، إلاّ بعد حلول العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر، بفضل كتاب **تاريخي محمدي**، تأليف بيهاماندخاني؛ ولكن الأسرة الحاكمة، حتى في هذه الحالة، كانت بضاعة مستوردة من دلهي ـ ذرية ملك تاج الدين ترك.

أما فيما عدا ذلك، فإن المادة القادرة على تزويدنا بأية معلومات عن النبلاء المسلمين في الأقاليم، فقد كانت ضئيلة حقاً. نرى أن برني يفسح في المجال بعض الشيء، لعائلات الأسياد المقيمة في مختلف بلدات السلطنة أيام علاء الدين، مسلطاً الضوء، بشكل خاص، على تلك التي كانت في بداؤون، واضطلعت بمهام القضاء هناك. ثمة اثنان من العائلة هما: السيد تاج الدين وابن أخيه السيد ركن الدين أحرزا شرف القضاء في أوَذ وقارا على التوالي، ويقول برني إنه حظي بنعمة مقابلتهما. وهو نفسه، كان سليل عشيرة متميزة أخرى هي عشيرة أسياد كاثيال، عن طريق جدته من ناحية الأم. وكذلك نرى أن الأسياد من غارديز (ربما باتوا منتشرين في أرجاء الإمبراطورية) ونظراءهم من كل من جاجنير وبهايانا، مذكورون[141]. إن أفراداً من هذه العائلات، صاحبة الامتيازات، يبرزون بين الحين والآخر، في المراتب العليا للطبقة الأرستقراطية. فملك تاج الدين جعفر، من سلالة أسياد جاجنير، يرد ذكره في قائمة ملوك (أمراء) علاء الدين وقطب الدين، ثم لا يلبث أن يصبح **نائبي عرض** ووالي گوجرات في ظل غياث الدين تُغْلُق[142]. وقد تتعرض حظوظ هذه السلالات المحلية للانتكاس، جراء أحداث العنف الملكية بين الحين والآخر. فأسياد كايثال دفعوا ثمناً باهظاً حين نجح أحدهم، السيد حسن، كوتوال

(141) بداؤون: TFS، 348 ـ 349. كايثال: المصدر نفسه 349 ـ 350. غارديز وجاجنر: المصدر نفسه، 350. بهايانا: المصدر نفسه، 351.

(142) المصدر نفسه، 240، 379، 424، 428؛ انظر 350 عن أسلافه.

مادورا، في التمرد على محمد بن تُغْلُق سنة 734 هـ / 1334م وتمكن (بوصفه السلطان جلال الدين إحسان شاه) من تأسيس سلطنة مَعْبَر المستقلة: لقد تعرضوا جميعاً للذبح، لدى عودة السلطان من محاولة فاشلة لاستعادة الإقليم[143]. وفيما بعد، جرى إعدام إبراهيم بن السيد حسن، حامل خرائط **(خريطة دار)** محمد ووالي هانسي وسارساتي، بتهمة التآمر من أجل إحداث حركة عصيان[144].

ثمة، في الأقاليم، بصيص ضوء مهزوز ينير الآثار المتبقية عن عائلات محلية شهيرة، حتى على امتداد بضعة قرون من الزمن. قد نرى احتمال أن تكون أية بقعة هندية في عهد فيروز شاه، قادرة على الاحتفاظ بشيء من الارتباط مع الحقبة الغزنوية، غير وارد، إلى حد بعيد. غير أن نقشاً من منطقة نغوار يفعل ذلك بالتحديد، حين يخلد ذكرى خمسة إخوة سقطوا في المعركة مع الهندوس بالقرب من باري خاتو سنة 761 هـ / 1360م[145]. كان الإخوة يحملون اسم العائلة: «بهاليم» وبالتالي، فهم منتمون، بالضرورة، إلى عشيرة الأمير القوي ومؤسس نغوار، محمد بهاليم، الذي كان قد ثار على السلطان الغزنوي بهرم شاه في 513 هـ / 1119م[146]. ومؤسفٌ حقاً أن تكون أعداد كبيرة إضافية من مثل هذه العائلات الأرستقراطية الإسلامية النبيلة والمحترمة في الأقاليم، قد نجت، ربما، واستمرت بعد كل الانتفاضات والانقلابات التي شهدتها دلهي، لكنها بقيت بعيدة عن متناول مراجعنا الأدبية المكتوبة.

---

(143) TMS، 106؛ وانظر 107 عن مذبحة السادات (الأسياد). FS، 469 (تر. 705) عن مرتبة السيد حسن: ن. فنكاتارامانيا، **التوسع الإسلامي المبكر في جنوب الهند**، (مدراس، 1942م)، 123 ـ 124 هـ. 50 و160، يجادل بالتالي قائلاً إنه لم يحكم الإقليم كله، أيضاً في IB، III، 328 ـ 329 (تر. جيب، 715). نجده من قبل نائباً لحاكم إقليم داموه في 725 هـ / 1325 م: ب. د. فيرما، «منقوشات من المتحف المركزي، ناغبور»، EIAPS (1955 ـ 1956م) 109 ـ 112؛ ARIE (1969 ـ 1970م) 84 (هـ. د 66).

(144) IB، III، 337 ـ 339 (تر. جيب، 718 ـ 719).

(145) ن. م. غنم، «ضريح ستة شهداء من باري خاتو في راجاستان»، EIAPS (1973م)، 10 ـ 13.

(146) TN، I، 242 (تر. 110)؛ وانظر أيضاً AH، 378 ـ 381. بوزوورث، **الغزنويون المتأخرون**، 102 ـ 103.

الفصل العاشر

عصر فتوحات وغزو

تم، في الفصل السابع، بذل محاولة لوصف المنغِّصات التي تعرض لها التوسُّعُ الإسلامي، في القرن الثالث عشر الميلادي. لا يعني هذا أن المناطق الواقعة خارج دائرة سيطرة سلطان دلهي، في ذلك الوقت، كانت بمنأى عن التأثر بالإسلام. فالتجار المسلمون كانوا ناشطين في المدن الساحلية لشبه الجزيرة وسيلان البحرية منذ القرن التاسع الميلادي[1]، وقد حافظت هذه المناطق على سلسلة من الروابط الوثيقة مع الخليج: ففي أوائل القرن الثالث عشر كانت الخُطْبة [خطبة الجمعة] في أجزاء مختلفة من «الهند» تُلقى باسم حاكم فارس[2]. وقد كان لكانبهايا (كامباي) في گوجرات، سكانها من التجار والباحثين [العلماء، والفقهاء] المسلمين قبل دخول قوات علاء الدين خَلْجي إلى البلاد، للمرة الأولى سنة 698 ـ 699 هـ / 1299 ـ 1300م، بعدد من العقود. ووجود جالية إسلامية مُزْدَهرة، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، يتجلى في أعداد نقوش شواهد الأضرحة، التي خرجت إلى

(1) جنفييف بوشون، «بعض جوانب أسلمة المناطق الساحلية الهندية في العصر الوسيط (من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر)»، في غابوريو، **الإسلام والمجتمع في آسيا الجنوبية**، 29ـ 36. وينك، **الهند**، 1، 67 ـ 83.

(2) ابن زاركوب، تحقيق كريمي، 56 / تحقيق جوادب، 80.

النور[3]. كان لهؤلاء المسلمين محافظهم (**حاكمهم**) الخاص عشية الغزو الخَلْجي، وقد عمل عوفي قاضياً هناك، لبعض الوقت، أوائل عشرينيات القرن الثالث عشر[4]. لم يكن الوضع في الجنوب مختلفاً. فوصف ابن بطوطة للساحل المليباري (مالابار) يبين أن جاليات إسلامية كانت قد توطَّنَت في موانئ هذا الساحل، وأقامت المساجد والخانات[5]. ولدى زيارته لتلك البلاد، كان هناك عشرون ألف مسلم في جيش ملك الهويسالا في دفاراسامودرا؛ وكان جيش علاء الدين الغازي قد جوبه، قبل جيل واحد، من قبل مسلمين بين قوات مملكة باندیا المَعْبرية[6]. فالحكم الإسلامي لم يكن قط، آنذاك، كما هي حاله الآن، مواكباً لحركة الهجرة الإسلامية [**الشتات** الإسلامي].

يرتبط الاقتحام الحاسم، بحقبة علاء الدين خَلْجي (695 ـ 715 هـ / 1296 ـ 1316م). فاستيلاؤه على العرش لم يصبح ممكناً، إلاّ بفضل غارة لم يسبق لها مثيل، من حيث الجرأة، على مملكة يادافا الديوغيرية النائية؛ كما أن عهده كسلطان، تميز بحملات مماثلة من حيث الطموح ضد قوى هندوسية مستقلة في كل من راجستان ومالوا وجنوب النارمادا. وعلى الرغم من أننا قد نشعر، بقوة، بأننا مواجهون، في هذا المنعطف، بقفزة كمية على صعيد عملية

---

(3) ز. أ. ديساي، «المنقوشات العربية لفترة الراجبوت من گوجرات»، EIAPS (1961م)، 1ـ 24؛ أيضاً «كتابات الأضرحة الكوفية المبكرة من بهادرسوار في گوجرات»، EIAPS (1965م)، 1 ـ 8؛ ARIE (1961 ـ 1962م)، 33، 179 (رقم: د 22 ـ 29).

(4) ديساي، «المنقوشات الخلجية والتُغلُقية من گوجرات»، 3 ـ 4. عن موقف عوفي كانبهايا الذي أسيء فهمه من قبل نظام الدين، **مقدمة**، 14، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 171، وا، 44.

(5) IB، IV، 71 ـ 103 (تر. جيب وبكينغهام، 805 ـ 818). انظر عموماً ج. ف. جوارني، **الملاحة البحرية العربية في المحيط الهندي** (برنستون، 1951م)؛ ستڤن ف. ديل، **المجتمع الإسلامي على حدود آسيا الجنوبية: مابيلا المعبر 1498 ـ 1922** (أوكسفورد، 1980)، الفصل الأول؛ وينك، **الهند**، ا، 276 ـ 280.

(6) الهويسالا: IB، IV، 195 ـ 196 (تر. جيب وبكينغهام، 861). الباندیا: KF، 149؛ DR، 72.

التوسع، فإن علينا أن نَحْذَر من اعتبار كل انتصار مَعْلماً تاريخياً بارزاً. فبعض حملات علاء الدين، لم تكن سوى عمليات توسيع لدائرة نشاط سلاطين القرن الثالث عشر: كان إخضاعه لرنثانبور، مثلاً، عبارة عن استعادة موقع حصين سبق له أن كان في يد المسلمين مرتين.

لسنا كذلك بصدد مرحلة جديدة من الفتح والاستيعاب في كل مكان، بالضرورة. صحيح أن الذراع العسكرية للسلطنة امتدت بصورة دراماتيكية مثيرة؛ وأن قلاعاً هندوسية كانت، حتى الآن، لا تقدم الخراج إلاّ بصورة متقطعة، باتت الآن، مقرات للولاة أو المُقْطَعين المسلمين؛ غير أن الاندفاع نحو الجنوب، غالباً ما بقي، مكتفياً بتكرار النمط الملحوظ في الشمال طوال السنوات المئة ونيف، السابقة. في رواية برني لقصة الغزوة الناجحة الأولى لتيلانغ، يوصي علاء الدين قائد جيشه، ملك كافور، بألا يبذل أي جهد لأَخْذ قلعة آرانغال أو للإطاحة بملكها: لقد كان مستعداً للتوصل إلى تسوية عاجلة، شرط الحصول على مبالغ من الأموال والمجوهرات والفيلة والخيل، وضمان الخراج عن السنوات المقبلة[7]. كثيراً ما تكرر قبول إذعان هذا الأمير أو ذاك، من قِبل السلطان أو ممثليه، بتربيت اليد المطمئنة النموذجية على الظهر، التي كان يحصل عليها مبعوثو رودراديفا التيلانغي من كافور، وراي (أمير ـ ملك) نغاركوت من فيروزشاه[8]. ثمة الهوة العميقة ذاتها التي تفصل بين ما هو مثالي ـ ممارسة السيطرة الإدارية المباشرة على مجمل مناطق مملكة هندوسية بائدة ـ وواقع كان كامناً في صلب نوع محتوم من المساومة والحلول الوسط، مع قوى محلية أو حكم إسلامي مباشر، محصور بحفنة صغيرة من النقاط المحصنة

(7) TFS، 327: ثمة سطر محذوف هنا وموجود في مخطوطة BL ملف 162 أ.

(8) KF، 104. عفيف، 189، 244. عن نغاركوت، انظر أيضاً ل. س. تشاندل، «إشارات إلى كانفارا وسيمور في المصادر الوسيطة المبكرة في كتاب الدولة الوسيطة المبكرة (دراسة لسلطنة دلهي) (نيودلهي، 1989م)، 104 وهـ. 39؛ ثمة إشارات إضافية في هوديڤالا، **دراسات**، ا، 321.

المنيعة. وكما سوف نرى فإن السنوات الأخيرة للحقبة الخَلْجية، كانت ستشهد بدايات سياسة أكثر تشدّداً.

الحملات في الهند الشمالية

گوجرات(*)

كان محمود الغزنوي قد استباح مدينة سومنات الشهيرة بمعابدها على الشاطئ، جنباً إلى جنب، مع مركز نهراولا (آنهيلاوارا؛ باتان الحديثة) التجاري الغني؛ وقد تعرض الأخير في 593 هـ / 1197م للمصير نفسه، مرة أخرى، حين قام قطب الدين آيبك بنهب ما فيه. غير أن هجمات إسلامية أخرى على آيبك، لا يرد لها أي ذكر بعد ذلك التاريخ، لا على التشاولوكيا ولا على أقربائهم الڤاغيلا الذين خلفوهم حوالي سنة 1242م، حتى نهاية القرن تقريباً. ومن ثم، بادر علاء الدين في سنة 698 هـ / 1299م إلى إرسال أخيه أُلُغ خان والوزير نصرت خان، لمحاربة مملكة الڤاغيلا. ربما كان غرضُ الحملة الرئيسي متمثلاً بنهب سومنات، في تقليد مدروس، دون شك، لما فعله محمود الغزنوي. يبدو أن كارناديڤا، ملك الڤاغيلا، اعترض جيش المسلمين لمنعه من المرور لدى اقترابه من گوجرات، ولكنه هُزم ولاذ بالفرار إلى باغلانا الواقعة إلى الجهة الجنوبية ـ الشرقية (في منطقة ناسيك). تمت استباحة سومنات ونهروالا، كما قام نصرت خان بنهب كانبهايا، ربما في ذي الحجة / أيلول / سبتمبر 1299 م. ثمة منقوش جايني، ينبئنا عن أن قوات السلطان احتلت شبه جزيرة كاتياواد، على الرغم من أن ساتيابورا (ساخور) نجت بأعجوبة. وبعد ذلك، انسحب جنرالا علاء الدين إلى دلهي مثقلين بكميات هائلة من الغنائم، دون أن يعترض تقدمهما سوى حركة عصيان فاشلة، من جانب بعض القادة المغول من المسلمين الجدد(9).

(*) تُكتب هكذا (گوجرات) في المصادر.

(9) انظر عموماً س. سي. ميسرا، **صعود النفوذ الإسلامي في گوجرات**، طبعة ثانية (نيودلهي، 1982)، =

على العكس من الانطباع الحاصل أحياناً، لم تتمخض هذه الحملة عن أي فتح إسلامي، أو عن الإطاحة الحاسمة للڤاغيلا. فرواية برني لقصة الحملة، تتضمن البيان المضلل الذي يقول إن كارناديڤا لاذ بديوغير، ملتمساً حماية راماديفا، ملك ياديڤا. والحقيقة، هي أن ذلك لم يحصل إلاّ بعد بضع سنوات. ثمة كتابة منقوشة ثنائية اللغة تعود إلى سنة 704 هـ / 1304م تبين كارناديڤا راسخ الأقدام في فادودارا (بارودا)، على المساحات الشرقية من مملكته، وقد أحاط به، بالمناسبة، اثنان من الأمراء المغول المسلمين الجدد اللذين كانا قد فرا من جيش دلهي[10]. أضف إلى ذلك، أن عصامي يصف غزوة ثانية لآيبك، نفذها القِرابك أحمدي تشهيتام. يبدو أن هذه الحملة هي التي استباحت ساخور سنة 1310م؛ وأن فرار كارناديڤا إلى دكّان ومنها إلى تيلانغ، وقيام علاء الدين بتعيين الوالي المسلم الأول متمثلاً بشخص آلب خان، حصلا آنذاك[11].

= 61 ـ 64؛ لال، **تاريخ الخلجيين**، 67 ـ 73؛ HN، 334 ـ 336. يرد تاريخ الفرمان الذي يأمر **العارض** بالإعداد للحملة على أنه يوم الأربعاء الواقع في العشرين من جمادى الأولى 698 هـ، في بيت شعر، في KF، 47 (لال، **تاريخ الخلجيين**، 68، يخطئ إذ يعتبر هذا تاريخاً فعلياً للمغادرة): لأن العشرين كان في الواقع يوم اثنين (23 شباط / فبراير 1299)، هوديڤالا (**دراسات**، ا، 248 ـ 249) افترض أن السنة المقصودة كانت 697 هـ. غير أن التاريخ الصحيح موجود حقاً في جدول زمني قبل بضعة أسطر: الثاني والعشرون من جمادى الأولى 698 / الخامس والعشرون من شباط / فبراير 1299 (KF، 46 ـ 47). أما شهر ذي الحجة الذي يورده وصّاف، 447، فربما يشير إلى موعد الهجوم على كانبهايا. وعن تاريخ استباحة سومانات (حزيران / يونيو 1299م)، انظر د. ب. ديسكالكار، «منقوشاً خاتياوا»، NIA 1 (1938 ـ 1939م)، 695. يجب أن تكون الحملة قد امتدت إلى سنة 1299 ـ 1300م، نظراً لما جاء في **تيرتا كالبا** لجيناباربها بعد حوالى ثلاثين سنة: ج. بوهلر، «رواية جاينه لنهاية الفاغهيلا في گوجرات» IA 26 (1897م)، 194 ـ 195.

(10) TFS، 251. ز. أ. ديساي، «منقوش فارسي ـ سنسكريتي عن كارنا ديڤا فاغهيلا من گوجرات»، EIAPS (1975م)، 13 ـ 20؛ ARIE (1980 ـ 1981م)، 6 ـ 7، 123 ـ 124 (رقم: ب 98). انظر FS، 255 (تر. 425)، عن هرب الأميرين المغوليين إلى كارناديڤا.

(11) ميسرا، **النفوذ الإسلامي**، 64 ـ 66، رغم وضع تاريخ هذا الغزو الثاني في 704 هـ / 1304 ـ 1305 م. FS، 286 ـ 288 (تر. 461 ـ 463). عن استباحة ساتيابورا (ساخور) في 1310م، انظر بوهلر «رواية جانبية»؛ 195. عدم الترحيب بكارناديڤ في ديوغير يوحي بأن هربه كان قبل خضوع ملك الياديڤا لدلهي في 706 هـ / 1307 م.

ومع ذلك، فإن السيطرة الإسلامية على آيبك بقيت مُرقَّعة، حتى بعد هذا الاجتياح الثاني: ربما تعرضت، في الحقيقة، للتقويض جراء عصيان وحدات الحامية الإقليمية الذي أعقب إعدام آلب خان. ففي آيبك، كما في الأماكن الأخرى، يلاحظ ابن بطوطة وجود «متمردين يقيمون في أماكن يتعذر الوصول إليها في الجبال»[12]. ويؤكد كاتب، من أوائل القرن السابع عشر، أن علاء الدين لم ينشر نور الإسلام إلاً في المناطق الواقعة إلى الشرق من خط ممتد من نهروالا إلى بهاروتش، وأن تاريخ استئصال الممارسات الوثنية في الأقاليم النائية (**أطراف وجوانب**) يعود إلى عهد السلاطين المستقلين بدءاً بالقرن الخامس عشر، فصاعداً[13]. قد لا يكون هذا منصفاً للحقبة التُغْلُقية، غير أن القول، إن الأوضاع السياسية المحلية كانت شديدة التباين يبقى صحيحاً. إن الأدلة الكتابية والنقشية الدالة على الحكم الإسلامي حتى عهد محمد بن تُغْلُق، متركزة في الشرق، في بتلاد وباتان وبهاروش وكانبهايا[14]. . ويتم العثور على ناوساري بوصفها إقطاعاً مع حلول سنة 725 هـ / 1325م[15]. أما في 745 هـ / 1344 ـ 1345م فإن نانادياڤا، كبير (**مقدَّمي**) سالهر (سالير) ومولهر (مالير) في باغلانا، يبدو وكأنه مستقل فعلاً[16]. إن جزءاً كبيراً من شبه جزيرة كاتياواد، كان خارج دائرة نفوذ ولاة السلطان.

(12) IB، 245 (تر. جيب، 672).

(13) سيكاندار «مانجهو»، **مرآتي سيكانداري**، 42 (تر. بايلي، 97).

(14) بيتلاد: ميسرا، **النفوذ الإسلامي**، 67؛ ARIE (1975 ـ 1976)، 145 (رقم د 114، 723 هـ / 1323 م؛ رقم د 115، 713 هـ / 1313م). باتان: ز. أ. ديساي، «منقوش من أوائل القرن الرابع عشر من گوجرات»، EIAPS (1970م)، 13 ـ 15 (715 هـ / 1315م). بهاروتش: م. نظام، «منقوشات من رئاسة بومباي»، EIM (1933 ـ 1934م)، **ملحق**، 25 ـ 26 (721 هـ / 1321 ـ 1322م)، 27 (726 هـ / 1326م). كانبهايا: أ. م. حسين، «ستة منقوشات عن السلطان محمد بن تُغلُق شاه، EIAPS (1957 ـ 1958م)، 29 ـ 34 (725 هـ / 1325م)؛ ARIE (1973 ـ 1974م) (رقم: د 80، 734 هـ / 1334م).

(15) TMS، 98. ق. م. منير، «منقوشتان غير منشورتين من زمن السلطان محمد بن تُغلُق»، EIM (1939 ـ 1940)، 24 ـ 26.

(16) TFS، 512، داعياً إيّاه «مان ديو»؛ ولتحديد الهوية، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 299.

فحاكم قندهار كان يدفع الجزية إلى دلهي، زمن زيارة ابن بطوطة، أوائل أربعينيات القرن الرابع عشر؛ غير أن حاكم غوغا (قوقا) الهندوسي، الذي كان، ذات يوم، معترفاً بالولاء لدلهي، ما لبث أن توقف عن الإقرار بمثل هذا الاعتراف، كما يقول ابن بطوطة[17]. استمر أعضاء، من عائلة فاغيلا الحاكمة في إدارة بدانداهيديسا، تحت سيادة دلهي، كما في حالة خضوع لسلاطين آيبك المستقلين، في أوقات لاحقة[18]. أما في فاماناتالي (وانتالي) التي كان أُلُغ خان قد عاقب أميرها (راناها) مامداليكّا وأدّبه في حملة سنة 1299م، فإن أسْرة هذا الأمير الحاكمة، التشوداساما، تمكنت من بسط سلطتها على جزء كبير من إقليم گوجرات (جوناغاره)[19]. وحين دخل محمد بن تُغْلُق گوجرات، في أثناء مطاردته للمتمرد تاغاي سنة 1349م، بادر إلى اعتقال «كانهغار»، راناغيرنار، وفرض جامعي خراجه وجزيته على المنطقة[20]. مستحيلٌ حقاً أن تكون إقامته، التي دامت ثلاث سنوات في گوجرات ـ وهي الزيارة الأولى لسلطان حاكم من دلهي ـ قد تمخضت عن أي تشديد لقبضة السيطرة على الإقليم.

راجستان ومالوا

بقيت رنثانبور هدف الكثير من الحملات القادمة من دلهي، في القرن الثالث عشر. ولكن أميرها، راجاها، هامّيراديڤا، الذي اعتبره عصامي صديقاً لعلاء الدين، ما لبث أن أوجد سبباً للحرب عن طريق توفير الملاذ لعدد من الأمراء المغول، الذين تمردوا خلال الحملة الأولى على آيبك[21]؛ وفي أعقاب

(17) IB، IV، 58، 59، 61 (تر. جيب. وبكينغهام، 799، 800، 801).

(18) راي **تاريخ الأُسَر الحاكمة**، 1046 هـ. 1.

(19) عن مامداليكا، انظر بوهلر، «رواية جانبية»، 194؛ عن منقوشات أضرحة الأسرة، ديسكالكار، «منقوشات كاتياواد»، 576 ـ 590، إلخ، (خصوصاً 578 ـ 579).

(20) TFS، 521، 523؛ للتعرف على «كانهغار»، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 302 ـ 303.

(21) TFS، FS283 .، 255، 271 ـ 273 (تر. 425، 446 ـ 447). TMS، 77.

الغزوة المغولية الكبرى التي شنها قُطْلُغ قوتشا سنة 1299 ـ 1300م، بادر السلطان إلى إرسال أُلُغ خان، مقطع بهايانا آنذاك، ونُصْرت خان، مُقْطَع قارا، مع جيش «هندوستان» لمهاجمة القلعة. نجح الرجلان في الاستيلاء على جهاين، غير أن نصرت خان، أصيب بجرح قاتل في أثناء محاصرتهما لرنثانبور. وبالتالي، فإن السلطان انطلق شخصياً ليضطلع بمهمة إدارة عمليات الحصار. وعلى ما يقوله أمير خسرو، الذي يؤرخ لبداية الحصار في رجب 700 هـ / آذار / مارس 1301م، فقد تم الاستيلاء على رنثانبور في الثالث من ذي القعدة / الحادي عشر من تموز / يوليو[22]. سقط هامّيراديفا، وضيوفه المسلمون، في أرض المعركة. أما رنثانبور والنواحي التابعة لها، فقد وُهبت لأُلُغ خان الذي ما لبث أن توفي في غضون بضعة أشهر[23]. ومن مؤشرات متانة القبضة الإسلامية هنا، أن جهاين، التي أُعيدت تسميتها وصارت **شهري ناو** («المدينة الجديدة»)، في ظل خَلَفه، ملك عز الدين بوراخان، أمكن إخضاعها للنظام نفسه، الذي بات سائداً في قلب السلطنة، على صعيد جمع ضريبة الأرض (**الخراج**)[24].

وفي أثناء خروج أُلُغ خان ونُصْرت خان للزحف باتجاه گوجرات سنة 698 هـ / 1299م، كان ساماراسيمها، راجا (أمير) تشيتور قد حمى مملكته عن طريق دفع الجزية[25]. ويبدو أنه ما لبث أن خرج على الطاعة فيما بعد، لأن علاء الدين، شخصياً، زحف على تشيتور في جمادي الثانية 702 هـ / كانون الثاني / ديسمبر 1303 م. لا يورد برني سوى إشارة عابرة إلى هذه الحملة،

---

(22) KF، 51، 54؛ عن هذه التواريخ، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 249. عن حملة رانثانبور، انظر لال، **تاريخ الخلجيين**، 83 ـ 86، 89، 93 ـ 96.

(23) DR، 66. TFS، 283؛ قارن أيضاً 299 عن موت أولوغ خان.

(24) المصدر نفسه، 288، 299، 306. عن إعادة تسمية جهاين، انظر KF، 54؛ ثمة إشارات إضافية في غوبتا «جهاين سلطنة دلهي».

(25) بوهلر، «رواية جانيه»، 194. تأتي الصياغة غامضة: انظر لال، **تاريخ الخلجيين**، 69.

واصفاً الحصار بقصر المدة. غير أن خسرو يقول، إن المكان استسلم في الحادي عشر من محرم 703 هـ / السادس والعشرين من آب / أغسطس، وإن الراجا سلّم نفسه إلى علاء الدين[26].

تمت إعادة تسمية تشيتور، وأصبحت خضر آباد تكريماً لخضرخان، نجل السلطان ووريثه الافتراضي، الذي صار واليها الاسمي[27]. غير أن عصامي يبين أن الإدارة أوكلت إلى مملوك علاء الدين: ملك شاهين[28]. أما القصة الموجودة في الملاحم السنسكريتية كما أوردها فرشتا أيضاً، تلك القصة التي تقول بأن القلعة احتُلّت بعد موت علاء الدين من قِبَل أحد إخوة راجاجالور، أوّلاً، ثم ما لبثت أن باتت بأيدي راجات سيسوديا، على امتداد قرنين، فلا تؤيدها النقوش الأثرية، التي تُظْهِر أن تشيتور كانت ما تزال خاضعة لحكم ولاة مبعوثين من دلهي، في عهدي السلطانين التُغْلُقيين الأولين[29].

حسب كلام أمير خسرو، ظلت قوات دلهي تحاصر سيوانا (سڤانا) مدة خمس إلى ست سنوات، حتى سقطت[30]. ومهما يكن، فإن القلعة سقطت في ربيع الأول 708 هـ / آبار أيلول / سبتمبر 1308م، والراجا «ساتال ديو» قُتل، بعد تولي علاء الدين لإدارة عملية الحصار. جرى منح سيوانا، التي أصبحت خير آباد لملك كمال الدين «غُرْغ» (الذئب)[31]، الذي يعتبره سرهندي صاحب

---

(26) KF، 60، 61 ـ 62، TFS63 .، FS299 .، 281 (تر. 456)، داعياً الراجا ساماراسيمها خطأ بدلاً من ابن وخليفة راتان سينغ. التاريخي يناقشه هوديڤالا في **دراسات**، ١، 250؛ عن الحصار، انظر لال، **تاريخ الخلجيين**، 99 ـ 102.

(27) KF، 63 ـ DR64 .، TMS67 .، 77.

(28) FS، 281، 282 (تر. 456، 457). وحسب TFS، 323، كان الوالي هو ملك أبو محمد غير المعروف في أي مكان آخر.

(29) ز. أ. ديساي، «منقوشات من متحف صالة فكتوريا، ودانيبور»، EIAPS (1955 ـ 1956م)، 67 ـ 70. قارن لال، **تاريخ الخلجيين**، 110 ـ 112؛ HN، 371.

(30) DR، 69.

(31) KF، 68 ـ 72. للاطلاع على رواية أخرى لقصة الحملة حيث يدعى الراجا «سيتال»، انظر FS، 315 ـ 317 (تر. 492 ـ 494). عن لقب كمال الدين، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ١، 251.

فضل احتلال جالور والإطاحة براجاها، «كانهار ديو» (كانهادا ديڤا، نجل وخليفة سامَنْتَا سميها) أيضاً، في الوقت نفسه تقريباً. يكتفي برني بإيراد إشارة عابرة إلى إذابة المكانين، كليهما، في بوتقة ممتلكات السلطان، دون الإتيان على ذكر أية من الحملتين؛ غير أن الظاهر هو أن جالور سقطت سنة 1311م بيد الجيش نفسه، الذي كان قد استباح ساخور في السنة السابقة[32]. ويتضح من نقوش تعود إلى سنتي 1318م و1323م، أن جالور بقيت تحت الحكم الإسلامي حتى الحقبة التُغْلُقية[33].

في أثناء الحملة على رنثانبور سنة 700 هـ / 1301م، كانت قوات سلطان دلهي، قد استولت على «منطقة **(ولاية)** جهاين حتى حدود دهار»[34]. غير أن علاء الدين لم يصمم، حسب قول أمير خسرو، على «احتلال ممالك الرايات (الأمراء) الجنوبيين» إلاّ بعد أن سقطت تشيتور. ففي سنة 705 هـ / 1305م تقدم جيشه مندفعاً متوغلاً في مملكة بارامارا المالوية. في البدء، تمكنت قوات دلهي من هزيمة أمير يدعى «كوكابرادهان»، الذي يعتبره خسرو «وزيراً» أقوى حتى من الراجا نفسه، كان متخاصماً مع الملك، «ماهلاك ديو». وبعد ذلك تمّ إرسال عين الملك مُلْتاني لمحاربة ماندو، حيث حاصر الراجا شخصياً. تم احتلال المكان في الخامس من جمادى الأولى / الثالث والعشرين من تشرين الثاني / نوفمبر سنة 1305، وكوفئ عين الملك، الذي

---

(32) TMS، 78، مع وضع تاريخ سقوط سيوانا وجالور في 700 هـ، الذي ينبغي أن يكون مبكراً جداً ومتناقضاً مع شهادة أمير خسرو. TFS، 323. بهانداركار، «التثاهامانا في ماروار»، 77 ـ 78، عن تاريخ وهوية «كانهار»، أيضاً لال، **تاريخ الخلجيين**، 118 ـ 119.

(33) 1318: ديساي، «منقوشة جالور عيدغاه»، مصححاً القراءة المبكرة لـ ج. هـ. يزداني، «منقوشات عن مبارك شاه خلجي من جالور، ولاية جودهبور»، EIM (1935 ـ 1936م)، 49 ـ 50. 1323: م. أ. جغتاي، «بعض المنقوشات من لاية جودهبور، راجبوتانا»، EIM (1949 ـ 1950م)، 32. شوكوهي، **راجاستان**، ا، 45 ـ 47.

(34) TFS، 277.

كان السلطان قد منحه مالوا من قبل، بمنحة ماندو الإضافية[35]. لا يقول برني شيئاً عن فتح مالوا، غير أنه يؤكد أن ماندالخور ودهار وأوجّاين وماندوغاره (ماندو) وعلائي بور وتشاندري وإيراتش، كانت جميعاً مخصصة لـ **(لولاة)** والمُقْطَعين، خلال فترة حكم علاء الدين[36]. أما التاريخ المحدّد بدقة، الذي جرى فيه احتلال معظم هذه الأماكن، فيبقى مجهولاً. إيراتش، التي صارت سلطانبور كانت بيد المسلمين مع حلول سنة 709 هـ / 1309م، حين توقف ملك كافور هناك مدة خمسة أيام في الطريق إلى آرانغال[37]. أما تساندري، فتظهر للمرة الأولى كإقطاع في 711 هـ / 1312م. ثمة نقش أثري يعود إلى سنة 1310م في أوديابورا (منطقة فيديشا الحالية) يكشف النقاب عن أن أسرة بارامارا الحاكمة نَجَتْ، واستمرت هنا، في الجزء الشرقي من البلاد؛ غير أن الكتابة المنقوشة في 739 هـ / 1338م على جامع جديد، كانت شهادة تؤكد سيادة محمد بن تُغْلُق[38].

حسب أقوى الاحتمالات، تم إخضاع قوم التشانديلا الجيجاكابهوكتي (البوندلخاندي) في إحدى المنعطفات، خلال الحملات التي شنت على مالوا، لأن نقشاً أثرياً يعود إلى 1309م في قرية قريبة من بامهني، يقر بسيادة علاء الدين حيث كانت تسمية أحد إقطاعات هاميرافارمان، قد تمت قبل خمس سنوات

---

(35) DR، 67 ـ 68. هوديفالا، **دراسات**، ا، 249 ـ 250. عن الهبات الممنوحة إلى عين الملك، انظر KF، 56، 59، مع إعطاء تاريخ سقوط ماندو (خطأ في TMS، 77، على أنه 700 هـ)؛ DR، 69.

(36) TFS، 323؛ عن تشانديري، انظر أيضاً المصدر نفسه، 328. علاء بور يجب أن تكون علابور، بالقرب من غواليور: IB، IV، 31 (تر. جيب وبكينغهام، 786).

(37) KF، 75. عن إيراتش / سلطانبور، على الضفة الجنوبية للبيتوا عند نقطة 25 درجة / 47 دقيقة شمالاً، 79 درجة / 9 دقائق شرقاً، انظر هوديفالا، **دراسات**، ا، 252 ـ 253، وDGUP، XXIV **جهانسي**، 254 ـ 256.

(38) ARIE (1961 ـ 1962)، 169 (رقم: سي 1637)؛ أيضاً راي، **تاريخ الأسر الحاكمة**، 905 ـ 906، 908. عن الجامع، انظر ARIE (1964 ـ 1965م)، 23، 145 (رقم د 77 ـ 78).

فقط، وعلى أية حال، فإن الكتابة المنقوشة العائدة إلى سنة 1315م، لا تضفي على الملك المغمور فيرافارمان الثاني، سوى ظلال الألقاب التي حملها أسلافه[39]. قد يكون احتلال ماهوبا إحدى النتائج التي ترتبت على ذلك، على الرغم من عدم امتلاكنا لما يشير إلى أي احتلال إسلامي، قبل بناء مسجد هناك في سنة 722 هـ / 1322م، خلال حكم غياث الدين تُغْلُق[40]. وفي مناطق أعمق، جنوباً، يبدو أن البراتيهارا أُخضِعوا أخيراً، إما من قبل تُغْلُق أو خَلَفه، كما نفهم من النقوش العائدة إلى 1325 ـ 1342م التي تم العثور عليها في منطقتي داموه وجابالبور[41]. وخلف هذه البقعة، كانت تقع غونديانا (غوندوانا) التي توغل فيها محمد بن تُغْلُق سنة 1326م في طريق عودته من الدكّان: أما «رئيس الكولي»، ناغ نایاك، فقد استسلم بعد حصار، دام طويلاً، لموقعه الحصين، غير أننا لا نعلم إلى متى بقي مُذْعِناً، فضلاً عن أن تاريخ مقاطعته الفسيحة، يلفه الغموض[42].

الدواب (ما بين النهرين) وأوَد وما بعدهما

يبدو، أيضاً، أن علاء الدين قد أحكم قبضته على المناطق الواقعة إلى الشرق من دلهي، رغم أن معلوماتنا، مشوهة وناقصة، على صعيدي التفاصيل والتسلسل الزمني كليهما. باتت جاجماو، في الدواب الجنوبي، تحت الاحتلال الإسلامي مع حلول سنة 706 هـ / 1307م[43]. كان ظهور رابري،

---

(39) پ. براساد (محرراً)، **منقوشات سنسكريتية**، xix - xviii، و156 ـ 158. ر. ك. ديكشيت، **الكانديلا**، 177 ـ 178، مقتبساً عن راي بَهادُر هيرالال، «ألواح ماهوبا عن باراماردي ـ ديڤا: (ڤيكراما) ـ سامفات 1230»، EI 16 (1921 ـ 1922م)، 9 ـ 15.

(40) ز. أ. ديساي «منقوشتان عن غياث الدين تُغلُق من أوتاربرادش»، EIAPS (1966م)، 23 ـ 26.

(41) فيرما، «منقوشات من المتحف المركزي، ناغبور»، ARIE (1962 ـ 1963م)، 96 (رقم ب 430). ARIE (1967 ـ 1968م). 6، 27 (رقم: ب 108). ARIE 1969 ـ 1970م)، 84 (رقم: د 66).

(42) FS، 432 ـ 433 (تر. 659 ـ 661): في أعقاب إخماد عصيان غارشاسب.

(43) و. هـ. صدّيقي وز. أ. ديساي «منقوشات خلجية وتُغلُقية من أوتار برادش» EIAPS (1964م)، 3 ـ 4.

على اليمونه، كإقطاع مع حلول سنة 709 هـ / 1309 م؛ ثمة نقش يتحدث عن زمن علاء الدين في ماتورا؛ يعود تاريخه إلى ما بُعَيْد الغزو الأول لآيبك؛ وجاء بروز غواليور مع نهاية العهد، بوصفها مكاناً لحبس سجناء الدولة المهمين ـ وهذا كله يلقي ضوءاً باهتاً على النمو المطرد لسلطة الدولة في المناطق، شهدت فيها قبضة الحكومة في القرن الثالث عشر، قَدْراً من الضعف والهزال[44]. ومما ينطوي على قدر أكبر من الإدهاش، أن برني يزعم أن كاتيهر كانت، في ظل علاء الدين، قد أُخضعت، مثل الأقاليم الأقل تمرداً في عمق أراضي السلطنة، لنظام ضريبة الأرض (الخراج) على أساس القياس، وأن قاعدة متقدمة، مثل كابار، أمكن دمجها بأراضي التاج (الخالصة)[45].

لعل السمة التي تميز الفترة التُغْلُقية المبكرة، بصورة خاصة، هي كثافة الاستيطان الإسلامي في إقليم أوَد الخصيب. ثمة إقطاعات ظهرت هنا ـ مثل دالماو، بانغارماو، لكناو وساندیلا ـ لم تكن، بمقدار ما نعلم، موجودة في الحقبة الخَلْجية[46]. ومن بداية عهد غياث الدين تُغْلُق، كانت عمليات إنشاء النقاط المحصنة، هي الأخرى قد بدأت. فقلعة ظفر آباد (جاوبور كما سميت لاحقاً)، مثلاً، التي مُنحت إقطاعاً لابن السلطان المتبنّى الثاني تتارخان، كانت قد أُنجزت في ربيع الأول 721 هـ / نيسان /

---

(44) رابري: TFS، 358؛ وانظر يزداني، «منقوشات سلاطين عن دلهي الخلجيين، 30، هوديڤالا، **دراسات**، ا، 281. ماثورا: خان بهادور ظفر حسن، «منقوشة عن علاء الدين خلجي اكتُشفت حديثاً في موثّرا»، EIM (1937 ـ 1938)، 59 ـ 61. غواليور: TFS، 368؛ TMS، 72 (زاعماً أن أحمدي تشاب وآلوغو كانا قد احتجزا هناك في بداية عهد علاء الدين، على الرغم من تعارض هذا مع TFS، ومن شأنه أن يكون خطأ)؛ IB، III، 188، 333 (تر. جيب، 642، 717).

(45) TFS، 288؛ عن كابار، انظر المصدر نفسه، 323 ـ 324.

(46) IB، III، 342، 349 (تر. جيب، 721، 724). TMS، 93. ثمة جيوش من إقطاع بانغارما وشاركت في حمْلة تيلانغ لسنة 721 هـ / 1321 م: TFS[1]، مخطوطة «بودليان»، ملف 183 أ / مخطوطات ديغبي، ملف 154 ب.

أبريل 1321م، من قبل ملك مال، الذي ترك لنا أيضاً نقشاً مؤرخاً في محرم من تلك السنة / كانون الثاني / ديسمبر 1321م في مقاطعة الله آباد[47]. ربما جاءت طَفْرة النشاط هذه، مصممة، لتشكل تمهيداً لتدخل السلطان في شؤون سلطنة البنغال المستقلة سنة 724 هـ / 1324م، حين أعاد تنصيب أحد نجلي شمس الدين فيروز، ناصر الدين، في لاخناو تابعاً له، واستبدل الثاني، غياث الدين بهادور «بورا»، في سونارغاؤون، بضباطه هو[48]. كانت هذه المرة الأولى، التي يتم فيها الاعتراف بسلطة عاهل دلهي في البنغال منذ وفاة بلبان.

يقال إن نيبال اعترفت بسيادة علاء الدين خَلْجي عليها[49]، وإذ يزعم كاتب القرن السادس عشر، المُلاّتقي، أن علاء الدين فرض الجزية على راجا تيرهوت. يبدو هذا مؤيداً، في الصياغة المنقحة الأبكر لتاريخ برني، التي تقول، إن تيرهوت كانت تقدم الجنود في 702 هـ / 1302 ـ 1303م لدعم تلك الحملة غير الموفقة، التي شنها السلطان على تيلانغ[50]. غير أن الراجا يجب أن يكون قد أصر على استقلاله بعد موت علاء الدين، لأن تيرهوت ما لبثت أن تعرضت للإغارة خلال عهد قطب الدين من قبل ملك كافور، حامل الأختام (المهردار) (تمييزاً له عن ملك نائب الراحل)، الذي حصّل الجزية منه عنوة.

---

(47) ديساي، «منقوشتان عن غياث الدين تُغلُق من أوتار براوسن»، 19 ـ 23. ج. هـ. يزداني، «منقوشة عن غياث الدين تُغلُق من آسراوا خورد قرب الله آباد»، EIM (1937 ـ 1938م)، 6 ـ 7. عن منح ظفر آباد. انظر TFS، 428، 451.

(48) عن هذه الحملة، انظر حسين، **الأسرة الحاكمة التُغلُقية**، 74 ـ TFS76 .12ه، مخطوطة بودليان، ملف 184 ب ـ 185 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 155 ب ـ 156 أ، تقدم رواية أوفى من المصادر الأخرى بعض الشيء.

(49) لوتشيانو بيتك، **نيبال العصر الوسيط** (حوالى 750 ـ 1480م)، سلسلة روما للدراسات الشرقية، x (روما، 1958م)، 103 ـ 104.

(50) حسن نشأت أنصاري، «تاريخ بيهار السياسي في ظل الخلجيين (1290 ـ 1320م / 690 ـ 720 هـ)» JBRS 54 (1968م) 260 ـ TFS263 .[1]، مخطوطات ديغبي، ملف 113 أ.

وبعد سنوات قليلة فقط، قاد غياث الدين تُغْلُق، في طريق عودته من حملته البنغالية سنة 724 هـ / 1324م، هجوماً على تيرهوت، أورد عنه شاهد عيان يدعى احتساني دبير، الرواية الأوفى والأكمل. هرب المهراجا هاريسيمهاديڤا إلى نيبال، وسقطت عاصمته بأيدي قوات دلهي. يخبرنا عصامي، بأن أحمد بن طُلابُغا، استُبقي هناك حين عاد السلطان إلى دلهي[51]. وقد اعتبر برني، تيرهوت، منطقة خاضعة لمحمد بن تُغْلُق بعد بضع سنوات، حيث صُكّت قطع نقدية باسمه في «تُغْلُق بور، تيرهوت حسب **(العرف)**»، منذ سنة 731 هـ / 1330 ـ 1331م على الأقل[52].

فيما وراء النارمادا

الدكان وتيلانغ (تلينغانا) وكامبيلا

في أثناء اجتياح علاء الدين لديوغير سنة 695 هـ / 1296م، كان راماديڤا، ملك ياديڤا، قد التزم بدفع الجزية بصورة منتظمة. غير أنه ما لبث ـ ربما رداً على حملة قوات دلهي غير الناجحة ضد تيلانغ سنة 702 هـ / 1302 ـ 1303م ـ أن أهمل التزامه، فبادر علاء الدين في 706 هـ / 1306 ـ 1307م إلى تسييد قائده المفضل: ملك نائب كافور «هزارديناري»، ضد ديوغير. وفي التاسع عشر من رمضان / الخامس والعشرين من آذار / مارس 1307م، تمّ إلحاق الهزيمة بجيش راماديڤا، وإلقاء القبض عليه. قام علاء الدين باحتجازه في دلهي لحوالى ستة أشهر، معاملاً إيّاه بلطف، قبل أن يعيده إلى عاصمته حاكماً تابعاً، بلقب «**راي الرايات**» (**رايي رايان**) مع مظلة (تشاتر). يلاحظ برني أن راماديڤا بقي

---

(51) اختسان، **بساتين**، ملف 10 أ ـ 11 ب (تر. عسكري، «القيمة التاريخية»، 11 ـ 12). FS، 365، 416 ـ 418 (تر. 564، 628 ـ 630): يشير المحقق، أوشا، إلى أن بعض الأسطر محذوفة من قصة حملة تُغْلُق هناك عن هرب هاريسيمها، انظر بيتك، **نيبال العصر الوسيط**، 111 ـ 113.

(52) TFS، CMSD467 .، 117 (رقم: 478)، 140 (رقم: 579 ـ 581).

خاضعاً بقية حياته[53]؛ وحين وصل كافور سنة 710 هـ / 1310 ـ 1311م، إلى ديوغير، وهو في الطريق للهجوم على المعبر، فإن راماديڤا لم يقف عند حدود إبداء الحرص الشديد على تقديم المؤن والتعزيزات، بل وأمر أحد راياته المرؤوسين، بإرشاد جيش دلهي الزاحف على دفاراسامودرا[54]. كانت الطريق إلى تيلانغ، عبر ديوغير، أكثر أمناً منها عبر سيربور التي اعتمدها كافور سنة 709 هـ / 1309م، مما دفع عصامي ـ وهو من أهالي الدكّان ـ إلى الاعتراف بأن امتلاك قاعدة متقدمة، هنا، كان جوهرياً بالنسبة إلى الحملات في الأماكن الأخرى في الجنوب[55]. ولبعض الوقت، ظل انصياع راماديڤا يوفر لجيوش دلهي مثل هذه القاعدة بالتحديد؛ أما بعد موته، حين أمسكت عناصر معادية بدفة السيطرة على مملكة ياديڤا، فقد أصبح ضم ديوغير ضرورياً بالنسبة إلى علاء الدين وقطب الدين مبارك شاه.

فبعد موت راماديڤا، أواخر عهد علاء الدين، بادر نجله سينغانا ديڤا إلى قيادة نوع من رد الفعل، تعيَّن إخماده بحملة أخرى جديدة، قادها كافور الذي. ما أن أصبح قريباً، حتى فر زعيم المتمردين إلى المرتفعات. كان كافور، الذي عُين والياً، وبادر أصولاً إلى مطالبة الكتبة (**أهل القلم**) بدفاتر الحسابات (**الجرائد**)، مكلفاً بجباية الضرائب (المال) من الزراع وببناء المساجد[56]. ومنذ

---

(53) TFS، 326. ثمة رواية أوفى في KF، 64 ـ 68، وحول التاريخ انظر هوديڤالا، **دراسات**، ١، 250.

(54) KF، 122 ـ 124، 126. لم يكن راماديڤا ميتاً في هذا التاريخ، كما يُزعَم في TFS، 333: فنكاتارامانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 50 ـ 51 هـ. 88؛ لال، **تاريخ الخلجيين**، 245 ـ 246؛ فيما بعد (المصدر نفسه، 255) يضع لال تاريخ موته في 1312، 1313 م. رغم TFS، 328 ـ 329، لم يزحف كافور على تيلانغ سنة 1309، عبر ديغور بل عن طريق باسيراغاره وساربار (أي سيربور): KF، 80؛ هوديڤالا، **دراسات**، ١، 254 ـ 255؛ أيضاً جوشي وحسين، «الخلجيون والتغالقة في الدكن»، 45 (رغم القول بأن راماديڤا وضع قوات تحت تصرفه).

(55) FS، 360 (تر. 558). پ. م. جوش، «جغرافيا تاريخية لديكان العصر الوسيط»، في شيرواني وجوش (محررين) **تاريخ الدكان الوسيط**، ١، 12.

(56) FS، 333 ـ 336 (تر. 513 ـ 516)، هو المصدر الوحيد بالنسبة إلى هذا الحدث؛ انظر لال، =

سنة 714 هـ / 1314 ـ 1315م بدأت القطع النقدية تُصك باسم علاء الدين في دار الضرب الديوغيرية[57]. وبالتالي، فإن من الواضح أن جملة هذه العمليات التي أقدم عليها كافور، كانت تمثل المحاولة الأولى لضم مملكة ياديڤا، وهو تطور نُسب أحياناً إلى عهد قطب الدين مبارك شاه. إلاّ أن الروابط بين ديوغير والعاصمة، ما لبثت أن أصيبت بالوَهَن والاختلال، مع مرض علاء الدين الأخير وموته. قام السلطان باستدعاء كافور، الذي بادر لاحقاً، كما يقال، إلى الإيعاز لوكيله، عين الملك، بجلب أهالي ديوغير المسلمين، إلى دلهي[58].

أدى زحف قطب الدين جنوباً سنة 717 هـ / 1317م، حسب رواية أمير خسرو، إلى تحقيق خضوع «جميع الرايات» باستثناء «راغو»، نائب راماديڤا الراحل ووزيره، الذي حشد جيشاً، غير أنه ما لبث أن تعرض للهزيمة على يد قائد السلطان المفضل خسروخان، فلاذ بالفرار. وعلى طريق العودة للالتحاق بالسلطان، نجح خسروخان، أيضاً، في هزيمة وإعدام «هاربال ديو»، صِهْر راماديڤا وأحد أفراد عائلة تشالوكيا الحاكمة البائدة، التي سبق لها أن حكمت كالياني، الذي كان قد ائتُمن على السلطة في المنطقة، غير أنه كان قد قاد حركة تمردية[59]. ثمة مصادر أخرى لا تأتي على ذكر «راغو»، وتتحدث كما لو كان «هاربال ديو» الخصم الرئيسي. توحي رواية عصامي بوجود دوافع إضافية للحملة، إذ يقول إن قطب الدين كان قادراً على وضع اليد على الكنوز المراكمة في المنطقة، من قبل ملك كافور، وتصوير هاربال حليفاً سابقاً للنائب

= **تاريخ الخلجيين**، 255 ـ 257. تم إنجاز بناء أحد الجوامع في نالتوار في إقليم بيجابور، سنة 715 هـ / 1316 م: ج. هـ. يزداني، «منقوشة عن علاء الدين خلجي من راكاساغي في إقليم بيجابور»، EIM (1927 ـ 1928م)، 16 ـ 17.

(57) CMSD، 89 (رقم 305 سي)، 91 (رقم: 321 ـ 322).

(58) TFS، FS368 .، 336 (تر. 516)، يربط استدعاء كافور باحتفالات زواج ابن السلطان شادي خان؛ انظر المصدر نفسه، 347 ـ 348 (تر. 528 ـ 529) عن عين الملك.

(59) NS، 62 ـ 73، 195 ـ 202، انظر المصدر نفسه، 196 ـ 197، عن المهمة الأولى إلى هاربال. جوشي وحسين، «الخلجيون والتغالقة»، TFS 50[1]، مخطوطة بودليان، ملف 167 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 143 أ، يحدد تاريخ هذه الحملة بسنة 718 هـ / 1318 ـ 1319 م.

الراحل[60]. مرة أخرى، أصبحت ديوغير، التي حملت اسم قطب آباد على شرف السلطان مؤقتاً، داراً للضرب، وزُودت بإدارة تألفت من وزير وفريق من موظفي الضرائب والجباية؛ وتم تقسيم الإقليم وتوزيعه على عدد من المُقْطَعين[61]. وبعد عدد من السنين، سنة 1333 ـ 1334م، قام شخص يدعى ميلوغيديڤا، أحد أبناء سينغاناديڤا، ببناء معبد في منطقة دهول، واعتبر محمداً بن تُغْلُق سيده: وإذا كان هذا حفيد راماديڤا فعلاً، فإن الياداڤا كانوا قد جرجروا أنفسهم كتابعين للسلطان مدة طويلة[62].

في أثناء حملته الدكّانية الأخيرة، كان ملك نائب كافور، قد اجتاح مملكة كامبيلا، التي كانت قد تأسست في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. ومستفيدين من انهيار اليادیڤا في العقد الثاني من القرن الرابع عشر، كان حكامها قد وسّعوا دائرة نفوذهم، لتشمل الأقاليم الحديثة المعروفة بأسماء بيللاري وتشيتالدروغ ورايتشور ودهارواد وجعلوا كومتا وهاسدروغ (أنغوندي) مركزين رئيسيين لهم[63]. قام كافور بنهب أبعد أجزاء المنطقة، وتقدَّم حتى وصل إلى كومتا[64]. ربما تعرضت هذه المنطقة نفسها لهجوم سلطان المستقبل محمد بن تُغْلُق، في أعقاب حملته التيلانغية الثانية، لأن عصامي، يشير مواربة، إلى إخضاع غوتي (مع أجزاء من إقليمي آنانتابور وبيللاري) وكونتي (كومتا؟)[65]. إلاَّ أن فتح المملكة تم إرجاؤه حتى حوالي 1327م، حين رفض الراجا تسليم المتمرد بهاء الدين غارشاسب إلى قوات محمد بن تُغْلُق، التي اجتاحت كومتا

---

(60) FS، 360 ـ 361 (تر. 558 ـ 559). TFS، 389 ـ 390، يكتفي، بالمثل، بذكر «هاريا».

(61) المصدر نفسه 390. عن قطع نقدية باسم قطب الدين من «قطب آباد» انظر CMSD، 98 (رقم: 374 آ). انظر أيضاً HN، 434 ـ 435؛ جوشي وحسين «الخلجيون والتغالقة»، 51.

(62) ARIE (1962 ـ 1963م) 24 ـ 25، 132 (رقم: ب 744).

(63) انظر م. هـ. راماشارما، «مملكة كامبيلا»، **مجلة مصادر بومباي التاريخية عن تاريخ فيجايانـاغارا** (مدراس، 1946، 3 أجزاء)، ا، 9 ـ 21؛ فنكاتارامانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 74 ـ 75.

(64) FS، 335ـ 336 (تر. 515 ـ 516).

(65) المصدر نفسه، 131. فنكاتارامانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 120 ـ 121. عند بلد غوتى، عند نقطة 15 درجة / 7 دقائق شمالاً، 77 درجة / 39 دقيقة شرقاً، انظر IG، XII، 327 ـ 329.

في إغارة عاصفة. ثم ما لبثت هوسدروغ، التي فر إليها غارشاسب ومضيفُه، أن احتُلت هي الأخرى؛ تمكن غارشاسب من الهرب إلى دفاراسامودرا، ولكن راجا كامبيلا قُتل في المعركة[66]. باتت كامبيلا خاضعة لسيادة السلطان، ويوردها برني في قائمة الأقاليم التي يحكمها محمد[67]؛ على الرغم من أنها ما لبثت، في غضون بضع سنوات، أن أصبحت جزءاً من مملكة فيجاياناغارا (1336م تقريباً).

أما عن مد نفوذ السلطان إلى سواحل ماهاراشترا، فليس ثمة إلا القليل من الدلائل. يحدثنا رحالة أوروبي ويقول، إن تانا كانت قد ضُمّت عنوة إلى سلطنة دلهي مع حلول سنة 1321م تقريباً[68]، إلاّ أن ابن بطوطة يلمّح إلى أن الحاكم الهندوسي للمرتفعات الممتدة بين دولت أباد والكونكان («كوكان تانا»، كما يقول هو) كان مستقلاً زمن عصيان هوشانغ[69]. وحسب شهادة المؤلف نفسه، فإن حكام ساحل المَعْبر كانوا مستقلين، باستثناء أمير هِناور المسلم، الذي كان، آنذاك، تابعاً لسلطة فيجاياناغارا الصاعدة[70]. إذا كان ادعاء ابن بطوطة القائل بأن حكام المالديف المسلمين كانوا يخافون سلطان دلهي، رغم المسافة الفاصلة بينهم وبين ممتلكاته، يستند إلى أساس صلب، فإنه من الواجب، **بالأحرى**، أن ينطبق الأمر، أكثر، على حكام المعبر الذين وقعت مناطقهم على أطراف إمبراطورية دلهي.

---

(66) FS، 427 ـ 430 (تر. 654 ـ 658). IB، III، 318 ـ 320 (تر. جيب، 710 ـ 711). TFS[1]، مخطوطة بورليان، ملف 192 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 161 أ.

(67) TFS، 467.

(68) أودوريك البوردينوني، «العلاقات»، vii، 5، في ثان دن وينغايرت، **سينيكا فرانسيسكانا**، I، 423، وتر. في السرهنري يول، **كاثاي والطريق إلى هناك**، طبعة ثانية، هـ. كورديه، HS، سلسلة ثانية، 33، 37، 38، 41 (لندن، 913 ـ 916، 4 أجزاء)، II، 114 ـ 115.

(69) IB، III، 335 ـ 336 (تر. جيب، 718).

(70) المصدر نفسه، IV، 67 ـ 68 (تر. جيب وبكينغهام، 803، 804): يطلق على (هاريهارا) ملك فيجاياناغارا اسم «هارياب».

إن المناطق الواسعة الممتدة جنوب وجنوب غرب ممتلكات الياديڤ، كانت قد بدأت تجتذب اهتمام علاء الدين وضباطه، منذ وقت مبكر، يعود إلى حوالي 701 هـ / 1301 ـ 1302م، حين كان شقيق السلطان، أُلُغ خان، قد وافته المنية وهو مشغول بحشد الجيوش في رنثانبور، تمهيداً للقيام بحملة على تيلانغ والمَعْبر[72]. ثمة شكوك تم التعبير عنها بشأن المصير النهائي لمن جرى سحبهم كمجندين إجباريين من أوَذ وقارا، أولئك الذين قام علاء الدين سنة 702 هـ / 1302 ـ 1303م بسوقهم لمهاجمة تيلانغ؛ غير أن نقوشاً أثرية تكشف النقاب عن حصول اشتباك مع المسلمين، بالقرب من آبارابالي (في ولاية حيدر آباد الحالية) في وقت غير بعيد قبل 1304[73]. يكتفي برني بإخبارنا عن أن الجيوش غاصت في الأمطار الموسمية وباءت الحملة بالفشل[74]. وفيما بعد، في 709 هـ / 1309م، تم إرسال كافور إلى تيلانغ. قامت قوات دلهي بمحاصرة آرانغال (وارانغال)، عاصمة رودراديڤا الثاني («اللادّارديو» حسب تعبير المؤلفين المسلمين) ملك الكاكاتيا، واحتلت الأسوار الترابية الخارجية للقلعة، حين عرض رودراديڤا شروطاً. تُرك الملك وشأنه مقابل اتفاقية مكتوبة، تعهد فيها بتسديد الجزية السنوية[75]. وفي 711 هـ / 1311 ـ 1312م وجَّه رودراديڤا عدداً من الفيلة إلى دلهي، دليل خضوع، تعبيراً عن الالتزام بالاتفاقية[76]. غير أنه ما

(71) المصدر نفسه IV، 158 (تر. جيب وبكينغهام، 843).

(72) TFS، 283.

(73) فنكاتاراماناياّ، **التوسع الإسلامي المبكر**، 24 ـ 25.

(74) TFS، 300؛ أوفى قليلاً في TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 113. ك. س. لال، «ملاحظة حول حملة علا الدين على وارانغال (1302 ـ 1303م)»، JUPHS، 16، ج. 1 (1943م)، 118 ـ 124، و**تاريخ الخلجيين**، 78 ـ 80، يتبع خطأً غير مقنع حين يقول إن هذه الحملة كانت موجهة ضد البنغال بدلاً من تيلانغ **عن طريق** البنغال وأوريسا، كما يزعم برني.

(75) TFS، 329 ـ 330؛ انظر 326 ـ 327 عن التاريخ. يشير وصاف، بإيجاز، إلى هذه الحملة التي يقول إنها كانت بقيادة «ملك نابو»، ظفرخان و«ناناك» [ب ا ب ك في النص المطبوع] الهندي: لا يرد أي ذكر للقائدين الأخيرين في الروايات الأخرى عن الحملة.

(76) TFS، 334.

لبث، بعد وفاة علاء الدين، أن نسي، على ما يبدو، وعوده، لأن خسروخان كان في 718 هـ / 1318م، أواخر حملة قطب الدين الديوغيرية، قد أُوفد لأخذ الجزية عنوة من آرانغال. مرة أخرى أَذْعَن رودراديڤا، قبل أن تتمكن جيوش دلهي من تدمير السور الداخلي؛ ومرة أخرى، سلَّم كميات من الكنوز وأعداداً من الفيلة، والتزم بجملة من التعهدات، بشأن المستقبل، حاصلاً بالمقابل على مظلة (تشاتر)، وصولجان (دورباش) وثوب مرصع بالمجوهرات. كان خسروخان قد طلب، في البداية، تسليمه خمسة أقاليم هي بيدار (بيداركوت) وكايلاس وبودهان وآلور وكوبير (كوهير)، ولكنه ما لبث آخر المطاف أن اقتنع ببيدار[77]. ومع ذلك، فإن الإطاحة بالخَلْجيين والأحداث التي قادت إلى اعتلاء غياث الدين تُغْلُق للعرش في 720 هـ / 1320م مكّنت رودراديڤا، على ما يبدو، من التنكر لسيادة دلهي للمرة الثالثة، ومن إعادة احتلال بيدار[78]. يبدو أن النظام الجديد كان قد اتخذ قراراً يقضي بإزاحته. ففي 721 هـ / 1321 ـ 1322 قام جيشه بقيادة نجل السلطان، أُلُغ خان (السلطان محمد مستقبلاً) بفرض الحصار على آرانغال. جرى التخلي عن هذه العمليات، جراء عصيان دبَّره بعض كبار الأمراء، غير أن الأمير ما لبث، لدى وصول تعزيزات ذات شأن من دلهي، أن عاد إلى تيلانغ، واستولى على بيدار، وبات يشكل تهديداً لبودهان، التي كان رايها قد استسلم وقبل الإسلام ديناً. ثم أعاد محاصرة آرانغال، رافضاً عرض رودراديڤا باستئناف دفع الجزية. سقطت آرانغال بعد حصار دام خمسة أشهر، وتم إرسال رودراديڤا إلى دلهي، غير أنه مات على الطريق. تمكن أُلُغ خان، الذي بقي في الجنوب بعض الوقت، من إخضاع تيلانغ، مبادراً إلى تعيين الولاة والمقطَعين وضباط الجزية، في الإقليم الجديد، فضلاً عن تسلم

---

(77) NS، 114 ـ 135، يقدم الرواية الأكثر تفصيلاً: انظر 128، 132 عن التعاقدات الإقليمية؛ (ثمة في النص المطبوع ب د ر ك و ب / ب س و د ن / ك و ب / . FS، 361، 363 (تر. 560 ـ 562). فنكاتارامانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 83 ـ 86، يناقش الشهادتين المتضاربتين في كل من NS وFS بشأن هذه الحملة.

(78) المصدر نفسه، 97 ـ 98.

خراج سنة واحدة. أما آرانغال بالذات، التي نجدها دار ضرب بعد بضع سنوات، فقد أعيدت تسميتها لتصبح سلطانبور[79].

لم تتوغل جيوش السلطان في المناطق الساحلية الشرقية، إلاّ نادراً. قام خسروخان بالإغارة على موتوبالّي («مُتفيلي» ابن بطوطة) في طريقه من تيلانغ إلى المعبر سنة 718 هـ / 1318م[80]؛ وغداة حملته التيلانغية الثانية، نجح أُلُغ خان في اجتياح جاجنَغَر، ملحقاً الهزيمة بجيش الملك، وكاسباً كمية لا يستهان بها من الغنائم[81]. قيل للعمري إنه كان قد فتح البلاد، وهو يضع جاجنَغَر في قائمة أقاليم السلطان[82]. غير أن نقشاً يعود إلى 724 هـ / 1324م، عُثر عليه في راجاهموندري، في دلتا غوداڤيري، وقريباً، دون شك، من حدود مملكة جاجنَغَر الجنوبية، قد يكون، حسب أقوى الاحتمالات، التذكار الوحيد الباقي عن «فتوحات» أُلُغ خان هنا[83]. كانت العلاقة علاقة جزية خالصة. وحين غزا السلطان فيروز شاه جاجنَغَر، بعد بضعة عقود، زعم الراي، فيرابهانوديڤا الثالث، من أسرة غانغا الشرقية الحاكمة أنه وأباه كانا، كلاهما، من خدم بلاط دلهي[84]. غير أن عفيفاً،

---

(79) TFS، 446 ـ TMS450 .، FS95 .، 392 ـ 396، 400 ـ 402 (تر. 597 ـ 603، 606 ـ 609؛ بعض الأسطر محذوفة في 608)، وحده يذكر بودهان. عن موت رودراديف، انظر عفيف 395؛ أيضاً هوديغالا، **دراسات**، ا، 337 ـ 338، ومنكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 119 ـ 120 وهـ. 38. وعن قطع نقدية من «سلطانبور» (929 هـ / 1328 ـ 1329م وصاعداً)، انظر CMSD، 118 (رقم: 482)، 120 (رقم: 486)، 142 (رقم: 593 آ).

(80) TMS، 85. عن هذه المنطقة، انظر ماركو بولو، تر. مول وبليو، ا، 394 ـ 397 / تر. بول وكورديه، II، 359 361 و هـ. 1 في 362؛ بليو، **ملاحظات حول ماركو بولو**، 787 ـ 788. تقع موتوبالي عند نقطة 15/ 43 شمالاً، 80/ 20 شرقاً.

(81) FS، 402 ـ 403 (تر. 609 ـ 611). TFS، 450، محرف.

(82) MA، تحقيق سبايز، 5، 6 (تر. ألمانية 24، 26 / تحقيق فارق، 11، 14 (تر. صديقي وأحمد 29، 30).

(83) ج. هـ. يزداني، «منقوشة عن غياث الدين تُغلُق من راجا هومندري»، EIM (1923 ـ 1924)، 13 ـ 14.

(84) SFS، 67 (تر. روي، «حملة جاجناغار»، 72)؛ وانظر أيضاً عفيف، 171.

الذي كان أبوه مرافقاً للسلطان، يلاحظ أن البلاد لم يكن فيها مسلمون[85].

الجنوب الأقصى

كانت ثروة شواطئ الكورومَنْدل، المعروفة لدى المسلمين باسم المَعْبر، مضرباً للأمثال، وقد استحقت التعليق من جانب ماركوبولو بداية القرن[86]. وفي 710 هـ / 1310 ـ 1311م تقدم ملك نائب كافور باتجاه المعبر عن طريق دفاراسامودرا، التي كان ملك الهويسالافيها: باللالا الثالث، موشكاً على استغلال الحرب الأهلية الدائرة في المعبر: غير أنه، حين فوجئ، أذعن واضطلع بدور إرشاد قوات السلطان[87]. استمر هذا الاستعداد للخدمة باطراد، لأن كافوراً، لدى انسحابه شمالاً، غداة حملة المعبر، اصطحب معه إلى دلهي، فيراباللالا نجل باللالا الثالث، الذي قدَّم آيات الولاء لعلاء الدين، وكوفئ بثوب (خلعة) ومظلة (تشاتر) وثروة قبل إعادته مكرَّماً ومعززاً إلى دافاراسمودرا[88]. وبعد ذلك، لا نعرف إلاَّ القليل عن نشاطات باللالا الثالث. وعلى الرغم من أنه قد أكد استقلاله، على ما يبدو، بعد سقوط العائلة الحاكمة الخَلْجية، فإنه لم يكن ميالاً لتحدي الجيوش الإسلامية. فحين لاذ به غارشاسب، ملتمساً حمايته، فاراً من كامبيلا سنة 1327م تقريباً، لم يحاول أن يحذو حذو راجا كامبيلا، بل سارع إلى تسليم الفار أصولاً إلى ممثلي محمد بن تُغْلُق[89].

---

(85) المصدر نفسه، 165؛ عن والد عفيف، 163.

(86) ماركو بولو، تر. مول دبليو، ا، 381 ـ 386 / تر. يول وكورديه، II، 338 ـ 340.

(87) NF، 127؛ تاريخ رحيل كافور، المصدر نفسه، 116، FS، 293 ـ 295، 297 (تر. 468 ـ 470، 471).

(88) المصدر نفسه، 298 (تر. 473). فنكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 67 وهـ. 129.

(89) FS، 431 (تر. 658 ـ 659). IB ,III، 321 (تر. جيب، 711)، لا يذكر بالالا بالاسم. ج. دانكان م. ديّرت، **الهويسالا: أسرة ملكية هندية من العصر الوسيط** (أوكسفورد، 1957)، 162 ـ 164. فنكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 143 ـ 144.

أما كافور، الذي وصل إلى حدود المعبر في شوال 710 هـ / آذار / مارس 1311م، فقد كان، هنا، أقل نجاحاً منه في دفاراسامودرا، رغم الذي وفرته الثورة الأهلية المتفاعلة داخل المملكة. فحسب شائعات وصلت إلى إيران، كان الملك قد اغتيل سنة 709 هـ / 1309 ـ 1310م، على يد ابنه سوندارابانديا، الذي اغتاظ، لاستبداله في الخلافة بأخ غير شرعي، يدعى فيرابانديا، مما جر إلى الصراع بين الأخوين[90]. ولدى اقتراب كافور، هرب فيرا باندیا من عاصمته في فيرادها فيلان («بيردهول» عند أمير خسرو)، وأقلع كافور عن البحث عنه، حين اتضح أن الملك لاذ بالأدغال. وكذلك كان سوندرا باندیا، هو الآخر، قد غادر مقر إقامته في ماثورا (مادورا) قبل وصول جيش السلطان. غير أن كافوراً ما لبث أن انسحب من البلاد في ذي الحجة 710 هـ / نيسان / أبريل 1311م[91]. كانت الأمطار الموسمية قد عرقلت تقدم قوات دلهي، كما أن تقارير وصلت إلى إيران تتحدث عن تجييش جيش جرار ضدها[92]. وفي أعقاب هجوم كافور، استأنف الأخوان صراعهما الذي كان جيران المعبر، بمن فيهم السلاطين، شديدي التوق للتدخل فيه. هُزم سوندارا باندیا ولاذ بقوات علاء الدين، طالباً الحماية (ربما في ديوغير)، التي كان قد تمكن بمساعدتها، مع حلول بداية سنة 1314م، من إعادة فرض نفسه في إقليم آركوت الجنوبي[93]. وفي حوالي 718 هـ / 1318م، بادر قطب الدين مبارك

---

(90) وصّاف، 530 ـ KF531 .، 127، يشير بإيجاز إلى قتل الأب والصراع. عن تاريخ وصول كافور، انظر المصدر نفسه، 143؛ بعد مغادرته دفاراسامودرا (المصدر نفسه، 142) بخمسة أيام.

(91) المصدر نفسه، 148، 150، 152 ـ 153، عن هرب فيرياندیا؛ 154 ـ 155، عن الإقلاع عن البحث؛ 160 عن هرب سوندارا باندیا من مادورا؛ 166، عن انسحاب كافور. تعرّف فنكاتاسوبها آيار «بردهول» (أوياكوندان تيرومالاي، على مسافة بضعة أميال من أورايور) في «منقوشة سرير انغام عن كاكيتا براتابارودرا: ساكا 1939م، EI، 27 (1947 ـ 1948م)، 311؛ ديرّت، **الهويسالا**، 233. عن إخفاق الحملة، انظر فناكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 65 ـ 67.

(92) KF، 150 ـ 151. وصّاف، 528.

(93) المصدر نفسه، 351: وصّاف، المصدر الإسلامي الوحيد الذي يأتي على ذكر نداء باندايا الموجه =

شاه، الخارج لتوه من معركة قمع الوالي المسلم المتمرد في ديوغير، إلى سوق خسروشاه ضد المعبر؛ احتُلّت مدينة باتان واستبيحت، وفازت قوات دلهي بكميات هائلة من الغنائم[94].

أمّا التقدم الحقيقي لجيوش السلطان في هذه المنطقة، فيعود إلى عهد غياث الدين تُغْلُق. إن المصادر الإسلامية لا تقول شيئاً عن الفتح والاجتياح، على الرغم من أن سرهندي يؤكد أن أُلُغ خان كان موجهاً لاحتلال المعبر، جنباً إلى جنب مع تيلانغ في 721 هـ / 1321 م. غير أن احتلال المعبر، مع إلقاء القبض على ملك يدعى باراكراماديفا حصل، حسب رواية أحد تواريخ باندیا، في سنة 1246 حسب تقويم ساكا (1323م)[95]؛ على الرغم من عدم احتمال تعرض المعبد في شريرانغام للتدمير حتى سنة 1327م[96]. يبد أن الملك سوندرا باندیا وآخرين من أفراد أسرته الحاكمة، كانوا لا يزالون يتمتعون بالاعتراف في أجزاء من المملكة في ثلاثينيات القرن الرابع عشر، بل وحتى بعد ذلك التاريخ، كما يبدو أن الممتلكات الواقعة في أقسى الجنوب والعائدة للباندیا، لم تُستوعب قط، لا في إقليم المعبر ولا في السلطنة المستقلة التي حلّت محله[97].

= إلى قوات علاء الدين، يعطي الانطباع الزائف بأن الأمر حصل في أثناء حملة كافور لعام 1311 م. فنكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 88 ـ 90 وهـ. 16.

(94) FS، 369 ـ 371 (تر. 569 ـ 572). انظر فنكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 93 ـ 94، عن هذه العمليات: كما يشير، FMS، 84 ـ 85، يقرن حملتين منفصلتين تماماً ضد كل من تيلانغ والمعبر إحداهما بالأخرى.

(95) TMS، 93. فنكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 122 ـ 125؛ انظر أيضاً المصدر نفسه، 70 و136، عن التاريخ. HN، 472.

(96) ج. و. سبنسر، «أزمة مرجعية في أحد المعابد الهندية تحت تأثير الإسلام: سيرانغام في القرن الرابع عشر». في باردول ل. سميث (محرراً)، الدين وإضفاء المشروعية على السلطة في جنوب آسيا. (لايدن، 1978م) 20 ـ 23 وهـ. 18.

(97) فنكاتارا مانيّا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 156 هـ ARIE15 . (1980 ـ 1981م) 5، 77 (رقم: ب 199). ك. ج. كريشنان، «أضواء جديدة على سلطنة مادوراي»، في PSMI، 156 ـ 157.

أهداف الحرب والإنجازات

كان الغرض الأوَّلي للحملات الموجهة نحو قلب شبه الجزيرة الهندية، متمثلاً بالحصول على الغنائم وضمان الجزية. ففي نصيحة يوجهها علاءُ الملك، عم علاء الدين، حسب رواية برني، إلى ابن أخيه، ثمة حَضٌّ للسلطان على عدم ترك أية فِيلَةٍ أو جياد أو ثروات بحوزة الرايات (الملوك) والرانات (الأمراء) مع الدأب على المطالبة بهذه الأشياء، سنة بعد سنة[98]. كان يجري تجريد الحكام الهندوس المسحوقين، بصورة منتظمة ومدروسة، من ثرواتهم وممتلكاتهم. فالجزية الهائلة التي فرضها خسروخان على رودراديڤا التيلانغي، بلغت، حتى بعد خفضها، ثمانية وأربعين **لاكاً** (4800000) من القطع الذهبية المسكوكة[99]. والمعابد، أيضاً، اضطرت للتخلي عن كميات كبيرة من الذهب، كما حصل لمعبد بيردهول أو المعبد الذهبي الموجود في مكان أطلق عليه أمير خسرو اسمي «بارمابوتري» و«مارهاتبوتري» كليهما، تركه كافور أنقاضاً وخرائب، خلال حملته المعبرية[100]، إن نهباً على هذا المستوى من الاتساع سرعان ما اكتسب طابعاً أسطورياً. فبرني يزعم أن بعضاً من الكنوز التي دفعها راماديڤا سنة 695 هـ / 1296م كان ما يزال موجوداً في خزينة محمد بن تُغْلُق، في أيامه هو (برني)، في حين كانت الكمية المأخوذة من دفاراسامودرا والمعبر في 710 هـ / 1311م استثنائية حقاً، بلغت، بزعم الزاعمين، 96,000 **مانٌ** من الذهب والمجوهرات واللآلئ ـ غنيمة من الواضح أنها تركت انطباعاً عميقاً لدى أهالي دلهي الأكبر سناً[101].

---

(98) TFS، 270.

(99) NS، 128، 132.

(100) KF، 156 ـ 159، DR160 .، 72.

(101) TFS، 223، 333 ـ 334. هوديغالا، **دراسات**، II، 103 ـ 105، يناقش الكميات الكبيرة من الذهب التي تم تحصيلها في 1311. من غير المحتمل أن نتمكن من إسناد حساباتنا، كما فعل هو، إلى **مان** دلهي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، الذي يقدرها بحوالي 11025 إلى 12824 كيلوغراماً: انظر فالتر هنز، **المكاييل والموازين الإسلامية (بالألمانية)** (لايدن، 1955)، 22 ـ 23.

لم تبق دائرة أعمال النهب الضارية، التي أقدم عليها قادة مسلمون، محصورة بالأمراء الهندوس والمعابد الهندوسية. فخسروخان متّهم بالسطو على ممتلكات تاجر مسلم غني ومحترم، لم يجد ضرورة للهرب من جيش بقيادة إخوته في الدين، في أثناء حملة سنة 718 هـ / 1318 م. وهذا الشخص الذي يدعوه برني خواجا تقي والذي يظهر في رواية عصامي المفصلة أكثر، على أنه سراجي تقي، وقائم بالأعمال (فارمانّووا) في باتّان[102]، كان ينتمي إلى الأسرة الحاكمة التي كانت تسيطر على جزيرة قيس في الخليج الفارسي. وحسب ما يقوله وصّاف، فإن عمه تقي الدين عبد الرحمن (المتوفى سنة 702 هـ / 1302 ـ 1303م)، وزير ملك المعبر ومستشاره، كان مسؤولاً عن استيراد جياد الحرب من قيس والمناطق المجاورة[103]. ويخبرنا وصّاف أيضاً، بأن أملاك سراج الدين، نُهبت، خلال غزو كافور للمعبر سنة 715 هـ / 1315م (ربما حملته التي جاءت دعماً لسوندارا باندیا قبيل وفاة علاء الدين خَلْجي، غير أنها ما لبثت أن أُعيدت إليه حين تقدم بشكوى. وبما أن هناك من يقول بأن والد سراج الدين، كان متمتعاً بعلاقات ودية مع علاء الدين[104]، فإنه من المحتمل أن تكون تصرفات خسرو خان، بعد بضع سنوات، انعكاساً لحدوث تغيير في الخط السياسي؛ غير أن ما لا شك فيه، هو أن الفاتح (الغازي) لم يتحرك إلاّ بدافع الشَّرَه، إزاء ثروة سراج الدين.

تبرز الفيلة والخيول والنقود بوصفها غنائم من جهة، وجزية من جهة ثانية، وعلى حد سواء، في روايات المؤرخين. وثمة أرقام دقيقة للجياد التي تم الحصول عليها عبر هذه الحملات الجنوبية، ترد أحياناً في المصادر. فعلاء الدين كان قد حصل على بضعة آلاف في حملته الديوغيرية لسنة 695 هـ /

(102) TFS، 398 ـ FS399 .، 369 ـ 370 (تر. 570 ـ 571).
(103) وصّاف، 302 ـ 303، 505. عن الأسرة الحاكمة، انظر أوبان «أمراء هرمز»، 89 ـ 99.
(104) وصّاف، 646 ـ 647.

1296م[105]. وقام كافور بجلب عشرين ألف جواد من آرنغال سنة 709 هـ / 1310م، وخمسة آلاف فرس يمني من المعبر، بعد سنتين اثنتين[106]. بلغ ما سلّمه رودراديڤا إلى خسروخان، اثني عشر ألفاً من الجياد العربية (تازي)، مع تقديم الوعد بإرسال ألف كل سنة في المستقبل[107]. أمّا الأرقام الخاصة بالفيلة فتبدو، بالمقارنة، أميل إلى التواضع أحياناً: عشرون من گوجرات سنة 698 هـ / 1299 م؛ ثلاثون أو نحوه من رامادیڤا سنة 695 هـ / 1296م، إضافة إلى سبعة عشر أخرى في 706 هـ / 1307 م؛ أربعون من جاجنَغَر سنة 1324م[108]. أمّا من رودراديڤا التيلانغي فقد ابْتَزَّ كافور سنة 709 هـ / 1309م مئة، في حين زوده الملك، في أثناء عبوره النارادا خلال حملته المعبرية في 710 هـ / 1311م بثلاثة وعشرين فيلاً إضافياً، بادركافور إلى إرسالها إلى علاء الدين في دلهي[109]. وفي أثناء هجوم خسروخان، عرض رودراديڤا مئة فيل، واشترط المنتصر إرسال مئة سنوياً[110]. يبدو أن اقتناء أعداد كبيرة من الفيلة ذات النوعية الرفيعة، كان يعتبر هدفاً رئيسياً من أهداف اجتياح المعبر سنة 710 هـ / 1311 م. ذلك هو ما يقال في **دول راني** تأليف خسرو، وما يرد في رواية عصامي لقصة توجيهات السلطان لكافور. من المؤكد أن كافوراً بات يعطي الأولوية للإمساك بالفيلة، بل ويفضل ذلك، حتى على إلقاء القبض على فيراباندیا، ويصف خسرو غضبه الشديد، لعدم عثوره على أكثر من اثنين أو ثلاثة من هذه

---

(105) TFS، 223.

(106) KF، 101، TFS163 .، 330، ثمة سبعة آلاف جواد بين الغنائم المأخوذة من آرانغال في 709 هـ / 1310 م؛ المصدر نفسه، 333، عن عشرين ألفاً من المعبر في 710 هـ / 1311 م.

(107) NS، 12، 128، 132.

(108) گوجرات: TMS، ديوغير: TFS، 223، 326. جاجناغار: المصدر نفسه، 450؛ منه TMS، 96.

(109) DR، 70؛ TFS، FS330 .، 291 (تر. 466)، يحدد ثلاثاً وعشرين في المناسبة الأولى، غير أن من الواضح أن هذه هي الفيلة التي تم إرسالها سنة 1311 م: KF، 120؛ فنكاتارا مانيا، **التوسع الإسلامي المبكر**، 39 ـ 40 وهـ. TFS56 .، 334، يذكر وصولها إلى دلهي (وإن اعتبر عددها الإجمالي عشرين).

(110) NS، 120، 128، 132. انظر أيضاً FS، 362 (تر. 561)، عن التسليم الأولي لمئة فيل.

الحيوانات في مادورا[111]. ومع ذلك، فإن الحملات المعبرية تمخضت، رغم خيبات الأمل هذه، عن أعداد كبيرة بصورة غير عادية من الفيلة، أعداد أكبر مما تم الحصول عليها، عبر الحملات التي كانت في أماكن أبعد إلى الشمال. يقول أمير خسرو إن كافوراً جلب معه إلى دلهي خمس مئة واثني عشر فيلاً، على الرغم من أن من شأن هذا، أن يكون قد جعل الأمور أكثر صعوبة بالنسبة إلى أولئك الذين جاؤوا بعده، نظراً لأن خسروخان لم يستطع في 718 هـ / 1318م أن يضع يده على أكثر من مئة[112].

باتت عمليةُ التحول من سياسة قائمة على النهب، وجباية الجزية، إلى أخرى مستندة إلى فرض الحُكْم المباشر، كما حصل في الدكّان قبل بضع سنوات، ملحوظةً وظاهرة خلال الهجوم على آرانغال في 721 هـ / 1321م، حين رفض أُلُغ خان عرض رودراديفا الإذعان، وأصر على متابعة تشديد الحصار[113]. غير أن المرء يحق له السؤال عن حقيقة ضم هذه الأقاليم النائية، بصورة فعلية، في أي من الأوقات. ثمة مسافات طويلة كانت تفصل دلهي عن أقاليمها الجديدة: فابن بطوطة كان يعتقد، بمبالغة يمكن تسويغها، أن تيلانغ كانت على مسافة ثلاثة أشهر من السفر عن العاصمة، والمعبر ستة[114]. وقد تمخضت مثل هذه المسافات عن أشكال مرعبة من التأخير في بث الأخبار. قام سلاطين القرن الرابع عشر بتوسيع نظام شبكة المحطّات البريدية الواصلة إلى الأقاليم النائية من إمبراطوريتهم[115]. غير أن النظام كان يتعرض، أحياناً، للانهيار؛ كانت الجيوش تبقى خلف أفق الاتصالات وتبدو غائصة في نوع من

---

(111) DR، FS70 .، 293 ـ 294 (تر. 468). KF، 155، 160.

(112) 1311 م: المصدر نفسه، 161: قد يكون الرقم الإجمالي 612 الذي كان 36 منه قد أُخذ من دافارا سامودرا، كما جاء في TFS، 333، خطأ؛ مثله مثل الرقم المدوَّر 700 الوارد في FS، 298 (تر. 472). 1318 م: TFS، 398، 400.

(113) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 183 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي 155 أ. TFS، 447.

(114) III, Ib، 192، 208، 328 (تر. جيب، 644، 652، 715).

(115) مثل، TFS، 330 ـ 331.

البقاع المأهولة بالأشباح. ففي 721 هـ / 1321 ـ 1322م، تمرد قادة الجيش، خارج آرانغال، لأن تأخيراً دام بضعة أسابيع، أخفق فيها المراسلون أن يصلوا من دلهي، ما لبث أن أفرز شائعات تقول إن السلطان تُغْلُق قد تمت الإطاحة به[116]. هناك، أحياناً، طابع غير واقعي، بصورة مدهشة، يميز أسباب الوصل التي تربط مثل هذه المناطق النائية، بسيدها الإمبراطوري (السلطاني).

اعترفت منطقة الدكّان بسلطان دلهي منذ أقل من ثلاثين سنة؛ والفترة الزمنية بالنسبة إلى كل من تيلانغ الشرقية وكامبيلا والمَعْبر، هي أقصر حتى من ذلك. ومع ذلك، فإن الحكم العابر للسلاطين أورث الدكّان تركة واحدة، ذات أهمية رئيسية. ونظراً لانطواء هذه المنطقة على قيمة استراتيجية نسبة إلى ممالك جنوبية أخرى، فإن العواهل الخَلْجيين والتُغْلُقيين دأبوا على بذل جهود حثيثة، في سبيل تحقيق استيطان إسلامي للممتلكات اليادافية السابقة. وبالتالي، فإن هذه البقعة، وحدها، شهدت ـ ولما يمض أكثر من جيل واحد على فتحها، وهو أمر مدهش حقاً ـ غَرْساً كثيفاً وراسخاً للإسلام. أمّا الأقاليم الجنوبية الأخرى، فسرعان ما تخلت عن عقيدة السلاطين مع سيادتهم، وعادت إلى الكُفْر. غير أن تأثير الخضوع لدلهي، عدداً من السنين، كان سيبقى، مع ذلك، في ثقافة وألقاب بلاط فيجاياناغارا، حيث كان عواهل القرن الرابع عشر يطلقون على أنفسهم اسم «السلاطين بين ملوك الهندوس»[117].

من الشهادات المثيرة المؤكّدة لسلطة الحكومة ونفوذها في الدكّان، أن مجيد الدين أبا رِجا، **مشرف** ديوغير، واجه، في أثناء عصيان تيلانغ سنة 721 هـ / 1321 ـ 1322م، المتمردين في موقع كاليالي، على رأس عدد كبير من مُلاك الأراضي (**الزاميندار**) ـ ربما كانوا من النبلاء الهندوس أصحاب الأراضي[118].

---

(116) المصدر نفسه، 447 ـ 448.

(117) فيليب ب. فاغونر، «سلطان بين ملوك هندوس»: اللباس والألقاب وأسلحة الثقافة الهندوسية في فيجاياناغارا»، **مجلة الدراسات الآسيوية**، 25 (1996م)، 851 ـ 880.

(118) FS، 398 ـ 399 (تر. 604 ـ 605).

من الممكن أيضاً، رؤية جهود محمد بن تُغْلُق الخاصة التي بذلها منذ سنة 727 هـ / 1326 ـ 1327م في سبيل قلب ديوغير، التي تمت إعادة تسميتها، وجعلها دولت أباد، إلى عاصمة ثانية لإمبراطوريته، على أحد المستويات، بوصفها الشهادة الأقوى والأبلغ على مدى قوة الحكم الإسلامي هنا. غير أن الحكم الإسلامي هذا بقي، حتى في الدكّان، حيث ترسخ بثبات، متفاوتاً، ولم يمتد إلاَّ إلى عدد محدود من المواقع الحصينة قبل أن ينفصل الإقليم عن دلهي.

تبقى طريقة تعزيز الحكم الإسلامي وغرس الديانة الإسلامية، عمليتين مخفيتين عن أنظارنا، إلى حد كبير. ربما كان المقاتلون الصوفيون، الذين يرد وصف نشاطاتهم في سير الأولياء اللاحقة، قد اضطلعوا بدور بارز وهام. هناك رواية وصلتنا، وهي تتحدث عن قصة حياة أحد الأولياء المقاتلين هؤلاء؛ إنه خاندايات المعبري، في بيجابور غداة حملة كافور المعبرية في 710 هـ / 1311م، وقد كان البروفسور إيتون على حق، حين اعتبر الخطوط العريضة للقصة صحيحة، وأقر بأن خاندايات هذا كان واحداً من المسلمين، الذين سبق لهم أن كانوا في خدمة الباندْيا[119]. ويبدو أن المجاهد الصوفي عبد الله شاه تشانغال، كان حسب ما جاء في كتابة منقوشة على ضريحه، تعود إلى منتصف القرن الخامس عشر، قد دخل مالوا على رأس فرقة عسكرية تابعة له، ولعب دوراً شديد الشبه بدور سَلَفه في عملية هداية ذلك الإقليم إلى الإسلام؛ من الممكن أيضاً، أن تعزى نشاطاتُه، هو الآخر، إلى حقبة علاء الدين[120]. غير أن علينا التذكر أن الصوفيين لم يكونوا جميعاً يعتمدون أساليب القوة والعنف، لأن ابن بطوطة سمع أن كفار

(119) ريتشارد م. إيتون، **صوفيو بيجامور بين 1300 و1700م** (برنستون، ن. ج. 1978م) 27 ـ 30.

(120) ج. هـ. يزداني، «المنقوش على ضريح عبد الله شاه تشانغال في دهار»، EIM، (1909 ـ 1910)، 1 ـ 5؛ وانظر ARIE (1971 ـ 1972م)، 80 (رقم: د 71). بصورة أعم، انظر ديفيد ن. لورنزن «مقاتلون زُهّاد في تاريخ الهند الوسيط»، JAOS 98 (1978م)، 61 ـ 75.

سيلهت تم كسبهم إلى صف الإسلام، عبر الوساطة السلمية لشاه جلال[121].

نادراً ما نسمع عن مناطق محددة ممنوحة كإقطاعات خلال السنوات التي جاءت بعد الفتح مباشرة، على الرغم من أن ساغار، الواقعة إلى الجنوب من غولبارغا، كانت قد مُنحت قبل 1326م، إلى بهاء الدين غارشاسب، أحد أبناء عمومة محمد بن تُغْلُق[122]؛ كما لا يمكن حسم التراكم التدريجي للنفوذ الإسلامي في الدكّان، إلاّ بقدر محدود بالاستناد إلى النقوش الأثرية. ثمة نقوش تبين، مثلاً، أن جالنا، التي لا تبعد سوى أميال قليلة عن ديوغير، باتت خاضعة للاحتلال الإسلامي مع حلول سنة 724 هـ / 1324م، وأن بهادغاؤون (في خاندس الشرقية)، صارت صاحبة مسجد في 728 هـ / 1328م[123]؛ لما كانت بيجابور قد أصبحت مقر الوالي المسلم مع حلول سنة 1320م، حين جرى بناء مسجد في المدينة[124]. ولتكوين فكرة ما، عن عدد المراكز الخاضعة للحكم الإسلامي، يتعين علينا، فيما عدا ذلك، اعتماد رواية عصامي لقصة أحد الدكّان، في أربعينيات القرن الرابع عشر، حيث نطّلع، مثلاً، على حقيقة أن دانغيري وتشانتشيوال، في الزاوية الشمالية الغربية من مملكة يادافا لسابقة، كانتا قد أُخذتا من زعماء هندوس، من قبل جيوش براهمانية في حوالي سنة 1350م[125]. غير أن مواقعهما الحصينة، تميل بأكثريتها، كما يقال لنا، لأن تكون متركزة في جهتي الجنوب والجنوب ـ الغربي من الإقليم، في قوس بين ديوغير وكاكاتيا عاصمة آرانغال السابقة. وهنا تظهر غولبارغا وبيدار وكاليانى وكوبير (كوهير) كسلسلة متماسكة من القلاع الممسوكة بالقبضة الإسلامية[126].

---

(121) IV, IB، 216 ـ 217 (تر. جيب وبكينغهام، 870). إيتون، **صعود الإسلام**، 73 ـ 76.

(122) FS، 424 ـ 425 (تر. 651).

(123) جالنا: ARIE(1964 ـ 1965م)، 23، 153 (رقم: د 161). بهادغاؤون: منير، 23 ـ 24.

(124) م. نظام **منقوشات بيجابور**، MASI، 49 (دلهي، 1936م)، 25.

(125) FS، 560 (تر. 834).

(126) غولبارغا: المصدر نفسه، 485 (تر. 726). بيدار وكوير: المصدر نفسه، 476 (تر. 715).

كانت بيدار ـ مثلها مثل بودهان إلى الشمال ـ قد أُخذت من رودراديفا من قبل أُلغ خان حوالي سنة 1322م، وفي كالياني، نجد مساجد قيد البناء في عشرينيات القرن الرابع عشر[127]. ومن الجهة الأخرى، فإن قلاع مارام وآلكوت وماهانداري (مهاندري) المجاورة، كانت لا تزال تحت تصرف رايات الكفار، مطلع الحقبة الباهمانية[128]. وإلى جهة غاتس الغربية، كانت ساتارا وميراج، قد أصبحتا بأيدي المسلمين مع حلول أربعينيات القرن الرابع عشر[129]. أما إلى الشمال مباشرة من ميراج فإن بالغاؤون (بالغاوم الحالية) وهو كايري (هاكيري)، وهي إقطاع السلطان الباهماني المقبل، حسن غانغو، في ذلك الحين، توصفان، مرة بعد أخرى، من قبل عصامي، على أنهما أمارة حدودية (سرحد)[130]. وقريباً من هذه البقاع كانت تقع ماندهول (مودهول الحالية) وجامخاندي وتيردول وباغاركوت (باغالكوت الحالية)، الأقاليم العائدة للأمير الهندوسي المستقل نارايان، الذي سيثبت أنه خصم مرهوب الجانب بالنسبة إلى النظام الباهماني الوليد[131].

يقول برني إن زعماء (مقدَّمي) تيلانع تخلوا، في 709 هـ / 1309م، عن المواقع الحصينة التي استولى عليها جيش السلطان، على امتداد الطريق؛ أما ذكرُ ما إذا جرى وضع حاميات في مثل هذه المواقع، فلا يقال لنا[132]. غير أن قلاعاً معينة أبدت قَدْراً من المقاومة. فكافور اضطر للتوقف في سيربور، التي أخذها وسلمها لشقيق زعيمها[133]. أمّا كوتغير، التي كان

---

(127) 723 هـ / 1323 م: ARIE (1965 ـ 1966م)، 155 (رقم: 246)، مصححاً القراءة الأبكر لـ ج. يزداني «منقوشات من كالياني»، EIM (1935 ـ 1936م)7 1 ـ 3. 726 هـ / 1326 م: ARIE(1965 ـ 1966م) 14 ـ 15، 157 (رقم: د 271).

(128) FS، 562 (تر. 836). انظر هـ. ك. شيرواني، **بهمانيو الدكان** (حيدر آباد، AP، 1953)، 53.

(129) ساتارا: FS، 519 ـ 520 (تر. 770). ميراج: المصدر نفسه، 540 ـ 542 (تر. 811 ـ 812).

(130) المصدر نفسه، 521، 526، 532 (تر. 772، 778، 785).

(131) المصدر نفسه، 590 ـ 591 (تر. 871 ـ 872).

(132) TFS، 329.

(133) KF، 80 ـ 82؛ عن المتصرف.

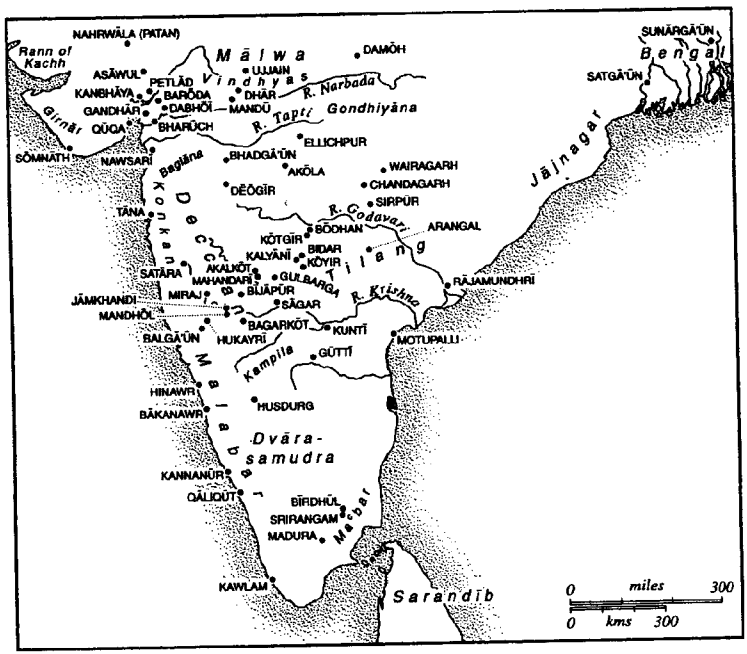

اجتياح گوجرات ومالوا والجنوب

مجير الدين أبو رجا فارضاً الحصار عليها، بعد عدد من السنين، في أثناء العصيان ضد أُلغ خان، فتبدو، رغم كل شيء، باقية بأيدي الأعداء، لأن قُطْلُغ خان الذي حكم الدكّان أوائل أربعينيات القرن الرابع عشر، باسم محمد بن تُغْلُق، انتزع كوتغير من يد أحد «المتمردين» الهندوس، ونَصَّب عليها أحد أعوانه. أمّا منطقة تشانداغاره (تشاندا، أي تشاندرابور)، التي أرسل ابنه لنهبها، في الوقت نفسه تقريباً، فقد كانت مستقلة بصورة واضحة، وخاضعة لأمرائها الهندوس بالذات[134].

(134) FS، 397 ـ 398، 482 ـ 483، 500 ـ 501 (تر. 603 ـ 604، 723 ـ 725، 747 ـ 748). تحديد هوية الأخير يبدو شبه مؤكد لأن الرواية تقول إن الجيش الإسلامي تقدم عن طريق آكولا («آنكولا» في النص).

التفوق العسكري للمسلمين

كتب أمير خسرو في كتابه **نوح سيبير** (سفر نوح)[135] يقول «يذهب الهندوسي على الدوام ضحية التركي». وبعد قليل يبادر، بعد أن يشبّه التركي بالأَسَد والهندوسي بالغزال، إلى الزعم بأن الأتراك، ما إن يهموا حتى يصبحوا قادرين على سحق الهندوس، فضلاً عن إلقاء القبض عليهم وشرائهم وبيعهم[136]. أما برني فيقوّل السلطان بلبان على مسامع أبنائه إن «ستة أو سبعة آلاف فارس مسلم فقط، قادرون على هزيمة **لاك** واحد من المشاة (البايك) ورماة الرماح (الدهانوك) الهندوس»[137]. مما لا شك فيه، أن ماركوبولو حين اعتبر رجال المعبر ـ الذين لا حيلة لهم في المعركة سوى الترس والرمح ـ مقاتلين بائسين، كان يكرر ما قاله مخبروه المسلمون[138]. وتفوق الجيوش الإسلامية أمر، يكاد أن يكون عاماً ومسلَّماً به دونما نقاش، في مصادرنا (الإسلامية). غير أن التفسيرات المقنعة لمثل هذا التفوق، تبقى بعيدة عن متناول اليد. ثمة ارتباط واضح بين تأكيد السيادة الإسلامية عبر الجزء الأكبر من شبه القارة من جهة، وإصلاحات علاء الدين الإدارية، التي مكَّنَتْ السلطان من تجنيد أعداد أكبر من العساكر برواتب، والتي ستتم معاينتها في فصل لاحق، من جهة ثانية[139]. أحياناً، كانت جيوش علاء الدين، هي الأخرى، تستفيد من واقع كون خصومها الهندوس ممزقي الصفوف، كما في مالوا سنة 705 هـ / 1305م ـ أو بعد محاولتهم الناجحة الأولى على الأقل ـ في المعبر.

---

(135) NS، 89، **هندوبواد صيدي توركان هاميشا**، قارن الرأي الذي يُعزى لبالالا الثالث في KF، **هارغار هندوبيشي تورك... تاب نايارد**.

(136) NS، 130، 131.

(137) TFS، 52.

(138) ماركو بولو، تر. مول، وبليو، ا، 389 / تر. يول وكورديه، ا، 342. عن إشارات أخرى إلى التفوق الإسلامي في المصادر الأخرى، انظر عزيز أحمد، «الملحمة والملحمة المضادة في هذا العصر الوسيط»، JAOS، 83 (1963م)، 470 ـ 471.

(139) TFS، 30 وما بعدها، 326.

ومهما يكن، فإن المراقبين، من داخل السلطنة، كانوا يعتقدون بأنهم قادرون على تفسير انتصارات السلطان على الهندوس، على أسس تقنية أيضاً. فالهندوس لم يكونوا رماة جيدين، حسب كلام خسرو[140]؛ وقد علق ابن بطوطة قائلاً: إن سهامهم تفتقر إلى القوة[141]. وقد قيل إن خصوم السلطان الهندوس لم يبادروا قط، إلى اعتماد الرماية من على ظهور الجياد[142]. ربما كان ذلك صحيحاً بالنسبة إلى بعض الجيوش الهندوسية دون غيرها. فعصامي، مثلاً، يصف جيوش ديوغير التي كانت بقيادة ابن راماديڤا سنة 695 هـ / 1296م، ونظيرتها في جاجنَغَر، التي هزمها أُلُغ خان في حوالي سنة 1322م، على أنها، جميعاً حشود من الرمّاحين والسيّافين «على الرغم من أن العبارة قد تكون أسلوبية بلاغية، أكثر منها ملاحظة انتقادية[143]. من الواضح أن قوات دلهي كانت متمتعة بالتفوق على صعيد أنماط معينة من الأسلحة. تعطي رواية عصامي لقصة حملة كافور الآرانغالية مكانة بارزة بعض الشيء، للقوس والنشاب (الناواك)، وحين قام أُلُغ خان بالهجوم على آرانغال للمرة الثانية، يقال إنه استولى على الدفاعات الخارجية والداخلية جميعاً، بفضل قذف السهام (النشاب ـ الناواك) والحجارة بالمجانيق[144]. من المؤكد أن **الناواك** يحتل مكاناً بارزاً في قائمة الأسلحة التي استخدمها جيوش السلطان[145]. تحكي قصةٌ

---

(140) KF، 135 (خطاب عن ألسنة مبعوثي باالالا الثالث). قارن أيضاً وصف المبعوثين أنفسهم، المصدر نفسه، 137، **كمان واري كازنيشن**.

(141) III, IB، 134 (تر. جيب، 613).

(142) پ. ك. غود «الفارس الرامي للسهام في أرض المعركة الهندية ـ من أيام الاسكندر (326 ق.م) إلى معركة بانيبان (1761م)»، في كتابه: **دراسات في تاريخ الهند الثقافي** (هوشياربور وبوتا، 1960 ـ 1969، 3 أجزاء)، II، 57 ـ 70. وينك، **الهند**، II، 82 ـ 83. عن قتال الفرسان، انظر ديغبي، **جياد الحرب**، 12 وهـ. 5.

(143) FS، 234، 402 (تر. 403، 609).

(144) كافور: المصدر نفسه، 290 ـ 291 (تر. حسين، 465، لا تؤدي المعنى). أولوغ خان: TFS، 449؛ TMS، 95.

(145) مثلاً، KF، 55، 56، 57، 58 ـ 59، 80 ـ 81، 93، 128، 136، 150. لعل هذا هو السهم الذي يخترق الألواح الحديدية السبعة: المصدر نفسه، 96.

طريفة رواها عصامي عن نشاب (**غوروها**) أطلقه أحد الأتراك، لم يقف عند اختراق عجلة العربة، بل واستقر في الأرض متوغلاً حتى الريس، بأن هذا السلاح المحدد (المسمى بالسهم، صراحة، مما يدعو إلى الافتراض بأنه قوس) كان يَزْرَع الرُّعْبَ في قلوب الأعداء، حسب التقديرات[146].

من الإنصاف القول، انطلاقاً من الأدلة الواردة في المصادر السردية، إن قوات السلطان، نادراً ما كانت تحظى بفرصة الالتحام المباشر في القتال. وفي المناسبات القليلة التي حصل فيها مثل هذا الالتحام، يصوَّر جيش دلهي على أنه كسب انتصاراً شبه مجاني، دون أي جهد ذي شأن، ـ كما حين بادر جيش مالوا إلى تحدي عين الملك في 705 هـ / 1305م، أو عندما خرج ابن راماديڤا ليتحدى كافوراً، سنة 706 هـ / 1307م، أو عندما واجه **راواتات** فيربانديا كافوراً عند مشارف بيردهول، بعد أربع سنوات[147]. غير أن رودراديڤا حرص على تجنب الالتحام في 721 هـ / 1321 ـ 1322م، كما يقال صراحة[148]. قد يكون السبب الكامن وراء هذا التفوق الإسلامي الظاهر بجلاء، متمثلاً بنوع من العجز المزمن لدى الكثير من الحكام الهندوس، على صعيد مضاهاة جيوش السلطان من حيث أعداد الجياد؛ وتوق عواهل شبه الجزيرة الهندية إلى اقتناء الجياد بأعداد كبيرة من الجزيرة العربية والخليج الفارسي، كان معروفاً على نطاق واسع[149]. ثمة مؤشرات تعود إلى منتصف القرن الثالث عشر، تدل على وجود نوع من الخلل، على هذا الصعيد، بين الحكام المسلمين والهندوس، كما حين يدعي الجوزجاني أن تشاهاداديڤا، ملك الجاجابيلا، لم يكن يتوفر إلاَّ على

---

(146) FS، 230 (تر. 397 ـ 398)؛ انظر المصدر نفسه، 54 (تر. 108)، عن **غورها** (كذا) جمّد غزالاً في إحدى حملات محمود الغزنوي، أما الـ **غورهاي ـ ي مغرب ـ ي** المذكور في KF، 90، فقد تم إطلاقه بوضوح من منجنيق.

(147) KF، 65 ـ 66، عن ديوغير؛ 151 ـ 152 عن بيردهول.

(148) TFS، 446.

(149) دينبي، **جياد الحرب**، 29 ـ 32. وينك، **الهند**، II، 83 ـ 87.

خمسة آلاف فارس مقابل مئتي ألف راجل، أو عندما لا يذكر سوى البايك (المشاة) والفيلة في الجيش الذي جلبه ملك أوريسا إلى قلب البنغال الإسلامي سنة 642 هـ / 1244م[150]. وبالمثل، فإن هاميراديڤا الرنثانبوري يجري امتداحه بامتلاك «قوات مشاة لا حصر لها» ولكن اثني عشر ألفاً، فقط، من الخيالة، عند نهاية القرن بالذات[151]. وعلى الرغم من أن مثل هذه الأرقام قد توحي، بأن قوات دلهي كانت متمتعة بقوة ضاربة أكبر من خصومها الهندوس، فإن التناسب بين الخيالة والمشاة كان يبدو، في حالات أخرى، متماثلاً تقريباً بين الطرفين. فقد كان كارناديڤا الگوجراتي، مثلاً، يملك جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألفاً من الخيالة، مقابل ثمانين ألفاً من المشاة، وكان جيش كوكا في مالوا يتألف من أربعين ألفاً من الفرسان، مقابل لاك (لاخ) (مئة ألف) من المشاة[152].

ومهما يكن، فإن الدافع الأساسي للحملات الخَلْجية والتُغْلُقية شمال مناطق الفينديا وجنوبها، هو فرض أشكال من الحصار. ثمة نقش يعود إلى 1261م، عُثر عليه في آجاياغاره، يصف ترايلوكيافارمان، ملك تشانديلا، بأنه «قادر فعلاً على توفير أماكن قوية»، وقد قيل إن من شأن ذلك تقديم دليلٍ مؤكدٍ على وجود التكتيكات الخاصة بمقاومة الإغارات الإسلامية[153]. ربما كانت حرب الحصار الإسلامية، العائدة إلى بدايات القرن الثالث عشر، تمثل خطوة متقدمة على الأسلوب الذي اتبع في الحقبتين الشمسية والغياثية، غير أن ما يدعو للأسف، هو أن مصادر القرن الثالث عشر من جهة، ونظيرتها العائدة لعهد علاء الدين، من جهة ثانية، تخفق في تقديم ما يكفي من المعلومات لتسويغ استنتاجات راسخة، وأطروحة البروفسور لال، التي تقول بأن المسلمين

---

(150) الجاجبيلا، TN ,I، 485 (تر. 691): عن هذا وغيره من الشواهد، انظر ديغبي، **جياد الحرب**، 49، أوريسا: TN ,II، 15 (تر. 739).

(151) TMS، 77.

(152) الأرقام مأخوذة من المصدر نفسه.

(153) ي. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، 100 ـ 105 (بيت 7). راي، **تاريخ الأسر الحاكمة**، 727.

كانوا متمتعين بتفوق حاسم على هذا الصعيد، يجب اعتبارها أطروحة معلقة دون برهان[154]. يقول أمير خسرو، إن أسوار رنثانبور جرى دكها بالمجانيق (**المغاربة**) (المانغونيلات)؛ لكننا نعلم، من الناحية الأخرى، أن تشيتور استسلمت، وماندو أُخذت بفضل خيانة مرتد هندوسي هارب، دلّ علاء المُلْك على الطريق المفضية إلى قلب القلعة. أمّا في حصار سيوانا، فإن وحدات السلطان بادرت إلى إنشاء **باشيب**، منصة مدرجة مصنوعة من الطين، وصل ارتفاعها إلى مستوى الأسوار، كانت ذات أهمية بالغة وواضحة في نجاح هذه الوحدات[155]. كذلك أيضاً كانت المنصة (**الباشيب**) التي أقامها خسروخان لمحاصرة القلعة الداخلية في آرانغال سنة 718 هـ / 1318م، ذات جدوى في إجبار رودراديفا على التماس الصلح[156]. ومع ذلك، بقي دور **الباشيب** في أماكن أخرى، صعب التقويم، لأنه من الواضح، أن مثل هذه الوسيلة كانت قد استُخدمت من قبل، أيضاً، في رنثانبور، وكانت قد عانت قدراً غير قليل من الخراب، تحت تأثير ضربات مجانيق العدو[157]. ففي آرانغال سنة 709 هـ / 1309م، لم ينتظر المحاصرون استكمال **الباشيب** (المنصة) قبل الانطلاق في إغارتهم على السور الترابي الخارجي[158].

في ضوء الوضع الحالي لمعرفتنا، تبقى الأسئلة الدائرة حول قدرة جيوش السلاطين على سحق خصومها الهندوس، غير قابلة للإجابة. أمّا إذا جرى

---

(154) ك. س. لال، «القوة الضاربة في جيش السلطنة»، JIH، 55 (1977م)، ج: 3، 100 ـ 101.

(155) رانثانبور: DR، 65 ـ 66. تشيتور: KF، 62؛ FS، 281 (تر. 456). ماندو: KF، 58؛ DR، 68، تذكر «شاطئاً. سيوانا: KF، 50 ـ 51، 70؛ TMS، 78، توحي أن الحصن تم اقتحامه. هوديغالا، **دراسات**، ا، 112، يجعل **باشيب**، بشيء من التصرف، تعني «أعمالاً ترابية»؛ عن هذا وغيره من الأساليب، انظر آثار علي «فنون الحصار لدى سلاطين دلهي في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر [كذا]»، OIHC 51. **كالكوتا 1990 م** (دلهي، 1991م)، 217 ـ 226، ومقالة «التكنولوجيا العسكرية»، 172 ـ 173.

(156) NS، 111 ـ 114.

(157) KF، 50 ـ 51، TFS، 277.

(158) KF، 91.

التسليم بتخلف مثل هؤلاء الخصوم دون نقاش، أكثر الأحيان، فإن التطورات الجارية في أماكن أخرى، ما لبثت أن سلطت الضوء على الأمر، من منظور آخر. لقد سأل عصامي ساخراً: «أين وكيف يمكن لجيش يُلْحق الهزائم بجحافل المغول، أن يخاف مقاتلة الهندوس؟»[159]. أما السلاطين، فقد كانت لديهم أسباب أهم وأعظم للحقد على العدو الكافر الآخر، المتربص في الجهات الشمالية الغربية، فضلاً عن الخوف منه.

(159) FS، 284، (قارن تر. 459).

الفصل الحادي عشر

الغزوات الجغتائية

مغول آسيا الوسطى يزحفون جنوباً

قمتُ في الفصل السادس باستعراض تفكُّك الإمبراطورية المغولية الأحادية، هذا التفكك أوجه، في إيجاد نوع من التحالف بين الأمراء تحت قيادة قايدو حفيد أوغوداي، في آسيا الوسطى، في مواجهة الخاقان قوبيلاي. وعلى الرغم من أن حملات قايدو الخاصة تبدو على الدوام، كما لو كانت موجهة ضد أعوان وقادة ومؤيدي قوبيلاي في منغوليا، فإن قايدو هذا، دأب في الوقت نفسه، ولو بصورة أقل مباشرة، على اتباع سياسة توسعية جنوب نهر جيحون. ويبدو حكام الأمة (الدولة) الجغتائية الذين عيَّنهم، كما لو كانوا من مرؤوسيه هو: وقد كان آخرهم وأهمهم دوآ، ابن باراق، الذي ما لبث أن أصبح خاناً حوالى سنة 681 هـ / 1282م[1]. وبرعاية قايذو، حسب كلام رشيد الدين، تمكن دوآ «بصورة تدريجية، من تجميع جيوش جغتاي»[2]؛ وحرصت قواتهم على التعاون فيما بينها، في كل من إيران الشرقية وأفغانستان. تمركز ساربان، ابن قايدو، وياساؤر، أحد كبار قواد (نويانات)

(1) جمال القارشي، 138، JT139, II ،، 192 ـ 193 (تر. بويل، 154 / تر. فيرخوفسكي، 100. بيران، **قايدو**، 32 ـ 33.

(2) JT, II، 172؛ (تر. بويل، 141 / تر. فيرخوفسكي، 92).

دوآ، إلى الجنوب من نهر جيحون، وراحا ينشران قواتهما مع حلول سنة 690 هـ / 1291م[3]. ومن الواضح أن الحلفاء كانوا قد بدؤوا يسعون، منذ هذا التاريخ المبكر، إلى فرض نفوذهم على النغودريين، إذ كان ثمة نوع من التعامل بين قايدو والجنرال الإيلخاني المرتد والمتمرد ناوروز، الذي كان يعمل لحسابه في أفغانستان منذ سنة 690 هـ / 1291م، وحتى عاد للالتحاق بالإيلخان سنة 694 هـ / 1294م[4]. ويقول وصّاف، الذي كانت روايته لقصة هذه الأحداث، أكثر تحديداً، على الصعيد الجغرافي، (من رواية رشيد الدين) إن ناوروز ما لبث أن اتخذ من «سجستان» (أي غور وغرشيستان) مقراً له، حيث كسب القوات النغودرية إلى صفّه، ويؤكد أنه كان شديد الاعتماد عليهم؛ وفي مناسبة أخرى، يرد ذكر ناوروز بوصفه زعيمهم (حاكمهم)[5]. ويبدو، بقوة، أن قايدو كان معتمداً على ناوروز، كعميل له يضطلع بمهمة الحفاظ على سيطرة مهزوزة وهشة، على أجزاء من أفغانستان. غير أن ذلك التحكم ما لبث، مع الاقتراب من نهاية القرن الثالث عشر، أن تكثف بصورة ملحوظة.

ربما جاءت التدبير العسكرية التي اتخذها قايدو، والتي لخّصها وصّاف، رداً على ارتداد ناوروز. تم تعيين ساربان قائداً عاماً للقوات المؤلفة من خمس فرق (تومنات) (خمسين ألفاً)، ثلاث منها من جيوش قايدو بالذات، واثنتان عائدتان إلى دوآ. وقد كان بين قواده، كل من الأمير الأوغودي كورَسْبَه؛ وتيمور، نجل إبيوغن، سليل أحد إخوة جنكيزخان؛

---

(3) ساربان، JT، تحقيق كارل يان، **مقدمة غازان خان**، XIV, ns, GMS، (لندن 1940م) 26 (أوفى من III, JT، تحقيق علي زاده). ياساؤور قرب بلخ: I, JT، ج: 2، تحقيق إ. ن. برزين «سبورنيك ليتوبيسي» TVOIRAO، 15 (1888م)، 217؛ تر. أو. إ. سميرنوف، **سبورنيك ليتوبيسي**، ج: 2، (موسكو ولينغراد، 1952)، 275.

(4) JT، تحقيق يان، **قصة غازان خان**، 24 ـ 26، 29، هنا أو في مما في III, JT، 268 ـ 272 (تر. آرندز، 150 ـ 152). عن ناورز، انظر عموماً بيران، **قايدو**، 57 ـ 59.

(5) وصّاف، 253؛ عن هذا المعنى للعبارة «سيستان»، انظر أوبان، «الجذور العرقية»، 91.

وقُطْلُغ قوتشا، أحد أبناء دوآ[6]. ومن زملاء ساربان، يبقى الأخير، بالنسبة إلينا، هو الأهم. يقول رشيد الدين إن دوآ قام باستدعاء الأمير الجغتائي عبد الله، ونصّب قُطْلُغ قوتشا قائداً للنغودريين في مكانه[7]. والقائد النغودري آباتش، الذي كان قد أطاع ناوروز أوائل تسعينيات القرن الثالث عشر، يظهر الآن مرؤوساً لقُطْلُغ قوتشا[8]. يقول رشيد الدين: إن قُطْلُغ قوتشا درج على قضاء فصل الصيف عند أطراف غوروغارتشيستان، والإشتاء في «منطقة غزنة وتلك الجهات»؛ أما قاشاني فيقول: إنه أقام في بيني غاو، التي تنسبها المصادر، كما سبق أن رأينا، إلى النغودريين تقليدياً؛ في حين يضع وصّاف مقر قيادته في وادي «الآرغانتوا» (آرغانداب)[9]. بات يحكم إمارةً مترامية الأطراف، امتدت من نهر جيحون نزولاً إلى المناطق الدافئة حوالي خط عرض قندهار[10]. ضَرَب قِطعاً نقدية باسمه في غزنه[11]، ومكانته الرفيعة والمبَجَّلة تتجلى من تلميح رشيد الدين إليه بعبارات توحي بأنه كان عملياً

---

(6) وصّاف، 509 ـ 510. عن كورسبه، انظر JT, II، 14 = II، ج: 1، تحقيق علي زاده، 38 ـ 39 (تر. بويل، 28 / تر. فيرخوفسكي، 17). عن تَمُر، انظر SP، ملف 103 ب ـ 104 أ؛ **معز الأنساب**، ملف 9 ب، 10 ب، 11 ب: هذا الفرع من الأسرة الحاكمة محذوف في JT, I، ج: 2، تحقيق برزين، في TVOIRAO، 13 (1868م)، 86 ـ 97 (تر. سميرنوفا، 51 ـ 54). الأميران كلاهما رافقا جيش ساربان في 1302 ـ 1303 م: قاشاني، 18.

(7) JT، III، 152 (تر. آرندز، 94)، مع تاريخ 698 هـ / 1299، الذي قد يكون متأخراً كثيراً؛ في II، 117 (تر. بويل، 144)، النص مشوَّه، وللاطلاع على القراءة الصحيحة، انظر أوباتن، «الجذور العرقية»، 84 هـ. 2.

(8) سيفي، 379 ـ 382. وصّاف، 368. كرماني **سمط العلا**، 89. أوبان، «الجذور. .» 88. ربّما كان الزعيم النَّغُودَري غير المسمى الذي قتلته جيوش الإيلخان في 1301 م: وصّاف، 417 ـ 418.

(9) JT، II، 173 (تر. بويل، 142 / تر. فيرخوفسكي، 93). قاشاني، 201. وصّاف، 367.

(10) المصدر نفسه، 368، مورداً «بلخ توابعها (**مضافاتها**) شابورغان، جوزجان، باداخشتان، كشم، تاياقان، دارا ـ ي سوف، دارا ـ ي غاز، فيروزكوه، علي آباد، ملك آباد، مرو، وملحقاتها (**لواحقها**) آندخوي، فارياب، طالقان، ماروتشاق وبانجديه». عن مواقع بعض هذه الأماكن، انظر الخارطة رقم: 2؛ أيضاً أوبان «الجذور. . .»، 92، هـ. 4.

(11) توماس، 175 ـ 176. إ. بلوشيه، «لي مونيه مونغول دولا كولكسيون ديكور دمانش» **ريفيو دو لورين كريتين** 11 (1906)، 119 ـ 120.

حاكماً مشاركاً للأمة الجغتائية، جنباً إلى جنب مع أبيه دوآ، وهو انطباع ملحوظ أيضاً في التراث التاريخي الهندي[12]. يبدو أنه كان قادراً على التصرف باحتياطات، ذات شأن، من القوة البشرية، لأنّ وصّافاً يقدر قواته بخمس فرق (تومنات)؛ على الرغم من أن عصامي يبالغ، حين يزعم، أن جيشه كان يضم مئتي ألف من الرجال، لدى قيامه بغزو الهند سنة 699 هـ / 1299 ـ 1300م[13].

من هذه القواعد المتقدمة، قام كل من ساربان وقُطْلُغ قوتشا، كما يقول رشيد الدين، بشن سلسلة من الهجمات المتكررة على الأقاليم الإيلخانية الشرقية[14]. ويعتبر وصّاف منطقة هراة موضوع النزاع والصراع فيما بين قوات الإيلخان من جهة، وقوات قُطْلُغ قوتشا المغولية، من الجهة المقابلة[15]. غير أن إغارات الأخير ما لبثت، مثلها مثل نظيرتها التي قام بها النغودريون من قبل، أن توغلت إلى مسافات أبعد بكثير في عمق إيران، كما حصل سنة 700 هـ / 1301م (بعد موت قُطْلُغ قوتشا في الحقيقة)، حين أقدمت فرقتان من قواته بنهب فارس وكرمان، بل وتقدمتا وصولاً إلى هرمز[16]. في تلك المناسبة، مثلها مثل ما حصل سنة 702 هـ / 1302 ـ 1303م، حين حاول ساربان أن يلتحق بقوات قُطْلُغ قوتشا لشن هجوم مشترك على خراسان[17]، تعرض مغول آسيا الوسطى،

---

(12) JT، I، ج: 2، تحقيق برزين، في TVOIRAO 13 (1868م) 125 (تر. سميرنوفا، 69). AHG، II، 796.

(13) وصّاف، FS367 .، 256 (تر. 427).

(14) JT، II، 11 (= II، ج: 1، تحقيق علي زاده، 28)، 173 (تر. بويل، 25، 142 / تر. فيرفوفسكي، 14، 93).

(15) وصّاف، 368.

(16) التاريخ في JT، III، 152 (تر. 94)، ومؤيد بتاريخ هرمز المفقود: و. ف. سنكلير، **رحلات بيدور تيكسيرا**، HS، سلسلة ثانية، 9 (لندن، 1902م) 160 ـ 161 (غير أن سنكلير يقع، 161 هـ. 1، في خطأ استبدال قوات الإيلخان بقُطّاع الطرق). ثمة رواية أوفى في وصّاف، 368 ـ 371، مع تأريخ مشوش.

(17) JT، II، 11 ـ 12 = JT، II، ج: 1، تحقيق علي زاده، 28 ـ 30 (تر. بويل، 25 ـ 26 / تر. فيرخوفسكي، 14 ـ 15). قاشاني، 18.

الذين أرادوا الإفادة من غياب الإيلخان غازان في سورية، للهزيمة على يد أخيه، نائب الملك خربندا[18].

يصعب تحديد المرحلة التي شهدت انتقال مسؤولية عمليات الإغارة على السلطنة من العصابات النغودرية إلى جيوش قايدو ودوآ. يقول عصامي: إن كيخسرو، حفيد بلبان، لم يكن موفقاً حين حاول التماس العون من المغول في غزنة، غداة تنصيب ابن عمه كيقباد سنة 685 هـ / 1287م، لأن المغول كانوا مشغولين بنزاعات داخلية[19]. من المفهوم أن يكون هذا صحيحاً، بالنسبة إلى المراحل الأولى من تدخل قايدو وجنرالاته على المسرح، إذ ظلت هناك مبادرات صغيرة، وعلى نطاق محدود، من جانب ما يمكن الافتراض بأنها فصائل نغودرية عاملة بصورة مستقلة. وفي حوالي سنة 698 هـ / 1298 ـ 1299م بادر علاء الدين إلى إرسال قائده ظَفَرخان ضد جماعة مغولية كانت قد احتلت سيويستان، في السند الأسفل، ربما ساعياً إلى استغلال عملية الإطاحة الحديثة بأبناء جلال الدين خَلْجي ومؤيديهم في مُلْتان. ثم طرد الغزاة، وأمكن أَسْر زعيمهم سُغداي مع أخيه، وجُلبا إلى دلهي[20]. يعتبره عصامي «تركياً»، في حين يعتبر أحد مرافقيه «بلوشياً»[21]، موحياً بأن الحدث يمثل غارة محلية من الأجزاء الجنوبية من أفغانستان الحالية. نحن نعلم أن ناصر الدين، ملك (أمير) سجستان، كان قد أرسل

(18) وصّاف، 368. قاشاني، 19.

(19) FS، 196 ـ 197، **مغولرا دار آن وقت با أهلي خويش ماغاربود ديغار مهمي باربيش**، (تر. 329).

(20) TFS، 253 ـ 254، واضعاً الغزو في نفس سنة حملة السلطان على گوجرات، أي السنة الثالثة لحكمه (المصدر نفسه، 251)، 697 ـ 698 هـ / 1298 ـ 1299 م؛ عن تأريخ تلك الحملة، انظر ص 195 من هذا الكتاب هـ. AHG9.، II، 787، 790، يحدد تاريخ احتلال سيوستان بسنة 697 هـ واستعادتها بسنة 698 هـ.

(21) FS، 251 (تر. 421 ـ 422). إن اسم الزعيم الغازي، الذي يرد عادة على شكل «سالدي»، يظهر في TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 133 أ، بصيغة س ك ن ي، ربما بدلاً من س ك ت ي، أي سَفوتي. في الأداة النقدية لطبعته لـ FS، يقترح أوشا في الحقيقة كلمة س غ د ي. وعن أصل الكلمة سوغتى / سوغَدي، انظر بليو وهامبيس، **تاريخ حملات جنكيزخان**، 129 ـ 130، 255 ـ 256.

حملة سنة 695 هـ / 1295 ـ 1296م إلى «البلد الحار (غرمسير) والمناطق المحيطة ببوست وتيغين آباد»، وكان قد طهّر الإقليم من «العصابات» (دوزدانو رونود)[22]. وربما كانت قوات سُغداي مؤلفة من الهاربين القادمين من المضارب الأبعد، جنوباً، للنغودريين، التي كانت في حالة غليان قبل مجيء قُطْلُغ قوتشا، وكانت قد أصبحت فريسة الإمارات المجاورة. وقد تكون الإغارات الآتية من هذه المنطقة قد بقيت مستمرة، حتى السنوات الأولى من القرن الرابع عشر. ثمة اجتياح مغولي آخر لسيويستان سنة 703 هـ / 1303م، بالتزامن مع حصار ترنغي لدلهي، بل واجتياح ثالث كذلك، ما لبث أن رُد على أعقابه في منطقة ثاري (ثار) من قبل آلب خان، والي آيبك، من خلال التنسيق مع تُغْلُق، مُقْطَع دَيْبَلْپور وسلطان المستقبل[23].

مات قايدو في قازاخستان الحالية سنة 702 هـ / 1303م وخلفه نَجْلُه الأكبر تشاپار. كان الحاكم الجديد، الذي لم يمر اعتلاؤه العرش دون تحدٍّ، مستعداً للانقياد إلى أستاذه دوآ، الذي اقترح أن يبادر مغول آسيا الوسطى إلى الاعتراف بخليفة قوبيلاي، الخاقان تيمور، وتدشين عصر سلام عام عبر العالم المغولي. قوبلت المبادرة بالترحيب أيضاً من قبل أعداء أبيه. وحين وصل سفراء تيمورخان في 704 هـ / 1304م إلى بلاط الإيلخان، جنباً إلى جنب مع مبعوثي تشاپار ودوآ، لإعلام الأنباء السارة، جرى استقبالهم من قبل خربندا، الذي كان قد خلف غازان حديثاً، وبات حاكماً باسم السلطان أولجايتو[24]. ونتيجة لهذه البعثة، التي كانت تضم أيضاً، ممثلين عن مغول قُطْلُغ قوتشا

(22) مجهول المؤلف، **تاريخ ـ ي سيستان**، 408 (تر. سميرنوفا، 379).

(23) TFS، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 113 ب. FS، 288 ـ 289 (تر. 263 ـ 264). نظراً لأن گوجرات كانت للتوقد تعرضت لغزو ثان من جانب قوات دلهي، فإن الهجوم المغولي لم يحدث في وقت أبكر من سنة 1309 ـ 1310 م.

(24) انظر عموماً بيران، **قايدو**، 69 ـ 74. أفضّلُ التاريخَ الذي يحدّده قاشاني، 32، والذي يؤيده تصريح رشيد الدين القائل بأن النبأ وصل غازان في العراق أوائل شعبان 702 / أواخر آذار / مارس 1303م، لموت قايدو: JA، III، 356 (تر. آرندز، 199).

وأمراء فرعيين آخرين[25]، جرى إقحام ممتلكات الإيلخان في السلام المتحقق بين حكام الخانيات (الإمارات) المغولية المختلفة. تلك هي المصالحة العامة التي كانت خراسان مدينة لها، بإبعاد العدوان الجغتائي الذي ضمنته منذ حوالي العقد من الزمن.

الأزمة: غزوات قُطْلُغ قوتشا وتراغاي

كانت حال سلطنة دلهي مختلفة. في رسالة وجهها إلى الخاقان تيمور، كان تشاپار قد أيد نوعاً من التسوية، في سبيل إطلاق طاقات ذرية جنكيزخان وتحريرها، من أجل مصارعة أعدائهم الخارجيين، وكان قد أتى على ذكر مناطق السند وهندوستان، بوصفها الهدف المحدد لمغول آسيا الوسطى[26]. فقوات قايدو ودوآ كانت قد اتجهت نحو اعتماد العمليات العسكرية، على حدود هذه المناطق، وبصورة لا تقل عن خراسان، مما تمخض عن تنامي الضغط المغولي على الهند، بشكل كبير. يقول رشيد الدين عن قوات قُطْلُغ قوتشا، إنها «محكومة إلى الأبد بأن تقاتل سلطان دلهي، وإن جيش دلهي قد ألحق الهزيمة بها عدة مرات»[27]. شهد عهد علاء الدين خَلْجي (695 ـ 715 هـ / 1296 ـ 1316م) عدداً من الغزوات المغولية، اثنتان منها كانتا على مستوى فاق كثيراً مستوى تلك العائدة إلى العقود السابقة، كما شكلتا تهديداً للعاصمة بالذات. يبدو أن المغول كانوا على اطلاع جيد بالنسبة إلى الأوضاع السائدة في السلطنة، كما يبدو أن قايدو ودوآ قد أفادا، تماماً كما فعلا في تعاملهما مع الإيلخان، من خلافات ناشبة على جبهات علاء الدين الأخرى، من أجل شن هجمات قوية على إمبراطوريته. وبالفعل، فإن سياسة السلطان القائمة على

---

(25) وصّاف، 475: التاريخ الوارد هنا، جمادى الأولى 705 هـ / تشرين الثاني / نوفمبر ـ كانون الأول / يناير 1305م، متأخر كثيراً، ويجب أن يكون، إلاّ إذا كان خطأ، مشيراً إلى بعثة لاحقة غير تلك التي كانت سبب رسالة أولجيتو إلى فيليب الرابع (بيران، **قايدو**، 71 ـ 72).

(26) وصّاف، 454.

(27) JT، 173 (تر. بويل، 142 / تر. فيرخوفسكي، 93).

التوسع والضم، على حساب القوى الهندوسية (انظر الفصل العاشر) زودتهما بالفرص المناسبة.

يعود الشاهد الأول، الذي لا جدال حوله، على حدوث عمليات في الهند من قبل مغول آسيا الوسطى إلى سنة 697 هـ / 1297 ـ 1298م، حين أَقْدَمَ قائد (نويان) قايدو، كَدَر، على اجتياح البنجاب، مستبيحاً المنطقة حتى أطراف قاشور. غير أن شقيق السلطان علاء الدين، أُلُغ خان، نجح في سحق الغزاة في موقع يدعى جاران مانجور، بالقرب من شواطئ نهر سوتلج، في الثاني والعشرين من ربيع الثاني / السادس من شباط / فبراير 1298 م. بلغ عدد قتلى المغول عشرين ألفاً، كما أن الأسرى سيقوا إلى دلهي لإعدامهم[29]. ثمة تهديد أكبر، كان متمثلاً بقوات قُطْلُغ قوتشا. جاءت أولى ضربات هذه القوات الرئيسية سنة 699 هـ / 1299 ـ 1300م، أثناء غياب جيش دلهي، منشغلاً بحملة آيبك الأولى، التي تقوم المصادر المصرية بالربط الصريح، بينها وبين الضربة الأولى[30]. ومصحوباً بأخيه تيمور بوقا[31]، زحف قُطْلُغ قوتشا على دلهي

---

(28) كان أحد مرؤوسي ساربان في خراسان سنة 702 هـ / 1302 ـ 1303م (قاشاني، 18) ويورده وصّاف بين قادة (نويانات) قايدو الذين عبروا نهر جيحون مع ساربان في 706 هـ / 1306م للالتحاق بخدمة الإيلخان. من المؤكد أن الاسم هو مو. **كدر**، «العنيد»، المشاكس: لسنغ، **قاموس مغولي ـ إنجليزي**، KF441 .، 36، يطلق على قواته اسم «أكلة الجيف لدى قايدو» **(موردار ـ خوار)**.

(29) المصدر نفسه، 33 ـ 36، للحصول على الرواية الأوفى؛ ثمة ملاحظة أكثر إيجازاً في DR، 59 ـ 60. TFS، 250، الذي يضع الغزو في 696 هـ / 1296 ـ 1297م، ولا يحدد القائد المغولي، يعطي اسم قائدي السلطان بوصفهما أُلُغ خان وظفرخان. أما جاران ومانجور اللذان يردان في هذه المصادر جميعاً فيظهران من إشارة لاحقة في TMS، 218، على أنهما واقعان في منطقة خاليندهار: هوديڤالا، **دراسات**، ا، 407؛ المصدر نفسه، 246 ـ 247، يعتبر العنصرين جاغراؤون وماتشيوارا، واقعين جنوب ـ غرب وجنوب ـ شرق لودهيانا على التوالي. وعن قاصور، على الضفة الشمالية القديمة للبياه، عند 31 درجة و8 دقائق شمالاً، 74 درجة و28 دقيقة شرقاً، انظر IG، XV، 149 ـ 150.

(30) ابن الدواداري، IX، 57؛ منه ابن أبي الفضائل، تحقيق بلوشيه، 556 ـ 557. إن الربط بين حملات السلطان الخاصة القائمة على النهب وبين هجوم قطلغ قوتشا مضمر أيضاً في قاشاني، 189. توحي المصادر المصرية أنها سقطت في 699 هـ. TFS، 254، يحدد تاريخها «عند نهاية السنة المذكورة من قبل» أي (السنة الثالثة للحكم 697 ـ 698 هـ)، مما يوحي بأنه أواخر صيف 1298 م؛ غير أن المغول وصلوا بالتأكيد في الفصل البارد. يخطئ بيهامادخاني، ملف 386 ب، إذ يجعل الغزو متزامناً مع =

بصورة مباشرة. خرج علاء الدين للقاء المغول في كيلي، مكان غير معروف الآن، غير أنه كان، على ما يبدو، يقع على بعد حوالي خمسة عشر ميلاً إلى الشمال من العاصمة[32]. تمكن جناحه الأيمن، بقيادة ظَفَرخان، من سحق يسار المغول، لكنه ما لبث، في أثناء عودته من المطاردة، أن وقع في كمين نصبته مؤخرة العدو بقيادة النويان (القائد) تراغاي، حيث تعرض للإبادة. ومع ذلك، فإن الجيش المغولي ما لبث أن انسحب[33]. يبقى تفسير برني - وهو يقول إن شهية المغول للمزيد من الصراع، كانت قد تضاءلت جراء المقاومة الشرسة التي أبداها ظفرخان، الذي كان اسمه سيصبح شائعاً بين صفوفهم - عاجزاً عن الإقناع[34]. فالسبب الحقيقي يبدو، كما تقول مصادر معاصرة، كامناً في حقيقة أن قُطْلُغ قوتشا كان قد أصيب بجرح قاتل: وقد فارق الحياة في أثناء رحلة العودة الطويلة إلى قاعدته[35].

على امتداد السنوات القليلة التالية، تابعت عصابات مغولية مؤلفة من

= حملة رانثانبور. ويقوم وصّاف، 312، بتحديد 694 هـ خطأ؛ أمّا رشيد الدين، JT، تحقيق بان، **كتابات هندية**، النص العربي .Taf، 59، النص الفارسي Taf 25 (تر. ألمانية 50)، فيبقى غامضاً.

(31) ذلك هو اسمه في FS، 260 (تر. 431). هذا صحيح: على الرغم من أنه لا يظهر في JT أو في **معز الأنساب**، فإنه وارد في لائحة أبناء دوا في SP، ملف 120 أ.

(32) هوديڤالا، **دراسات**، ا، 271، للاطلاع على نوع من المناقشة. عن المصادر التي لا يوردها يكتفي FS، 259 (تر. 430) بالقول إن كيلي هي في الدؤاب؛ غير أن مخطوطة بودليان، ملف 145 أ من TFS[1]، ومخطوطة RRL 219، يجعل السلطان يقطع 7 **كوروهات** (الكوروه الواحد يساوي حوالى ميلين) من دلهي إلى أرض المعركة. عن قوة اللعب بالألفاظ في DR، 60، تُرجح تهجئة «كايلي» في FD، III، 548 هـ. 4؛ غير أن هذا لا يكون حاسماً، نظراً لأن ألاعيب خسرو تبقى بصرية خالصة في الغالب.

(33) TFS، 260 ـ FS261 .، 262 ـ 265 (تر. 430 ـ 441): المصدر نفسه، 265 ـ 269 (441 ـ 443)، يتحدث عصامي عن مجابهة أخرى في اليوم التالي بين المغول وقوة السلطان الرئيسية. إن تهجئة «تاريخي» الموجودة عادة في الأدبيات الثانوية غير صحيحة: إنها **تو. تاراقاي**، «أصلع» (بليو، **ملاحظات حول ماركو بولو**، 69، 568)، والمعنى يؤكده تلاعب خسرو اللفظي في KF، 37، **ساري أصلاً**.

(34) TFS، 261.

(35) قاشاني، 193، DR201 .، 61، **أغارتشي حالي آز شمشير جان بورد واليك آز ساهي حاربا رافتانامورد**: هذا التفصيل المحذوف من ED، III، 548، مثبت من جديد في بيهامادخاني، ملف 387 ب (مع النظم)، TMS، 72 ـ 73، وبداؤوني، ا، 185. عن معنى **رافتانا** [ن]، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 268.

عشرة إلى خمسة عشر ألف فارس، القيامَ بغارات نهب وسلب على البنجاب، غير أنها لم تُحْدِثْ رعباً عاماً، وانسحبت في كل مرة، دون الالتحام في أية معركة[36]. أمّا عندما باتت قوات علاء الدين سنة 702 هـ / 1302 ـ 1303م، مبعثرة، مرة أخرى، على حملات نائية، شعر تراغاي، وقد أصبح قائداً لجيش قُطْلُغ قوتشا[37]، بامتلاك ما يكفي من القوة، لتهديد دلهي مرة ثانية. بدت هذه الغزوة خطراً، أكبر حتى من الذي شكلته غزوة قُطْلُغ قوتشا. اضطر علاء الدين لاعتماد التكتيكات الدفاعية، التي كان قد تجنبها خلال الهجوم السابق، متمترساً هو وجيشه، في سهل سيري. كان موقع المغول ممتداً من اليمونه وحتى سهل لوهراوات؛ غير أنهم، رغم إغاراتهم المتكررة على ضواحي المدينة القديمة، حيث توغلوا حتى الحوض الخاص (حوضي خاص)، عجزوا عن الاندفاع بقوة، خوفاً من تعريض جناحهم لخطر الانكشاف. دام هذا الجمود مدة شهرين تقريباً؛ ثم ما لبث تراغاي أن انسحب بصورة مفاجئة إلى مناطقه[38].

شكلت غزوات قُطْلُغ قوتشا وتراغاي أزمات كبرى. صحيح أن حجم جيوشهما يأتي شديد التباين في روايات برني، غير أن العدد الأقل الذي يورده هذا عن قوة قُطْلُغ قوتشا، هو عشر فرق (تومنات) أو **لاك** (مئة ألف جندي)؛ لا يقدم أية إحصائيات عن جيش علاء الدين، الذي ربما كان أقل عدداً، لأن تقارير وصلت مصر تجعل العدد ثلاثين ألفاً فقط[39]. وفي 703 هـ

---

(36) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 145 ب مخطوطة RRL، 220.

(37) وصّاف، 510 (واصفاً أحداث 705 هـ / 1305 ـ 1306م) **لاشغاري قطلغ خواجار ميدانيست**. قاشاني، 36، يعتبر تراغاي أمير (معسكر) **أوردو** قطلغ قوتشا.

(38) TFS، 301 ـ 302 : TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 113 ب ـ 114 أ، ولكن مخطوطة بودليان، ملف 145 ب ـ 146 أ، تحذف فترة الحصار. FS، 285 ـ 286، 291 ـ 292 (تر. 460 ـ 461، 466 ـ 467)، يتحدث عن غزوين لتراغاي، دام الأول أربعين يوماً والثاني شهراً كاملاً. لقد رافق عملية إغارة لاحقة في 1305م، حين لم يتمكن، بالتأكيد، من الوصول إلى العاصمة.

(39) ابن الدواداري، IX، 57، وابن أبي الفضائل، تحقيق بلوشيه، 557، عن جيش دلهي. عن =

/ 1303م، ربما جاء تراغاي على رأس جيش قوامه مئة وعشرون ألفاً من الرجال، في حين تقول إحدى مخطوطات الصياغة الأولى لكتاب برني، إن السلطان تصدى للحصار، وقاومه بجيش لا يزيد عن عشرة آلاف من الخيالة، وخمسين ألفاً من المشاة[40]. وعلى الرغم من أن مغول قُطْلُغ قوتشا، لم يصلوا في توغلهم إلى أطراف المدينة، فإن دلهي شعرت بوطأة الغزو، لأن لاجئين من الأرياف المحيطة تسببوا في رفع أسعار المواد الغذائية، حين صار التجار الحذرون عازفين عن المغامرة بالاقتراب من المدينة[41]. وفي أثناء هجوم تراغاي، كابدت دلهي متاعب أقسى أشكال الحصار. فعلاء الدين نفسه، وهو المشغول بتحجيم تشيتور وإخضاعها، لم يدرك، إلاّ متأخراً، مدى ضخامة الأزمة[42]. لم يكن ثمة أمل في الحصول على تعزيزات: لم تكن حاميات مُلْتان ودَيْبالْپور وسامانا مشغولة فقط بإغارة مغولية متوغلة في سيويستان، بل وكان تراغي قد أمّن جميع مخاضات اليمونه ومعابره، بما أجبر وحدات قوات علاء الدين، العائدة من تيلانغ، على التوقف في كول وبرن[43].

= المغول، انظر TFS، 256، مع أن الرقم من قبل، في 254، يكون عشرين تومناً؛ تكون مخطوطات TFS مختلفة ومخطوطات ديغبي متفقة هنا مع النص المطبوع في حين تقوم مخطوطات بودليان ملف 145، وRRL 219، بإعطاء عدد التومنات بالتتابع على أنه «عشرة أو خمسة عشر» و«عشرة أو اثنا عشر».

(40) المصدر نفسه، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 114 أ، عن قوات السلطان. عن جيش تراغاي، انظر المصدر نفسه، ملف 113، حيث الأول يقول «عشرة إلى اثني عشر تومناً» ثم «اثني عشر»؛ وتقول مخطوطة RRL، 220 **لاك** واحد وعشرين ألفاً» (العبارة المستخدمة فيما بعد في TMS، 73)؛ مخطوطة بودليان، ملف 145 ب، تقول عشرين إلى ثلاثين ألفاً موحية بأن عبارة سقطت. TFS، 300، يقول مرة اثني عشر تومناً (ولكن قارن مخطوطة BL مع «تومنين أو ثلاثة») و«30 أو 40 ألفاً» مرة أخرى (مخطوطة BL مختلفة ثانية، حيث يقال «20 أو 30 ألفاً»). FS، 285، (تر. 460) يورد الرقم العالي الباعث على السخرية 200000 للمغول.

(41) TFS، 254 ـ 255.

(42) TFS؛ مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 113 / مخطوطة بودلبان، ملف 145 ب مخطوطة RRL 220. قبل أن يمضي ما هو أقل من شهر وصل الجيش المغولي إلى اليمونه على بعد حوالى عشرة أميال إلى الشمال من العاصمة.

(43) TFS، 300 ـ 301.

كثيرون اعتبروا انسحاب تراغاي إحدى معجزات العصر[44]؛ وبالتأكيد، فإن المصادر لا تقدم أي تفسير. ثمة احتمال قوي أنه، استناداً إلى تجربته السابقة مع تكتيكات السلطان العسكرية، كان قد ترقب معركة التحام، وكان قد جاء دون استعداد لفرض الحصار[45]؛ والاحتمال الأقوى، هو أن اهتمامه كان مشدوداً إلى ما كان يجري فيما وراء النهر (جيحون)، إلى تلك الأحداث التي سنعاينها بعد قليل. أدى غزوُه إلى خضر علاء الدين، على إصلاح وترميم الكثير من القلاع المختلفة الواقعة على طريق الزحف المغولي؛ جرى تحصين كايتال من جديد، وثمة نقش على بوابة بارسي في هانسي، يمكّننا من تحديد تاريخ الترميم هنا بشهر ربيع الثاني من سنة 703 هـ / تشرين الثاني / نوفمبر 1303م[46]. وكذلك، فإن السلطان قام باستحداث سلسلة متنوعة من التدبير المالية والإدارية، وبالتخطيط لمضاعفة القوات المسلحة، وتجنب أي تكرار للأزمة (انظر الفصل الثاني عشر)؛ غير أن أهالي دلهي بقوا، بصرف النظر عن مدى نجاح كل هذه الإجراءات، محقين في التعبير عن الامتنان أيضاً، لذلك الصراع بين الإخوة، الذي نشب في هذا الوقت تقريباً في آسيا الوسطى.

انهيار تحالف قايدو وصعود الجغتائيين

من سخريات القدر أن تشاپاراً، وَحْدَه بين سائر الحكام المغول، هو الذي أخفق في جني أية فائدة من السلام الذي كان قد أرسى أساسه. فإذعانه للخاقان، ما لبث أن وضعه في مكانة موازية لمكانة مرؤوسه السابق، دوآ،

---

(44) المصدر نفسه، TFS302 .1، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 114 أ / مخطوطة بودليان، ملف 146 أ / مخطوطة RRL، 221.

(45) بيران، **قايدو**، 89 ـ 90، يرى أن الجيوش الجغتائية «كانت قليلة المهارة نسبياً في فنون الحصار». لستُ مقتنعاً بحجة اقتدار علم خان «وصول البارود إلى العالم الإسلامي وشمال الهند: تسليط الضوء على دور المغول»، JAH 30 (1996م)، 27 ـ 45، عن قوة مرجع واحد في KF ثمة من يقول بأن المغول كانوا يستخدمون البارود في حرب الحصار في الهند مع حلول سنة 1300 م.

(46) وحيد ميرزا، «بعض المنقوشات العربية والفارسية من البنجاب الشرقي»، EIAPS (1953 ـ 1954م) 8 ـ 9. مَهْرداد شوكوهي (محرراً) **هاريانا** ١ (لندن، 1988)، 31 ـ 33.

الذي دأب على مضاعفة تقويض مركزه، عن طريق تشجيع أمراء تشابار المختلفين على النفور والتعبير عن الاستياء[47]. وفي الحرب التي اندلعت سنة 705 هـ / 1305م، حظي دوآ بالدعم، ليس فقط من جانب الكثير من الأمراء الأوغوديين، مثل كُورَسْبَه وأشقائه خصوصاً، بل ومن القوى الحدودية التابعة للخاقان في الشرق أيضاً: اضطر تشاپار للخضوع لدوآ، فيحصل على حصة أو إقطاعة أصغر بكثير[48]. يبقى اهتمامنا بهذه الحروب ككل، أقل من اهتمامنا بتبعاتها المتشعبة في أفغانستان وعلى امتداد جيحون الأعلى، حيث تمت الضربة الأولى، على ما يبدو، في صيف 705 هـ / 1305م، على يد تراغاي، تنفيذاً لأوامر سرية صادرة عن دوآ، إذ توجه نحو الهند[49] بعد أن صدته قوات ساربان. غير أن هذا الأخير ما لبث، غداة هجوم إيسَنْ بوقا، ابن دوآ، الذي كان والده قد أرسله ليتولى حكم قوم قُطْلُغ قوتشا، أن ارتحل عن قواعده في بغلان سنة 706 هـ / 1306م، مصحوباً بكل من تيمور بن إبوغن وكيدر، وتوغل في خراسان، طلباً لحماية الإيلخان أولجايتو[50]. ثمة تفصيلات مبعثرة في مصادرنا، تؤكد الانطباع القائل بأن أفغانستان كانت غارقة في بحر من الفوضى. يقول وصّاف، إن محاولة تراغاي، الذي كان يريد الهرب إلى الهند، أعاقتها أزواج قُطْلُغ قوتشا اللواتي رفضن السماح له بالمرور بسبب عدائه لساربان، مما دفعه إلى الالتحاق بركب النغودريين[51]. وبعد وقت غير طويل، قُتل، حين اضطر إيسن بوقا للذهاب إلى «هندوستان» ـ ربما الحدود الهندية ـ لإخماد المعارضة (مخالفَتْ) داخل صفوف جيش قُطْلُغ قوتشا[52].

---

(47) قاشاني، 33 ـ 35.

(48) انظر عموماً بيران، **قايدو**، 73 ـ 77.

(49) وصّاف، 510. قاشاني، 36، ما إن يبدأ بوصف هذا الصراع حتى يتوقف فجأة.

(50) وصّاف 510 ـ 511. قاشاني، 54، يتحدث عن وصول ساربان وتَمُر إلى بلاط أولجايتو في رجب 706 هـ / كانون الثاني / ديسمبر 1307م، ولكن، حسب كلام وصّاف، 512، فإن ساربانا بقي في خراسان وقضى نحبه بُعَيْد ذلك.

(51) المصدر نفسه، 510، **با ـ قراؤونس ملحق شود**.

(52) المصدر نفسه، 517.

استمر الصراع في آسيا الوسطى غداة وفاة دوآ سنة 1306م، وفي أثناء الفترة القصيرة لحكم ابنه كونشك الذي مات سنة 1308م، ولم تتم استعادة السلام إلاً في 709 هـ / 1309م، حين جرى استدعاء إيسن بوقا من بيني غاو، ليكون خاناً لدولة، باتت الآن مؤلَّفَة ليس فقط من مناطق أبيه، بل ومن أكثرية أقاليم قايدو أيضاً[53]. غير أن هذا الهدوء ما لبث، في غضون بضع سنوات، أن تبدّد، جراء أحداث امتدت بجذورها، مرة أخرى، إلى منطقة أفغانستان الحدودية. فبعد الحكم الوجيز لشقيق إيسن، بوقا الأصغر، إيت قول للنغودريين[54]، نجد المنطقة خاضعة لسيطرة داود قوتشا، ابن أو ابن شقيق قُطْلُغ قوتشا. ومثله مثل قُطْلُغ قوتشا هذا، ظل داود قوتشا يتحرّك وينتقل بين ضفاف جيحون (آموداريا) و«أبعد أطراف شابورغان»، من جهة، والأقاليم الحارة (غرمسير) في غزنه وبيني غاو وبُست وتيغين آباد ووادي الأندوس، من الجهة الثانية. لقد أثبت أنه كان حاكماً مفعماً بالنشاط، دائباً على رسم الخطط الخاصة بهراة، وساعياً إلى إركاع اثنين من الزعماء، هما نَجْلا آباتشي: تيمور ولاكتشير. وبما أنهما يعتبران قائدي «الفلول المتبقية (**بقيات**) من النغودريين»، فقد يكون جزء من القوات النغودرية قد تمكن من استغلال الانتفاضات الأخيرة، للخلاص من دائرة النفوذ الجغتائي. ومهما يكن، بادر تيمور ولاكشير إلى طلب العون من الإيلخان أولجايتو، الذي انقضت قواته سنة 712 هـ / 1312م على داود قوتشا، واستباحت مقر قيادته في تيغيناباد[55].

---

(53) المصدر نفسه، 513 ـ 514، 518 ـ 520. قاشاني، 147 ـ 150. بارتولد، **أربع دراسات**، ا، 131 ـ 133.

(54) قاشاني، SP150 .، ملف 120 أ، **ومعز الأنساب**، ملف 32 ب، يعتبرانه من أبناء دوا. الاسم هو تو. **إيت**، «كلب» + **كول**، «مملوك ـ عبد»: كلاوسون، **قاموس**. . .، 34، 615.

(55) قاشاني، 152 ـ 153، 201 ـ 202، واصفاً هذه الأحداث مرتين. سيفي، 595 ـ 598، حوالى سنة 713 هـ، وواقعاً في خطأ اعتبار داود قوتشا أحد أبناء دوا: وحده يأتي على ذكر استباحة تيغين آباد. لا يرد أي ذكر لداود قوتشا في SP، غير أن يظهر في **معز الأنساب**، ملف 32 ب، بوصفه ابناً لأحد إخوة قطلغ قوتشا باسم قطلغ الزعماء الغودريين: قاشاني، 152. أيضاً 201 بقايا القراؤون النيكوداريين. عن اسم الأخ الثاني (ل كم ي ر في النص المطبوع)، استانبول، مخطوطة آياصوفيا 3019، ملف 67 أ، 89 أ، تورد ل ك هـ ي ر.

جاءت استجابة أولجايتو للاستغاثة النغودرية متناغمة مع الاهتمام الصريح، الذي كان قد عبر عنه من البداية بحدوده الشرقية، حيث استبدل الأسرة الحاكمة في كرمان، بموظف إيلخاني، وأعاد تأكيد السيطرة على قُهستان، وصولاً إلى احتلال هراة سنة 706 هـ / 1307م، وهي المدينة التي ظلت، لبضع سنوات، تتحدى سيادته. تقول التقارير التي وصلت إلى مصر، إن الهدف الرئيسي لحملة الإيلخان المشؤومة، في تلك السنة، والمتمثلة بإخضاع جيلان، كان مُنْصَباً على تسهيل المواصلات مع خراسان[56]. ثمة قَدْرٌ من الإغراء في ربط هذه الطَّفْرة من النشاط العسكري، بالبعثة التي أوفدها أولجايتو إلى دلهي سنة 710 هـ / 1310 ـ 1311م، طالباً خضوع علاء الدين ويَدَ إحدى الأميرات الخَلْجيات للزواج. غير أن هذه لم تكن، على أية حال، سوى صلة منعزلة، ومن المؤكد أنها لم تثمر قط، لأن أعضاء البعثة احتُجزوا، وجرى سحق ثمانية عشر منهم تحت حوافر الفيلة[57].

أدى هرب داود قوتشا، عبر جيحون، واستنجاده بإيسَن بوقا، إلى اندلاع الحرب التي دامت عدداً من السنين، بين الأمة الجغتائية والدولة الإيلخانية. كذلك بادرت قواتُ الخاقان، الذي كانت حدوده قد زحفت مسافة لا يستهان بها غرباً، منذ انهيار إمبراطورية قايدو، إلى الاشتباك في معارك مع إيسَن بوقا، وعدد البعثات والسفارات المتبادلة بين إيران والصين يبيِّن أن التضامن الطولوي

(56) كيرمان: قاشاني، 43؛ قزويني، **تاريخ ـ ي غوزيدا**، 6، 5. قُهستان: قاشاني 54. هراة: سيفي، 461 ـ 497، 503 ـ 543؛ شبولر، **المغول في إيران**، 93 ـ 94. غيلان: ابن الدواداري، IX، 149؛ ابن أبي الفضائل، تحقيق بلوشيه، 641؛ بويل «التاريخ العائلي والسياسي»، 400 ـ 401. قارن راي شبولر حول سياسته الخارجية: **المغول في إيران**، 89 ـ 90.

(57) وصّاف، 528؛ ثمة خطأ في تقديمها لسفارة ودية في عزيز أحمد، «الضغط المغولي»، 187 ـ 188، وكتابه، **دراسات**، 16. أما وزير أكبر أبو الفضل علامي فيتحدث عن سفارة أرسلها أولجايتو إلى قطب الدين مبارك شاه خلجي، برئاسة شخصية بمستوى رشيد الدين: **عيني أكبر**، تحقيق هـ. بلوشمان، BI (كالكوتا، 1872، 1877م، جزءان)، II، 206؛ تر. هـ. س. جاريت، BI (كالكوتا، 1891 ـ 1894، 3 أجزاء)، III، 348. غير أن من غير المحتمل أن يكون الإيلخان قد استخدم موظفاً أو وزيراً على هذا المستوى لمثل هذه المهمة. عن مراسلات رشيد الدين الخاصة.

كان قد عاد إلى البروز بوصفه عاملاً ذا شأن في سياسة العالم المغولي. وعند أحد المنعطفات، أصبحت القبيلة الذهبية، متورطةً هي الأخرى مع الأمة الجغتائية[58]. تخلى مغول آسيا الوسطى مؤقتاً عن سيطرتهم على أقاليم أفغانستان الاستراتيجية، التي كانت تمكّنُهم من الوصول إلى الهند. ونحن لا نعلم إذا كان داود قوتشا قد عاد ورسَّخَ وجوده في مضارب خيامه السابقة[59].

بعد وفاة أولجايتو، جوبه خَلَفُه الفتي أبو سعيد (716 ـ 736 هـ / 1316 ـ 1335م)، بعصيان دبره أمير جغتائي مرتد، يدعى: ياساؤر كان قد تشاجر مع إيسَن بوقا، وسمح له الإيلخان بالاستقرار جنوب نهر جيحون. قام الأمير المتمرد بتهديد هراة، والإغارة على سجستان حيث نجح سنة 717 هـ / 1317 ـ 1318م، في الإجهاز على نصير الإيلخان، الأمير النغودري تيمور. غير أن ياساؤر هذا، قضى في هجوم شنَّه كيبك، شقيق إيسن بوقا ونائبه فيما وراء النهر سنة 720 هـ / 1320م، قبل أن تتمكّن قوات أبو سعيد المتقدمة، من الاهتداء إلى مكانه. كانت طموحاته على درجة من الخطورة أدَّتْ لدفع أقربائه الجغتائيين والإيلخانيين إلى التعاون فيما بينهم موقتاً، في سبيل إزاحته[60].

لبعض الوقت، بدا وكأنَّ الإيلخانيين باتوا مؤهلين لممارسة السلطة في خراسان الشرقية وأفغانستان، إمّا من خلال قادة نغودريين مطواعين، مثل تيمور

---

(58) شبولر، **المغول في إيران**، 97 ـ 98. بارتولد، **أربع دراسات**، 1، 133. ت. ت. آلسن، «أسرة يوان الحاكمة وأويغور طرفان في القرن الثالث عشر»، في موريس روسّابي (محرراً)، **الصين بين أنداد: المملكة الوسطى وجاراتها، من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر** (بيركلي ولوس أنجلوس، 1983م)، 259 ـ 260. عن مشاركة الجحفل الذهبي، انظر MA، تحقيق ليش، 79 (تر. ألمانية 144 ـ 145).

(59) المتابعة (الذيل)، مجهول المؤلف، لـ JT، استانبول، مخطوطة مكتبه نور عثمانية، 2799 (الترقيم القديم: 3271)، ملف 25 ب، يزعم أن ذلك قد حصل ولكن قاشاني أو سيفي لا يؤيدانها.

(60) رسّل ج. كمبينرز، الابن، «**تجزئة الأمصار وتزجية الأعصار** لوصّاف مصدراً لتاريخ الخانية (الإمارة) الجغتائية»، JAH 22 (1988م)، 178، 185 ـ 186. كانو كازوهيده «كيبك وياساور ـ تأسيس الخانية الجغتائية»، **مذكرات قسم بحوث تويو بنكو** 49 (1991م)، 97 ـ 118. شبولر، **المغول في إيران**، 98 ـ 101. عن تَمُر، انظر سيفي، 677.

نجل آباتشي، أو عن طريق الترتيبات التعاهدية مع عدد من الأمراء المهاجرين القادمين من آسيا الوسطى، مثل ياساؤر[61]. غير أن موت أولجايتو، وما أعقبه من إجهاز على تيمور أولاً، وياساؤر من بعده، ما لبث أن فتح الطريق أمام انتعاش النفوذ الجغتائي، مرة أخرى. قد يكون هذا التقدم الجديد عائداً إلى اجتياح لإيران الشرقية، نفذه سنة 722 هـ / 1322م، كوبك، الذي كان قد بات تابعاً لإيسَن بوقا، كخان للأمة الجغتائية (حوالى 718ـ 726 هـ / 1318 ـ 1326م)[62]. أما خَلَفه ترماشيرين (726 ـ 735 هـ / 1326 ـ 1334م)، وهو ابن آخر لدوآ، فقد تعرض لهجوم القوات الإيلخانية، وهُزم في منطقة كابُل وزابل حوالي سنة 726 هـ / 1326 م؛ وقد تعرضت غزنة لأعمال النهب والتخريب[63]. غير أن الهزيمة لم تتمخض، على ما يبدو، عن أي تغيير في السادة الحكام. فابن بطوطة الذي مر عبر أراضي الدولة الجغتائية، في طريقه إلى الهند سنة 733 هـ / 1332 ـ 1333م، يشير إلى غزنه بوصفها من ممتلكات ترماشيرين، رغم أنها كانت أطلالاً وأنقاضاً، بمعظمها. كانت خاضعة لكبير أمراء الخان، بورولداي، الذي كان يتخذ بروان في الهندوكوش، مقراً له، تاركاً غزنه لضباطه (**نوابه**)[64]. تقول المؤشرات، إن منطقة غزنه بقيت داخل دائرة النفوذ الجغتائي، حتى صعود تيمولنك (تيمور لانغ = تيمورلنك).

عمليات الاجتياح اللاحقة

لم تتوقف إغارات جيوش دوآ وقايدو على شبه القارة، خلال

---

(61) كمبينرز، «**تجزئة الأمصار . . .**»، 184 ـ 185.

(62) العيني (متوفى في 855 هـ / 1451م)، **تاريخ البدر في أوصاف أهل العصر**، مخطوطة BL، النص العربي، 985 (إضافة: 22360)، ملف 13 أ؛ أيضاً في ف. ج. فرهر، فون يزنهاوزن، **سبورنيك ماتريالوف أوتنو سباشيخسيا ك إستوري زولوتي أوردو**، ا سان بطرسبرغ، 1884)، النص العربي، 494، تر. 524 ـ 525. قارن **الذيل** مجهول المؤلف لـ JT، ملف 57 أ.

(63) قزويني، تاريخ ـ ي غوزيدا، 617.

(64) IB، III، 42، 82 ـ 83، 87 (تر. جيب، 561، 585 ـ 586، 589). أوبان، «خانية الجغتاي»، 17 ـ 18. عن حالة غزنة الخربة، انظر IB، III، 88 (تر. 590).

الاضطرابات التي أعقبت وفاة الأخير. ففي أوائل 705 هـ / خريف 1305م، توغلت قوات دوآ بقيادة علي بك[65]. وتَرْتَق في الهند. وغير ملجومة بعصيان تراغاي الذي ما لبث أن ارتد بعد عبور الجهيلام[66]، اندفعت عميقاً إلى قلب البنجاب، مستبيحة سفوح المرتفعات السيوالكية، ثم استولت على بداؤون وأوَذ. تمكّن أمير الاصطبل (**الآخور بك**)، ملك ناناك، والذي كان صاحب إقطاعي سُنّام وسامانا، والذي كان مصحوباً بعدد من الأمراء الآخرين، بمن فيهم تُغْلُق، من إلحاق الهزيمة بالغزاة في الثاني عشر من جمادي الثانية / الثلاثين من كانون الأول / ديسمبر، في أطراف آمروها. نُقل علي بك وتَرْتَق إلى دلهي، غير أنهما أُبقيا على قيد الحياة، وفي حالة كريمة من الأَسْر، لبعض الوقت[67].

تبقى تفاصيل الهجمات المغولية الأخيرة في عهد علاء الدين، مشوَّشة بعض الشيء. ويبدو أن أمير خسرو، الذي كتب بعد سنوات قليلة من الحدث، يصف إحدى الغزوات التي شنها جيش مؤلف من ثلاث فرق رئيسية، وأن مؤلّفين لاحقين، بدءاً ببرني، أخطأوا تفسيره، وافترضوا وجود عدد من عمليات الاجتياح المنفصلة، كل منها في سنة مختلفة. يبدو أن المغول كانوا تحت القيادة العامة لكوبك، الذي كان يضطلع بقيادة قوات دوآ جنوب نهر

---

(65) علي بك الذي يُعْتَبَر أحد أحفاد جنكيزخان في TFS، 320، كان منتمياً، في الحقيقة، إلى قبيلة قونقورات ومتزوجاً أميرة جنكيزية: ومن هنا لقب **كورغن** صهر، نسيب «الممنوح له من وصاف»، 526. أما زوجه فقد كانت ابنة حفيد أوغودي: SP، ملف 127 أ، مع إضافة **أكنون دار ديلي آست**؛ ومنه **معز الأنساب**، ملف 42 ب، **با ـ ديلي رافت**. يؤكد وصّاف أن قواته كانت لدوا (**توائي**).

(66) KF، 37 ـ 38 «لقد سمح لسهام **الغزاة** (المجاهدين) باختراق تعميمه وقفل راجعاً»، هذه العبارة المجازية أُسيئت ترجمتها إذ اعتبرت أنها تقول إنه قُتل، كما في ED، III، 72، ولال، **تاريخ الخلجيين**، 144.

(67) وصّاف، 527 (مع سنة 708 هـ خطأ). KF، 38 ـ 39، يورد التاريخ. فقط TFS، 320، يحدد الموقع. انظر أيضاً FS، 303 ـ 305 (تر. 479 ـ 482)؛ وصّاف، 526 ـ 527. إحدى مخطوطات KF تقول ن ا ي ب خطأ بدلاً من ن ا ن ك، ويكون المؤلفون المتأخرون على صواب حين يطلقون على جنرال السلطان في هذه المناسبة اسم ملك نائب (كافور): ومثلهما كل من TMS، 73 وبداؤوني، ا، 185، الذي يخطئ إذ يساوي بين ملك «ماناك» وملك نائب.

جيحون[68]، وزميلاه هما، إقبال وتايبو، كانا متوغلين في السلطنة، عند مواقع قريبة من مُلْتان، وعاكفين على أعمال النهب والسلب والتخريب على امتداد ضفاف نهر الراوي، تابع المغول زحفهم على كوهرام وسامانا، ولكنهم ما لبثوا أن انعطفوا جنوباً نحو نغوار[69]. تم إرسال كل من ملك كافور «هزاردیناري» وتُغْلُق مع أمراء آخرين، للوقوف في وجه الغزاة الذين بوغتوا قُرب نهر يسميه خسرو «علي واهان»، وإن ظهر في رواية برني تحت اسم غغّار. جاءت هزيمة الطليعة المغولية كاملة، وأُخذ كوپك أسيراً. ثم أقدم كافور على سحق القوات التي كانت في المؤخرة، على مسافة معينة، غير أن إقبال وتايبو لاذا بالفرار، وعبرا الأندوس عائدين من حيث أتيا[70].

وبعد ذلك، يقدم برني تفاصيل اثنتين أُخريين من عمليات الاجتياح. أقدمت ثلاث أو أربع فرق (تومنات)، أولاً، على غزو منطقة سيواليك، ولكن جيش دلهي سيطر على معابر النهر، وقطع عليها طريق انسحابها. أمكن التغلب على المغول، الذين مدوا خطوط اتصالاتهم إلى عمق المناطق القاحلة والمهجورة بسهولة. وبأوامر من السلطان، ذُبح الناجون في قلعة نارايينا. أخيراً بادر إقبال، الذي يدعوه برني إقبالماندا، إلى غزو الهند، ولكنه هُزم وقُتل في مكان قريب من علي ـ واهان[71]. إن عباة «سيوالك»، التي تحتضن، بأوسع معانيها، المنطقة الممتدة من سفوح الجبال إلى نغوار في الأسفل؛ والإشارة إلى نارايينا غير البعيدة عن نغوار، وتكرر ورود اسم علي ـ واهان ـ إن هذه

---

(68) JT، II، 570 (تر. بويل، 313 / تر. فيرخوفسكي، 202). FS، 318، يدعوه **ساره ـ آهانغي آن كيشوار** («طليعي ذلك البلد»). كان مع ساربان في خراسان سنة 1302 ـ 1303 م: قاشاني، 18.

(69) KF، 42. DR، 61.

(70) يرد ذكرهما مع كوبيك في الرواية الموجزة، المصدر نفسه، 61 ـ 62. ثمة رواية أوفى في KF، 43 ـ 44. يقوم هوديڤالا في **دراسات**، ا، 248 ـ 372 بمناقشة الاسم الصحيح لتايبو... يرد ذكر نهر علي ـ واهان أيضاً في FS، 319 (تر. 496)؛ انظرTFS، 321، عن الغاجّار.

(71) المصدر نفسه، 321 ـ 322... انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 397.

التفاصيل كلها توحي بأن الأحداث الثلاثة الواردة في كتاب **تاريخي فيروز ـ شاهي** لم تكن في الحقيقة إلاّ أجزاء من الغزوة نفسها، كما روى قصتها أمير خسرو[72].

وعلى الرغم من أنها توغلت أعمق في أراضي السلطان وباتت، بالذات بعد سنة 1305م، خَلْفَ الغانج، فإن هذه الهجمات الأخيرة، كانت أقل انطواء على التهديد والخطر، من نظيرتها التي شنها كل من قُطْلُغ قوتشا وتراغاي. يبدو الجيش المغولي أصغر حجماً مع كل مرة. فعلي بك وتَرْتَق قادا خمسين ألفاً من الفرسان، حسب كلام خسرو، وإن كانت مصادر أخرى تورد أرقاماً أصغر[73]. ومن الواضح أن رقم المئة ألف الذي يسوقه عصامي عن جيش كوبك وزميليه، مبالغ به، نظراً لأنهم ما لبثوا أن تحولوا جنوباً، بعيداً عن سامانا، لافتقارهم إلى القوة اللازمة لمتابعة السير قدماً[74]. أما إشارة برني إلى «قادة ثلاث أو أربع فرق (تومنات)»[75]، رغم ورودها في فقرة ربما كانت مشوشة، فتقدم فكرة أكثر واقعية عن حجم هذه الجيوش الغازية. في تلك الأيام، كانت المواطن المغولية الأصلية في أعالي حوض نهر جيحون، وفي بلاد ما وراء النهر، ممزَّقة بالحروب الأهلية. ربما باتت إغارات الهاربين الباحثين عن الاستقرار الأكثر دواماً، كما كان يحصل في كل من خراسان وعلى الحدود الصينية طاغية، إلى حدود معينة، على الحملات المنظمة.

يقول خسرو، إن المغول انسحبوا، نتيجة انتصارات علاء الدين، إلى

---

(72) حُكم لال، **تاريخ الخلجيين**، 147 ـ 149.

(73) KF، 38. وصّاف، 526، يقال ثلاثة تومنات، رغم صعوبة التوفيق بين هذا ورقم الـ 60000 لرؤوس المغول المذبوحين. TFS، 320، يقول ثلاثين أو أربعين ألفاً: عن مخطوطة TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 121 ب، نحصل على الرقم نفسه، في حين تكتفي مخطوطة بودليان، ملف 146 ب، ومخطوطة RRL، 221، بقول عبارة «عدد من الآلاف».

(74) KF، FS42 .، 318 (تر. 495)، عن الـ 100,000 المزعوم.

(75) TFS، 321.

أعماق «جبال غزنة»، وكانوا عاجزين عن العبور إلى عمق السِّنْد[76]. وفي هذه السنوات، ربما انتقلت قوات دلهي إلى مواقع الهجوم. فالغازي (المجاهد) ملك تُغْلُق، الذي حصل في إحدى المراحل على إقطاع لاهور الإضافي، نجح، حسب رواية برني، ليس فقط في صد المغول، بل وفي مهاجمتهم، متولياً رئاسة حملة إلى أعماق مناطقهم، مرة كل شتاء. وفيما بعد، يعزو لتُغْلُق فضل عشرين انتصاراً عليهم[77]. ليس ثمة أي تفاصيل، كما أنه من الممكن التشكيك بتأكيداته، لولا وجود شهادات أخرى عن مآثر تُغْلُق. ففي كتابه **تُغْلُق نامه** الذي كتب تخليداً لذكرى تنصيب تُغْلُق في 720 هـ / 1320م، يلمّح خسرو إلى ثمانية عشر انتصاراً، على المغول بأكثريتها؛ في حين رأى ابن بطوطة نقشاً في مسجد مُلْتان، يدعي فيه تُغْلُقُ نفسُه، بأنه أحرز تسعة وعشرين انتصاراً على المغول فقط[78]. وما إذا كانت هذه الحملات مسؤولة عن خراب مساحات شاسعة ممتدة بين غزنة والهند، خراب عزاه مخبرو العمري إلى الصراع بين «ملك الهند» و«ملك تركستان وما وراء النهر»[79]، يبقى معلقاً.

كانت قدرة السلطنة على التمتع، المؤقت، بنوع من الحصانة من أية هجمات مغولية كبيرة، ولو لبضع سنوات، مستندة، إلى حد كبير، إلى الأوضاع السائدة في أفغانستان، تلك الأوضاع التي سلَّط عليها أمير خسرو في كتابه **رسائل الإعجاز**[80] أضواء مفعمة بالحياة، وإن بقيت مؤقتة. كان العمل

---

(76) KF، 113.

(77) TFS، 223 ـ 322؛ وانظر 416 عن الانتصارات العشرين. فيما بعد يَغزو برني هذه الانتصارات العشرين إلى تُغلُق وأخيه (رجب) ـ في محاولة منه، دون شك، لخطب ود فيروزشاه ابن رجب.

(78) **تُغلُق ـ نامه**، IB138 .، III، 202 (تر. جيب، 649).

(79) MA، تحقيق سبايز، 8 (تر. ألمانية 30) / تحقيق فارق، 16 (تر. صديقي وأحمد، 32).

(80) RI، IV، 144 ـ 156؛ للاطلاع على تلخيص موجز، انظر ED، III، 566 ـ 567. قام عسكري بدراسة الوثيقة في «مادة»، 18 ـ 20 من مقال م. ي. ز. صديقي «آرزداشت بدر حاجب»، MIM 2 (1972م)، 291 ـ 297.

بمثابة مذكرة (**عرض داهش**) من الياور (**الحاجب**) بدر إلى خضرخان نجل السلطان علاء الدين، تروي قصة إحدى الحملات الشتوية ضد مغول غزنه. كانت قوات دلهي، بقيادة نبيل يرد ذكره على أنه الخان الأعظم (**خاني أعظم**)، على ذمة الرواة، قد احتلت مدينة غزنه، وباتت خطبة الجمعة تُقرأ باسم علاء الدين[81]. كان من المبرر أن تثير مذكرة بدر قَدْراً غير قليل من الشكوك في صفوف الباحثين[82]. فانتصار كبير بحجم الاستيلاء على غزنه ـ لم يرد تأكيد له في أي مصدر آخر ـ غير وارد. ومع ذلك، فإن الوثيقة تتضمن ما يكفي من التفاصيل الظَّرْفية للإيحاء بأنها مستندة إلى تقارير استخباراتية صحيحة عن الجبهة الشمالية الغربية، موجهة إلى حكومة السلطان[83]. يشير بدر إلى حرب الإخوة التي كانت مشتعلة بين دوآ وشعب قايدو[84]، ويصف كيفية انتشارها لتشمل الجيش المغولي المتمركز في هاشتناغار وبيشاور، بما أفضى إلى طغيان الفوضى على المناطق الممتدة بين غزنة والإندوس[85]. ويتابع كلامه ليقول، إن إيسَن بوقا كان قد تحرك شمالاً استجابة لرسالة تلقاها من كونشك: وقبل مغادرته، كان قد حمَّل بدراً عدداً من الهدايا لسيده خضرخان، عربون مصالحة. وبالتالي، فإن من المطمئن إرجاع الوثيقة إلى سنتي 706 ـ 707 هـ / 1306 ـ 1307م، حين كان كونشك رئيساً للأمة الجغتائية[86]. وعلى الرغم من

---

(81) RI، IV، 148، 150 ـ 151.

(82) انظر مثلاً داي، «الحدود الشمالية الغربية»، 106 ـ 107 هـ. 2، وفي **بعض جوانب**...، 55 هـ 22. عسكري، رسائل [كذا] الإيجاز، 122، يبدو مقتنعاً بأن التقرير صادر عن خسرو بالذات.

(83) انظر تعليق خسرو نفسه على الوثيقة: RI، IV، 18.

(84) المصدر نفسه، IV، 151 ـ 152...

(85) المصدر نفسه، IV، 153 ـ 154...؛ عن هاشتناغار، 16 ميلاً إلى شمال ـ غرب بيشاور، انظر IB، تر. جيب 591 هـ. 212.

(86) RI، IV، 154، 155. يظهر اسم القائد المغولي هنا وفي المصدر نفسه على أنه ي س ب غ آ، وهي صيغة مَنَعَتْ عسكري («مادة»، 18 هـ. 50) من التعرف عليه؛ غير أن أفضل المخطوطات قد أوردت ء ى س ن ب غ ا بوضوح. إن اسمه هو تو. **إيسن** «ناصح» + **بوقا**، «فحل «ثور»: كلاوسون، **قاموس**...، 248، 312. يظهر اسم كونجك على شكل ق ب ج ك. يكون الهامش (على الصفحتين 1307 ـ 1314) الذي أجازه صديقي «آرزداشت»، 292، واسعاً بلا حاجة.

جملة المشكلات المرتبطة بها، فإن الوثيقة توفر، على الأقل، بيّنات مباشرة تؤكد أن الأمارة التي أسسها قُطْلُغ قوتشا إلى الجنوب من جيحون، كانت قد بدأت تتفكك.

كانت الهزيمة بالنسبة إلى الكثير من المحاربين المغول، تعني شكلاً بشعاً من أشكال الإعدام. فسحق الأسرى المغول تحت أقدام الفيلة، كان قد جعل علاء الدين سيِّئ الصيت، على الرغم من أن مثل هذه التكتيكات، ترد للمرة الأولى في عهد معز الدين كيقباد[87]. فغداة الإغارة التي شنها علي بك. وتَرْتَق أُقيمت حفلة رسمية (دُرْبار) تم فيها إعدام الأسرى المغول بهذه الطريقة، إظهاراً لمشاهد مثيرة لمواطني دلهي؛ كما أخذ الجزاء الشكل نفسه لاحقاً بالنسبة إلى ضباط كل من إقبال وكوپك[88]. وثمة ممارسة غير حميدة، تعود إلى التاريخ نفسه تقريباً تتمثّل بإقامة الأبراج في دلهي برؤوس وجماجم الأسرى المذبوحين. وحسب كلام برني، فإن بُرْجاً من هذا النوع، كان ما يزال موجوداً أمام بوابة بداؤون، في أيامه؛ على الرغم من أن المصادر تتباين حول ما إذا كان مبنياً بجماجم جنود كوپك، أم بجماجم جنود علي بك[89]. لا شك أن غارتين متعاقبتين، أتاحتا فرصة استكمال البرج في مرحلتين. وإذا صدقنا خسرو الذي يتوقف عند مصير قطاع الطرق واللصوص بفَرَحٍ استثنائي، ثمة أبراج مماثلة ارتفعت في مدن أخرى من السلطنة، كما تم إدخال أشلاء وبقايا الأسرى المغول في التحصينات الجديدة بدلهي[90]. أما ما إذا كانت مثل هذه

(87) QS، 96 ـ 98: لم يكن إلاّ واحداً من أشكال الموت البشعة.

(88) TFS، 321، FS322 .، 322، من جهة أخرى، يقول إن كوبيك كان قد أُنقذ في البداية ثم قُطع رأسه (أبيات محذوفة من ترجمة حسين، 500).

(89) قوات كوبيك: TFS، 321؛ KF، 45 ـ 46. قوات علي بك: FS، 305 (تر. 481)؛ وصّاف، 527. شيدت أبراج من قبل جماجم الهندوس المذبوحين: Taj، ملف 137 ب.

(90) KF، RI28 .، ا، 17، **در أقاصي ـ ي مملك نيز بورجهاي ـ ي ديارهام بار إن ناهج ساراسار باراسي فالاق راسانيراند.**

الممارسات ناجحة في ردع المغول، عن الإغارات المقبلة، كنجاحها في إمتاع أهالي العاصمة، فأمر لا نستطيع تأكيده أو نفيه.

يؤكد برني أن فترة الراحة من الهجمات المغولية دامت حتى نهاية عهد قطب الدين مبارك شاه (720 هـ / 1320م)[91]؛ ويزعم خسرو، أن قطب الدين فكّر بفتح غزنة، غير أن أمراءه أقنعوه بالعدول عن هذه الفكرة[92]. أما كلام برني، الذي يقول إن المغول أصبحوا لا يجرؤون على غزو الهند خلال عهد تُغْلُق، لأن الأخير كان قد زرع الرعب في قلوبهم[93]، فيأتي متناقضاً مع الأدلة التي يقدمها هو نفسه، لأنه يحدثنا عن غارة تمت بُعَيْد حملة الدِكّان لسنة 721 هـ / 1321 ـ 1322 م. ثمة رواية أشمل لقصة هذا الهجوم، أوردها عصامي الذي يقول إن السلطان أرسل التعزيزات إلى ابن أخيه وقائده في سامانا، بهاء الدين غارشاسب. ونجح هذا الأخير في مهاجمة مؤخرة الجيش المغولي، التي كانت قد تخلَّفَت في إحدى المخيمات القاعدية عند سفوح التلال، فألحق بها الهزيمة، وذبح قائدها شيرَ (شيرا). وبعد ذلك، ما لبث أن نَصَب كميناً لباقي الجيش الغازي، بقيادة ثلاثة جنرالات هم: هندو وزكريا وأوروس، وأجهز عليه، بالقرب من الضفة اليسرى لنهر بياه، في طريق عودته من نهب الدواب. وكان زكريا، الذي أُخذ إلى دلهي احتفالاً بالنصر، بين الأسرى[94].

محمد بن تُغْلُق والمغول

بُعَيْد اعتلائه العرش (724 هـ / 1324م) قاد محمد بن تُغْلُق حملة نحو الجهة الشمالية الغربية. وفيما بقي السلطان في لاهور، استولت وحداته على

(91) TFS، 322، 223؛ قارن أيضاً 387.

(92) NS، 54 ـ 55.

(93) TFS، 441.

(94) FS، 405 ـ 409 (تر. 611 ـ 618). تقول الرواية الموجزة في TFS، 450، إن القائدين المغوليين قد تم أسرهما.

كالاناور وبيشاور، وصارت الخطبة تُقرأ باسمه فيهما. وفي غضون بضعة أسابيع، اضطر قواد محمد للانسحاب، جراء الافتقار إلى الحبوب والعلف، والالتحاق ثانية بالسلطان الذي بقي في لاهور شهرين أو ثلاثة، لتهدئة المنطقة قبل العودة إلى دلهي. ربما في هذه الأثناء، أقدم السلطان على تحريك عملية ترميم قلعة كالاناور، التي يرد ذكرها في قائمة المناطق غير الكاملة لدى العمري[95]. يبدو أن هذه الحملة انطوت على نتيجة أخرى، ألا وهي إدخال منطقة بيشاور في ممتلكات محمد، لأن ابن بطوطة يعتبر هاشتنغاو «المكان المأهول الأخير على أطراف أراضي الأتراك (أي المغول)» ويشير في مكان آخر، إلى أنها كانت بقعة حدودية، يقوم فيها موظفو جمارك السلطان، بجباية المكوس المفروضة على الجياد المستوردة[96].

وهناك أيضاً، أثر ثالث ترتب على حملة محمد، كان متمثلاً بتعريض السلطنة لغزو شنّه عليها الخان ترما شيرين، الذي كان يقيم في النصف الغربي من الدولة الجغتائية، ربما في تيرميد (ترمذ) أواسط نهر جيحون. ظلت صحة هذه الغزوة موضع شك زمناً طويلاً، على أساس أنها ليست مذكورة في الفصل المتداول لكتاب **تاريخي فيروز ـ شاهي** لبرني، وقد قيل إن ترماشيرين قام بزيارة ودية إلى الهند، ملتمساً مساعدة محمد. غير أن العثور على صياغة منقحة أبكر للكتاب، تضمنت وصفاً للغزوة في الحقيقة، ما لبثت أن نَسَفَتْ هذه الفرضية[97]. من الواضح أن ترماشيرين استفاد من الأوضاع المتدهورة

---

(95) FS، 423 ـ 424 (تر. 649 ـ 650). TMS، 101، عن كالاناور، وإن تم جعل تاريخ استعادتها في أعقاب غزو ترماشيرين. MA، تحقيق سبايز، 6 (تر. ألمانية 26) / تحقيق فارق، 14 (تر. صدّيقي وأحمد، 30).

(96) IB، II، 373، وIII، 90 (تر. جيب، 478، «شاشناقار»، 591 «شاشناغار»).

(97) جاكسون، «المغول في سلطنة دلهي»، 119 ـ 126، مسوح البيانات. عن النظرة الأقدم، انظر خصوصاً أ. م. حسين، **صعود محمد بن تُغلُق وسقوطه** (لندن، 1938م)، 100 ـ 108، و**الأسرة الحاكمة التُغلُقية**، 119 ـ 143.

للدفاعات الحدودية، غداة عصيان كوشلوخان في مُلْتان[98]. ففي تاريخ يضعه برني في إطار سنتين أو ثلاثة بعد نقل أهالي دلهي إلى دولت آباد، ويعتبره سرهندي مطابقاً لسنة 729 هـ / 1328 ـ 1329م[99]، استولت القوات الجغتائية على مساحة كبيرة، محتلةً عدداً من القلاع، وآخذة أسرى، عبر أقاليم لاهور وسامانا وإندري. ثم تقدمت وتوغلت في الدواب. جهز السلطان جيشاً كبيراً، نشره إلى الشمال من دلهي، متخذاً إندرابات القريبة من اليمونه، مقراً قيادياً له، وبالتالي فقد كان، خلافاً لحال علاء الدين في 703 هـ / 1303م[100]، متحكماً بأحد المعابر على الأقل. نجحت فرقة من قواته بقيادة يوسفي بوغرا، الذي كان قد أُرسل لتحرير ميرات، في هزيمة جزء من جيش ترماشيرين، وأسر ابن أخيه. ما لبث المغول أن انسحبوا بسرعة، ولكن محمداً وجيشه تعقبهم: يقول عصامي، إن السلطان توقف في تالنيسار، وأرسل قواته للمطاردة؛ أما سرهندي، فيقول إنه تقدم حتى وصل إلى كالاناور[101]. لقد كانت تلك آخر الغزوات الجغتائية الكبرى، قبل قيام تيمور باجتياح دلهي، وفتحها آخر القرن.

سعى محمد، بدأب، في سبيل تشكيل تحالف يقف في وجه الجغتائيين،

---

(98) TFS، 479.

(99) TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 160 ب / مخطوط بودليان، ملف 192 أ. TMS، 101.

(100) أفضل النصوص في TFS[1]، مخطوطة RRL، 287؛ قارن مخطوطة بودليان، ملف 192 أ / مخطوطة ديغبي، ملف 160 ب ـ 161 أ. بيهامادخاني، ملف 400 أ، يحدد إندرابات. تبدو هذه المحاولة للتحكم بالعبور أكثر إقناعاً مما قيل في FS، 463 (تر. 698)، عن أن جيش محمد كان منتشراً من سيري إلى باغي جود (جبل الملح).

(101) المصدر نفسه، 463 ـ 465 (تر. 699 ـ 701). TMS، 101. ثمة رواية أقل جدارة بالثقة عن الحدث في كلام أحد المؤرخين التَمُريين ممن زعموا أن ترماشيرين كان قد اشتراه السلطان وأنه استباح گوجرات لدى انسحابه: يزدي، ZN، تحقيق آ. أورونبايف (طاشكنت، 1972م)، ملف 80 ب ـ 81 أ. عن إخفاقه في ميرات، انظر غياث الدين علي يزدي، **روزنامة ـ ي غزوات ـ ي هندوستان**، تر. آ. آ. سمنوف، **دنڤنيك بوخودا تَمُرا ڤ أندو** (موسكو، 1958م)، 129، 131؛ شامي، ZN، ا، 194؛ يزدي، ZN، تحقيق م. م. الأهداد، BI (كالكوتا، 1885 ـ 1888)، II، 129، 132 / تحقيق أورونبايف، ملف 328 أ ـ 329 أ.

مع الإيلخان: أبي سعيد. ثمة مؤرخ محلي كتب من جنوب إيران، بعد بضع سنوات، فروى قصة عن سفارة (بعثة) ودية أوفدها السلطان إلى الإيلخان سنة 728 هـ / 1327 ـ 1328 م؛ والرسالة التي حملتها البعثة، والتي كان يسعى محمد من خلالها إلى تحقيق تعاون عسكري ضد ترماشيرين، ما زالت هي الأخرى باقية[102]. لم تسفر تلك المفاوضات عن شيء، بمقدار ما نعلم، عدا عن رد مماثل من حيث الود من جانب الإيلخان، غير أن محمداً، كما يُزْعَم، استمر في إيفاد البعثات السنوية حتى وفاة أبي سعيد[103]. وفيما بعد، كان محمد وترماشيرين أيضاً، حسب كلام ابن بطوطة، على علاقات ودية، وقد تبادلا الرسائل والهدايا. والبروفسور صديقي، يعزو هذا إلى اعتناق الخان للإسلام، الأمر الذي يبدو أنه حصل بعد 729 هـ / 1328 ـ 1329م[104]. غير أن المصالحة، ربما جاءت مرتبطة بصراعه في النصف الشرقي من الإمارة (الخانية) مع أخيه دُوره تيمور، الذي أطيح به أواخر سنة 1331م[105]. وفي غضون سنوات قليلة، تمت الإطاحة بترماشيرين نفسه وقتله، مما دشن فترة من انعدام الاستقرار في (الخانية) الإمارة الجغتائية. يبدو أن الخان الجديد بوزون بن دوره تيمور كان يفضل، وإن اعتبره ابن بطوطة مسلماً، الدستور (القانون العرفي) [القانون المغولي] على الشريعة [الإسلامية]، كما لم يكن، بأي من الأحوال،

---

(102) شبان قاراني، 287 ـ 288 مورداً اسم اختسان بين أسماء أعضاء الفريق، ثمة ذكر موجز في فصيحي خوافي، **مجملي فصيحي**، 845 هـ / 1441 ـ 1442م)، تحقيق محمد فروخ (طهران، 1960، 3 أجزاء) III، 39 .**بياضي تاج الدين أحمد وزير**، تحقيق، إعراج آفشار ومرتضى تَمُري (أصفهان، 1974م)، 404 ـ 408، عن الرسالة؛ أيضاً إ. هـ. صدّيقي، «سياسة السلطان محمد بن تُغلُق الخارجية: إعادة تقويم»، IC 62 (1988، ج: 4، 10 ـ 12. تفاصيل بعثة أخرى من اختسان إلى أبو سعيد في بيهامادخاني، ملف 405 ب، غير مؤكدة من حيث تسلسلها التاريخي.

(103) شبان قاراني، 88، 288. عن رد الإيلخان، انظر **بياضي**، 408 ـ 409.

(104) IB، III، 43 (تر. جيب، 562). صدّيقي، «سياسة السلطان محمد بن تُغلُق الخارجية»، MA14. تحقيق ليش، النص العربي 58، مكتفياً بتحديد تاريخ اعتناقه بعبارة «منذ سنة 725 هـ» (تر. 117 تقول «زايت 750 خطأ».

(105) **بوان شيه**، عنوان، 35، وارد في MA تحقيق ليش، 241 هـ. 167.

قادراً على بسط نفوذه وسلطته قبل أن يُستبدل، دوره، سنة 1335م بابن عم وثني يدعى تشانغشي كان معادياً للإسلام[106]. قيل للعمري إن هذه الاضطرابات وفّرت للسلطنة فترة من الراحة من الهجمات المغولية[107].

اعتبر محمد خان إخوته في الدين وسيلة أخرى لتوسيع دائرة نفوذه إلى ما وراء الأندوس. فالرسالة (**المنشور**) التي صيغت باسمه عام 634 هـ / 1333 ـ 1334م وأُرسلت إلى ما وراء النهر لدعوة الأسياد والمشايخ ورجال الدين «العلماء» والكتبة (البيروقراطيين) والجنود إلى الهند، للالتحاق بخدمة السلطان، محفوظة في مجموعة **الإنشاد** العائدة إلى أوائل القرن الخامس عشر التي تحمل عنوان **فرائدي غياثي**[108]. أما مدى نجاح ذلك (**المنشور**)، فواضح من إعداد المشاهد والأعيان الذين جاؤوا من ما وراء النهر إلى السلطنة، في الوقت نفسه الذي كان فيه ابن بطوطة على وجه التقريب. ذلك أيضاً هو السياق الذي يجب وضع التدفق الجديد للمغول على السلطنة فيه. فبعيد استيلاء بوزون على السلطة، كان محمد قد استقبل ابن ترما شيرين، باشايتاي مع ابنته وزوجها ناوروز كورَغَن بالترحيب؛ وفي غضون فترة قصيرة من الوقت، يصل تعداد المغول القادمين من المناطق الخاضعة لحكم ترماشيرين إلى السلطنة، حسب تقديرات ابن بطوطة، إلى أربعين ألفاً[109].

---

(106) بارتولد، أربع دراسات، I، 135 ـ 136. الصفدي، **الوافي**، X، 383، يجعل تاريخ موت تارماشيرين في 735 هـ. عن بوزون، انظر يزدي، ZN، تحقيق أورونبايف ملف 81 أ. MA، تحقيق ليش، النص العربي، 22 (تر. ألمانية، 105) يتم وصف الخانية (الإمارة الجغتائية كما لو كانت في حالة ثورة حتى اعتلاء تشانغشي للعرش، وعن التاريخ، انظر أوبان «خانية الجغتائيين»، 24 ـ 25 هـ. 34.

(107) MA، تحقيق ليش، النص العربي 4. . .

(108) FG، مخطوطة SK، فاتح 4012، ملف 456 أ ـ 457 ب؛ في ملف 457 أ، يشير إلى منحهم. أوبان، «خانية الجغتاي»، 22.

(109) IB، III، 43، 46 (تر. جيب، 562، 564). عن ناوزر، انظر أيضاً TFS، 533؛ SFS، 4 (تر. باسو، JBORS، 22 [1936]، 96). يظهر اسم ابن ترماشيرين كباشاي في مخطوطة IB، غير أن الصيغة في **معز الأنساب**، ملف 32 أ، توحي بباشايتاي، «رجل الباشاي»، أحد أقوام منطقة هندوكوش الواقعة إلى الشمال من كابول: انظر بليو، **ملاحظات حول ماركو بولو**، 799 ـ 800.

ففي أربعينيات القرن الرابع عشر، كانت أفواج كبيرة من اللاجئين تصل إلى البلاد. ففي كل شتاء، كما يقول برني، كان قادة فرق (وحدات من ذوات الألف) وفصائل (وحدات من ذوات المئة) مغوليون مع أزواجهم **(خاتونان)** وأبنائهم **(أوغليان)** يصلون إلى الهند، ويحصلون على هبات من المال والمجوهرات والجياد[110]. وفي موضع آخر يقول المؤلف نفسه، إن محمداً كان يجعل كل أمير من خراسان ومغولستان يلتحق بخدمته، يؤدي قسم الولاء للخلافة، قبل التكرم بالهدايا والمنح[111]. ونظراً لأن السفارة العباسية لم تصل إلى دلهي حتى عام 744 هـ / 1343 ـ 1344م، كأبكر تقدير، فإن هذا يشير إلى أن مهاجرين من عالم المغول، كانوا مواصلين المجيء لسنوات غير قليلة بعد موت ترماشيرين. غير أن المغزى الأكبر الذي تنطوي عليه معلومات برني، يكمن في أن هؤلاء المهاجرين كانوا مسلمين؛ وإلاَّ، فلا معنى للأيمان المرتبطة ببراءة الخلافة وشهادتها التفويضية. قد يكون هروبهم مما وراء النهر، مرتبطاً بعملية الانقلاب والإطاحة، في حوالي 743 هـ / 1342م، بالخان المسلم العابر (الذي زال سريعاً)، خليل، وهو أحد أبناء ياساؤر كما زُعم، تلك العملية التي لا نملك عنها، للأسف، سوى الرواية المثيرة لبعض الشك، التي جاءت على لسان ابن بطوطة[112].

استفاد محمد من الاضطرابات الحاصلة داخل الدولة الجغتائية، واستغل إمكانيات الرعاية الهائلة الموجودة بحوزته، في سبيل توطيد علاقات تناغم ووفاق مع الزعماء المغول، والحكام الآخرين في خراسان. ففي

---

(110) TFS 499؛ وقارن أيضاً TFS، مخطوطة بودليان، ملف 199 / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 165 ب ـ 166 أ.

(111) TFS، 494 ـ 495.

(112) IB، III، 48 ـ 51 (تر. جيب، 565 ـ 567). حول هذا، انظر و. بارتولد، **12 محاضرة عن الترك في آسيا الوسطى**، تر. ث. منزل (هيلد سهايم، 1935م، طبع ثانية، 1962م)، 206 ـ 207؛ يورغن بول، «سلطة واقتصاد خانات الجغتائي»، مجلة إسلام67 (1990م) 284 ـ 291.

صياغته المنقحة الأولى، يصل برني إلى حد الزعم بأن «الأقاليم المغولية كلها (**مغولستان**) على هذا الجانب من بلاد ما وراء النهر، أصبحت تابعة مطيعة للسلطان محمد (**باندا ـ يي باروادا**)»(113). وإذا كنا سنصدق ابن بطوطة، فإنه حتى معز الدين حسين، ملك هراة الكرتي، أصبح عميلاً لمحمد، في وقت من الأوقات: من الواضح أن الملك، بقي حريصاً على الحيلولة دون تمخض اعتماده لقب السلطان في 750 هـ / 1349م، عن إلحاق أي ضرر بعلاقاته مع دلهي(114). ربما كانت فائدةُ حسين كامنة، جزئياً، في سيطرته المتحققة حديثاً على مغول الإيلخان، الدُّمية طوغا تيمور، الذين درجوا على عادة الإغارة على الهند من قواعدهم في منطقة هراة(115). ومع الوصول إلى نهاية حياته، كان محمد قد أقام علاقات ودية مع النويان (القائد) قازاغان، الذي كان قد أصبح، منذ 747 هـ / 1346 ـ 1347م، السلطة الحقيقية في النصف الغربي من الدولة الجغتائية. فقازاغان هذا، وهو مسلم من أصل قراؤوني (مثل التُغْلُقيين أنفسهم ربما)، زوَّده بأربعة إلى خمسة آلاف جندي مغولي، لحملته الأخيرة على متمردين في السند(116).

نهب وسلب أم فتح واحتلال؟

فيما يخص الأهداف الحربية للمغول، تبقى المصادر غامضة. وممـا

(113) TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 166 أ؛ النص في مخطوطة بودليان، ملف 199 ب، مشوه هنا ويورد و ب ر د هـ بدلاً من **باروادا**، TFS، 505، يتحدث بقدر أكبر من الغموض عن مبايعة حكام مغولستان.

(114) IB، III، 74 (تر. جيب، 580) FG، I، 146 ـ 149، 182 ـ 185، ومخطوطة SK، فاتح 4012 ملف 196 ب ـ 197 ب. أوبان، «خانية الجغتاي»، 32 ـ 33. صديقي، «سياسة السلطان محمد بن تُغلُق الخارجية»، 19.

(115) IB، III، 70 ـ 71 (تر. جيب، 578)؛ عنه، انظر پ. جاكسون، «توغاتَمُر». Enc. Isl[2].

(116) TFS، 524. عن قازغان، انظر بياتريس فوربس مانز، **صعود تيمورلنك وحكمه** (كامبردج، 1989م) 33 ـ 34، 43 ـ 44. بيهامادخاني، ملف 328 ب، يتحدث عن صداقتهما.

يلفت النظر، أن أمير خسرو لا يأتي على ذكر غَزْوَتي قُطْلُغ قوتشا وتراغاي في كتابه **خزائن الفتوح**، ربما لأن أية منهما لم تضف شيئاً إلى رصيد علاء الدين. ففي المناسبتين، كلتيهما، ظهر المغول بأعداد كبيرة على الساحة؛ وفي المناسبتين، أيضاً، زحفوا بقوة، وباغتوا السلطان في حال غفلة. يقال صراحة، إن قوات قُطْلُغ قوتشا، ما لبثت أن تخلَّت عن ممارستها المألوفة لأعمال نهب المناطق الواقعة على طريقها[117]. ثمة إشارة معاصرة أو اثنتان توحيان، بأن قُطْلُغ وتراغاي كانا بالفعل، يرميان إلى إلحاق الهزيمة بالسلطنة والاستيلاء عليها[118]، وما لبثت الفكرة أن التُقطت من قبل المؤرخين الذين كتبوا في هذا القرن، بدورهم[119]. فسياسة قائمة على فتوحات طويلة الأمد، ربما كانت أكثر قابلية للتفسير، من خلال الرأي الذي يسوقه عزيز أحمد، والذي يقول إن الجغتائيين كانوا يحاولون فتح مَنْفَذٍ على الهند، لأنهم لم يكونوا مرتاحين في ظل وصاية قايدو، فضلاً عن وقوعهم بين مطرقة جيوش الخاقان في الشرق، وسندان الإيلخانيين في الغرب[120]. صحيح أن الخانية (الإمارة) الجغتائية العائدة إلى أواخر القرن الثالث عشر، تقدم صورة كيان مُحاصر ومخنوق، من قبل دول مغولية أخرى، وأن رشيد الدين يجعل من الخان برق، مثلاً، يتذمر في المؤتمر (القورولتاي) المعقود سنة 667 هـ /

---

(117) TFS، 254، **غيراغير**؛ قارن TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 94 أ، **كوتش با ـ كوتشي متواتر**، ولكن SFS اللاحق، 187 (تر. 34)، يشير إلى دخول قوات قطلغ قوتشا إلى منطقة توبرا، القريبة من تلال سيرمور.

(118) قطلغ قوتشا: وصّاف، 312؛ JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي 59Taf، النص الفارسي، Taf 25 (تر. ألمانية 50)؛ قاشاني، 189. تراغاي: FS، 292 (تر. 467). انظر أيضاً AHG، II، 796؛ بداؤوني، I، 184.

(119) هيغ، في **تاريخ الهند، كامبردج**، III، 102. دهارام بال، «علاء الدين خلجي وسياسته المغولية»، IC 21 (1947م)، 258. لال، **تاريخ الخلجيين**، HN134 .، 338.

(120) عزيز أحمد، «الضغط المغولي»، 186، وفي كتابه **دراسات**، 15. قارن أيضاً بال، «علاء الدين خلجي وسياسته المغولية»، 257.

1269م شاكياً من أن دولته (أمته) (أولوسه)، خلافاً لحال تلك العائدة لأقربائه، محرومة من هامش المناورة[121]. ومع ذلك، فإن الرأي الذي يقول إن من شأن مثل هذا التقييد والحصار، أن يفسر النزعة التوسعية التي شاعت في السنوات اللاحقة، يتنافى مع الأدلة، على ثلاثة أصعدة. يبدو أن دوآ وقايدو كانا، أولاً، يتعاونان تعاوناً وثيقاً حتى اللحظة الأخيرة، من حياة الثاني. كانت الأقاليم الشرقية للإيلخان، ثانياً، توفر، مثلها مثل المناطق الحدودية الهندية، فرصة مثمرة للتوسع؛ والإيلخانات كانوا في حالة الدفاع، بصورة جلية، وقد دأب غازان، على الأقل، على إبداء قدر أكبر بكثير من الاهتمام بالحدود مع المماليك. وثالثاً، ليس ثمة أي سبب يدعو، في هذه المرحلة، إلى ممارسة الضغط على الشرق الأقصى. فقوبيلاي كان قد نبذ سياسته التوسعية في آسيا الوسطى، خلال ثمانينات القرن الثالث عشر ـ أي قبل أن يبدأ قايدو وحلفاؤه بتأكيد سيطرتهم على المناطق الحدودية من الهند ـ كما تُركت أويغورستان للجغتائيين مع حلول سنة 1300م تقريباً[122].

وبالتالي، فإن عمليتي الاجتياح المغولية للهند عامي 699 هـ / 1300م، و703 هـ / 1303م، ربما لم تكونا أكثر من عمليتي نهب وسلب، على المستوى الضروري من اجل الوصول إلى هدف عملاق مثل دلهي: على أن الغرض ربما كان، حتى في تلك المناسبة، متمثلاً بـ «تطويع المنطقة وإضعافها» تمهيداً لحملات فتح، واحتلال في سنوات قادمة. ومما يدعو للأسف أن الشواهد، لا تتيح لنا فرصة الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك. علينا، بالمناسبة، أن نتأثر بوجود نساء وأطفال في الجيوش المغولية، في عدد من المناسبات. يقال إن النساء كُنَّ على ظهور الجياد، جنباً إلى جنب، مع قُطْلُغ قوتشا في أثناء

(121) JT، III، 110 ـ 111 (تر. آرندز، 72).

(122) داردس، «الإمبراطورية المغولية إلى أسرة يوان الحاكمة»، 142 ـ 143. آلسن، «أسرة يوان الحاكمة والأويغور في طرفان»، 255 ـ 258 ـ 259.

زحفه على دلهي؛ كما يقال إن جنود سوغودَي أُخذوا أسرى مع أزواجهم وذراريهم، حيث كان ثلاثة آلاف من الأسرى الثمانية عشر ألفاً، الذين وقعوا بأيدي آلب خان في تاري، كُنَّ نساء. وبعد ذلك بوقت غير طويل، تم الإبقاء على المزيد من النساء والأطفال، وإرسالهم للبيع في أسواق النخاسة، بعد ذبح الرجال في ترائين[123]. لا ينبغي لأي من هذا أن يدهشنا. فالمصادر الأوروبية والصينية، العائدة إلى القرن الثالث عشر، تصور نساء مغوليات ممتطيات ظهور الجياد جنباً إلى جنب مع رجالهن[124]. وإذا كانت الهجمات المغولية هجرات موسمية، أساساً، بين مراع صيفية، في مرتفعات غور وغزنة، ومنتجعات شتوية، في البنجاب وما بعده، فإن علينا أن نتوقع من «القبيلة» كله، لا المحاربين الذكور وحدهم، أن يكون متحركاً.

لقد بات واضحاً في القرن الثالث عشر، أن الحملات المغولية على الهند كانت تستهدف مراكمة أعداد كبيرة من العبيد والغلمان[125]. فحملات سالي نويان على كشمير والهند، أكسبت هولاكو غنيمة عظيمة من المماليك الهنود، حسب كلام رشيد الدين، الذي يقول إن ذراريهم كانوا ما يزالون موجودين في أيامه، في المزارع (**إنجو**) الملكية بإيران[126]. أما بالوصف غير المتملق

---

(123) قطلغ قوتشا: FS، 256 (تر. 427). سوغد: TFS، 254. ثاري: FS، 289 (تر. 464). نارانا: TFS، 321 ـ 322. لاحظ أيضاً النساء والأطفال مع جيش عبد الله الغازي في 691 هـ / 1292 م؛ المصدر نفسه، 219.

(124) بول راتشينيفسكي، «وضع النساء المغوليات في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في فالتر هايسينغ وآخرين (محررين)، **تراكتاتا آلتايكا دنيس سينور سيكساجينياريو**... **ديديكاتا** (فيسبادن، 1976م)، 511. توماس سبالاتنسيس، «هيستوريا بونتيفيلوم سولينتاروم» في أ. ف. غومبوس (محرراً) **كاتالوج فونتيوم هيستور ياي هونغاريكابي** (بودابست، 1937 ـ 1943، 4 أجزاء مع ترقيم متواصل للصفحات)، 2236 ـ 2237.

(125) لاهور (639 هـ / 1241م): TN، II، 165 (تر. 1135). تم ترك العديد من الأسرى المسلمين والهندوس في 643 هـ / 1245 ـ 1246 م: المصدر نفسه، II، 55 ـ 56 (تر. 813).

(126) JT، I، ج: 1، 189 (تر. خيتاغوروف، 110). عمن وقعوا أسرى في الحملة الكشميرية، انظر أيضاً JT، III، 22 (تر. آرندز، 21) وتحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي .Taf 61 (تر. ألمانية 56).

للمغول، من جانب أمير خسرو، فنحن مدينون لواقع تعرض الأخير للأسر سنة 684 هـ / 1285م، إثر هزيمة وموت ولي نعمته وسيده محمد بن بَلَبان[127]. ليس ثمة أي شك في أن اقتناص العبيد بقي واحداً من الأهداف المهمة. فرواية عصامي، لقصة إغارة المغول على منطقة تاري توحي، بأن الغزاة وقعوا فريسة سهلة بين براثن قوات آلب خان، لأنهم بالغوا في الانشغال بالغنائم والأسرى[128]. أما فيما يخص أشكال النهب والسلب الأخرى، فإن ما تقوله المصادر أقل. نحن نعلم أن المغول استباحوا ليس، فقط، مناطق المسلمين، بل تلك العائدة للخوخار، الذين تعرضت **تالواراتهم (تالونديانهم)** [أكواخهم الخشبية] للنهب والحرق سنة 697 هـ / 1298م، خلال هجوم كيدر[129]. وقد نستطيع أيضاً أن نسلّم دون نقاش، بأن المغول جاؤوا، يحدوهم الأمل في الحصول على الذهب والفضة، وقد نهتدي، على هذا الصعيد، إلى تفسير لجاذبية الهند المضاعفة[130]. من المعروف أن حكام دلهي دأبوا، عبر سلسلة من الإغارات الطموح، على الكثير من الممالك الهندوسية في الجنوب، بدءاً بسنة 695 هـ / 1296م، على مراكمة كميات هائلة من المسكوكات النقدية، التي لا بد من أن تكون قد أَغْرَتْ المغول، لاحقاً، بتحرير أولئك الحكام من عبء تلك الكنوز.

---

(127) الرواية الأوفى في DR، 36 ـ 37. انظر أيضاً WH، مخطوطة IOL 412، ملف 87 (مذكور في بداؤوني، ا، 153)؛ والتلميح الموجز في DKG، 70، ميرزا، **حياته وأعماله**، 60 ـ 62.

(128) FS (تر. 464). للاطلاع على إشارات أخرى إلى الأسرى الهندوس، انظر ظفر الإسلام، «**فتاوى فيروز شاهي** كمرجع عن التاريخ الاجتماعي الاقتصادي لفترة السلطنة»، IC 60، ج: 2 (1986م)، 104 هـ. 27.

(129) KF، 33. قارن أيضاً التصريح الذي يُروى عن لسان بلبان في TFS، 51.

(130) المصدر نفسه، 53؛ وانظر ديغبي، **جياد الحرب**، 27 ـ 28 وهـ. 63.

الفصل الثاني عشر

القوات المسلحة والاقتصاد والإصلاح الإداري

الجيش

في سنة 656 هـ / 1258م، حين كان العمل جارياً على قدم وساق، إعداداً لحملة تستهدف طرد جيش سالي نويان المغولي من السند، أخفق مُقْطَعا قارا وأوَذ في سوق فصيليهما[1]. ومن اللافت للنظر، أن الجوزجاني يصور سلطان دلهي عاكفاً، في مناسبات أخرى أيضاً، على حشد قوات من «هندوستان» أو «من الأقاليم» (**أز أطراف**) من أجل صد هجمات مغولية[2]. بعبارة أخرى، ما زالت قوات السلطنة تبدو، في هذه المرحلة، غير متمايزة، من حيث ميادين عملياتها المتباينة. يعتبر السلطان بلبان صاحب الفضل في تأسيس جيش مستقل، مصمَّم تحديداً لمقارعة المغول. وقد كان الجيش مؤلفاً من فرقتين بقيادة نجليه محمد في السند، وبوغرا في سامانا، اللذين كان ثانيهما، على الأقل، مكلفاً بمهمة تجنيد وحدات جديدة، إضافة إلى قوات أخرى بقيادة **الباربك** بغبرس (بيبرس) من دلهي: يقال إن المجموع الإجمالي كان أقل من سبعة عشر أو ثمانية عشر ألفاً من الخيالة[3]. ومع ذلك، ثمة مؤشرات في

---

(1) TN، II، 76 ـ 77 (تر. 846 ـ 847).

(2) المصدر نفسه، I، 471، 486، وII، 171 (تر. 667، 692 ـ 693، 1156).

(3) TFS، 81؛ عن بوغراخان، انظر أيضاً 80.

المصادر، توحي بأن القوات التي واجه بها جلالُ الدين وعلاءُ الدين الجحافل المغولية الغازية في تسعينيات القرن الثالث عشر، لم تكن ذات خبرة بأي خصم غير الهندوس[4]. وربما كان ذلك هو السبب الذي بات علاء الدين، من أجله، يُعتبر صاحب فضل فيما يخص الجهود المبذولة لتجنيد قوات جديدة، يقف بها في وجه المغول. شكلت الحملات المتنقلة في قلب شبه الجزيرة الهندية مسألة أخرى، وقد كان إيجاد وتنظيم قوة أخرى، متميزة عن الوحدات التي كانت موجودة، لمواجهة التهديد المغولي[5]، من نصيب علاء الدين مرة ثانية.

تفترض البيِّنات، على ندرتها، حدوث زيادة جوهرية ذات شأن، في الحجم الإجمالي لجيش السلطنة[6]. من المؤسف أن الأرقام المحددة، لتعداد القوات الموجودة في السجلات السلطانية، لا تتكرر بانتظام في المصادر، وقد لا تكون جديرة بالثقة حين ترد[7]. فحين قام مبعوثو هولاكو بزيارة دلهي سنة 658 هـ / 1260م، حاول بلبان إخافتهم، باستعراض حوالي مئتي ألف من المشاة وخمسين ألفاً من الفرسان. أما كَمْ من هؤلاء كانوا القوات المركزية المتمركزة في دلهي وحولها، وإلى أي مدى كان بلبان معتمداً على الأعداد التي يستجلبها من الإقطاعات، فلا أجوبة لدينا: فالجوزجاني يرى القوات مجلوبة «من الأقاليم كما من المناطق التابعة للعاصمة» (**آز أطراف وحوالي ـ ي أعلا**)[8]. وفي المحصلة فإن بلبان السلطان، كان قادراً على استعراض جيش قوامه مئتا ألف في أوَذ، في طريقه لسحق عصيان طُغرُل في البنغال. غير أن جميع هؤلاء لم يكونوا مقاتلين. فتوصيف برني لهم ـ ك «فرسان، مشاة، بايك،

---

(4) FS، 213 (تر. 376). TFS، 257، **حشمي هندوستان**.

(5) المصدر نفسه، 302، 326.

(6) جزء كبير مما يلي موجود في پ. جاكسون، «دلهي: مشكلة ثكنات عسكرية واسعة»، في ر. إ. فريكنبرغ (محرراً)، **دلهي عبر العصور: مقالات في تاريخ المدن وثقافتها ومجتمعها** (أوكسفورد ودلهي، 1986م)، 20 ـ 22.

(7) انظر كولف **ناوكار**، 2 ـ 4، بشأن الأرقام الإشكالية الواردة عن الجيوش المغولية.

(8) TN، II، 83 (تر. 856 معدل).

رماة [**دهانوك**]، حَمَلَة سرادق [**كايواني**]، غير نظاميين [**خود اسبا**؛ «جيادهم ملك خاص لهم» حرفياً]، رماة، غلمان، خدم [تشاكر]، تجار وأهل بازار» ـ لا يوحي بالثقة. لا يسع المرء إلاّ أن يتذكر ملاحظة بيرنيه Bernier المنطوية على شيء من الاحتقار، فيما يخص أمبراطورية آورنجزيب، تلك الملاحظة التي تقول إن أعداد جيش «المغول» جرى تضخيمها عن طريق إضافة «الخدم والباعة [العاملين في دُور التعامل التجاري في الثكنات العسكرية]. . . وجميع الأفراد المنتمين إلى **البازارات** أو الأسواق، ممن يرافقون القوات المسلحة»[10]. ومع ذلك فإن الفكرة القائلة إن السلطنة كانت قوية، تمتعت بشعبية واسعة. فالجغرافي المغربي ابن سعيد المنتمي إلى أواخر القرن الثالث عشر، اعتقد أن المغول كانوا عاجزين عن احتلال الهند، بسبب وجود أعداد كبيرة من الرجال والفيلة، تحت تصرف السلطان[11].

يبدو أن العهود التالية، شهدت توسعاً مطّرداً لمؤسسة السلطان العسكرية. فقد سُمع في مصر المملوكية، عن تعاظم القوات العسكرية في ظل علاء الدين خَلْجي[12]. ربما نستطيع استبعاد **اللاكات** الستة أو السبعة (600,000 أو 700,000) من الفرسان الواردة في الصياغة المنقحة الأولى لكتاب برني، وهو رقمٌ يوازي العدد الإجمالي المتوافر لعلاء الدين (كما لعدوه، الأمير المغولي قُطْلُغ قوتشا) في زمن معركة كيلي، التي تفوح منها رائحة المبالغة دون ريب؛ أما حسب ما جاء في الصياغة الثانية، فقد كان السلطان قادراً على تجييش ما يتراوح بين المئتي ألف والثلاثمئة ألف من الخيالة[13].

---

(9) TFS، 86. عن **كايوانيس**، انظر IB، III 415 (تر. جيب، 753)؛ أيضاً TFS، 400؛ عفيف، 322.

(10) فرانسوا بيرنييه، **رحلات في الإمبراطورية المغولية، 1656 ـ 1668**، تحقيق، آرشيبالد كونستابل (لندن، 1891م)، 219 ـ 220.

(11) ابن سعيد، **كتاب الجغرافية**، 163 ـ 164.

(12) ابن أبي الفضائل، تحقيق، كونتانتامر، النص العربي 29.

(13) TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 96 أ. TFS، 267. غير أن من الضروري أن نلاحظ أن =

ثمة أرقام أخرى تأتي من إيران المغولية. كان وصّاف ورشيد الدين يعتقدان أن قوات دلهي، زادت عن ثلاثمئة ألف[14]؛ وفي مجلده الأخير المنجز بعد عشرين سنة ونيف، يورد وصّاف رقم 475,000 بوصفه الحجم الراهن لجيش السلطان[15]. أما رقم الـ 400,000 فارس، الذي يلتقطه الجغرافي المعرف باسم الدمشقي، (المتوفى سنة 727 هـ / 1327م) فيقع في مكان وسط[16]. وفي عهد محمد بن تُغْلُق، الذي يقال إنه بنى قوة غير مسبوقة من حيث الضخامة، في غضون فترة زمنية قصيرة نسبياً، نجد الأرقام التي رَشَحَتْ غرباً، كما سنرى، أكثر إثارةً للدهشة.

كانت الأولوية المعطاة للاحتفاظ بمثل هذه الجيوش، تنطوي على مشكلات معينة. كان لا بد، أولاً، من إبقاء فرق الجند مشغولة ومدربة. يحدثنا برني، عن قيام بلبان بتنظيم حملات صيد وقنص شتوية لهذا الغرض؛ يقال إنها أثارت إعجاب هولاكو؛ والقنص المغولي الذي كانت فيه الطريدة مسجونة داخل دائرة واسعة، ولكنها متقلصة (**نيرغه**)، والذي يقدم الجويني صورته الكلاسيكية، كان مصمَّماً، في الحقيقة، كشكل من أشكال المناورات الشتوية[17]. غير أنه علينا ملاحظة أن عمليات قنص شديدة الشبه بتلك المعروفة لدى المغول ـ بما فيها حتى **النيرغه** ـ كانت تنظم من الأسلاف الغوريين

= خسرو يجعل غياث الدين تُغلُق يقول إن عدد المسجلين في سجلات التجنيد وصل إلى 200 ألف رجل: **تُغلُق ـ نامه**، 71.

(14) وصّاف، 309؛ JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي Taf 54، النص الفارسي .Taf 18 (تر. ألمانية 43)؛ قاشاني، 183.

(15) وصّاف، 528. في النهاية يقوم فيربشتا بإعادة إنتاج الرقم (ا، 199 ـ 200) فيما يخص إصلاحات علاء الدين: يبقى المصدى الوسيط غير واضح، ولا يبدو أنه خواند ـ أمير.

(16) **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، تحقيق، أ. ف. ميهرن، **كوزموغرافيا شمس الدين أبو عبد الله محمد الدمشقي** (سان بطرسبرغ، 1866)، 180.

(17) TFS، 55. كانت وفاة هولاكو في الحقيقة قبل اعتلاء بلبان العرش. عن القنص عند المغول، انظرTJG، ا، 19 ـ 21 (تر. بويل، 27 ـ 29)؛ مورغان، **المغول**، 84ـ 85.

لسلاطين دلهي[18]؛ وبالتالي، فإن التأثير المغولي يكاد يكون مطّرداً. ومهما يكن، فإننا نرى خلفاء بلبان في رحلات صيد واسعة النطاق، بين الحين والآخر[19]؛ وثمة في ظل فيروز شاه، الذي كان شديد الإدمان للقنص، فسحة كبيرة كانت محتجزة ومخصصة للمطاردة والقنص[20]. لعل الوسيلة الأفعل لإبقاء الجند مدربين كانت، على أية حال، متمثلة، دون شك، بتنظيم حملات منتظمة ضد الهندوس. وقد كانت إحدى شكاوى برني من الجيش العرمرم الذي جنده محمد بن تُغْلُق لغزو «خراسان» وفتحها، هي أن إشغاله بالجهاد، خلال الأولى من السنتين اللتين سبقتا تسريحه، لم يكن ممكناً[21]. من المؤكد أن برني يقع هنا في خطأ عدم الاتساق، لأن جزءاً من الجيش، كما سنرى، ما لبث أن تم إرساله إلى قراشيل؛ ولكن التعليق يظل يوحي بالأهمية المعلقة على المشكلة التي يطرحها جيش عامل كبير معطَّل[22].

ثمة مشكلتان أخريان من مشكلات الاحتفاظ بجيوش كبيرة، كانتا مرتبطتين بالرواتب والتجهيزات. كان علاء الدين عازماً على الاحتفاظ بجيش محترف (**مستقيم**) من جهة، وعلى القيام بذلك، دون تسديد رواتب مرتفعة من جهة أخرى[23]. من الواضح أن المعاشات المذكورة ـ 234 **تانغا** لكل **مرتب**، 78 تانغا لكل **دواسبا** ـ لا تعني شيئاً بالنسبة إلينا، لأننا لا نملك أية بيانات عن مستوى المكافأة المتوفر، من قَبْلُ، لجند السلطان؛ فضلاً عن أن المراتب

(18) TN، ا، 364 ـ 365 (تر. 385 ـ 387). يستخدم برني كلمة **نرغه** بالارتباط مع إحدى رحلات الصيد لعلاء الدين: TFS، 272 ـ 273.

(19) مثل قطب الدين مبارك شاه: FS، 364 ـ 365 (تر. 563 ـ 564). محمد بن تُغلُق، مصحوباً أحياناً بـ «ما لا يزيد عن مئة ألف فارس»: MA، تحقيق سبايز، 19 (تر. ألمانية 144) / تحقيق فارق، 36 (تر. صديقي وأحمد، 44).

(20) عفيف، 321؛ وقارن 455.

(21) TFS، 477.

(22) انظر أيضاً FJ، 107.

(23) TFS، 303 ـ 304.

نفسها ليست محددة في الحقيقة. وغموض رواية برني هذا، لا يلبث أن يتضاعف جراء الأوهام المتزاحمة في النسخة المطبوعة من كتاب **التاريخ**. كان س. هـ. هوديڤالا، الأكثر قرباً من تسليط الضوء على ما يفترض أن يكون علاء الدين قد قاله بالفعل، إنه: «سأطالب كل **مرتب** بجوادين مع تجهيزاتهما اللازمة، وسأطالب كل **دواسبا** بجواد واحد وما يجب أن يرافقه من معدات»[24]. وفي صياغته الأولى، يضع برني إشارة المساواة بين **المرتب** وفارس مدرع ثقيل (**بر ـ غوست واني**) من جهة، وبين **الدواسبا** ومن ليس مجهزاً بدرع فرس[25]، من جهة ثانية. وبالتالي، فإن **المرتب** يبرز بوصفه جندياً مطالباً بتوفير راحلتين، و**الدواسبا** كان، للمفارقة، جندياً تقوم الدولة بتوفير مطيته الثانية. وهكذا، فإن مبلغ الثمانية والسبعين **تانغا** المدفوع **للدواسبا**، يجب أن يعكس التوظيف الأقل، الذي كان مطلوباً منه في المجهود الحربي الجوهري. كما أن حقيقة كون **المرتب** هو الأفضل تجهيزاً بين الاثنين، يتجلى أيضاً من تعليق برني البلاغي في مكان آخر، في سياق الدفاع الناجح ضد المغول، حيث يقول إن **دواسبا** واحداً، قادرٌ على جلب عشرة مغول تحت نير واحد، في حين بدا فارسٌ مسلم واحد (من الواضح أن **المرتب** هو المقصود هنا) قادر على سوق مئة [من المغول] أمامه[26].

في أيام إلتُتْمش وبلبان، كان الفرسان في المركز (**القلب**) يكافؤون بإعطائهم قرى في المناطق المحيطة بدلهي والدواب. تخلى علاء الدين عن هذا النظام. وإذا كنا سنصدق أحد المؤلفين اللاحقين، فإن السلطان كان، في الحقيقة، ضد ممارسة تخصيص القرى لخيالة عاديين على أساس أنها تعزز

---

(24) قارن بـ TFS، 303، مخطوطة BL، ملف 150 ب: **دو آسبو استعدادي آندازاي ـ ي عن آز مرتب طالبان وياك آسبو استعدادي آندازاي ـ ي ياك آسب آزدو آسب**. انظر أيضاً هوديڤالا، **دراسات**، I، XV و280. أجور كل مرتبة محددة مرة أخرى في TFS، 319.

(25) TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 115 أ. عبارة **مرتب** هي الأخرى واردة في TN، II، 26.

(26) TFS، 320.

الترابط المحلي وتمهد للعصيان على الصعيد الإقليمي[27]. وما إذا كان هذا هو الدافع الكامن، حقاً، وراء إصلاحه، لسنا قادرين على أن نكون متأكدين، غير أن من شأنه أن يبقى متساوقاً مع هواجسه المعروفة حول التآمر والتمرد. وعلى أية حال، فإن الجند باتوا، منذ ذلك التاريخ، فيما عدا فترة قصيرة في ظل محمد بن تُغْلُق يحصلون على مرتباتهم نقداً حتى عهد فيروز شاه.

تمثلت المشكلة الأخيرة، بالكيفية التي كان علاء الدين سيدفع بها رواتب جنده. في وقت مبكر جداً من حكمه، كان قد صادر ممتلكات الأكثرية الساحقة من أمراء عمه، وأعاد إقطاعاتهم إلى الخالصة. وفي مرحلة متأخرة بعض الشيء، ربما غداة انتفاضة حاجّي مولى بدلهي، سار السلطان قُدُماً على طريق استرداد جميع الأملاك الخاصة وكل الهبات الممنوحة، بما في ذلك الأوقاف (**الوقوف**) (تلك المخصصة للمؤسسات الدينية والخيرية) وهبات **الإنعام** (التي كانت مستثناة من أي التزام بالخدمة). يقول برني، إن الوحيدين الذين بقوا، وبحوزتهم شيء من المال، هم الملوك والأمراء والموظفون والملتانيون و**الساهات** (الصرافون ومُقْرضو الأموال [المرابون] الهندوس)[28]. وعلى الرغم من احتمال أن يكون السلطان قد نجح، بفضل هذه الوسائل، في تحقيق زيادة ذات شأن، في الموارد الباقية تحت تصرفه، فإن علينا، للسبب نفسه، افتراض أن جزءاً كبيراً من تلك الثروات كان مرشحاً لأن يُدفع ثانية إلى المقرَّبين والمحاسيب. وبالتالي فإن علاء الدين اضطر، في سبيل زيادة حجم قواته مع إبقاء رواتب جنده متدنية، لابتداع حيل أخرى منها: إدخال تغييرات كبيرة على النظام الضريبي، وعلى أسلوب جمع الحبوب، أولاً، واعتماد تدبير هادفة إلى ضمان أسعار متدنية، ثانياً.

---

(27) عفيف، 95.

(28) TFS، 283 ـ 284.

الضرائب ومخزون الحبوب

لا نعلم نسبة المحصول التي كان المزارع يسلّمها إلى الحاكم، قبل الفتح الإسلامي للهند الشمالية: فالشروط المعتمدة في فرض الضرائب والرسوم، النقدية منها والعينية، ضبابية غامضة، مثلما هي كثيرة ومتعددة[29]. خلال الفترة الأولى من حياة السلطنة، تُرك **الرانات والراوتات** يجبون الواردات من وكلائهم [رؤساء العاملين] (**الخوتات، المقدمين**) لتحصيل الجزية المطلوب تسديدها لممثلي السلطان. وبالتالي، فإن **الخراج** الذي تتحدث عنه مصادرنا لم يكن، في تلك الفترة، ضريبة الأرض التي يدل عليها عادة. وقد قيل إن تلك الضريبة ربما كانت تُجبى في الأقاليم الغزنوية السابقة في البنجاب الغربي، فجرى توسيع دائرة تطبيقها لتشمل الأماكن القريبة من دلهي، مع حلول آخر القرن الثالث عشر؛ وإذا كان الأمر كذلك، فإن مصادرنا لا تسجل تطوراً كهذا[30]. ومع ذلك، فإن علاء الدين فرض **الخراج** الإسلامي على مساحة ذات شأن من الهند الشمالية، جاعلاً إياه [الخراج] خمسين بالمئة[31]. ذلك كان الحد الأعلى المسموح به في المذهب الحنفي، الذي كان سائداً في السلطنة[32]؛ غير أن صرامة علاء الدين لم تكمن في النسبة المئوية المحددة **للخراج**، بمقدار ما كانت متجسدة في الطريقة التي اتبعت لجبايته مع جملة الضرائب الإضافية المفروضة على المزارعين.

يبقى برني مصدرنا الرئيسي فيما يخص تدبير علاء الدين المالية، على الرغم من أن كُتّاباً آخرين، يقدمون تفاصيل عَرَضية منفردة. وقد جادل

---

(29) لمعاينة مثل هذه العبارات، انظر غوبال، **الحياة الاقتصادية**، الفصل الثاني.

(30) ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 60 ـ 61.

(31) TFS، 287.

(32) نيكولاس پ. آغنيدس، **نظريات المال الإسلامية** (نيويورك، 1916 م؛ مطبوع ثانية، 1969)، 379 ـ 380. بالمثل IB، IV، 223 (تر. جيب وبكينغهام، 872)، يقول إن كُفّار «حبانق» (قرب سيلهت) كانوا يدفعون نصف إنتاجهم إلى حكامهم المسلمين.

البروفسور عرفان حبيب بصورة مقنعة قائلاً: إن شهاداتهم المتضافرة حول التحكم بالأسعار، على الأقل، تمنح برني درجة عالية من التأييد[33]. ثمة صعوبة واحدة، ألا وهي أن برني يشير إلى هذه الإصلاحات مرتين، في سياقين متمايزين تماماً: مرة كجزء من خطة سياسية مدروسة، هادفة إلى اختزال نفوذ الزعماء والرؤساء الهندوس، وأخرى حين يقوم، بعد عدد من الصفحات، بربط التغييرات بحاجة السلطان إلى الاستغلال الأكمل والأقصى لموارده، في سبيل توفير أسباب الاستمرار لجيشه، الذي لم يسبق لضخامته مثيل. ومع ذلك، فإن التدبير نفسها هي المعتمدة. وفي ظل النظام الجديد، كان الرسم المستحق يتحدد عن طريق المَسْح (**مساحات**) على أساس **البيسوا** (20/ 1 من **البيغا**): ذلك يعني أنه كان يتم تقويم محصول (**وفاء**) **البسوا**، ثم يجري التوصل إلى حساب ما يجب على المزارع دفعه بمضاعفة الرقم بعدد **البيسوات** التي يتصرف بها؛ ومن هذه الكمية الإجمالية، كان يؤخذ النصف. وفي أكثر الأحيان، كان يتعين تسديد **الخراج** ، لا كجزء عيني من المحصول، بل نقداً، ويزعم برني أن الجباة كانوا شديدي الإلحاح في المطالبة، حتى أن الفلاحين كانوا يضطرون لبيع محاصيلهم إلى تجار الحبوب (**الكروانيان**) وهي بعد في الحقل **بر ساري كشت**)[34]. وقد تمثلت إحدى عواقب نظام التقويم الجديد بتحول مساهمة الفرد إلى مساهمة ذات أهمية بالغة. فالفلاح، كما يتضح من إحدى رسائل ابن مهرو في منتصف القرن الخامس عشر، بات الآن، رغم أنه حُرٌّ أساساً (**حر أصل**)، عبداً حقيقياً للأرض، لأن سعيه لإخفاء كامل **الخراج** المطلوب عن القرية، كان من شأنه أن يعرِّض الأخيرة للعقاب[35].

---

(33) عرفان حبيب «تشريعات الأسعار لدى علاء الدين خلجي ـ دفاع عن ضياء برني»، IESHR 21 (1984م)، 394 ـ 397.

(34) TFS، 287، 288، 305، 307. عن عبارة **وفاي بيسوا**، انظر هوديفالا، دراسات، II، 97 ـ 98؛ حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 61. **البيغا** التي اعتمدت لاحقاً في الهند البريطانية كانت حوالى خمسة أثمان الفدان (الإيكر): يول وبورنك، **هوبسون ـ جوبسون**، 79.

(35) IM، 61 ـ 63. ع. حبيب، «التاريخ الاقتصادي لسلطنة دلهي»، 297 ـ 298، و«الاقتصاد الزراعي»، 54.

إضافة إلى **خراج** مقدَّر وفق أساس جديد، قام علاء الدين بفرض ضريبتين أخريين هما **الشرائي**، أو ضريبة الرعي، و**السكونت غري** أو **غرهي**، التي كانت تفرض على المساكن[36]. صحيح أن شيئاً ذا بال عن أية من الضريبتين لا يرد في الطبعة المتداولة من كتاب **تاريخي فيروز ـ شاهي**، غير أننا نحصل على معلومات أكثر عن **الشرائي** (ضريبة الرعي) في الصياغة المنقحة الأولى، حيث يقال إن أعداد المواشي المحصَّلة (عن كل قرية؟) تتألف من أربعة ثيران (**سوتور**) وجاموسين (غاوي ميس) وبقرتين (ماداغاو) واثني عشر رأساً من الغنم[37]. وما إذا كانت **الشرائي** تُجبىٰ ـ مع أشياء أخرى ـ من الأقوام الرعاة المتنقلة في البنجاب الشرقي، تلك الأقوام التي كان نمط حياتها السائد رعوياً، ليس مؤكداً. علينا افتراض أن ضريبة السكن كانت تقع على كواهل سكان الحضر، جنباً إلى جنب مع الفلاحين في الأرياف. ولا بد من ملاحظة أن مثل هذه الضرائب لم تكن تحظى، خلافاً لحال **الخراج**، بمباركة الشريعة الإسلامية.

نجد صياغتي كتاب برني مختلفتين لدى إيراد اسم الموظف، الذي كان مكلَّفاً بالاضطلاع بمسؤولية وضع الإصلاحات، موضع التطبيق. فهو ملك يكلخي في الأولى، وشرف الدين قايني في الثانية. وكلاهما يحمل لقب **نائب ـ وزير**[38]. وعلى امتداد فترة بضع سنوات (ست وفقاً لطبعة برني الأولى)، أشرفَ **نائب الوزير** على تطبيق **الخراج** وفق أساس المسْح والقياس، جنباً إلى جنب مع ضريبتي الرعي والسكن بصورة موحدة على مناطق واسعة، كما لو كانت قرية واحدة. والبقعة المعنية محددة بوصفها «جميع القرى الواقعة في أقاليم العاصمة، وسائر البلدات (**القصبات**) في أرياف الدواب، والأراضي الممتدة من بهايانا إلى جهاين، ومن بالام إلى دَيْبلْپور ولاهور، وكل أراضي

---

(36) TFS، 287، 288.

(37) TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 112 أ.

(38) المصدر نفسه، TFS، 288..

سُنّام وسامانا، كما من ريواري إلى نغوار، ومن خور إلى غانوري، ومن آمروها وأفغانبور وكابار، ومن دامهاي إلى بداؤون وكاسراك وكوتلا، فضلاً عن كاتيهر كلها». وكذلك، فإن قايني يُعْتَبر مسؤولاً عن، وصاحب فضل في، جملة التدبير المتشددة والصارمة الرامية إلى استئصال الرشوة والاختلاس المتفشيَيْن بين صفوف الموظفين المحليين، إلى حد تفتيش سجلات **(باهيات)** محاسب **(باتواري)** القرية[39].

جرى ضم جزء كبير من هذه المنطقة، إلى الخالصة، مثل أقاليم كول وبرني وميرات وآمروها وأفغانبور وكابار، كما تم استرجاع الدواب كله من المُقْطَع الموجود، ووضعه تحت إشراف وزارة الموارد لدى السلطان[40]. وفي خالصة الدواب، تحديداً، كان **الخراج** سيُدفع كله عيناً، حبوباً، لتحويله إلى احتياطات الحبوب العائدة للسلطان في العاصمة. أمّا في إقليم جهاين، فقد تقرر، بالمقابل، أن يتم دفع نصف الضريبة نقداً، والنصف الآخر حبوباً، يجري تخزينها (أي الحبوب) في جهاين وبلداته[41]. كانت مخزونات الحبوب الهائلة المحفوظة في دلهي، مثارَ دهشة قوية لدى ابن بطوطة، بعد بضعة عقود[42]. وكان الغرض من هذه الكميات الاحتياطية من الحبوب هو الاستعداد

---

(39) TFS، 287 ـ 289؛ TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 112أ، تضيف «وكل هندوستان وصولاً إلى البنغال». تظهر خور (في مخطوطة BL على شكل ك ه ر) خطأ في النص المطبوع بصيغة قارا. إن هذه المدينة القديمة خور مذكورة أيضاً في TFS، 485 وتقع عند نقطة 27 درجة / 39 دقيقة شمالاً، 79 درجة / 28 دقيقة شرقاً. هوديڤالا، **دراسات**، ١، 296؛ IG، XXII، 229. عن دامهاي على الطريق من بداؤون إلى دلهي، عند نقطة 28 درجة / 12 دقيقة شمالاً، 78 درجة / 16 دقيقة شرقاً، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ١، 269. وبالتالي فإن كوتلا، من النص يجب أن تكون كوبيلا المراجع النَمُرية التي يتعرف عليها لال، **غروب**...، 34، بوصفها هاردوار.

(40) TFS، 323 ـ 324. عن أفغانبور، انظر ع. حبيب، **أطلس**، 27 وخريطة رقم 8 آ.

(41) TFS، 305 ـ 306. عن هذا التفسير لبيانات متضاربة ظاهرياً صادرة عن برني، انظر ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 61 ـ 62.

(42) IB، III، 148 (تر. جيب، 621): على أية حال كان متوهماً بأن المخازن كانت تعود بتاريخها إلى أيام بلبان.

لمواجهة فترات المجاعة، التي كانت تضرب العاصمة بين الحين والآخر، خصوصاً في عهد علاء الدين خَلْجي، حين كانت الاحتياطيات قد نفذت[43]؛ على الرغم من أن السلطان، ربما كان أيضاً، يتذكر الأزمة الأحدث التي أفرزها الغزو المغولي لسنة 703 هـ / 1303م، بقيادة تراغاي. هذا، ولا نستطيع استبعاد احتمال ألاّ تكون حملة علاء الدين العنيفة ضد تصنيع الخمور والمخدرات واستهلاكها، التي كان من شأنها، في حال نجاحها، أن تنطوي على فقدان بعض مداخيل الدولة، هي الأخرى، نابعة من دوافع دينية وأخلاقية فقط. وربما كان يرمي، في الوقت نفسه، إلى تشجيع التركيز، داخل القطاع الزراعي، على إنتاج الحبوب[44].

التحكم بالأسعار

لم تكن مراكمة مخزونات الحبوب ضماناً ضد المجاعة، إلاّ بصورة جزئية؛ وإذا كانت في الوقت نفسه عنصراً جوهرياً من عناصر سياسة علاء الدين القائمة على التحكم بالأسعار[45]. فللإبقاء على جيش عامل كبير برواتب متدنية

---

(43) FS، 217 ـ 219 (تر. 383 ـ 384). TFS، 212. عن فتح الصوامع خلال أيام المحل والقحط بإشراف علاء الدين بالذات، انظر KF، 21.

(44) TFS، 284 ـ 286. غير أن برني يزعم أن الهدف كان متمثلاً باختزال حصول الاجتماعات الإحيائية للنبلاء، تلك الاجتماعات التي قد تفضي إلى التآمر. حسب السير جورج واط، **قاموس المنتجات الاقتصادية للهند** (لندن وكالكوتا، 1889 ـ 1893، 6 أجزاء في 9)، VI، ج: ع 273 ـ 274، أعنابُ الأقاليم الشمالية الغربية وأوَد تكاد ألاّ تكون مناسبة لصناعة الخمور؛ وIB، III، 129 (تر. حبيب، 610)، يؤكد أن الكرمة كانت نادرة في الهند، غير موجودة إلاّ في منطقة دلهي مع منطقة أخرى طُمس اسمها في سائر المخطوطات. ومع ذلك، فإن مصادر أخرى توحي بأن إنتاج الخمر كان مزدهراً في أوَد وكول وميرات، وهي جميعاً أقاليم خضعت لإصلاحات علاء الدين الاقتصادية: TFS، 157؛ ميرزا، **حياته وأعماله**، 72. جدير بالملاحظة أن مشروباً مسكراً واحداً على الأقل هو **الباغني**، كان يُصنع من القمح: هوديڤالا، **دراسات**، ا، 276.

(45) انظر عموماً دهارام بال، «نظام علاء الدين لضبط الأسعار»، IC 18 (1944م)، 45 ـ 52؛ ب. ساران، «السياسة الاقتصادية وضبط الأسعار لدى علاء الدين خلجي»، **بهاراتيا فيديا** «(1950م)، 195 ـ 215؛ الشيخ عبد الرشيد، «ضبط الأسعار في ظل علاء الدين خلجي»، في **أعمال مؤتمر تاريخ كل** =

نسبياً، كان لا بد من تأمين أسعار منخفضة للمواد الأساسية. وبالتالي، فإن الحكومة بادرت إلى تحديد الحدود العليا لأسعار عدد من السلع التي اشتملت على المواد الغذائية الأساسية ـ مثل (**الحنطة**) القمح والشعير (**الجاو**) والأزر (**الشالي**) والحمّص (**الماسن، النوخود**) والبشارة (الموث)؛ إضافة إلى الأقمشة والسكّر وقصب السكر (**النبات**) والفاكهة والشحوم الحيوانية (**راوغاني سوتور**) والدهون (راوغاني شيراغ)؛ مع العبيد والخيل والماشية[46]. وللإشراف على بقاء أسعار الحبوب منخفضة، كان قد تم تعيين ملك قابل أُلُغخاني مراقباً للسوق (**شِحنه ـ ي ماندا**)، يساعده ضابط استخبارات (**بريد**)، وتم إخضاع جميع التجار (**الكاروانيان**) لإدارته. وحسب ما يقوله حميد قلندر، كان كبار التجار يحصلون على سُلف نقدية من الخزينة إضافة إلى النفقات التي يتكبدونها. ومن جهة أخرى، يقول برني، إنهم كانوا ملزمين بتقديم كفالات، فضلاً عن إجبارهم، هم وأزواجهم وأفراد عائلاتهم، على السكن في القرى الواقعة على ضفاف اليمونه. كذلك كانت أعمالهم خاضعة للإشراف. كان تخزين الحبوب (احتكارها) وعرضها من جديد ـ من جانب المزارع أو التاجر أو الوسيط (**البقال**) على حد سواء ـ من الأمور المحظورة والخاضعة لعقوبات شديدة، بما فيها المصادرة. ولضمان قيام المزارعين ببيع الكميات المطلوبة من الحبوب إلى التجار في الحقول (**بر ساري كشت**) ومبادرة الأخيرين إلى جَلْبها فوراً إلى أسواق السلطان، كان يجري إصدار شهادات أو بيانات من قِبَل

= باكستان، **الجلسة الأولى، عقدت بكراتشي . . . 1951** (كراتشي [بلا تاريخ])، 203 ـ 210؛ ع. حبيب، «الإنتاج غير الزراعي والاقتصاد الحضري»، في رايتشاوْدهوري وحبيب، **تاريخ كامبردج الاقتصادي**، 83، 86 ـ 87.

(46) المواد الغذائية الأساسية: TFS، 305. الأقمشة وإلخ، المصدر نفسه، 309، 310. الخيول: المصدر نفسه، 312 ـ 313. العبيد: المصدر نفسه، 314. المواشي، المصدر نفسه، 315. حبيب، «الإنتاج غير الزراعي»، 87، يشير إلى أن سعر القمح الذي يورده برني مؤيد من قبل حميد قلاندر، **خير المجالس**، تحقيق ك. أ. نظامي (عليكره، [1959 م])، 185 (قارن أيضاً 241).

الرسميين المحليين، تؤكد حصول التعامل[47]. أما تسويق السلع الأخرى، غير الحبوب، فقد تم تركيزه في مؤسسة جديدة أُطلق عليها اسم **ساراي ـ ي عَدْل**، أقيمت في فسحة خالية داخل بوابة بداؤون، وكُلفت مجموعة الملتانيين الميسورين بإدارتها. صدرت الأوامر التي تحظر بيع البضائع في أي مكان آخر غير **سراي عدل**، تحت طائلة المصادرة[48].

أما المسؤولية العامة عن الحفاظ على الأسعار المتدنية، فقد جرى تحميلها لشخص معين يدعى يعقوب، كان يجمع بين مختلف وظائف كبير مفتشي الدخل (**الناظر**) و**رئيس** العاصمة (أمين العاصمة؟) و**محتسب** الإمبراطورية كلها[49]. وهو بدوره، كان يعين مقيماً (شحنة) لكل سوق، يتولى مهمة إبقاء الأسعار تحت الإشراف والمراقبة[50]. تعين على مكتب الرئيس (**ديوان ـ ي رياست**) أن يفتح سجلاً (**دفتراً، تذكرة**) يتضمن أسماء جميع التجار، أولئك الذين هم في العاصمة ونظراؤهم في الأقاليم على حد سواء. فقد كانوا مطالبين بتعهدات مكتوبة تلزمهم بتقديم كميات متفق عليها من البضائع سنوياً، لتباع في السراي عدل[51]. قدمت الحكومة سلفة بلغت عشرين **لاكاً** (2,000,000) من **التانغات** إلى ملتانيين، التزموا بجلب بضائع من الأقاليم لضمان بقاء الأسعار متدنية، إذا ما حاول التجار تأخير إيصال بضائعهم إلى السراي عدل[52]. ولشراء سلع الترف، كان لا بد من الحصول على إجازة

---

(47) TFS، 305، 306 ـ 308. حميد قلاندر، **خير المجالس**، 241، أورده ع. حبيب، «الإنتاج غير الزراعي»، 83. عن ملك قابول، انظر هوديغالا، **دراسات**، II، 100: من المفترض أنه كان مملوكاً لشقيق السلطان: أُلغ خان.

(48) TFS، 309 ـ 310. انظر أيضاً KF، 21 ـ 22.

(49) TFS، 317.

(50) المصدر نفسه، 317 ـ 318.

(51) المصدر نفسه، 310 ـ 311.

(52) المصدر نفسه، 309، 311.

(**باروانا**) من **الرئيس**، لمنع التجار أو الأغنياء من شراء البضائع برُخْصٍ في العاصمة، وإعادة بيعها في أماكن أخرى بأرباح عالية[53]. كان النظام، بمجمله، يقوم على شبكة من الجواسيس، الذين كانوا يكتبون التقارير عن المخالفات، ويوصلونها إلى السلطان[54].

جرى تعزيز سياسات علاء الدين بعقوبات قاسية. أما الضحايا فكانوا، إلى حدود معينة، من الوسطاء: فتجار الخيل وسماسرة الجياد الذين بدت عملياتهم مؤدية إلى تضخيم الأسعار، مثلاً، كانوا في أحيان كثيرة يُغرَّمون أو يُطردون من العاصمة ويسجنون في قلاع نائية[55]. أمّا الموقف الذي لم يكن يعرف معنى المساومة **للرئيس** يعقوب، فقد أدى إلى جعله منبعاً للرعب بالنسبة لأولئك الذين كانوا ينتهكون تشريعات السوق. كانت عقوبات الجَلْد والسجن شائعة. كانت أجزاء من وجوه بعض المخالفين، ولا سيما الباعة الذين كانوا يحاولون التعويض عن أرباحهم المتدنية، عن طريق الإخلال بالوزن، تُقطع [كأن تُجدع أنوفهم]؛ فضلاً عن إبعادهم عن البازار[56]. غير أن الحكومة أخفقت في استئصال الغش والتلاعب من التجارة، رغم كل هذه العقوبات الفظيعة[57].

أهداف سياسات علاء الدين ونتائجها

يصر برني على أن تحكم علاء الدين بالأسعار كان مبعث إعجاب بالنسبة إلى معاصريه[58]؛ وبالفعل، فإن السياسة ـ تلك القائمة على فرض حدود

---

(53) المصدر نفسه، 311 ـ 312.

(54) المصدر نفسه، 315، 319؛ انظر أيضاً 308 عن الجواسيس في **الماندا**.

(55) المصدر نفسه، 313 ـ 314.

(56) المصدر نفسه، 316، 319.

(57) المصدر نفسه، 317.

(58) المصدر نفسه، 305، 308، 312، 340 ـ 341.

قصوى لأسعار عدد كبير من السلع، والإجهاز على الوسطاء والسماسرة في بعض الحالات ـ تبدو أنها كانت تعبيراً عن قَدْر غير قليل من نزعة التدخل الحكومية، وبصورة مثيرة أكثر، في ظل الظروف التي سادت خلال العقود الأولى من القرن الرابع عشر. لا بد لنا، إذن، من أن نكون ميالين إلى مقاربة شهادة برني بحذر، إذا لم تأت شهادات أخرى لتؤكد أن نجاعة تحكم علاء الدين بالأسعار كانت مضرب مثل على ألسنة أجيال لاحقة. سمع ابن بطوطة، الذي زار السلطنة في ثلاثينيات وأوائل أربعينيات القرن الرابع عشر، إطراء لعلاء الدين على هذا الأمر، بوصفه أحد أفضل السلاطين السابقين، ويذكر بشكل خاص، أسعار اللحم والأقمشة المنسوجة والحبوب. وكذلك فإن حميد قلندر، الذي كتب حوالي 755 هـ / 1334م، يعزو فضل إنجاز السلطان على صعيد اختزال كلفة الحبوب، إلى الأجور المتدنية المدفوعة في عهده[59].

تَمثَّلَ الأثرُ الإجمالي لتدبير علاء الدين بتحويل حصة أكبر، بصورة ملحوظة، من الفائض الزراعي من الريف إلى المراكز الحضرية (البلدات) ومن الزعماء الهندوس إلى الطبقة الحاكمة المسلمة. غير أن برني، الذي يحدد أن مجموع الموارد المحصلة (**محصول**) من أراضي خالصة معينة، كانت تخصص لرواتي (**وجه**) الجيش (**حَشَم**) ونفقات المشاغل (**الكرخانات**) الإمبراطورية، يبالغ في إبراز التوجُّه العسكري لسياسة علاء الدين الاقتصادية[60]. وكذلك، فإنه يربط التحكم بالأسعار (في الصياغة المنقحة الأولى، وخاصة أسعار الخيل) بالحاجة إلى تجنيد عساكر برواتب متدنية[61]. وحقيقة أن متطلبات الجيش كانت تحتل المرتبة الأولى في سلَّم أولويات السلطان، تتضح أيضاً من تصنيف

---

(59) III, IB، 184 ـ 185 (تر. جيب، 640 ـ 641). حميد قلاندر، **خير المجالس**، 240 ـ 241.

(60) ، 323 ـ 324. عن دلالة محصول على «الضريبة المستحقة» بدلاً من «الإنتاج، منذ أيام عفيف على الأقل»، انظر مورلاند، **النظام الزراعي**، 232 هـ. 1، 249.

(61) TFS، 304؛ قارن أيضاً 340. عن الجياد، انظر TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 115 أ.

الجياد في أربع طبقات، كانت الدنيا هي تلك التي لا تفوز في الاختبار الصارم[62]. هذا وقد مال الرأي الأكاديمي الحديث إلى افتراض وجود دوافع أخرى، وإن بقي الزخم المنسوب لكل منها مختلفاً. فالفرضية التي طرحها ذَرَم بَلْ Dahram Bal، الذي رأى أن سياسة السلطان رد فعل أيضاً على قوى تضخمية متولدة عن تدفق الذهب الآتي من الجنوب، تفتقر إلى القدرة على الإقناع، نظراً لأن الإصلاحات جاءت، على ما يبدو، في غضون سنتين أو ثلاث، بعد اعتلاء علاء الدين للعرش، مما يجعلها سابقة لمآثر كافور فيما وراء الفيندهيا[63]. أما الشيخ عبد الرشيد فقد اعتقد أن تدبير علاء الدين كانت تستهدف تحقيق الفائدة لا للدولة فقط، بل و«للمستهلك بصورة عامة»؛ كما أن حميد قلندر يحاول إرجاع الأمر إلى دوافع إنسانية لدى السلطان، الذي كان يسعى، حسب زعمه، إلى إغراق مجمل شعبه بالنعم[64].

غير أن التحليل الأكثر إقناعاً هو ذلك الذي طرحه كيرر Kehrer. فتجنيد الفلاحين في الجيش واستنفارهم للعمل في مشروعات علاء الدين الإنشائية، ساهم في تقليص إنتاج الغذاء والكساء؛ في حين كان من شأن تجنيد عدد معين من المرتزقة الأجانب، أن يؤدي إلى حصول زيادة مطلقة في الاستهلاك. أضف إلى ذلك، أنه كانت ثمة مشكلة توزيع متنامية جاءت مصاحبة لتدهور المخزونات المتوفرة: ما لبث تمركز أعداد كبيرة من المستهلكين غير المنتجين ـ الجند ـ في العاصمة وما حولها، أن أفضى إلى مضاعفة الصعوبات على صعيد النقل من الأقاليم. ولعلاج هذه المشكلات، كانت الحكومة أمام أحد خيارين: إمّا التحكم بالأسعار بصورة مصْطَنَعَة، أو زيادة الكمية المعروضة من

---

(62) TFS، 313، **آنشي دار ديوان ناغودهارد**.

(63) بال، «نظام التحكم بالأسعار لدى علاء الدين»، 46. قارن ساران، «السياسة الاقتصادية»، 202. مؤشرات تاريخية: TFS^1، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 109 أ.

(64) حميد قلندر، **خير المجالس**، 241. عبد الرشيد، «التحكم بالأسعار».

المال[65]. وفي حين لاذ علاء الدين بالخيار الأول، فإن محمداً بن تُغْلُق بادر فيما بعد، كما سوف نرى، إلى اعتماد الخيار الثاني.

قامت إصلاحات علاء الدين الضريبية على إخضاع **الخوتات** (المخاتير) و**المقدمين** للتقويم الذي طُبق على الفلاحين، في مناطقهم بالذات. كان لا بد من جباية الضرائب «دون تمييز» (**بي تفاوتي**)، بما يقضي بمعاملة الرأس (الخوت) بالطريقة نفسها التي يعامل بها أهالي القرية: يقول برني صراحة: لم يكن ثمة أي مجال للتفريق «بين **الخوت** و**البالاهار** (الكنّاس، الزبّال)»[66]. أضف إلى ذلك، أن امتيازات الرئيس (حقوقه)، بما فيها إعفاؤه من ضريبتي الرعي (**الشرائي**) والمسكن **الغاري**، جرى إلغاؤها، ولم يعد يستطيع أن يحول أعباءه الضريبية إلى من هم أفقر منه[67]. وبالتالي، فإن المخاتير (الرؤساء، الخوتات) عانوا من خسارتين. ويزعم برني مستحسناً ما حصل أن «الهندوس (وهو يعني الأرستقراطية الريفية الهندوسية). فقدوا فائض ثرواتهم وباتت نساؤهم مضطرات لكسب الأجور عن طريق العمل في خدمة العائلات المسلمة. تم اتخاذ خطوات لاختزال احتمالات التمرد والعصيان. جرى إجبار **التشاودورين** و**الخوتات** و**المقدمين** على الإقلاع عن ركوب الخيل وحمل الأسلحة، كما لم يعودوا قادرين «على مضغ أوراق **التنبول**» في إشارة إلى احتفال كان يجمع **الراوات** (**الراواتات**) تأييداً لهذا الزعيم أو ذاك، أميراً هندياً كان أم أميراً مسلماً متمرداً مثل ملك تشهاجّو سنة 689 هـ / 1290م. تقول المصادر إن موظفاً واحداً من هيئة جباية الضرائب المحلية (**سارهانفي ديواني قَصَبات**) كان يستطيع أن يربط، عشرين أوأكثر من هؤلاء، بالحبل

---

(65) كَنَث سي. كهرر، «سياسات علاء الدين الاقتصادية»، **مجلة الجمعية التاريخية بجامعة البنجاب** 16 (1963م)، 55 ـ 56.

(66) TFS، 287. عن **خوت**، عن معنى **بالاهار** «خادم القرية»، ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 48.

(67) TFS، 287، 291. ع. حبيب «الاقتصاد الزراعي»، 55.

ويقيدهم وينتزع منهم الضرائب تحت وابل من اللكمات والركلات. وفي صياغته المنقحة الأولى، يضيف برني أن أي بيت هندوسي يتم العثور فيه على أسلحة كان يصبح ملكاً للسلطان[68]. وفي موضع لاحق، يحاول التعبير عن هذا الإذلال للأرستقراطية الريفية، بعبارات لا تقل حيوية حين يصور أفرادها مكلَّفين بحراسة الطرق العامة تنفيذاً لأوامر سلطانية، وقائمين على توفير الخدمة للقوافل والمسافرين[69].

أن يكون إذلال الزعماء الهندوس الدافع الرئيسي الكامن وراء الإصلاحات، كما يزعم برني، أمر يدعو، على أية حال، لقَدْرٍ غير قليل من الشك: فالاحتمال الأقوى هو أنه كان نتاجاً جانبياً لجهود الحكومة، الرامية إلى زيادة الواردات، مع الحرص على عدم ترك أية جيوب محصَّنة. غير أن رواية عفيف لقصة نشوء سلطان المستقبل فيروزشاه تؤيد صحة الوقائع الكامنة وراء تعبيرات برني النابضة بالحياة، وصفاً للأوضاع السائدة في ظل حكم علاء الدين، مما يحول دون استغراقنا في الشك. فقد جاء الغازي (المجاهد) ملك تُغْلُق، وقد كان آنذاك (حوالى 706 هـ / 1306 ـ 1307م) مُقْطَعاً لدَيْبلْپور إلى الزعيم المحلي رانا مال بهاتي، طالباً يد ابنة الأخير للزواج من أخيه رجب. وحين قوبل برفض متكبر، قام تُغْلُق ـ بتوجيه مزعوم من جد عفيف، الذي كان ممثلاً له (لتُغْلُق) في منطقة أبوهار ـ باقتحام إقليم رانا مال (**نالواندي**) وأصر على انتزاع ضريبة (مال) السنة كلها نقداً دفعة واحدة، بدلاً من تقسيطها (**با ـ مارتا**) وفقاً لما كان مألوفاً. تعرض جميع **المقدمين والتشاودوريين في المنطقة** للضرب، ونزلت مصائب كبرى فوق رؤوس أبناء قوم رانا مال. وحين اكتشَفَتْ من جدتها الباكية أنها كانت هي سبب هذه المصائب، سارعت ابنة رانا مال إلى

(68) TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 112 أ. TFS، 288؛ عن طقوس تناول ورق التنبول، انظر المصدر نفسه، 182، وهوديغالا، **دراسات**، ١، 265.

(69) TFS، 324؛ قارن أيضاً 340.

مطالبة والدها بتسليمها إلى الأمير المسلم، مفترضاً أن ابنته تعرضت للاختطاف من قبل المغول (ومن غير السهل أن نتبين السبب الذي كان من شأنه أن يجعل مثل ذلك الافتراض عزاء للأب!). تلك هي الطريقة التي أصبحت بها هذه الفتاة الهندوسية زَوْجَ رجب وأمَّ فيروزشاه لاحقاً. يحاول عفيف أن يقنع قراءه بأن رانا مال لم يكن أمامه أي خيار، لأن «هذا كان عصر علاء الدين، ولم يكونوا في وضع يمكنهم من الغمغمة أو الصراخ»[70].

يتضح من هذه الحكاية، أن غازي ملك كان يغتصب الجزية (الضريبة) مباشرة من الرئيس. والبروفسور حبيب يعتبر هذا جزءاً من عملية، ما لبثت أن تمخضت عن الإجهاز على الأرستقراطية الريفية القديمة القائمة على الرانات والرواتات. ومع ذلك، فإن طبقة ريفية عليا جديدة كانت تبرز على السطح في الوقت نفسه، وقد اقترح أن **التشاودوري**، الذي اعتبره ابن بطوطة «زعيم الكفار» في كل **شادي** ـ وحدة مؤلفة من مئة قرية ومرادفة دون شك لكلمة **بارغانا**، التي كان عصامي وابن مهرو في طليعة من استخدموها في أواسط القرن الرابع عشر، كما قام عفيف باستعمالها بصورة أعم ـ، كان يحتل قمة هذه الطبقة الجديدة[71].

بالتوازي مع اختزال امتيازات الطبقة الوسطى الهندوسية، كان ثمة انقضاض وهجوم متزايدين على مواقع المُقْطَعين المسلمين، من جانب أجهزة

---

(70) عفيف، 37 ـ 38. ألاَّ يكون فيروز شاه قد وُلد في 709 هـ / 1309 ـ 1310م (كما يزعم عفيف، 36) بل في 707 هـ / 1307 ـ 1308م، واضح من تصريحات عفيف الأخرى التي تقول بأنه أصبح سلطاناً في الخامسة والأربعين من العمر (المصدر نفسه، 20)، وبأنه كان في الرابعة عشرة لدى اعتلاء غياث الدين تُغلُق العرش، وفي الثامنة عشرة عند تولي محمد بن تُغلُق السلطة (المصدر نفسه، 41 ـ 42)؛ انظر أيضاً هوديغالا، **دراسات**، I، 390 ـ 391.

(71) ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 56 ـ 59. عن **التشاودوري**، انظر III, IB، 388 (تر. جيب، 741)؛ وعن **البارغانا**، FS، 450، 597 (تر. 680، 881)؛ IM، 23، 146؛ عفيف، 99، 236، 288، 295، 297، 339، 432، 437، 479، 483، 500؛ أيضاً 272 عن **البَرَنغادار**.

السلطان البيروقراطية. فتوسيع علاء الدين للخاصة، كان قد أدى إلى تقليص المساحات المعَدَّة للمنح كإقطاعات؛ رغم أن هذا جرى التعويض عن جزء كبير منه عبر توافر الإقطاعات في الأقاليم المفتوحة حديثاً، مثل گوجرات ومالوا والدكّان. غير أن تطبيق منهج تقويم **الخراج** الجديد على منطقة كانت ما تزال خاضعة لنظام الإقطاع مثل أوَذ، كان من شأنه، بكل تأكيد، أن يؤدي إلى قَدْرٍ أكبر من الإشراف على الشؤون المالية المحلية، من جانب موظفي السلطان بالذات[72].

خلفاء علاء الدين

طبقاً لما يقوله برني، لم يستَبْقِ قطبُ الدين مبارك شاه من تدبير علاء الدين كلها، سوى تلك المتعلقة باستهلاك الخمر (وإن بات حتى هذا موضوعاً للهزء والسخرية)[73]. تم إلغاء نظام مراقبة الأسعار. فقد ثبت أن قطب الدين كان عاجزاً عن تطبيقه، وبالتالي فإن عهده شهد ارتفاعاً كبيراً في أسعار الحبوب والمواد الغذائية الأخرى؛ وراح الباعة يحددون أسعار مصنوعاتهم بأنفسهم؛ أما التشريعات المتعلقة بمؤسسة السراي عدل فقد عُلِّقت، وغرق الملتانيون في مصالحهم التجارية الخاصة[74]. باتت شبكة الجواسيس معطَّلة، كما لم تعد لديوان الرئاسة (**ديواني رياسات**) أية سلطة[75]. حتى **الخراج**، لم يبق على المستوى الذي كان علاء الدين قد أمر به، على الرغم من عدم اليقين الذي يحيط بمقدار التخفيض، يكتفي برني بالتأكيد على أن قطب الدين ألغى «ضرائب الأرض الباهظة (**خراجها**) والالتزامات الثقيلة المفروضة على

(72) ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 70.

(73) TFS، 384: بعد قليل (385) يناقض نفسه حين يقول بعدم الاحتفاظ بأي تدبير علائي.

(74) المصدر نفسه، 319، 384 ـ 385.

(75) المصدر نفسه، 385.

الشعب»، وعلى أن الهندوس (ربما بمعنى الرؤساء والزعماء مرة أخرى) باتوا، نتيجة لاختزال **الخراج**، متمتعين بالراحة والوفرة[76]. هذا، وقد تمت إزاحة ركيزتين أخريين من ركائز الصرح الذي كان علاء الدين قد أقامه، حين جرى منح أجزاء كبيرة من الأراضي الملحقة حديثاً بالخاصة وتوزيعها ثانية، فضلاً عن زيادة مرتّبات الجند جنباً إلى جنب مع أعباء الموارد الحكومية الأخرى مثل معاشات رجال الدين «العلماء»، استجابة، دون شك، لارتفاع الأسعار[77].

حاذياً حذو علاء الدين، بدأ غياث الدين تُغْلُق عهده بزيادة محتويات خزانته. فعلى الرغم من تثبيت هِبات علاء الدين، بادر السلطان الجديد إلى شطب جميع المنح التي أعطاها سَلَفُه خسروشاه، وإلى اعتماد ما يشبه إجراءات **من أين لك هذا؟** بالنسبة إلى الباقي. أما عصامي الذي تعرض أجداده، جراء هذا الأمر، لفقدان قريتين في منطقة دلهي كانتا ممنوحتين لهم **(إنعاماً)** دون أية التزامات ضريبية من قبل سلاطين سابقين، فلا يخفي غضبه من هذا السلوك ـ الذي ما لبث السلطان أن دفع، وبسرعة، حياته ثمناً له[78]. ومع ذلك، فإن برني يصور عهد تُغْلُق على أنه تميَّز بالاعتدال مع الفلاحين والأمراء. لقد حرص السلطان على إبداء الاهتمام بمعيشة الفلاحين العاديين، وبتوسيع دائرة المساحات المزروعة[79]. لم يعد **الخراج** يجري تقديره من منطلق المحاصيل المخمنة، بل أصبح مستنداً إلى المحصول الفعلي: يقول برني إن المزارعين باتوا، بالتالي، متحررين من أعباء الفرق بين المنتوج الفعلي، وما ليس موجوداً **(بودونابود)**. تقرر ألاَّ يزيد **الخراج** إلاَّ بنسبة واحد بالعشرة أو بالأحد عشر

---

(76) المصدر نفسه، 383، FS385 .، 355 (تر. 552)، قد يوحي بأن قطب الدين اكتفى بإرسال **الخراج** عن السَّنة الأولى من ولايته.

(77) TFS، 282 ـ 283.

(78) المصدر نفسه، 438 ـ FS439 .، 390 ـ 391 (تر. 594 ـ 596).

(79) TFS، 442.

سنوياً. من الواضح، بالتالي، أن زيادة معينة لمعدل **الخراج** كانت مطلوبة؛ غير أن مثل تلك الزيادة كان ينبغي تحقيقها على مراحل[80].

سمح غياث الدين تُغْلُق للمقطعين أن يستكملوا معاشاتهم (**مواجبهم**) عبر استبقاء ما يصل إلى واحد من خمس عشرة أو واحد من عشرين من **الخراج** المجبي، داخل منطقة كل منهم، مكافأة إضافية[81]. غير أننا، من الجهة الأخرى، نجد السلطان منبهاً أمراءه إلى ضرورة الامتناع عن المساس بمرتبات جنودهم، مما يلقي الضوء على أن جزءاً من واردات الإقطاع كان يخصص لإعالة الجند من جهة، وعلى أن المقطع، في ذلك التاريخ، كان ما يزال قادراً على وضع اليد على الواردات المخصصة لرجاله، من جهة ثانية[82]. كان هذا سيتغير في ظل محمد بن تُغْلُق، الذي جاءت سياسته لتزيد من تقويض سلطات المقطع وصلاحياته ولتكون، ربما، سبباً للكثير من حركات التمرد والعصيان التي تفجرت في عهده.

الاقتصاد وتوسيع رقعة السلطنة

باتت الفكرة التي تقول بأن تأسيس سلطنة دلهي عَجَّل بعملية التحضر في جزء كبير من الهند الشمالية، فضلاً عن التشجيع على تطور اقتصاد نَقْدي، كما عن إحداث نوع من التوسع في الإنتاج الحِرَفي، مقبولة على نطاق واسع. ففي عهد علاء الدين الذي زاد نتاج دار ضَرْبه، على ما يبدو، عن نتاج أسلافه، جاءت الزيادة في **الخراج** وتحقيقه نقداً، لتشكل مساهمة إضافية في إسباغ الصفة النقدية على الاقتصاد[83]. لا نملك أرقاماً دالة على المحصول الضريبي

---

(80) TFS، 429 ـ 430.

(81) TFS، 431، 432.

(82) TFS، 431. عرفان حبيب، «التوزيع الاجتماعي لملكية الأرض في الهند ما قبل البريطانية»، **إنكوايري** 2، ج: 3 (شتاء 1965م)، 48؛ انظر أيضاً مقاله، «الاقتصاد الزراعي»، 70.

(83) ع. حبيب، «التاريخ الاقتصادي لسلطنة دلهي»، 289 ـ 298. هـ. سي. فيرما، **آليات الحياة =**

للإمبراطورية ككل، قبل عهد السلطان التُغْلُقي فيروزشاه. باتت السلطنة في الحقبتين الشمسية والغياثية تضم موانئ مزدهرة، مثل ميناء لاهري على الإندوس الأسفل الذي قيل لابن بطوطة إن دخله السنوي بلغ ستين لاكاً (أي ستة ملايين تانغا فضية) بالنسبة إلى محمد بن تُغْلُق[84]؛ وليس ثمة ما يدعو للاعتقاد بأنه كان ينتج أقل من نصف هذا المبلغ، مثلاً، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. وعلى الرغم، بالطبع، من أن السلاطين فقدوا الموارد الوفيرة من البنغال بعد انفصاله سنة 685 هـ / 1287م، إلى أن استعاده غياث الدين تُغْلُق في 724 هـ / 1324م، كان من شأن هذا أن يكون قد جرى تعويضُه وأكثر، بفضل فتوحات علاء الدين خَلْجي، ومن جاؤوا بعده، تلك الفتوحات التي تمخضت عن زيادة كبيرة في الموارد المادية والمالية للسلطنة. فخصوبة أَوَد وظَفَر آباد اللتين زادت قبضة السلطان عليهما قوة، كما رأينا من قبل، أوائل القرن الرابع عشر، كانت مضرب مثل، في وقت باتت فيه المناطق الواقعة إلى الغرب من اليمونه، رازحة تحت وطأة المجاعة، خلال عهد محمد بن تُغْلُق[85]. يعلق ابن بطوطة أيضاً، على كثافة الزراعة حوالي دهار وعلى ازدهار أوجّاين، كما على القيمة الكبيرة التي تنطوي عليها موارد الأرض في إقليم دولت أباد، بالنسبة إلى خزينة السلطان؛ وبالفعل، فقد حدد محمد واردات منطقة «مارهات» بست أو سبع **كرورات** (أي ستين أو سبعين مليوناً من **التانغات**)[86].

طالما جرى تصوير الهند بوصفها مستهلِكة شرهة، لا تعرف معنى

= **الحضرية في الهند ما قبل المغولية** (نيودلهي، 1986م)، الفصول 2، 4، 6. شيرين موسوي، «الشواهد النقدية والتاريخ الاقتصادي لسلطنة دلهي»، PIHC 50 **غوراخبور** 1989م (دلهي، 1990م)، 207 ـ 217.

(84) III, Ib، 112 (تر. جيب، 602).

(85) المصدر نفسه، III، 342 (تر. جيب 720 ـ 721). TFS، 485، 486.

(86) IV, IB، 42، 45، 49 (تر. جيب ويكنغهام)، 791، 793، 795). محمد بن تُغلُق: TFS، 501. عن **الكرور** (= 100 لاك)، انظر يول وبورنل، **هوبسون ـ جوبسون**، 276.

الشبع، لثروات الأراضي الواقعة غرباً[87]. وقد أدى امتلاك موانئ گوجرات، خصوصاً، إلى تمكين حكومة دلهي من وضع اليد، على التجارة المزدهرة مع البحر العربي والخليج الفارسي؛ وقد لا يكون صدفة، أن يكون ظهور **ملك التجار** الذي كان مسؤولاً أمام السلطان عن الإشراف على النشاط التجاري، أو أن يكون أحد محدِّثي العمري تاجراً كارمياً ـ عضواً في تعاونية تجارية ذات شأن متمركزة في مصر ـ قد زار قطب الدين مبارك شاه مرتين، متزامناً مع أيام حكم علاء الدين[88]. فبنظر المؤلف المجهول لكتاب **سيرة فيروز ـ شاهي**، كانت كانبهايا «ملتقى للتجار ومنتجعاً للمسافرين براً وبحراً»[89]؛ وقد تجلى نفوذ طبقتها التجارية بأبهى صوره في روعة بيوتات وقصور أفرادها[90]. ففي بداية القرن، كانت گوجرات قد استحقت الإطراء في تاريخ رشيد الدين عن الهند، كما كان ماركوبولو، في وقت سابق، قد سمع حكايات مثيرة عن مصنوعاتها[91]. ونحن نعلم أن الإقليم كان ينتج أقمشة قطنية بديعة (كانت تصدر إلى الصين)؛ كما كان مركزاً لنقل الجواهر والأحجار الكريمة الأخرى

---

(87) وصّاف، 300. انظر أيضاً JT, III، 493 (تر. آرندز، 281).

(88) TFS، MA352 .، تحقيق سبايز، النص العربي 35 (تر. ألمانية 62)/ تحقيق فارق، 64 (تر. صديقي وأحمد 60). إن **ملك [ملك] التجار** في عهد إلتُتمِش المذكورة في TN, II، 41 (تر. 790) لم يكن، بالطبع، عامل سلطان دلهي بالذات، بل كان ممثلاً لتجار كل من إيران والعراق وخوارزم وغيرها من المناطق من خارج الامبراطورية. عن **الكريمي**، انظر غاستون ويت، «تجارة التوابل في ظل المماليك»، **دفاتر التاريخ المصري** 7 (1955م)، 81 ـ 147؛ س. د. غويتاين، «بدايات تجار **الكريم** وطبيعة تنظيمهم»، في **دراسات التاريخ والمؤسسات الإسلاميين** (لايدن، 1966)، 351 ـ 360؛ م. س. لبيب، «تجار **الكريم** في المشرق وعبر المحيط الهندي»، في م. ملاط الجورداني (محرراً) **الجمعيات والشركات التجارية في المشرق والمحيط الهندي** (باريس، 1970م)، 209 ـ 214.

(89) TFS، 21، **مرجع التجار ومأمن السفار** (تر. باسو، في JBORS، 23 [1937 م]، 99). انظر أيضاً رد المؤلف على كانبهايا في IM، 133.

(90) IB, IV، 53، 55 (تر. جيب وبكينغهام، 797، 798).

(91) JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص الفارسي .Taf، 13 النص العربي .Taf 51 (تر. ألمانية 36). ماركو بولو، تر. مول وبليو، I، 420 ـ 421، 422 ـ 423 / تر. يول وكوردييه، II، 393 ـ 394، 398 ـ 399).

من سفينة إلى أختها؛ وكان يستورد العبيد الزنوج من أفريقيا الشرقية. ثمة **فَرمان** يعود إلى 709 هـ / 1309 ـ 1310م، ويورده أمير خسرو في كتاب **رسائل الإعجاز**، يضع قائمة لِعَددٍ كبير من السلع الثمينة الموجودة في كانبهايا[92]. أما حصيلة **(محصول) خراج** گوجرات في السنوات الأخيرة من عقد ستينيات القرن الرابع عشر، فتصل إلى **كرورتين** (عشرين مليوناً من **التانغات)** حسب تقدير عفيف؛ جدير بنا مقارنة هذا المبلغ بنظيره عن الدواب (ثمانين **لاكاً**، أي ثمانية ملايين **تونغا)** في الوقت نفسه تقريباً[93]. ومع ذلك، فإن السلطنة لم تكتف بالاستفادة من حيازة المنافذ على البحر العربي. فمع حلول أيام عهد محمد بن تُغْلُق، ثمة مؤشرات مبعثرة تدل على أن بلاده كانت تجتذب تجاراً من أماكن نائية جداً مثل أوروبا الغربية، ممن كانوا يستفيدون من تشجيع الحكام المغول لهم، على السفر براً عبر أورغنتش وغزنة، لأنه من المعروف أن فريقاً بندقانياً زار دلهي سنة 1338م[94].

تبدُّل الأولويات

جنباً إلى جنب مع الزيادة الملحوظة في الموارد الآتية من المناطق المفتوحة (المحتلة)، كانت حكومة السلطان، على أية حال، تعتمد على ثمار حملات النهب والسلب الجارية ضد القوى الهندوسية، في شبه القارة. غير أن التهديد المغولي أدّى، على ما يبدو، إلى تعديل سلَّم الأولويات في إطار السياسة العسكرية، إذ يُبْرِز الجوزجاني أُلُغ خان بلبان في وقت مبكر يعود إلى 645 هـ / 1246م، مشجِّعاً لعمليات نهب المناطق الهندوسية، ليس فقط لتأديب

---

(92) IV, RI، 141 ـ 143. انظر عموماً سيمون ديغبي، «تجارة الهند البحرية»، في رايتشاؤدهوري وحبيب، **تاريخ كامبردج الاقتصادي**، 39 ـ 140، 142، 149؛ ف. ك. جاين، **تجارة وتجار في الهند الغربية** (1000 ـ 1300م) (نيودلهي، 1990م)، 98 ـ 105.

(93) عفيف، 221، 296.

(94) ر. س. لوبيز، «تجار أوروبيون في بقاع هند العصر الوسيط: دلالات الوثائق التجارية»، **مجلة التاريخ الاقتصادي** 3 (1943م)، 174 ـ 180.

الكفار وتلقينهم دروساً، بل ولمراكمة الغنائم التي يمكن استخدامها لاحقاً لإعالة جيش دفاعي قادر على مواجهة الغزوات المغولية[95]. وكون الجوزجاني قد كتب كمعاصر، فضلاً عن قربه المعروف من أُلُغ خان، يجعل احتمال أن تكون هذه العواطف معبِّرة عن اعتماد سياسة مدروسة وواعية من قبل حكام دلهي، غداة تزايد حدة الضغوط المغولية بعد سنة 1241م، وارداً بقوة. إنها شديدة التناقض مع تحليل برني الأكثر اتصافاً بالنزعة التبسيطية، الذي يصور بلبان (وقد غدا سلطاناً) رافضاً شن الحملات ضد الهندوس، طوال استمرار التهديد المغولي[96]. غير أن هذا الكلام لا يلبث أن يصبح مثار شك بفعل الفقرة التالية: ثمة شجب صارخ للسياسة التوسعية المفضية إلى المبالغة في زيادة الضرائب، وربما إلى العصيان، وصولاً، آخر الأمر، إلى إراقة الدماء والعقوبات القاسية[97]. من الواضح أن ما كان برني يفكر به لم يكن عهد بلبان على الإطلاق، بل الفوضى الحديثة الناجمة عن مخططات محمد بن تُغْلُق التوسعية.

كانت درجة معينة من الفعالية العسكرية ضد الهندوس حيوية لإبقاء القوات المسلحة على مستوى مناسب من التدريب من ناحية، ولجني الموارد اللازمة لمكافأة هذه القوات من ناحية ثانية؛ وإلاَّ، فقد كان من شأن الاحتفاظ بجيش كبير لصد المغول أن يكون أكثر صعوبة. وبالتالي فإن هناك ما يدعو، بوجاهة، إلى عدم تصديق برني مرة أخرى، حين يصف كيفية قيام غزوة تَرَغاي بحمل علاء الدين خَلْجي على التخلي عن «شن الحملات والاستيلاء على القلاع» (**لاشفاركاشي ـ وحصارغيري**)[98]. ونحن نعلم، على أية حال، أن الأمر لم يكن هكذا ببساطة: حتى إذا صرفنا النظر عن الحملات التي قادها

---

(95) TN, II، 57 (تر. 816).

(96) TFS، 50 ـ 51.

(97) المصدر نفسه، 51 ـ 52، 53.

(98) المصدر نفسه، 302.

علاء الدين، شخصياً، ضد كل من سيوانا وجالور، والتي يخفق برني في الإتيان على ذكرها، فإن الملاحظة التي يوردها عن حملات ملك نائب كافور في الجنوب، من شأنها وحدها أن تبين بوضوح الكلام المذكور من المعنى أو القيمة. كان من الممكن تفسيره بالقول إن علاء الدين اكتفى، في مواجهة الضغط المغولي، بإغارات النهب والسلب، وأقلع عن سياسة الضم المباشر كما يتضح من مصائر رنثانبور وتشيتور؛ غير أن هذا الاستنتاج لا يلبث أن يغدو مستحيلاً، مرة أخرى، جراء ضم مالوا من سنة 705 هـ / 1305م وصاعداً، وإلحاق ديوغير حوالي سنة 1314 م. ومهما يكن من أمر، نرى أن ذراعي السياسة العسكرية في عهد علاء الدين ـ أي ذراع عمليات النهب من جهة، وذراع فرض الحكم المباشر، من جهة ثانية ـ تم الإبقاء عليهما، على ما يبدو، في حالة من التوتر على الأقل. أما العهود اللاحقة فقد شهدت، على النقيض من ذلك، تحولاً مطرداً نحو استيعاب وهضم مساحات واسعة وإذابتها في بوتقة الإمبراطورية.

الفصل الثالث عشر

عالم فَقَدَ صوابَه: عهد محمد بن تُغْلُق

قد تكون المشكلات والمسائل التي يثيرها عهد محمد بن تُغْلُق، أكثر من تلك التي يثيرها أي عهد آخر في تاريخ السلطنة. فلدى صعود هذا السلطان كانت سلطة دلهي تمتدُّ على أوسع المساحات من شبه الجزيرة، مما في ظل أي عاهل آخر. وعملية التوسع هذه هي التي يشير إليها برني حين يقدم وصفاً للمدى والكفاءة غير المسبوقين لديوان الضرائب أو الخراج، في السنوات الأولى من حكم محمد[1]. ومع ذلك، فإن العهد يبدو مثقلاً بعدد استثنائي من حركات العصيان والتمرد. فلدى وفاة السلطان سنة 752 هـ / 1351م، كان كل من البنغال مع جميع البقاع الواقعة إلى الجنوب من الفيندهيا قد أعلنت استقلالها، ولم تتم استعادة أي من هذه الأقاليم قط، فيما بعد.

في الطبعة المنقحة لكتابه **التاريخ**، يضع برني اللوم، فيما يخص الكوارث التي شهدها العصر، على مخططات السلطان الخيالية القائمة على الأوهام[2]. غير أن علينا أن نتذكر أن سياسة قائمة على الحكم المباشر كانت، مع اعتلاء محمد بن تُغْلُق العرش، تحل تدريجياً محل السياسة القائمة على نهب الممالك

---

(1) TFS، 468 ـ 469.

(2) TFS، 471.

الهندوسية وفرض الجزية عليها. وقد جاء استيعاب مثل هذه المساحات الواسعة من الأراضي، مصحوباً بمشكلاته الخاصة، التي ربما شكلت عاملاً رئيسياً من عوامل الصعوبات الاقتصادية الحادة التي طَغَتْ على السلطنة وأثقلت كاهلها، في ثلاثينيات القرن الرابع عشر. فشن هجمات منتظمة على أراضي العدو، لا لشيء، إلاَّ لتمويل جيش عامل كبير لتحقيق أغراض أخرى، في المقام الأول، كان شيئاً؛ أما المحافظة على حاميات وإدارة مدنية في الإقليم المفتوح (المحتل)، مع ما ينطوي عليه ذلك من إنفاق على شكل محاسبة ونقل للموارد بصورة سنوية، فقد كانت شيئاً آخر تماماً[3]. أضف إلى ذلك، أن الأقاليم التي يتم وضع اليد عليها حديثاً، كان يتعذر التعامل معها بالطريقة اللصوصية نفسها التي تُمَيِّز الحربَ في بلد معادٍ. وبالتالي، فإن سلاطين دلهي تكبدوا خسارة مزدوجة. لعل الإحساس الأكثر حدة بهذه الخسارة، كان ذا علاقة بالسبائك الذهبية التي كانت تشكل الجزء الأكبر من غنائم حملات علاء الدين وكافور. وقد زادت المشكلات تفاقماً جراء إنفاق محمد بن تُغْلُق غير الاعتيادي، وسخائه الذي كان مضرباً للأمثال[4].

ثمة توجهات اقتصادية أوسع أيضاً، لسنا مطلعين عليها إلاَّ بصورة مشوهة، ربما ساهمت في المشكلات التي برزت أيام حكم محمد. يُنسى بسهولة أن قوتين مغوليتين عُظْمَيين ـ الدولتين الإيلخانية والجغتائية في آسيا الوسطى ـ تعرضتا أيضاً لموجات كبيرة من الاضطرابات، خلال الربع الثاني من القرن الرابع عشر، مثلهما مثل القبيلة الذهبية بعد قليل[5]، وأن السلطة

---

(3) TFS، 51 ـ 52، كما تأكد لبرني في الحقيقة.

(4) فيريشتا، ا، 239، يقول إنه كان ينفق الأموال التي راكمها علاء الدين خلجي.

(5) بويل، «التاريخ العائلي والسياسي»، 413 ـ 416. بارتولد، **اثنتا عشرة محاضرة**، 205 ـ 209، و**أربع دراسات**، ا، 134 ـ 138. ب. جاكسون، «الأسرة الجغتائية الحاكمة»، Enc. Ir. V، 346. بيرتولد شبولر، **القبيلة الذهبية: المغول في الروسيا 1223 ـ 1502**، طبعة ثانية (فيسبادن، 1965م)، 109 وما بعدها.

المملوكية (في مصر وسورية) كانت فريسة سلسلة من الأزمات النقدية خلال الفترة الثالثة من حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون (709 ـ 741 هـ / 1310 ـ 1341م)[6]. من شأن هذا أن يوحي بأن جارات سلطنة دلهي وشريكاتها التجارية الرئيسية ربما كانت مثقلة بنوع من الفوضى الاقتصادية العامة؛ غير أن على الاستنتاجات الحاسمة والثابتة انتظار نتائج المزيد من البحوث.

معارضة أنصار تُغْلُق السابقين

يبدو أن محاولات السلطان الأولى الرامية إلى توطيد سلطته في الأقاليم، جاءت رداً على ثلاث حركات تمرد خلال سنتي 727 و728 هـ / 1326 ـ 1328م، وعلى السطح من مجمل الوضع، تبقى ثورتا ابن عمه بهاء الدين غارشاسب، في ساغار الدكّانية، وكوشلوخان في السند، لُغْزَين. فالرجلان، كلاهما، كانا قد لعبا دوراً مركزياً في ثورة تُغْلُق ضد ناصر الدين خسروشاه سنة 720 هـ / 1320م، وكانا من المشايعين الكثيرين للنظام التُغْلُقي، الذين ما لبثوا أن جرى تثبيتهم في مناصبهم لدى صعود محمد. يبدو أن سياسات محمد بالذات ربما أدت إلى إبعاد هؤلاء الأمراء الكبار الذين كان محمد قد ورثهم عن أبيه. كان تُغْلُق قد أبعد المخبرين (**مونهيان**) عن الإقطاعات، غير أن ابن بطوطة يخبرنا أن محمداً استخدم شبكة من الجواسيس الذين احترفوا كتابة التقارير عن تحركات الأمراء إلى السلطان[7]؛ وإن كنا غير قادرين على التأكد من المرحلة التي تمت فيها استعادة هذه الممارسة. لعل الأهم، هو أن ما يقوله برني عن العمل، خلال السنوات الأولى من العهد،

---

(6) حسنين ربيع، النظام المالي لمصر 564 ـ 741 هـ / 1169 ـ 1341م (أوكسفورد ولندن، 1972م)، 189 ـ 197. **جيره** باكاراتشي، «تحركات نقدية في مصر العصر الوسيط 1171 ـ 1517 م»، في ج. ف. ريتشاردز (محرراً) **المعادن الثمينة في عوالم أواخر العصر الوسيط وأوائل العصر الحديث** (دِرَم، NC، 1984م)، 167.

(7) TFS، 429، عن تُغلُق. III, IB، 343 ـ 344 (تر. جيب، 721)، عن جواسيس محمد.

على إخضاع حسابات، حتى الأقاليم النائية للرقابة، وفقاً للأسس نفسها التي كانت متبعة مع حسابات الدواب، وعن وصول مئة أو مئتين من الأوامر إلى مكتب **الخريطة دار**، يومياً، لنقلها إلى الولاة والمُقْطَعين[8]، يشكل دليلاً على أن السلطان الجديد كان، من البداية، يمارس رقابة أشد بما لا يقاس على شؤون الأقاليم وشجونها، بالمقارنة مع ما كان يفعله أسلافه. ينبغي أن يكون كبار ولاة الأقاليم، الذين لم يكن غياث الدين تُغْلُق ينظر إليهم **أول الأمر، كأنداد**، قد راودهم إحساس مميز، بأن ابنه كان يتطلع إلى ترؤس نظام استبدادي مركزي.

وبصورة أكثر تخصيصاً، ربما لعب إيجاد عاصمة ثانية في دولت أباد (ديوغير سابقاً) في الدكّان، دوره الخاص في الحفز على هذين العصيانين. عما حدث في ساغار، لا نعلم إلاّ القليل؛ غير أن من المفهوم أن غارشاسب، نظراً لقربه من دولت أباد، قد أحس بالخطر جراء إقامة قاعدة جديدة للسلطة المركزية هناك. إننا مطلعون أكثر على انتفاضة كوشلوخان. بادر السلطان، حسب رواية سرهندي، إلى إرسال ضابط للإشراف على نقل أسرة كوشلوخان وبيته إلى البلاط (أي إلى دولت أباد)، وأدى سلوك الضابط المتغطرس إلى استفزاز صهر الأمير ودفعه إلى اغتياله[9]. جرى إخماد حركتي التمرد كلتيهما. فقد هُزم غارشاسب على يد أحمد بن آياز، فلاذ بحماية حاكم كامبيلا الهندوسي أولاً، وبحماية ملك الهويسالا ڤيرا باللالا الثالث الذي قام بتسليمه إلى قوات السلطان لإعدامه، بعد ذلك. وقد تحرك محمد شخصياً لمقاتلة كوشلوخان، الذي هُزم وقتل[10].

---

(8) TFS، 470.

(9) TFS، 99 ـ 100.

(10) غارشاسب: TFS[1]، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 161 أ (مخطوطة بودليان، ملف 192 ب؛ FS، 424 ـ 431 (تر. 651 ـ 659)؛ III, Ib، 318 ـ 321 (تر. جيب، 710 ـ 711)، كوشلوخان: TFS، 478 ـ 479؛ FS435 ـ 443 (تر. 663 ـ 672)؛ III, Ib، 321 ـ 324 (تر. جيب، 711 ـ 712)، عازياً الخلاف =

يبدو أن الانتفاضة الثالثة، انتفاضة غياث الدين بهادر بورا في البنغال، لم تكن أكثر من محاولة بذلتها الأسرة الحاكمة السابقة، في سبيل الخلاص من السيادة التُغْلُقية. لدى اعتلائه العرش، كان محمد قد أطلق سراح بورا من السجن، وأنعم عليه بمظلة (تشاتر) وأرسله إلى سونارغاؤون حيث كان مخوَّلاً بالتمتع بمرتبة الحاكم المشارك لمحمد، تحت المراقبة الحذرة لأخي السلطان بالتبني، بهرم خان، من لخناوتي. صحيح أن بورا تمرد ـ ربما في 728 هـ / 1327 ـ 1328م أو بعده، حيث لا تزال القطع النقدية تحمل اسم محمد ـ ولكن بهرم خان نجح، بمساعدة تعزيزات جاءت من دلهي، في الإطاحة به[11]. أما مصير شقيق بورا ناصر الدين، فيبقى مجهولاً: قد يكون ثمة نوع من الارتباط مع محاولة بذلها «أمراء لخناوتي ونبلاؤها»، الذين كانوا مع سلطان بلدهم لإشعال حركة عصيان[12]. غير أنه يبدو أن البنغال ظل على امتداد السنوات القليلة التالية خاضعاً، على أية حال، لإدارة ضباط معينين من قِبَل سلطان دلهي.

إيجاد عاصمة ثانية في دولت أباد، ووجود عسكري متعاظم في دلهي

في الصياغة الأولى لكتابه، يقوم برني، الذي لا يقدم أي تاريخ لما يُعرف

= مع السلطان إلى رفض كوشلوخان عرض جلدي غارشاسب وبهادور بورا؛ ولكن انظر ما يلي في هذا الكتاب: يعرف تاريخ تمرد غارشاسب من منقوش يعود إلى تشرين ثاني 1326 م: پ. ب. ديساي، «منقوش كاليانا عن السلطان محمد، ساكا 1248 م»، EI، 32 (1957 ـ 1958م)، 165 ـ 170. أما ثورة كوشلوخان فمؤرخة في «النصف الثاني من العام» [727 هـ] في TFS، مخطوطة بودليان، ملف 191 ب مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 160 أ. يجب أن تكون حملة لاهور في جمادى الثانية 728 هـ نيسان/ أبريل 1328م (سِيَر، 215) قد شكلت جزءاً من عمليات محمد ضد كوشلوخان.

(11) IB ،III، 316 ـ 317 (تر. جيب، 709 ـ 710)؛ أيضاً IV، 213 (تر. جيب وبكينغهام، 869). إنه يخطئ إذ يجعله سابقاً على ثورة كوشلوخان لأنه يتحدث عن عرض جلدي غارشاسب وبورا في أنحاء الامبراطورية في الوقت نفسه. FS، 422، 444 (تر. 648، 673)، موجز. عن قطع نقدية باسم بهادور بورا، انظر CMSD، 130 (رقم: 505 سي). براساد **أتراك قراؤون، 150**)، حسين **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 223) ونظامي (في HN، 506) تتفق جميعاً على جعل تاريخ ثورته في 730 هـ / 1329 ـ 1330 م.

(12) فقط في TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 192 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 161 أ.

بنقل العاصمة إلى دولت أباد في الطبعة المتداولة، بتحديد ذلك التاريخ، بعام 727 هـ / 1327م[13]. أما الإقلاع عن المشروع، فيمكن إرجاعه إلى تاريخ زيارة محمد لدولت أباد حوالي عام 736 هـ / 1335 ـ 1336م، في طريق عودته من حملته غير الموفقة، لإخماد التمرُّد في المَعْبر، حيث يقال لنا إنه أجاز لأولئك الراغبين، العودة إلى دلهي[14]. وعلى الرغم من أن عنصر الإكراه لا يمكن إنكاره، فضلاً عن أن ظروف الرحلة إلى دولت أباد كانت شاقة بالتأكيد، فحتى عصامي، يلمح ولو بصورة عابرة، إلى حقيقة أن مواطني دلهي المتعاونين حصلوا على مبالغ من الذهب الخزينة. ثم يأتي برني ليضيف قائلاً، إن المشايخ ورجال الدين «العلماء» والنبلاء في العاصمة، جرى تخصيصهم بمبالغ نقدية وقرى ومزارع في منطقة ديوغير، وإن الحكومة اشترت من المواطنين العاديين بيوتهم في دلهي[15]. صحيح أن المشروع ربما كان قائماً على التعسف والاعتباط؛ غير أن توطيده وترسيخه لم تتم إدارتهما بطريقة خالية من الإحساس والشعور.

أما هوية الذين كانوا مطالبين بالانتقال إلى الجنوب، وإلى أي مدى كان يجب الجلاء عن دلهي وإبقائها مهجورة، فقد بقيت موضوع نقاش وجدل. ففي صياغته المنقحة، يقوم برني بتصوير مرحلتين، انطوت الأولى على نقل أم السلطان، مخدومه ـ يي جهان، وحاشيتها، جنباً إلى جنب مع أسر النبلاء، في حين انطوى الخروج الثاني، في أعقاب ثورة كوشلو خان (الواقع بالتالي في 728 هـ / 1327 ـ 1328م، أو بعده)، على انتقال أهل البلدات **(القصبات)**

---

(13) المصدر نفسه، مخطوطة بودليان، ملف 190 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 159 ب.

(14) TFS، 481. عن تاريخ انطلاق محمد إلى الحملة المعبرية (9 جمادى الأولى 735 هـ / 5 كانون ثاني 1330م)، انظر IB ,III، 427، بالارتباط مع فنكاتا رامايا، «تاريخ حركات التمرد»، 141 وهـ 10 (تصحيحاً لعام 1341م الوارد في تر. جيب، 758).

(15) FS، 446 (تر. TFS676 .[1]، مخطوطة بودليان، ملف 191 ب، 192 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 160. قارن أيضاً TMS، 152.

المحيطة بالعاصمة، فضلاً عن أهالي دلهي[16]. غير أن مزاعم المصادر التي تقول بأن المدينة أخليت بصورة كاملة من سكانها، يحيط بها قَدْر كبير من الشك. يقوم حسين بإيراد شهادة منقوشات سانسكريتية عائدة إلى 1327 ـ 1328م، تشير إلى أن الهندوس كانوا مستمرين في العيش بالقرب من العاصمة القديمة[17]؛ ويشير سر هندي إلى «العوام المبتذلين» **(ماردومي عوام وأوباش)** الذين تُركوا لنهب ممتلكات المواطنين[18]. يقول برني في صياغته المنقحة الأولى، إن السلطان أمَر بجلب «علماء» ومشايخ «المناطق والبلدات» **(خطط ـ وقصبات)** إلى المدينة، ومنحهم المعاشات والمرتبات[19].

لفهم ما يعرف باسم نقل العاصمة من قِبَل محمد، لا بدَّ من الاعتراف بأن عبارة «الشعب» (خلق) كانت تعني، بالنسبة إلى مصادرنا، العائلات الإسلامية الأحسن حالاً في العاصمة[20]. وحتى كلمة **«شهر»**، «المدينة»، حين تستخدم في سياق دلهي، تكون قابلة للدلالة على معنيين. فحين يتحدث برني عن «المدينة»، لا يعني أحياناً إلاَّ مدينة دلهي القديمة ـ قلاع راي بيثورا، مدينة آيبك وإلتُتمش ـ مقابل المجمع الاستيطاني الكامل لأماكن الإقامة الملكية ـ كيلوخري وسيري وهزارسوتون وتُغْلُق آباد ـ الذي كان قد نشأ في العقود الفاصلة[21]. فخلال الفترة التي دأب فيها، كما هو معلوم، على نقل الكوادر والأجهزة من دلهي إلى الدكّان بالذات، كان محمد عاكفاً على الانشغال بمشروعات إنشائية

---

(16) TFS، مخطوطة بودليان، ملف 191، 192 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف TMS160 .، 102، يتحدث عن سكان دلهي **والقصبات** (البلدات).

(17) حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 146 ـ 148؛ باتت هذه الكتابات في متناول الأيدي بسهولة فائقة عبر پ. براساد، **المنقوشات السنسكريتية**، 22 ـ 31 (رقم: ا: 10 وا: 11). روي، «نقل العاصمة»، 170 ـ 171، أصر على أية حال، على استبعاد المنقوشات بوصفها غير ذات علاقة.

(18) TMS، 102.

(19) TFS، مخطوطة بودليان، ملف 192 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 160 ب.

(20) كما لوحظ من قِبَل حسين في **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 149، 152 هـ. 2.

(21) مثل TFS، 449 ـ 450.

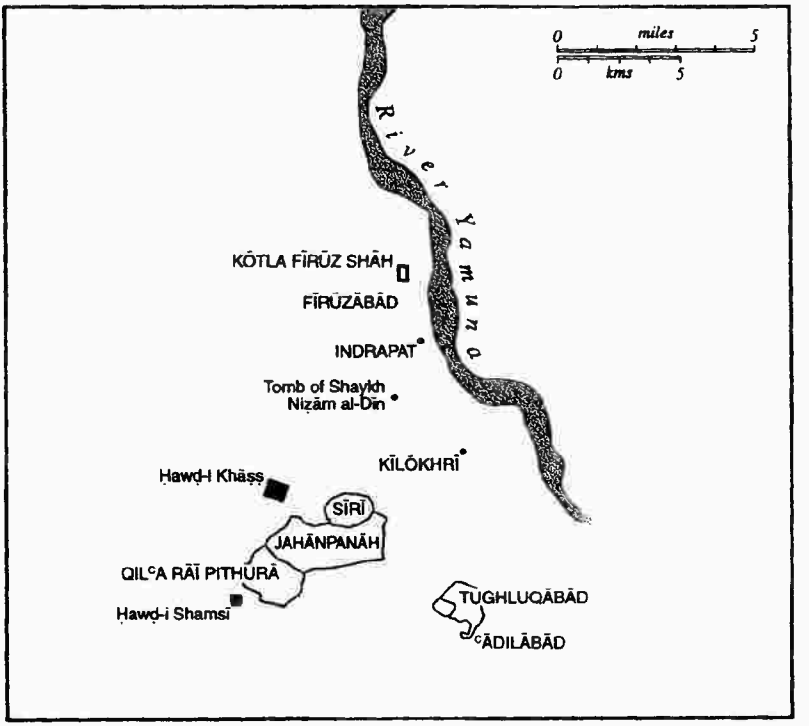

مُدُن دلهي

جديدة طموح، داخل إقليم دلهي. لقد أقام عام 727 هـ / 1326 ـ 1327م قلعة جديدة، عادل آباد، في مكان غير بعيد عن تُغْلُق آباد، وربط مدينة دلهي القديمة، بسيري، عن طريق أسوار أحاطت بالفسحة المعروفة، منذ ذلك الوقت، باسم جهان بناه[22]. يتضح من رواية ابن بطوطة أن محمداً، مثل أسلافه الخَلْجيين، أقام في قصر هزار سوتون، الذي كان قد أُنشئ من قِبَل علاء الدين خارج سيري، داخل إطار جهان بناه. وحسب كلام المؤلف نفسه، فإن

(22) هيلاري وادينغتون، «عادل آباد: جزء من دلهي الرابعة»، **الهند القديمة** 1، (1946م)، 60 ـ 76. أنطوني ولش وهوارد كرين، «التغالقة: صانعو أسياد سلطنة دلهي» **مقارنات** 1 (1983م)، 128 ـ 129. عن تاريخ 727 هـ، انظر حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 167 وهـ. 2، مقتبساً عن بدري تشاتش.

السلطان كان قد اعتزم، في مرحلة من المراحل، تسوير «المدن» الأربع جميعاً (دلهي القديمة وسيري وجهان بناه وتُغْلُق آباد) بسور واحد، غير أنه ما لبث أن أقلع عن الفكرة، درءاً للتكاليف المتوقعة[23].

من الصعب التوفيق بين هذا البرنامج الموسَّع، وبين الفكرة التي تقول بأن محمداً تصور التخلِّي عن حاضرة دلهي كلها، وهجرها. فما يبدو أنه قد حصل فعلاً، هو أن المقيمين المسلمين الرئيسيين في المدينة **القديمة**، مع عائلاتهم الكبيرة، قد تم إبعادهم إلى دولت أباد[24]. كما جرى استثناء العسكريين. ومن المعروف أن عملية الخروج شملت عائلات النبلاء والحكام المحليين؛ غير أن «الأمراء والملوك والجند» بقوا مع السلطان في دلهي، خلال العامين اللذين قضاهما في المدينة، غداة إخماد عصيان كوشلو خان، كما يقول برني، في حين كانت أسرهم في دولت أباد[25]. لم يتم هجر المدينة القديمة، تحديداً، لأنها كانت دائبة على التحوُّل إلى ثكنة عسكرية، في تطور وثيق الارتباط بتجنيد جيش بالغ الضخامة، استعداداً لما عُرف باسم «مشروع خراسان» عند محمد، ذلك المشروع الذي ستتم مناقشته لاحقاً. من المؤكد أن هذا هو ما يشير إليه عصامي، حين يؤكد أن المدينة عادت مأهولة بالسكان الذين يطلق عليهم باحتقار اسم: «الريفيين الغِلاظ» القادمين من المناطق المحيطة (**برغانات**)، الذين كانوا من الهندوس بشكل واضح[26]. تعين على المشروعين ـ مشروع غزو خراسان من جهة، ومشروع الهجرة الجزئية إلى دولت أباد ـ أن يكونا متزامنين، كما يشير أحد المصادر إلى أنهما كانا فعلاً[27]، في سبيل تقليص

(23) عن هازار سلطان، انظر IB ,III، 220، 399 (تر. جيب، 660، 746)؛ عن السور، المصدر نفسه، III، 147 (تر. جيب، 619، 621).

(24) TFS، 473، **خواجي خلق... ماردوسي غوزيدا واتشيدا**. انظر أيضاً حسين، **صعود... وسقوط...**، 110 وما بعدها؛ **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 146 وما بعدها.

(25) TFS، 479.

(26) FS، 450، 453 (تر، 680 ـ 681، 684 ـ 685).

(27) سِيَر، 271.

زيادة الاستهلاك في دلهي إلى الحدود الدنيا، ووضع الأهداف المستحيلة أمام منتجي الحبوب. هذا ولا يبدو أن السلطان كان قد أخطأ في الحساب على هذا الصعيد، لأن برني يعزو تسريح قوة خراسان بعد عام واحد لا إلى نقص المؤن، بل إلى شح الأموال اللازمة لتسديد رواتب الجند[28].

أما فيما يخص حجم قوة خراسان، فإن برني يسوق تفاصيل متناقضة. ففي صياغته المنقحة الأولى، يورد رقماً يبلغ 470 ألفاً بشهادة **النائب العارض** (الحاجب)، ظاهر الجيوش نفسه؛ غير أن الصياغة الثانية لا تلبث أن تخفض الرقم إلى 370 ألفاً، دون الإتيان على ذكر اسم المصدر[29]. وقد اعتُبر هذا عدداً إجمالياً لسائر الرجال في جيش السلطان، الذي يذكّرنا بالأرقام المماثلة العائدة إلى عهد علاء الدين، مما يجعل قوة خراسان المحمدية، أقل لفتاً للنظر[30]. مهما كان الرقم الذي يحلو لنا أن نعتمده، فإن هذه الأعداد تنطبق بوضوح، على قوة مشكَّلة لغرض خاص، إضافة إلى المجموع الاعتيادي المألوف لمجمل المؤسسة العسكرية[31]. قيل للعمري إن قوات محمد المسلَّحة في العاصمة وفي الأقاليم، كان يصل تعدادها الكلي إلى تسعمئة ألف من الرجال. غير أن الصفدي، الذي يعيد إيراد هذا الرقم بالاستناد إلى ما قاله مبعوث رسمي من دلهي، إلى السلطان المصري الناصر محمد (بن قلاوون)، يُدعى عبد الله «دفترخوان»، متشكك، مضيفاً أن الرقم الصحيح المعروف على نطاق واسع، أقرب إلى ستمئة ألف[32].

---

(28) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 201 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 167 أ. TFS، 477.

(29) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 201 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف TFS167 .، 477.

(30) ديغبي، **جياد الحرب**، 24 وهـ. 41 أ.

(31) تلك، على الأقل، هي شهادة فيريشتا، ١، 240.

(32) MA، تحقيق سبايز، 12 ـ 13 (تر. 37) / تحقيق فارق، (تر. صديقي وأحمد، 37). الصفدي، **الوافي**، III، 173 (تر. خان، 187)؛ ولكن قارن مع كتابه **أعيان العصر**، ملف 3 أ، حيث يقال 700,000 بدلاً من 900,000: ربما كان مخبره هو **الحاجب** عبد الله الذي جاء إلى إيران سفيراً لمحمد سنة 1327 ـ 1328 م: شبان قاراتي، 288. ابن حجر العسقلاني متوفى في 852 هـ / 1449م)، **الدرر الكامنة في أعيان** =

يبدو أن تجميع جيش هائل كهذا، كان منطوياً على صعوبات بالنسبة إلى الحكومة تُعْزى خصوصاً، إلى حصول تغيير في نظام المكافأة (الرواتب). قيل للعُمَري إن الجند كلَّهم باتوا يحصلون على معاشات من **ديوان خراج** السلطان[33]. وكذلك فإن قيام محمد باعتماد النقد الرمزي ـ القطع النقدية البرونزية ذات القيمة المتدنية في الحقيقة (**موهري ميس**) ـ الذي يربطه برني مرة أخرى، ولو بصورة مضمرة، بتجنيد أعداد كبيرة من الجند، ويُرْجعه سر هندي إلى الحاجة لسلف نقدية، من أجل سكان دلهي الجدد، كان هو الآخر في هذه السنوات[34]. تقرر أيضاً أن تتم مراجعة الخطة، في ضوء الوتيرة المتسارعة للتجارة والضغط الحاصل على التناسب بين الذهب والفضة 1/ 10، الذي كان يشكِّل أساس النظام النقدي. يبدو أن إخراج كميات كبيرة من الذهب من المخابئ، هو الذي أحدث خللاً في هذا التناسب، مؤكِّداً مشكلة نقص الفضة التي ازدادت تفاقماً مع مجيء محمد. ثمة مؤشرات ذات دلالة تتجلَّى في إصداراته المبكرة **لتانغات** قليلة الفضة منذ عام 727 هـ / 1326م، وفي إلحاح قادر خان، واليه على البنغال (ذلك الإقليم الذي تمتع بفضل التجارة بميزة الوصول إلى كميات وافرة من الفضة في يونان وبورما) على مراكمة كميات كبيرة من الفضة المسكوكة لإرسالها إلى دلهي، قبل اغتياله وعصيان الإقليم حوالي سنة 736 هـ / 1335 ـ 1336م[35]. وقد كانت كل من حملة قرتشيل،

= **المئات الثامنة** (حيدر آباد، الدكّان، 1348 ـ 1350 هـ / 1929 ـ 1935م، 4 أجزاء)، III 461، يحذو حذو **الوافي** ولكنه لا يورد إلاَّ الرقم الأقل 600,000. أما رقم الـ 40 **لاكاً** (4 ملايين) الوارد عن المشاة، أخيراً، على لسان ابن أبي الفضائل، تحقيق كورتانتامر، النص العربي 27 (الترجمة الألمانية 104)، هو دون شك ناتج عن التباس لوحدات وقد يكون من الضروري أن يتحدد بـ 400,000؛ وعدد الفرسان عنده هو 300,000.

(33) MA، تحقيق سبايز، 13 (تر. ألمانية 37، 38) / تحقيق فارق، 24، 25 (تر. صدّيقي وأحمد، 37 ـ 38).

(34) TFS، 475؛ أيضاً TFS، مخطوطة بودليان، ملف 201 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 167 ب، حيث يجري ربطها بهبات السلطان السخية جنباً إلى جنب مع تجنيد الجيوش. TMS، 102.

(35) سيمون ديغبي، «النظام النقدي»، في ريتشا ودهوري وحبيب (محررين) **تاريخ كامبردج الاقتصادي**، =

وغزوة محمد لناغاركوت عام 738 هـ / 1335 ـ 1336م، بدافع الحاجة إلى الفضة، دون أدنى شك. وقد تجلّى تعرّض التناسب بين الذهب والفضة للاختلال المؤقت، في الملاحظة الواردة في كتاب جغرافي مؤلف حوالي عام 740 هـ / 1339م في إيران، والتي تقول إن محمداً كان قد وضع حداً لتخزين الكنوز، وراح ينفق احتياطياته الذهبية. وما لبث إنفاقه الكثيف أن أفضى إلى تهاوي سعر الذهب، حتى بات تصديره إلى الهند عملاً غير اقتصادي، وصارت هذه الحركة التجارية معكوسة الاتجاه[36].

علينا تجاهل الجزء الأكبر من الرواية شبه الخالية من القيمة، التي يسوقها عصامي الذي يشير إلى قطع نقدية مسكوكة من الحديد والجلد، جنباً إلى جنب مع البرونز؛ على الرغم من أن تأكيده لحقيقة أن القطع النقدية كانت متداولة طوال فترة ثلاث سنوات، تؤيدها تلك القطع النقدية الكثيرة نسبياً الباقية، التي تحمل تواريخ تتراوح بين 730 هـ و732 هـ[37]. أما رواية برني الأوفى، فتظهر بأن الخطة أخفقت بسبب التزوير المنتشر على نطاق واسع للقطع النقدية في الأرياف، من قبل زعماء الهندوس وعملائهم، الذين كانوا يدفعونها بدورهم تسديداً لضريبة الأرض. وبهذه الطريقة، وصلت كميات كبيرة من القطع النقدية البرونزية إلى الخزينة، مما قوّض الثقة، وأحدث انهياراً في قيمة النقد؛ فاضطرّت الحكومة لاسترجاع القطع النقدية المتداولة، وإصدار **تانغات** ذهبية وفضية بدلاً منها[38]. ولكن ادعاءات برني المتكرّرة التي تزعم أن الخزينة جرى

= 97 ـ 98، خصوصاً ما اقتبس من TMS، 104 ـ 105. موسوي، «دلائل نقدية»، 215 ـ CMSD216 .، 162 ـ 166. عن مصادر الفضة، انظر جون ويل، «الرابط الصيني: مشكلات مؤونة الفضة في بنغال العصر الوسيط»، في ريشاردز (محرراً)، **المعادن الثمينة**، 207 ـ 227.

(36) حمد الله مستوفي قزويني، **نزهة القلوب**، تحقيق وتر. غاي لوسترينج، **الجزء الجغرافي من نزهة القلوب**، GMS, XXIII، (لايدن ولندن، 1915 ـ 1919م، جزءان)، ا، (النص)، 230، **عن زارهارا شَرَف ميكرناد**، وII (تر.)، 222.

(37) FS، 459 ـ 461 (تر. 693 ـ 695). CMSD، 139 ـ 146 (رقم: 574 ـ 616).

(38) TFS، 475 ـ 476؛ TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 201 ب ـ 202 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 167 ب ـ 168 أ.

إفراغها نتيجة المشروع (أو بسبب سياسات محمد الأخرى في الحقيقة)، يجب التعامل معها بحذر. فلو كان الأمر كذلك، لما كان محمد في وضع يمكِّنه من استعادة القطع النقدية البرونزية؛ بل، ولكان أقل قُدْرة على تقديم سلف كبيرة للفلاحين، بهدف استعادة الزراعة إلى سابق عهدها.

من المؤشرات الدالة على العبء الثقيل الذي شكَّله مشروع خراسان على مالية السلطان، على أية حال، ثمة التخلي عن نظام علاء الدين القائم على تسديد رواتب جيشه المتضخم، بصورة ملحوظة، وتحميل رعاياه في الدواب، عبئاً ضريبياً أثقل، حتى من ذلك الذي كان علاء الدين قد فرضه. وأية زيادة في الضرائب، وبهذه السرعة، غداة قيام ترما شيرين بتدمير الإقليم[40] كان من شأنها أن تثير سخطاً شديداً؛ غير أن الطابع الدقيق للتدبير غير واضح. لقد كان مورلاند، على حق، حين رفض ادعاء برني في الطبعة المتداولة لكتابه **تاريخ**، بأن **الخراج** تعرَّض لزيادة بلغت عشرة أضعاف أو عشرين ضعفاً (**ياكي با ـ داه وا ـ ياكي با ـ بيست**)، على أنه مجرَّد مجاز بلاغي[41]. فبمقدار ما نعلم، كان **الخراج** يصل إلى خمسين بالمئة، كما حدَّده علاء الدين، وهو الحد الأعلى الشرعي بموجب المذهب الحنفي. غير أن هناك تلميحات إضافية. ففي صياغته المنقحة الأولى (التي هي أكثر غموضاً فيما يخص نسبة الزيادة) يوحي برني، أولاً، بأن ما وجده الفلاحون أمراً لا يُطاق، هو أنهم باتوا، الآن، مطالبين بتسديد جزء على الأقل من الضريبة المقدرة نقداً (زار، «ذهباً»)؛ ويشير، ثانياً، إلى جملة من البنود (**الأبواب**) الكثيرة والثقيلة الأخرى[42]. إن الضرائب غير الشرعية التي ألغاها خليفة

---

(39) TFS، 476 ـ 477.

(40) مشار إليه صراحة في هذا السياق، TMS، 113.

(41) TFS، 473. مورلاند، 48 هـ. ؛ أيضاً إشواري براساد، **أتراك القراؤون**، 71 ـ TMS73 .، 101 ـ 102، **يقول ياكي با ـ بيست**، غير أنه فيما بعد (113) يقول واحد بالعشرة أو واحد بالعشرين.

(42) TFS، 479، **شدايدي مطالبت وبيسباري ـ ي أبواب**؛ انظر أيضاً TFS473 .[1]، مخطوطة بودليان، ملف 192 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 161 أ.

محمد، تتضمَّن سلسلة طويلة من الرسوم، إضافة إلى ضريبتي السكن **(غاري)** والمرعى **(شرائي)** اللتين كان علاء الدين قد استحدثهما[43]. وبالتالي، فإنه من المستحيل أن تكون كثرة من هذه الرسوم بِدَعاً عائدة إلى عهد محمد، وأن تكون الصياغة في الطبعة المنقحة اللاحقة، مشيرة إلى زيادة كبيرة في العدد الإجمالي للضرائب المحصلة، بدلاً من إشارتها إلى النسبة المئوية من الدخل التي تأخذها الدولة. يتحدث سر هندي، أخيراً، عن الضرائب الثلاث المحصلة جميعاً بقدر أكبر من الصرامة: كان المحصول المخمن مقداراً متعارفاً عليه، بدلاً من كونه موازياً للمحصول الفعلي، وكانت القيمة تحسب، وفقاً لأسعار محدَّدة، بأوامر إدارية، لا انطلاقاً من الأسعار السائدة في السوق[44].

مشروع خراسان والعلاقات مع المغول

كان هدف إنفاق محمد الكثيف على الجيش في السنوات الممتدة من 1329م فصاعداً، هو الانتقال إلى اتخاذ وضعية الهجوم ضد المغول. كان هناك نزوع لدى السلاطين نحو النظر بتوق وتوجس إلى احتمال التوسُّع إلى ما وراء الإندوس، نزوعٌ شجعه، دون شك، اللاجئون الكثيرون الآتون من تلك المناطق إلى بلاطهم. ومن المؤكد أن النجاح الباهر الذي حققته سلطنة دلهي في إخضاع وحكم أجزاء كبيرة غير مسبوقة من شبه الجزيرة الهندية، شكَّل إغراءً جديداً لمحمد بالتحديد، دفعه إلى تحويل اهتمامه نحو الجهات الشمالية ـ الغربية. سبق لنا أن رأينا كيف أنه بادر، منذ البداية الأولى لعهده، إلى قيادة حملة على الحدود المغولية؛ على الرغم من أن غزوة ترماشيرين، بدت كما لو كانت الدافع المباشر الكامن وراء «مشروع خراسان».

إن استخدام برني المضلِّل، في إحدى نقاط الصياغة المتداولة، لعبارة

---

(43) TFS، 5 (تر. روي، 453).

(44) TMS، 101 ـ 102: كان متوهماً أن محمداً هو الذي استحدث **التشاري والغاري**. ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 63.

«خراسان العراق» للدلالة على المناطق التي كانت هدف مخططات محمد[45]، أحدث تشويشاً لا لزوم له في المسألة. فعبارة «خراسان» ذاتها غامضة. لقد ظلّت تعني بالنسبة إلى سكان الهند خلال فترة السلطنة، بل وحتى إلى أحقاب متأخرة لاحقة، كحقبة بابُر، جملة المناطق الواقعة إلى الغرب من نهر الإندوس، دون تحقيق دقيق[46]. لذا، فإن إيشواري براساد وآغا مهدي حسين استنتجا أن محمداً كان يخطِّط للهجوم على الإيلخانية[47]. غير أن «خراسان» كانت، أيضاً تعني المناطق التي تشكِّل، الآن، شمال أفغانستان، وكانت في ذلك الوقت خاضعة لحكم الخانات الجغتائيين. ويبدو برني أكثر تحديداً في صياغته المنقحة الأولى، إذ يشير إلى هدف طموحات محمد باعتبارها متمثلة بـ «المرتفعات» (**أقاليمي بالا** أو **بالا ـ دست**)؛ كما يحدث، في إحدى نقاط الطبعة اللاحقة، متفقاً مع مصادر أخرى، عن خطة السلطان الرامية إلى فتح وقهر «خراسان وما وراء النهر»[48]. ومن هنا، فإننا نستطيع أن نكون متأكدين من أن محمداً كان عازماً على مهاجمة الأعداء القدامى، الجغتائيين؛ أما مع الإيلخانيين، فإن علاقاته كانت ودية في الحقيقة. لقد قال البروفسور صديقي، إن أحد أسباب التخلي عن مخططات محمد، تمثل بقيام علاقات ودية بين السلطان وترماشيرين، على الرغم من أن برني، المصمِّم على مسح سياسات السلطان الداخلية ومعاينتها بدقة، لا يأتي على أي ذكر لهذا الأمر.

---

(45) TFS، 476.

(46) III, IB، 229 (تر. جيب، 664). **بابور ـ نامه**، ا، 202.

(47) إ. براساد **أتراك القراؤون**، 118 ـ 124؛ حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 138 ـ 143. ولكن قارن عزيز أحمد، «الضغط المغولي»، 189، رغم أنه يقع في خطأ تأريخ مشروع خراسان فيما بعد موت تارماشيرين.

(48) TFS، 477، TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 200 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 5166، تقول «خراسان، العراق وما وراء النهر»، ولكن قارن ملف 201 ب / ملف 167 أ، **أقاليم ـ ي بالا ـ داست**، سِيَر، 271 («خراسان وتركستان») صدّيقي، «سياسة السلطان محمد بن تُغلُق الخارجية»، 9 ـ 10.

يقول برني إن جزءاً من قوة خراسان أُرسل إلى قراشيل[49]، التي هي، مثلها مثل «خراسان» تسمية شديدة الضبابية وتتسم بعدم التحديد الواضح، والتي تدل، بأوسع معانيها، على مجمل سلسلة جبال الهيمالايا[50]. غير أن من الواضح أن المصادر تشير، في السياق الخاص لطموحات محمد وتطلعاته، إلى إمارة هندوسية كبرى. ففي مقال نُشر قبل بضع سنوات، اقترحتُ أن هدف جيش السلطان كان متمثلاً بكشمير، التي يُعرف، من مصادر محلية، أنها تعرَّضت لغزوتين على الأقل خلال الربع الثاني من القرن الرابع عشر[51]. يجب الاعتراف بأن هناك صعوبات ينطوي عليها مثل هذا التشخيص، غير أن الزعم بأن محمداً كان يفكّر بإرسال وليٍّ مسلم إلى كشمير، في هذا الوقت بالذات[52]، وبقعة ما في الجبهة الشمالية ـ الغربية يجب أن يكون موضع نقاش، نظراً للارتباط مع مشروع خراسان الذي يصر عليه برني، بقدر كبير من التأكيد:

> خطر للسلطان محمد أنه من الواجب إخضاع جبال قراشيل، الواقعة على الطريق المباشرة (دار راهي نزديك)، كحدود وستار بين امبراطورية الهند وامبراطورية الصين لراية الإسلام، حتى تصبح طريق تقدم الجيش، ودخول الفرسان، ميسَّرة، نظراً لأن مقدمات (بيش ـ نيهادها) فتح خراسان وما وراء النهر باتت متحققة[53].

يجب ملاحظة أن ذكر الصين، وهو الأمر الذي ضلَّل جامع القرن

---

(49) TFS، 477.

(50) مثل III, IB، 325، 438 ـ 439 (تر. جيب، 713، 763).

(51) جاكسون، «المغول وسلطنة دلهي»، 132 ـ 142؛ ولكن قارن، صدّيقي، «سياسة محمد بن تُغلُق الخارجية»، 15 وهـ. 45.

(52) سيّر، 228.

(53) TFS، 477 (مع التصحيح عن مخطوطة BL، ملف 236 ب).

السابع عشر فيرشتا، وأقنعه، خطأ، بأن محمداً خطَّط لفتح ذلك البلد[54]، ليس إلاَّ حدثاً عارضاً. فمن صياغة برني، يبدو أن أحد الأهداف، كان متمثلاً بحماية الطريق التي كانت تسهِّل دخول فرسان القتال المحاربين القادمين من المرتفعات (**البالادستي**) إلى السلطنة. وبالتالي، فإنه من الصعب رؤية أن السلطان كان حريصاً، مثلاً، على إرسال جزء من قوة خراسان إلى داخل منطقة كوماؤون ـ غاهروال[55]. ومهما يكن، فإن قوات دلهي وقعت في مصيدة إغراء التوغل في الجبال، حيث أجهز عليها العدو؛ لم يعد من الجيش سوى حفنة صغيرة. يقول سر هندي، إن العدد الإجمالي للقوة كان يصل إلى ثمانين ألفاً من الفرسان، عدا الخدم (تشاكير)، والعبيد؛ أما عصامي، فيعطي رقم **لاك** واحد (مئة ألف) من الفرسان، عاد منهم خمسة إلى ستة آلاف[56]. يبقى العدد الذي أورده برني في سياق رواية شديدة الإيجاز، في صياغته المنقحة الأولى، أصغر بصورة لافتة للنظر، إذ يقول إنه كان ثلاثين أو أربعين ألفاً؛ أما تأكيده، في الطبعة المراجَعة، لأن مجموع الناجين لم يكن يتجاوز العشرة فرسان فقط، فليس إلاَّ إسرافاً في الغلو[57]. ويزعم ابن بطوطة أن محمداً ما لبث، لاحقاً، أن بات قادراً على التصالح مع أهالي قراشيل، الذين التزموا بدفع الجزية: وحقيقة أنهم كانوا قد أصبحوا تابعين لدلهي، يؤكِّدها العُمَري أيضاً، رغم عزوفه عن ذكر إخفاق السلطان في التغلب عليهم بالوسائل العسكرية[58].

---

(54) فيريشتا، I، 240. إ. براساد، **أتراك لقراؤون**، 126 ـ 128، 134 ـ 136، كان على صواب في تشككه.

(55) كما اقترح براساد، المصدر نفسه، 28 ـ 131، ونظامي (HN، 522) الذي يقوم (واقعاً في خطأ اقتباس برني) باستبعاد أي ارتباط بين مشروع خراسان ومغامرة قراشيل.

(56) TMS، 114، FS، 467 (تر. 703).

(57) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 193 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 161 ب. TFS، 477 ـ 478.

(58) III, IB، 327 ـ 328 (تر. جيب، 714). MA، تحقيق سبايز، 5 (تر. ألمانية 23) تحقيق فارق، 11 (تر. صدِّيقي وأحمد، 29).

ثورة فلاحية وفوضى اقتصادية

تمخضت مطالب محمد الضريبية المتزايدة، عن إثارة حركة تمردية واسعة بين صفوف مزارعي إقليم الدواب، الذين أحرقوا محاصيلهم وطردوا قطعان مواشيهم، تاركينها تهيم على وجوهها، ولاذوا بالأدغال. بادر السلطان الذي أمر موظفي الضرائب عنده **(الشِّقْدَران)** والقادة العسكريين **(الفوج دران)** بالسطو على المناطق المتمردة، ونهبها أول الأمر، إلى النزول شخصياً إلى الساحة، فيما بعد، ليشن هجمات تأديبية على برن وكول. من المحتمل أن تكون الانتفاضة قد حدثت حوالي سنة 1332 ـ 1333م، غير أن محمداً قاد، على ما يبدو، حملتين إلى داخل «هندوستان»، وأن عملياته في جوار قنّوج وإلماو (التي كانت فيها عند وصول ابن بطوطة إلى دلهي عام 734 هـ / 1334م) شكّلت هي الأخرى جزءاً من محاولته الرامية إلى إخماد الثورة الدوابية[(59)]. لقد أدّى عدم وصول الحبوب إلى دلهي من الدواب إلى المجاعة، وما لبث الوضع أن تفاقم جراء فترة طويلة من الجفاف، غداة عودة السلطان من حملته المَعْبرية[(60)]. يتحدَّث برني عن تأثير ذلك على دلهي، التي هلك كثيرون من أهلها أو هربوا إلى الأرياف؛ ومن المؤكد أن هذا (735 ـ 736 هـ / 1335 ـ 1336م) هو التاريخ الذي ينبغي أن نضع فيه تعليق ابن بطوطة القائل، إنه وجد العاصمة مهجورة نسبياً[(61)]. ومع ذلك، يبدو أن مساحة أوسع بكثير باتت مُبتلاةً

(59) هذا أوضح في TFS²، مخطوطة بودليان، ملف 192 ب ـ 193 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، 161 ب، مما في TFS، 479، 480؛ عن حملة قنوج، انظر IB ,III، 144، (تر. جيب، 617).

(60) TFS، 473؛ ثمة دلالة تاريخية أوضح في 482. لا أستطيع الاتفاق مع نظامي (في HN، 524)، حيث يعتبر فرض الضرائب العالية في الدؤاب تعويضاً عن المجاعة في دلهي بدلاً من كونه سببها آخر المطاف.

(61) TFS، IB482 ,III .، 316 (تر. جيب، 708): تبدو الملاحظة الواردة في سياق نقل العاصمة منطبقة على دخوله الأولي إلى دلهي، بدلاً من أن تكون منسجمة مع أية زيارة لاحقة، مما دفع حسيناً في **صعود. . . وسقوط. . .**، 121 ـ 123، **والأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 171 ـ 173، إلى استبعاد الأمر باعتباره مستنداً إلى الأقاويل والإشاعات.

بالمجاعة، لأن محمداً كان، لدى مروره بمالوا في الطريق إلى المعبر، قد وجد شبكة المجاري **(الدهاوا)** الممتدة مع الطريق مهملة، وبالمثل، فإننا نقرأ عن المجاعة في بلدات (قصبات) البنجاب الشرقي، حيث اضطر السلطان لأن يشن حملة ضد الفلاحين العصاة لاحقاً، حوالي عام 738 هـ / 1337 ـ 1338م[62].

أما جهود السلطان الرامية إلى تشجيع الزراعة، بعد عودته من الجنوب، عبر الإيعاز بحفر الآبار في ضواحي دلهي، ومن خلال تقديم البذور والقروض **(سوندهار)** إلى الفلاحين، فقد ذهبت أدراج الرياح[63]. كما أن الحملات التي شُنَّت على كاتيهر للسطو على الحبوب، من أجل إطعام الجند وأهالي دلهي لم تكن سوى مهدئات قصيرة الأجل[64]. فبعد عامين من عودته من الجنوب إلى دلهي، اضطر محمد للسماح بحصول هجرة على نطاق واسع من العاصمة إلى إقليم أوَد الخصب، وقام هو نفسه، ببناء مقر إقامة مؤقت على الغانج، وموقع يعرف باسم سارغادواري[65]. ويبدو أن مكوثه هنا لفترة عامين ونصف العام تقريباً، قد أدَّى إلى التخفيف من حدة المشكلات بعض الشيء؛ وإذا كان سر هندي على صواب حين يزعم أن الجفاف دام سبع سنوات[66]، فإن من شأن عودة السلطان إلى دلهي، أن تكون قد جاءت متزامنة مع انتهاء ذلك الجفاف، أي حوالي عام 741 هـ / 1340 ـ 1341م، وكانت التدبير الهادفة إلى إحياء الزراعة لا تزال تُعتبر ضرورية خلال السنوات الأخيرة من العهد، على الرغم من أن السِّلَف النقدية الهائلة، المقدمة إلى المزارعين، لم تُوظف بالشكل

---

(62) مالوا: TFS، 481 ـ 482. البنجاب الشرقي: TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 194 ب / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 162 ب؛ TFS، 483 ـ 484، لا يشاء إلاَّ إلى رفض الفلاحين لدفع **الخراج**، غير أنه لا يتم أي ربط بالمجاعة؛ III, IB، 372 ـ 373 (تر. جيب، 734)، عن المجاعة في آغروها.

(63) TFS، 482، III, IB484 .، 299 (تر. جيب، 700).

(64) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 195 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 163 أ؛ TFS، 484 ـ 485، لا يتحدث إلاَّ عن المراعي (تشاراخور).

(65) المصدر نفسه، 485 ـ 486.

(66) TMS، 113.

المناسب، ولو تسنى لمحمد أن يعود حيًّا من السند، حسب قناعة برني، لجرى إعدام المذنبين[67].

نعلم أن قيام محمد بتخفيض قيمة النقد تمخض عن قَدْر غير قليل من التضخم، مفضياً إلى زيادة في الأسعار بلغت ما يقرب من خمسة أضعاف[68]. ومما لا شك فيه، أن مشكلات السلطنة الاقتصادية زادت حدة بفعل سياسة الإمارة (الخانية) الجغتائية، لأن ترماشيرين كان، غداة اهتدائه إلى الإسلام، قد ألغى جملة الرسوم الجمركية التجارية غير المكرَّسة بالشريعة، فاجتذب إلى ما وراء النهر أفواجاً من التجار، من كل من مصر وسورية بأعداد كبيرة[69]. ربما أدَّى هذا إلى تحويل نسبة معينة من التجارة المصرية إلى شمال هندوكوش، وقد يفسر مبادرة محمد إلى إلغاء **المكوس** داخل المناطق الخاضعة لحكمه. وبالمثل، فإن الحافز ربما كان متمثلاً بتدهور عام في التجارة الخارجية، نتيجة لخفض قيمة النقد؛ غير أنه من اللافت للنظر، أن **الدينار** الجغتائي كان يتمتع بشهرة واسعة من حيث النقاء[70]. من الممكن أن تكون سياسة محمد النقدية قد فعلت فعلها في الميزان التجاري، بين الهند وآسيا الوسطى.

ضعف عسكري وعصيان مزمن

يتضح من شهادة برني أن الاضطراب المستديم في الدواب، ما لبث أن اضطلع بدور الحافز للموجة التالية من حركات التمرد والعصيان، في أقاليم

---

(67) TFS، 498 ـ 499. عفيف، 92. ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 65 ـ 66.

(68) ديغبي، **جياد الحرب**، 39 ـ 40.

(69) MA، تحقيق ليش، النص العربي، 41 (تر. ألمانية 119). الصفدي، **الوافي**، X، 383، وحده يأتي على ذكر الإلغاء. عن **مكوس**، رسوم جمركية أساساً، انظر عموماً و. بجوركمان، «مكس»، Enc. Isl.[2]؛ پ. غ. فوران، «ملاحظات عن **المكس والعُشر**، **آرابيكا** 13 (1966م)، 137 ـ 141.

(70) MA، تحقيق ليش، النص العربي 47 (تر. ألمانية 123).

أبعد منذ حوالى 1334م فصاعداً، ولا سيما في المَعْبَر والبنغال وتيلانغ[71]. ربما كانت ثورة السيد جلال الدين حسن، كوتوال مادورا على ما يبدو، الذي ما لبث أن تقلَّد لقب السلطان جلال الدين إحسان شاه، هي الأولى، ويُعتقد أنها اندلعت سنة 734 هـ / 1333 ـ 1334 م. قُتل ممثلو محمد، والقوات المسلَّحة التي يفترض فيها أن تكون حامية الإقليم، لم تفعل شيئاً[72]. وقد جاء فقدان البنغال بعد هذه الأزمة مباشرة. كان فخر الدين (ويعرف أيضاً باسم «فخرا») **سلاحداراً** عند أخي السلطان بالتبني، بهرم خان، وكان قد سبق له بذل محاولة فاشلة للاستيلاء على السلطة في سونار غاؤن، لدى وفاة ولي نعمته وسيده. تم إخماد الانتفاضة على يد قادر خان، ممثل محمد في لخناوتي؛ ولكن صراعاً طويلاً ما لبث، بعد وقت طويل، أن نشب في سبيل السيطرة على الإقليم. في البدء، تمرَّدت قوات قادر خان وذبحته، ثم انتقلت إلى صف المتمرِّد فخر الدين، الذي اتخذ من سونار غاؤون مقر إقامة له. ثم ما لبث أن قُتل عامل فخر الدين في لخناوتي على يد **العارض** (الحاجب) السابق لدى قادر خان، علي مبارك، الذي جاء قائداً لوحدة من القوات الملكية. وحين بدا السلطان عاجزاً عن تلبية طلبه القاضي بإرسال والٍ جديد من دلهي، وجد علي مبارك هذا نفسه مضطراً لتقلُّد اللقب الملكي بنفسه فيصبح السلطان علاء الدين علي شاه، من أجل حشد التأييد والدعم ضد نشاطات فخر الدين العدائية. ثمة مرشح ثالث للسلطنة، وهو خادم (تشاكير) سابق لدى علي مبارك، يدعى إلياس

---

(71) يكون الربط صريحاً في الصياغة المنقحة الأولى: TFS، مخطوطة بودليان، ملف 193 / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 161 ب ـ 162 أ.

(72) تفاصيل ضئيلة في TFS، 480، عدا عن القول بأن محمداً كان في حملة عند أطراف قنوج حين وصلته الأنباء. FS، 469 (تر. 705). III, IB، 144 (تر. جيب، 617). عن التاريخ، انظر س. آ. ق. حسيني، «التسلسل التاريخي لسلطاني مادورا الأوَّلَيْن»، **أعمال مؤتمر تاريخ باكستان، الجلسة الخامسة، خايربور، 1955 م** (كراتشي [بلا تاريخ] [1958 م])، 193 ـ 197، و«تاريخ سلطنة مادورا»، JASP 2 (1957م)، 91 ـ 95، آتياً على ذكر قطعة نقدية تحمل اسم أحسان شاه مؤرخة في 734 هـ. ح. بورتون، بيج، «جلال الدين أحسان»، .Enc. Isl، يجب، بالتالي، ترهينه.

حاجّي، حَكَم باسم السلطان شمس الدين، كان سيطيح بكل من علي شاه، أواسط أربعينيات القرن الرابع عشر، ونجل فخر الدين وخَلَفِه، اختيار الدين غازي شاه أوائل خمسينيات القرن نفسه[73]. يبدو أن إلياساً هذا أعلن، حاذياً حذو علي شاه، اعترافه بسلطة دلهي، لأن **فَرَماناً** صادراً عن خليفة محمد، فيروز شاه سيزعم، لاحقاً، أنه كان قد بقي موالياً إلى ما بعد موت محمد[74].

لعل وجود قوات موالية حقاً في البنغال، هو ما أغرى محمداً بإعطاء الأولوية لقمع حركة إحسان شاه في المعبر. ففي عام 735 هـ / 1334 ـ 1335م، تحرك جنوباً على رأس قوة لا يستهان بها وعبر الدكّان. غير أن الجيش ما لبث، لدى وصوله إلى تيلانغ، أن أُصيب بنوع من الوباء، فاضطر السلطان للانسحاب؛ وقد مرض هو نفسه مرضاً شديداً، حين وصل إلى دولت أباد، ولم يتماثل للشفاء إلاّ بعد العودة إلى دلهي. كان واضحاً بالنسبة لابن بطوطة، الذي يعيد تساقط الأقاليم النائية والمتطرفة إلى هذا المنعطف[75]، أن الحملة كانت كارثة كبرى. فالإخفاق في استعادة المعبر، شكّل حافزاً لمن كانوا يفكّرون بالانشقاق والمعارضة، وشجّع على انتشار شائعات قوية عن موت محمد على نطاق واسع. فمنذ البداية، حين تحرّك السلطان جنوباً، كان أحد ضباطه، تاج الدين هوشنغ [ابن كمال الدين «غورغ» (الذئب)]، مُقْطع هانسي،

---

(73) TMS، 104 ـ 105، يقدم الرواية الأوفى وإن بتواريخ غير صحيحة. TFS، 480، وFS، 472 (تر. 709) محرفان. IB ,IV، 213 ـ 214 (تر. جيب وبكينغهام، 869)، يخلط التفاصيل ولا يأتي على ذكر إلياس الذي تجده في SFS، 47 (تر. باسو، JBORS، 27 [1941 م]، 92)؛ هذا المصدر الأخير يعتبر على شاه حامل درع وسلاح دينار، أحد خصيان قادر خان. للاطلاع على عرض للأحداث، انظر عبد الكريم، «الظروف التي أفضت إلى استقلال البنغال (1338م)»، **أعمال مؤتمر تاريخ باكستان، الجلسة الخامسة**، 209 ـ 222. تستمر القطع النقدية لعلي شاه إلى عام 744 هـ: CCIM ,II، 150 (رقم: 22 ـ 23). أما غازي شاه فقد ضرب نقداً 751 هـ: المصدر نفسه، II، 149 (رقم: 21). كان إلياس قد بدأ يحكم مع حلول عام 743 هـ / 1342 م: داني، «شمس الدين إلياس شاه»، 55؛ إيتون، **صعود الإسلام**، 86.

(74) IM، 16.

(75) IB ,III، 334 ـ 335 (تر. جيب، 717).

قد فرَّ إلى الفيندهيا، ومنها إلى الكونكان؛ فتحرَّك قُطْلُغ خان، أستاذ محمد السابق ووالي الدكّان، ضده، وما لبث أن نجح في إغرائه بالاستسلام، واعداً إياه بضمان سلامته[76]. وفي الوقت نفسه تقريباً، أقدم قائد مغولي، يدعى هيليتشو، على احتلال لاهور بالتحالف مع غول تشاند زعيم الخوخار، حليف والد محمد ذات يوم؛ هُزم المتمرِّدون وتمَّت استعادة المدينة من قِبَل الوزير خواجا جهان[77]. أما استيلاء الزعيم الأفغاني تشاهو على مُلْتان، الذي يجعله عصامي جزءاً من هذه الحركة التمردية في البنجاب الغربي، فتراه مصادر أخرى، حدثاً منفصلاً. ومحمد، الذي كان الآن قد عاد إلى دلهي، اعتبر هذه الثورة منطوية على قَدْر من التهديد، يكفي لتسويغ مبادرته شخصياً إلى التعامل معها؛ غير أن تشاهو لاذ بالفرار، لدى اقتراب السلطان، وأرسل كتاب ولاء[78]. أما ضياع كامبيلا التي ما لبثت أن أصبحت نواة مملكة فيجاياناغارا، وتمرد في تيلانغ، حيث نجح كابايا نایاك في الإطاحة بالوالي ملك مقبول، الذي فرَّ إلى دلهي التي وصلها خلال أيام قليلة بعد السلطان نفسه، فقد كانا أكثر خطورة[79].

شكَّل ضياع تيلانغ، تلك المنطقة التي كان إخضاعها في العهد السابق إنجازه الشخصي، ضربة قاسية جداً بالنسبة إلى محمد. يقال إنه أراد شنّ حملة لاسترجاعها، غير أن المجاعة حالت دون ذلك[80]. وإذا كان عصامي جديراً

(76) FS، 469 ـ 470 (تر. 706 ـ 707). TMS، III, IB106.، 335 ـ 336 (تر. جيب، 717 ـ 718).

(77) FS، 471 (تر. 707 ـ 708)، واقعاً في خطأ جعل هذا الجزء من الحدث ثورة شاهو نفسها. III, IB، 331 ـ 333 (تر. جيب، 716 ـ 717).

(78) TFS، 482 ـ III, IB483.، 362 (تر. جيب، 729).

(79) إشارة موجزة إلى الثورتين في FS، 606، (تر. 902). تيلانغ: TFS، 484. عن المواد المحدودة حول ظهور فيجايا ناغارا، انظر حسين، **الأسرة التغلُقية الحاكمة**، 248 ـ 249.

(80) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 195 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 163 أ، تقول إنه كان مبتلياً من الداخل (**دار باطن**). TFS، 484، أكثر إيجازاً.

بالثقة، فإن نصف قادة الجيش وثلث الجند كانوا قد هلكوا، بسبب الوباء[81]؛ أما برني ومخبرو ابن بطوطة، فيرون أن حملة قراشيل كانت قد أدَّت إلى إضعاف جيش السلطان، بصورة بالغة الجدية[82]. نحن هنا بصدد حدثين ابتُليت بهما حكومة محمد، أثقلا كاهلها لسنوات كثيرة قادمة: ثمة اختزال شديد لعدد الجند الموجودين تحت تصرفه، مضافاً إلى خسارة ذات شأن على صعيد الموارد، جراء تدهور الزراعة، مما أدَّى إلى بقاء السلطان عاجزاً عن إعادة بناء قواته المسلَّحة.

تفوح من سلسلة حركات التمرد في أواسط العهد، تلك الحركات التي استعرضناها إلى الآن، رائحةُ ردود انتهازية قوية على أزمة طال أمدها، سواء من جانب أفراد ساخطين، أو من قِبَل عناصر هندوسية على التخوم المتطرفة للسلطنة. غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل ثمة دلائل على وجود علة أعمق تفعل فعلها في الطبقة الحاكمة نفسها؟ في تناقض صريح مع النظام الذي نشأ في الامبراطورية المملوكية، كان ثمة نوع من الربط المباشر بين الخزينة الملكية والجندي العادي، وكان الأمراء قد فقدوا القدرة على إلزام الجند بخدمة مصالحهم الخاصة، عبر هبات إقطاعية من مخصصاتهم، التي كانت موجهة، حصراً، إلى تأمين متطلبات حياتهم الشخصية[83]. أضف إلى ذلك، أن ابن بطوطة يكشف النقاب عن حقيقة، أن القيادة العسكرية باتت منفصلة تماماً عن الإدارة المالية للإقطاع، حتى بات **والٍ للخراج**، في منطقة آمروها مثلاً، مسؤولاً بصورة مباشرة أمام السلطان، جنباً إلى جنب مع الأمير[84]. لقد كان

---

(81) FS، 469، 471 (تر. 706، 708). III, IB، 334 (تر. جيب، 717)، يكتفي بقول إن الجزء الأكبر من الجيش الذي رافق السلطان قد تمت إبادته. قارن أيضاً FS، 472 (تر. 709)، حيث يُعْزَى فقدان الأقاليم لافتقار محمد إلى الجيوش، و510 ـ 511 (تر. 759).

(82) III, IB، 327 (تر. جيب، 714). TFS، 477 ـ 478.

(83) MA، تحقيق سبايز، 13 (تر. ألمانية 37، 38 / تحقيق فارق، 24، 25 (تر. صدّيقي وأحمد، 37 ـ 38). عن الأوضاع في مصر الأيوبية والمملوكية، انظر ربيع، **النظام المالي**، 32 ـ 38.

(84) III, IB، 436، 439 (تر. جيب، 762، 763). كوزمان، **كتابات هندية**، 146، 147 ـ 148.

هذا الانقضاض على موقع القادة الإقليميين، كما قيل بصورة مقنعة، أحد العوامل الكامنة وراء سلسلة حركات التمرد والعصيان التي ابتُليت بها سنوات السلطان الأخيرة، في كل من گوجرات والدكّان[85].

جاء ضياع الموارد المصاحب لانفصال عدد من الأقاليم، هو الآخر، منطوياً على التأثير الغادر لتزايد الضغط على محمد، ودفعه إلى مطالبة الولايات التي بقيت موالية بمبالغ أكبر. يبدو أن الضباط الذين تعاقدوا على تحصيل الموارد، راحوا يلتزمون بتحويل مبالغ غير واقعية، من حيث ارتفاعها إلى السلطان. فقد قيل لابن بطوطة إن هندوسياً كان قد تعاقد على تحصيل موارد إقليم الدكّان كله، مقابل سبعة عشر **كروراً** (170,000,000، مئة وسبعين مليوناً من **التانغات**)، غير أنه أخفق في الوفاء بالتزامه، فجرى سلخ جلده وهو حي، بأمر من محمد[86]. صحيح أن القصة لا يمكن ربطها بأي حدث ورد في أي مكان آخر، غير أنها تسلّط الضوء على التأثير الذي تركته مثل تلك التدبير على المعاصرين. فاستحالة تلبية حاجات الحكومة بهذه الطريقة، كان من شأنها أن تنطوي على التمرد، من جانب خدم طالما بقوا مخلصين. إن اثنتين من الانتفاضات التي اندلعت في أثناء إقامة محمد في سرغادواري، كانتا من هذه الفصيلة. فنظام مُعين الذي تعهّد تحصيل موارد قارا، وشهاب سلطاني الملقب بنصرت خان، الذي كان قد التزم بتحصيل كرور واحد (عشرة ملايين من **التانغات**) من بيدار وإقطاعها، خلال ثلاث سنوات، دُفعا كلاهما إلى الثورة والتمرد، جراء إخفاقهما في جمع المبالغ الموعودة؛ قيل إن نصرت خان عجز عن تحصيل ثُلُث أو رُبْع مضمون العقد. أما محاولة نظام معين، البائسة، لنيل الاستقلال، فقد سُحقت على يد والي أوَذ التابع للسلطان، عين الملك بن مِهرو إخوته، في حين تمت معالجة مشكلة نُصرت خان على يد كلّي الحضور

(85) حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 71 ـ 73.

(86) IV, IB، 49 (تر. جيب وكينغهام، 795).

قُطلغ خان الذي جنَّد جيشاً من دولت أباد، ولكنه ما لبث أن أقنعه بالاستسلام، ضامناً سلامته[87].

هناك دلائل أخرى تشير إلى أن نظام محمد الذي أصبح أسير شهرته وذيوع صيته، كان بالغ القسوة. يؤكِّد برني في أكثر من مناسبة، أن العقوبات الصارمة التي لا تعرف الرحمة، التي نزلت على دلهي، أفرزت الخوف والسُّخط في الأماكن الأخرى من الامبراطورية، اللذين لعبا دوراً ذا شأن في إنتاج الثورة[88]. تشكِّل انتفاضة عين الملك بن مهرو في أوَذ، مثالاً صارخاً. متشككاً في أن يكون موظفو قُطْلُغ خان متورِّطين في اختلاس جزء من الموارد في الدكّان، فكَّر السلطان باستدعاء أستاذه القديم وإرسال ابن مهرو، الذي كان مؤخراً قد أثبت إخلاصه وكفاءته عبر شحن كميات كبيرة من الحبوب والبضائع الأخرى، من أوَذ إلى سرغادواري ودلهي، في أوج المجاعة، إلى دولت أباد. وفي صياغته المنقحة الأولى، يجعل برني محمداً مترقباً الكميات الزائدة، التي يمكن لإداري من نوعية ابن مهرو تحصيلها من الدكّان الأغنى، بما لا يقاس[89]. ومما يدعو للأسف، أن السلطان سمع أيضاً أن أعداداً كبيرة من أهالي دلهي، كانوا قد هربوا من العاصمة إلى أوَذ، منجذبين بازدهارها وبحكم ابن مهرو القائم على الرحمة والرأفة، وطلب إعادتهم. وابن مهرو الذي حُذر من غضب محمد حول هذا، استخلص أن النقل المدروس إلى الدكّان، لم يكن إلاَّ مؤامرة للخلاص منه، فقرَّر هو وأشقاؤه استباق إعدامهم بالتمرُّد. هزمهم محمد على الغانج، في موقع غير بعيد عن قنَّوج، قُتل إخوة ابن مهرو في المعركة أو اختفوا، أما هو، فقد أُخذ أسيراً؛ غير أن تقريبه من جديد، بعد فترة غير طويلة من الزمن، يشكِّل معياراً لمكانته، كما لتَفَهُّم السلطان لأسباب

---

(87) TFS، 487، 488.

(88) المصدر نفسه، 472، 484، 499 ـ 500، 517.

(89) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 196 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 163 ب.

ثورته[90]. جرى فيما بعد تعيينه، والياً على مُلْتان، في أثناء حملة محمد الأخيرة ضد المتمرد تاغاي وحلفائه السومرا في السند[91].

ويلمّح ابن بطوطة عند وصفه لتمركز قوات محمد بالقرب من قِنَّوج استعداداً لمجابهة ابن مهرو، إلى نفور «أمراء خراسان والأجانب» المرافقين للسلطان، من المتمرد الذي كان من أصول هندية[92]. فمنذ سنة 734 هـ / 1333 ـ 1334م، كما رأينا من قبل، كان محمد عازماً على تقريب حكام محليين من خراسان والمناطق المجاورة، محققاً عن طريق الرعاية والوصاية، ما أخفق في إنجازه عبر مشروع خراسان. وقد كان هذا بدوره جزءاً من سياسة أكبر، قائمة على تقريب الأجانب وتفضيلهم على الأرستقراطية المحلية.

صحيح أننا لا نستطيع تقرير ما إذا كان هذا بحد ذاته كافياً لدفع أعضاء من الأرستقراطية الإسلامية الهندية إلى الثورة، غير أنه من المحتمل بقوة، أنه لعب دوراً في عدم الاستقرار الذي ساد سنوات السلطان الأخيرة. قد نكون

---

(90) IB, III، 341 ـ 354، 357 (تر. جيب، 720 ـ 726، 727)، يقدم رواية تفصيلية لقصة الحملة التي شارك فيها، غير أنه غير مطّلع على الدوافع الكامنة وراء التمرد. يتكرر الشيء نفسه في FS، 472 ـ 475 (تر. 709 ـ 714). TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 195 ب ـ 196 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 163، TFS، 486 ـ 487، 489 ـ 491، يجري تحليل دوافع مهرو. لا يتم ذكر الشكوك حول الموارد من الدكّان إلاّ في TFS، 500 ـ 501: هاردي، «الكتابة الوعظية للتاريخ»، 53 ـ 55، يقارن بين الصياغتين المنقحتين في هذه النقطة. ثمة سرد موجز لقصة العصبان في TMS، 109 ـ 110. عفيف، 406 ـ 408، عن استعادة ابن مهرو إلى الحظيرة.

(91) IM، 106، 107. رغم الشكوك التي يعبر عنها عبد الرشيد في مقدمته (27) فإن إشارة ابن مهرو إلى حرص السلطان على إنقاذه تؤكد أن هاتين الرسالتين تعودان إلى عهد محمد بدلاً من عهد فيروز شاه. يقول أيضاً إنه، لدى تعيينه، تلقى أمراً يقضي بتوفير الجيوش والسفن، مما يضع تاريخ الرسالتين في موعد قريب من زمن قيام محمد بعبور نهر الإندوس قُبَيْل وفاته: TFS، 523. إن تاريخ التاسع من شوال، تاريخ إرسال ابن مهرو إلى مُلْتان، يجب بالتالي أن يعود إلى عام 751 هـ (10 كانون أول 1350م). ومع ذلك فإن عفيف يستنتج أن فيروز شاه عين مهرو حاكماً للإقليم.

(92) IB, III، 344، 349 (تر. جيب، 721 ـ 722، 724).

واقفين على أرض أصلب، حين نرى السخط الموجه نحو عملاء محمد من الهنود الوثنيين واحداً من الأسباب الرئيسية الكامنة وراء النفور والكُرْه. ففي حوالي 1341م، كان ثمة تمرد في سيويستان، حيث قام الحاكم السومرائي المحلي أونار (ونار عند ابن بطوطة) مع ضابط عسكري يدعى قيصري رومي بذبح بيروقراطي هندوسي يدعى «راتان»، كان السلطان قد عينه مُقْطَعاً للإقليم. سارع أونار إلى التخلي عن أصحابه، وتم القضاء على قيصر وأتباعه، دون صعوبة، من قبل والي مُلْتان عماد الملك سرتيز[93]. وبالمثل، كما سنرى، فإن بهيران، المقطع الوثني لغولبارغا، كان الضحية الأولى لثورة علي شاه في الدكّان[94]. ومع ذلك، فإن محمداً ظل حتى أواسط أربعينيات القرن الرابع عشر متمتعاً، على ما يبدو، بتأييد الطبقة العسكرية ككل. يصر برني على اعتبار نصرت خان تاجر حبوب (**بقالاً**)، ومن منطلق الاحتقار، يقارن ابن مهرو وأنصاره الذين كانوا «كتبة وتجار حبوب» (**ناويسان ـ دغان ـ وبقّالان**)، بالسلطان والجند المخضرمين، الذين طالما خدموه وخدموا أباه تُغْلُق، والذين لا يمكن لأحد تصوّر إقدامهم على هَجْره والتخلي عنه[95]. ليس المعنى المضمر، إلاّ أن محمداً كان سلطاناً جديراً بأن يكون سيداً لرجال الجيش.

اتخذ محمد عدداً من الخطوات المختلفة خلال السنوات الأولى من أربعينيات القرن الرابع عشر، كانت دون شك، هادفة إلى حشد التأييد لنظامه. وعلى الرغم من أن برني يوحي بأن السلطان أقام علاقة مع الخلافة العباسية،

---

(93) موصوف فقط في المصدر نفسه، III، 105 ـ 108 (تر. جيب، 599 ـ 600). ينبغي لهذا الحدث أن يكون قد وقع لا قُبَيْل وصول ابن بطوطة إلى الهند، كما يوحي مكانه في السرد، بل قبل زيارة سيستان عام 742 هـ / 1341م المذكورة لاحقاً، III، 447 (تر. جيب، 766 ـ 767)، أحد أسباب جعل تمرد سيستان متأخراً هكذا هو أن سارتيز لم يتم تعيينه والياً على مُلْتان إلى ما بعد انتفاضة شاهو. أي حوالي 1337 م.

(94) TFS، 488. قارن أيضاً FS، 485 ـ 486، 487 ـ 488 (تر. 727 ـ 728، 730 ـ 731). نظامي (في HN، 565) يتوصل إلى استنتاجات مماثلة عن دور معاداة خدم السلطان الهندوس.

(95) TFS، 488، 490.

الألعوبة أو الدمية في القاهرة، خلال إقامته في سرغاردواري[96]، فإننا نعرف من المصادر المصرية، أنه كان على صلة مع الخليفة المستكفي بالله، في أوقات مبكرة تعود إلى سنة 731 هـ / 1330 ـ 1331م، وأن دلهي كانت قد أوفدت لا أقل من ثلاث بعثات[97]. سنة 741 هـ / 1340 ـ 1341م قام محمد بإحلال اسم المستكفي (الذي كان قد توفي في الحقيقة قبل سنة) محل اسمه هو، على القِطَع النقدية وخطبة الجمعة[98]. وفي هذه السنة بالذات، أقدم أيضاً، حسب ما يقوله ابن بطوطة، على إلغاء جميع الضرائب والرسوم (المكوس) غير الشرعية[99]؛ وربما تولى أيضاً، شخصياً، رئاسة محكمة **المظالم** المتخصصة بمعالجة شكاوى الرعية[100].

لم يعد مبعوث محمد، الحاج رجب بُرْقُعي، إلى دلهي مصطحباً الخلعة الشخصية للخليفة الحاكم بأمر الله، ابن المستكفي وخلفه، مع منشور يمنح السلطان لقب نائب الخليفة، حتى سنة 746 هـ / 1345 ـ 1346 م؛ وقد رافقه كبير القضاة المصري، **شيخ الشيوخ** ركن الدين الملَطي، رئيس تكية سرياقوس. وفي الوقت نفسه، سنة 744 هـ / 1343م، كان مبعوث غير رسمي من القاهرة، هو الحاج سعيد الصرصري، قد جلب لمحمد منشوراً وراية وخلعة. ومن الواضح أن الطقوس المحيطة بهذه الأمور، حيث أقدم السلطان على اعتماد موقف

---

(96) المصدر نفسه، 491 ـ 492.

(97) جاكسون، «المغول وسلطنة دلهي»، 131 ـ 132 هـ. 74.

(98) CMSD، 122 ـ 124 (رقم 491 ـ 491 هـ)، 147 ـ 148 (رقم 617 ـ 622 آ).

(99) III, IB، 288 (تر. جيب، 694)، عن إلغاء **المكوس**؛ في III، 117 (تر. جيب، 605)، يقال إن هذا تزامن مع اعتراف محمد بالخليفة، غير أنه يأتي بعد عامين من وصول ابن بطوطة إلى الهند، أي حوالي 736 هـ / 1335 ـ 1336 م. ثمة قائمة بالضرائب التي ألغيت في عهد محمد ـ **ماندوح، تاركه، مالي موجود، تشهاهار بازار، ضرائب، غودهارها وخراجي منحرفاي ـ ي مسلم** ـ في IM، 79؛ وعن تلك التي ألغاها فيروز شاه، انظر SFS، 124؛ FFS، 5 (تر. روي، 453)؛ إ. هـ. قرشي، **إدارة سلطنة دلهي**، طبعة رابعة (كراتشي، 1958)، 244 ـ 247 (ملحق: هـ).

(100) III, IB، 288 ـ 289 (تر. جيب، 694 ـ 695).

التواضع المفرط، تركت لدى برني انطباعاً بالغ القوة[101]. وبمثل هذه الحركات الدعائية، ربما، كان السلطان يأمل في استعادة دعم رجال الدين «العلماء» وغيرهم من منتسبي «الطبقة الدينية» وصولاً، ربما مرة أخرى، إلى إضفاء الصفة الشرعية على وضعه، في مواجهة الأمراء المتمردين المحتملين.

مجابهة أمراء المئات (الأميران صدا)

غير أن الوضع ما لبث، في غضون السنة أو الاثنتين التاليتين، أن تدهور مرة أخرى. كان محمد قد أصبح مقتنعاً بأن القادة المحليين في گوجرات والدكّان، أمراء المئات (**الأميران صدا**)، كانوا مسؤولين عن المشكلات المالية الحكومية، فقرر تقويض نفوذهم عبر وضع الخراج والموارد، في الإقليمين، تحت مراقبة أشد وأكثر صرامة من جانب المركز. وكان السلطان سنة 745 هـ / 1345م يعتقد، حسب ما يرى برني، بأن مبالغ كبيرة بقيت محجوزة لسنوات من قبل الموظفين في بهاروش[102]؛ ويوحي عصامي، وهو صاحب اطلاع جيد على الأوضاع في الدكّان، مما يمكنه من إيراد تفاصيل أوفى بكثير من الكُتّاب الآخرين، في روايته لقصة عصيان علي شاه كر («الأصم») في بيدار، بأن العصيان أطلقته سلسلة جديدة من تدبير رفع الرسوم والضرائب.

يوصف علي شاه، وهو ضابط خَلْجي وابن أخ لجنرال السلطان علاء

---

(101) TFS، 492 ـ 496؛ وقارن أيضاً 460. ثمة رواية أوفى وأوضح في SFS، 280 ـ 282؛ تر. في الشيخ عبد الرشيد، «تطويب فيروز شاه من قبل الخليفة»، MIQ 1 (1950م) 69. انظر أيضاً IB ,I، 363 ـ 370، وIII، 284 ـ 289 (تر. جيب، 225 ـ 228، 274)، حيث يفرق بين مكانتي الرسولين حاجّي سعيد، وحاجّي رجب. عن وصول فريق رجب إلى القاهرة عام 744 هـ، وعن ركن الدين، انظر الشجاعي، **تاريخ الناصر محمد بن قلاوون الصالح وأولاده**، تحقيق وتر. بربارة شيفر، **تاريخ الشجاعي** (بالألمانية)، II, QGIA، (فيسبادن، 1977 ـ 1985، جزءان)، I (النص)، 257 ـ 258، وII، (تر.) 290 ـ 291؛ أما تاريخ ربيع الأول 743 هـ لرحيل ركن الدين عن القاهرة كما يقول المقريزي (المتوفى 845 هـ / 1442م)، **السلوك لمعرفة الدول والملوك**، تحقيق م. م. زيادة وآخرين (القاهرة، 1934 ـ ما زال مستمراً)، II ج: 3، 887، يجب أن يكون خطأ.

(102) TFS، 513.

الدين ظَفَر شاه، بأنه أحد **أمراء المئات، أمير صدا**، لدى قُطْلُغ خان[103]، سبق له أن أدى خدمة مميزة في القتال ضد نُصرت خان، وإخضاع منطقة كُوِير. وقد ظل يخدم بإخلاص ويحول الأموال المطلوبة، إلى أن بات هندوسي يدعى بهيران، كان صاحب إقطاع غوليارغا، مطلعاً على حقيقة المبالغ المحصلة من كوير، وأقنع قُطْلُغ خان بتلزيمه جباية الخراج هناك، متعهداً بزيادته بنسبة خمسين بالمئة. جاء رد فعل علي شاه متمثلاً بالاستيلاء على بيدار وغولبارغا وقَتْل بهيران، ثم تقلُّد لقب السلطان علاء الدين المَلْكي. وبعد بعض الوقت، نجح قُطْلُغ خان، مدعوماً بتعزيزات من السلطان، في إغرائه بالاستسلام[104]. وانتفاضته، التي حدثت في منطقة كان محمد ينظر إلى ضباطها بعين الريبة، تبدو كما لو كانت تجربة (بروفة) محلية لحركات التمرد الأوسع، التي واجهها السلطان في سنواته الأخيرة.

في منعطف يعود إلى أوائل 745 هـ / في ربيع ـ صيف 1344م، قرر السلطان أن يقسم إقليم الدكّان العملاق الخاضع لإشراف قُطْلُغ خان إلى أربعة أقسام (**شقق**). كان سيتم استدعاء قُطْلُغ خان إلى العاصمة، واستبدال عماد الملك سرتيز به، الذي كان، حتى ذلك الوقت، والياً على مُلْتان، وزيراً في دولت أباد؛ وفي أثناء المرحلة الانتقالية، كان شقيق قُطْلُغ خان: عَلَم الملك نظام الملك، والي باروش، سيتولى قيادة دولت أباد. وبرأي برني، كان جميع الرجال الذين اختيروا لقيادة **الشقق** (المقاطعات الأربع) ممن ذاع صيتهم على صعيد إراقة الدماء، ويزعم، ومعه عصامي، أن أهالي

---

(103) وبالتالي في المصدر نفسه فقط، 488، حيث يعتبر ابناً لشقيقة ظفر خان (كما في TMS، 108)؛ وإن كان TFS، 508، يعتبره ابناً لأحد الإخوة.

(104) الرواية الأوفى تفصيلاً بما لا يقاس تجده في FS، 483 ـ 500 (تر. 725 ـ 747(انظر 479 (تر. 718 ـ 720) عن خدمته ضد نُصرت خان. تبقى المعلومات الواردة في TFS، 488 ـ 489، وIB ,III، 357 ـ 358 (تر. جيب، 727 ـ 728)، محدودة. يقوم برني بوضع تاريخ التمرد في أثناء إقامة محمد في سرغاوداري، في حين يضعه ابن بطوطة بعد عودته إلى دلهي.

الدكّان، الذين كانوا قد باتوا يعتبرون نظام قُطْلُغ خان، حماية وضماناً ضد المحن المعاشة في أقاليم محمد الأخرى، أصيبوا بالرعب لدى سماعهم نبأ رحيل الأمير[105].

غير أن الهدف الرئيسي للإدارة الجديدة كان متمثلاً: بأمراء المئات (**أميران صدا**). يقول برني إن أولئك الذين أرسلتهم دلهي، كانوا موجهين من السلطان بالذات باعتبار هؤلاء الضباط محرضين رئيسيين على عدم الاستقرار. قد نكون ميالين إلى استبعاد عدد من التقارير عن عمليات الابتزاز السابقة، التي مارسها سرتيز في إقليم مُلْتان، والتي بقيت معلقة دون تعويض، لبضع سنوات لاحقة، حسب ما جاء في مراسلات خَلَفه هناك، ابن مهرو[106]، غير أن إجراءات والي دهار المعين حديثاً من قبل السلطان، عزيز خمّار، وهو أحد القادة **للشقق** الأربع، وكان قد اشتهر بوصفه جابي خراج ظالم في منطقة آمروها، حيث تصادم مع القائد العسكري المحلي، لم تكن مصادفة بكل تأكيد[107]. والآن، بُعَيْد وصوله إلى دهار، سارع عزيز هذا، إلى إعدام حوالي ثمانية من أمراء المئين (**أميران صدا**) دون محاكمة أصولية. وما أن وصلت هذه الأنباء إلى نظرائهم في گوجرات والدكّان، حتى بادروا إلى الثورة[108].

---

(105) TFS، 501 ـ 502، FS، 503 (تر. 749 ـ 750)؛ وانظر أيضاً 462 (تر. 696 ـ 697)، حيث يُعزَى أمن أهالي الدكّان إلى وجود الشيخ القديس زين الدين في المقام الأول. IB ,III، 336 ـ 337 (تر. جيب، 718)، يعلق على الثقة التي نشرها قطلغ خان على ليبراليته. إن تاريخ استدعاء قطلغ خان إلى دلهي يرد على أنه الأول من شعبان 745 هـ / الثامن من كانون الأول 1344م، عند بدري تشاتش، **قصائد**، تحقيق هادي علي، 64 / طبعة حجرية تحقيق م. عثمان خان (رامبور، 1872 ـ 1873، جزءان)، II، 407.

(106) IM، 78 ـ 79، 88.

(107) IB ,III، 436 ـ 440 (تر. جيب، 762 ـ 763): يبدو أن هذا حدث في أثناء غياب محمد منشغلاً بحملته المعبرية.

(108) TFS[1]، مخطوطة بودليان، ملف 202 ب ـ 203 أ / مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 168 أ، أكثر صراحة هنا في TFS، 503 ـ 504، IB507 .، III، 364 (تر. جيب 730 ـ 731)، أيضاً يربط بين حركات التمرد في كل من گوجرات والدكّان. عن هذه الثورات، انظر عموماً، إ. براساد، **أتراك القراؤون**، 208 ـ 253؛ حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 283 ـ 297؛ HN، 540 ـ 555.

وبالمثل، فإن ابن بطوطة يأتي على ذكر وجود توجيهات، تقضي بقتل القادة العسكريين، غير أنه يجعل حركة التمرد تبدأ في گوجرات، حيث يُزعم أن ملك مقبول قد تلقى أوامر تقضي بالإجهاز عليهم. لسنا ملزمين بقبول شهادة ابن بطوطة (الذي لا يستخدم عبارة «أمراء المئين») التي تقول إن الضحايا كانوا جميعاً من الأفغان: يبدو أنه وقع في الخطأ، جراء كون قائدي الثورة التالية ـ القاضي جلال في گوجرات، وإسماعيل مُخ في الدكّان ـ كليهما ينتميان إلى ذلك القوم. من المؤكد أنه مخطئ أيضاً حين يربط أوامر محمد القاضية بذبح «الأفغان»، بحملته ضد شاهو الأفغاني في السند، تلك الحملة التي كانت قد تمت قبل حصول هذه التطورات، بما لا يقل عن ثماني سنوات[109].

ما لبثت الممارسات الوحشية الفظيعة التي اقترفها عزيز خمار، أن قلبت الوضع المتفجر إلى عصيان مكشوف. ففي حين كان محمد، حتى ذلك الوقت، في مواجهة تمرد نبلاء أفراد وحواشيهم، بات الآن أمام حركة عصيان واسعة الانتشار، شاملة طبقة الضباط في اثنتين من الأقاليم الكبرى. فحين وصلت الأنباء إلى **الأميران صدا** «أمراء المئين» في دابوي وبارودا، بادر هؤلاء إلى مهاجمة ملك مقبول، **نائب الوزير** في گوجرات، وإلحاق الهزيمة به، وسطوا على قافلة كنوز كان يرافقها، للحراسة، في طريقها إلى دلهي. جرى تسليمهم كانبهايا، كما تمكنوا من احتلال آساوول[110]. أما عزيز خمّار، الذي

(109) FS، 504 (تر. 750)، عن الأوامر الملكية. IB، III، 362، 364 ـ 366 (تر. جيب، 729، 730 ـ 731). TFS، 514، يبدو في إحدى النقاط مؤيداً للمعادلة، عن طريق الحديث عن عصاة دولت آباد بوصفهم. هؤلاء الأفغان؛ غير أن مخطوطة BL، ملف 254، تقول **إن أفغان لا أفغانان**، مستخدمة المفرد الدال على القائد إسماعيل موخ. SFS، 20، يطلق على الضباط المتمردين في گوجرات اسم «جيش الزعماء» (**ساراني غوروه**) ببساطة. عن ضباط أفغان آخرين في حركتي التمرد في گوجرات والدكّان، انظر صدّيقي، «الأفغان وبروزهم»، 255 ـ 256.

(110) FS، 503 ـ 506 (تر. 750 ـ 753) يقدم الرواية الأكمل؛ وانظر أيضاً TFS، TMS507 . 111، يورد ملاحظة وجيزة (حوالى سنة 748 هـ خطأ). IB لا يأتي على ذكر نهب القافلة.

تحرك ضدهم من دهار والتحق به مقبول، فقد هُزم ووقع أسيراً بأيدي المتمردين، الذين ما لبثوا أن أعدموه. وبعد عودتهم إلى كانبهايا، استقر رأي القاضي جلال وأتباعه على محاصرة المدينة[111]. أما محمد، الذي كان عاكفاً على الاستعداد لقيادة جيش ضد المتمردين، منذ اطلاعه على نبأ الإغارة على مقبول، في النصف الثاني من رمضان 745 هـ / أواخر كانون الثاني / يناير 1345م، فقد توقف في بهاروش، حيث فرض تدبير ظالمة لتحصيل متأخرات الخراج والجزية، عُنْوة، آمراً ملك مقبول، **نائب الوزير** في الإمبراطورية، الذي كان قد طارد العدو حتى ضفاف النارمادا، أن يقتل «أمراء المئات»، **الأميران صدا** الذين هم تحت إمرته في بهاروش. بدا كما لو أن العمود الفقري لثورة گوجرات، قد تعرض للتحطيم. وبقدر كبير من الصعوبة، تمكن القاضي جلال ومعاونوه، من النجاة من خطر قيام الراجا الهندوسي لباغلانا وسالهر ومولهر، ناناديڤا («مان ديو») بتسليمهم إلى السلطان، وفروا إلى دولت أباد، حيث كان أمراء المئات (**الأميران صدا**) قد بادروا، بالمثل، إلى حمل السلاح ضد السلطان[112].

كانت سياسات محمد قد أثارت أزمة كبرى في الدكّان. بات معروفاً أن اثنين من عملاء السلطان الرئيسيين، كانا على الطريق إلى دولت أباد، لإجراء تحقيقات حول مدى ولاء الإقليم؛ وبادر السلطان، إضافة إلى ذلك، إلى إرسال أميرين آخرين إلى عَلَم الملك نظام الدين، مزودين بأوامر تقضي بجلب أمراء المئين (**الأميران صدا**) الأكثر أهمية في المنطقة، إلى بهاروش، تحت الحراسة. صحيح أن ضحايا عملية التطهير المطلوبين انطلقوا من دولت أباد،

---

(111) FS، 506 ـ 510 (تر. 753 ـ 759). TFS، 509 يتحدث عن تلقي السلطان لنبأ هزيمة عزيز وموته. IB، III، 364 (تر. جيب، 730)، بالغ الإيجاز.

(112) FS، 512 ـ 514، 522 (تر. 760 ـ 764، 773 ـ 774). TFS، 511 ـ 513، يقول إن ملك مقبول هزم المتمردين بالقرب من مانْهُوي وبارودا؛ وحده برني يصف سلوك محمد في بهاروش. عن هوية «مان ديو»، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 299.

ولكنهم ما لبثوا أن عادوا حين أدركوا نوايا محمد. تم اعتقال عَلَم الملك، وإعدام العميلين الملكيين. بات الإقليم تحت سيطرة أمراء المئين؛ تم إعلان إسماعيل موخ، أحد أشقاء الأفغاني الملك مال، الذي كان قائداً في عهد تُغْلُق، سلطاناً باسم ناصر الدين[113].

مع تلقيه لهذه الأنباء، تقدم محمد بخطوات حثيثة نحو الدكّان، وألحق هزيمة كبرى بالمتمردين. اتخذ من القصر الملكي في دولت أباد، مقراً له، وقامت قواته بفرض الحصار على قلعة دهارغير، التي كان إسماعيل موخ وكبار أتباعه قد لاذوا بها[114]. وفيما كان السلطان مشغولاً بتنظيم أمور المنطقة وتسويتها، وصلته تقارير عن اندلاع انتفاضة جديدة في گوجرات، بقيادة مملوك تركي يدعى تغاي. كان تغاي هذا، وهو حامل راية، **شحنه ـ ي برغاه**، لدى محمد، قد أبعده السلطان إلى اليمن، عقاباً له على ارتكاب أمرٍ معين، غير أنه كان قد أُسر في أثناء القتال بمعركة كانبهايا، فيما كان ينتظر عملية الترحيل بحراً. ولأنه لعب دوراً حاسماً في الدفاع عن المدينة ضد القاضي جلال، كان قد جرى تقريبه من جديد. غير أنه، في غياب السلطان، ما لبث أن تشاجر مع تتار ملك، نائب محمد في آساوول، وانتقل إلى صف **أمراء المئين (الأميران صدا)** في گوجرات، تمكن المتمردون من دخول نهروالا، حيث ذبحوا الوالي، واستباحوا كانبهايا، وفرضوا الحصار على بهاروش. وحين زحف محمدٌ على بهاروش، لاذ تغاي بالفرار إلى كانبهايا، حيث هزم قوة، كان السلطان قد أرسلها لتعقبه، وقتل قائدها يوسف بوغرا، قبل أن يلوذ بالفرار، ثانية، لدى مسارعة محمد إلى اللحاق به[115].

---

(113) TFS، 512، 513 ـ 514. ثمة رواية أوفى في FS، 516 ـ 521 (تر. 766 ـ 773). IB، III، 365 ـ 366 (تر. جيب، 731)، موجز نسبياً ويعتبر قائد العصاة ابن ملك مول خطأ.

(114) FS، 530 ـ 536 (تر. 791). TFS، 514 ـ III, IB515.، 368 ـ 369 (تر. جيب 732 ـ 733): تلك هي معلوماته الأخيرة عن حركة التمرد.

(115) ثمة معلومات قيمة عن أسباب انتفاضة تغاي في SFS، 19 ـ 21، 23 ـ 24 (تر. باسو، JBORS=

فيما كان مشغولاً بتلقي فروض الطاعة والخضوع من الرانات والزعماء المحليين المختلفين، في غيرنار (جوناغاده؛ كاتياواد الحديثة)، استُدعي محمد إلى الدكّان، إثر الأنباء التي تحدثت عن أن أميره عماد الملك سرتيز، الذي كان قد انتدبه لإخضاع غولبارغا غداة الانتصار على إسماعيل موخ، كان قد هُزم وقُتل، من قبل مجموعة أخرى من **أمراء المئين**، تحت قيادة حسن غانغو الملقب بظفر خان، الذي كان أحد معاوني إسماعيل. كانت القوات التي تركها السلطان في دهاراغير، قد تراجعت إلى دهار، وكان حسن غانغو قد دخل دولت أباد، دخولاً مظفراً. تخلى إسماعيل موخ عن اللقب الملكي لصالح منقذه: وبالتالي فقد أصبح حسن غانغو، الذي اعتلى العرش يوم الرابع والعشرين من ربيع الثاني سنة 748 هـ / الثالث من آب / أغسطس 1347م، باسم علاء الدين بهمان شاه، السلطان الأول من العائلة البهمانية المستقلة، التي حكمت في الدكّان حتى القرن السادس عشر. وحسب كلام برني، فإن محمداً استدعى عدداً غير قليل من القادة من دلهي، وخطَّطَ لإرسالهم من أجل استرجاع الدكّان، ولكنه ما لبث أن أقلع عن الفكرة، حين سمع التقارير التي تحدثت عن احتشاد أعداد كبيرة تحت راية حسن غانغو. كانت الحكمة تقضي، على ما يبدو، بالتعامل، أولاً، مع تغاي، وإرجاء تحويل الاهتمام بالجنوب، إلى وقت لاحق[116].

قضى محمد المواسم الثلاثة التالية وهو يطارد تغاي عبثاً، متنقلاً جيئة وذهاباً بين نهروالا وكاياتواد، قبل الإقدام على محاولة فاشلة لاقتحام ثاتّا، التي كان المتمرد قد احتمى بأمرائها السومرا. وقد كان السلطان عاكفاً على الإعداد

= 23 [1937]، 97 ـ 102). TFS، 515 ـ 516، 517 ـ 520، يروي القصة. FS، 538 ـ 539 (تر. 793 ـ 794)، موجز.

(116) TFS، 520 ـ 521، 522، ولكن مقدماً ملاحظة قصيرة عن أحداث الدكن؛ انظر أيضاً 515 عن إرسال سارتيز باتجاه غولبارغاه FS، 540 ـ 554 (تر. 811 ـ 828)، يقدم وصفاً وافياً لعمليات حسن غانغو، مع تاريخ إمساكه بزمام السلطة.

لهجوم ثان على ثاتّا، حين أصيب بمرض أودى بحياته، على ضفاف الإندوس في الحادي والعشرين من محرم 752 هـ / العشرين من آذار / مارس 1351م[117]. ولا يجوز الاستخفاف بإنجازاته خلال السنوات الأخيرة. فقد تمكن، عبر التركيز على الإطاحة بتغاي، وهي مهمة لم تنجز، في الحقيقة، أيام حياته، من توطيد إخضاع گوجرات ـ بما فيها مناطق، لا تبدو أنها كانت تعترف بأسلافه ـ على الأقل، ومن ضمان بقاء الإقليم جزءاً من السلطنة على امتداد جيلين آخرين. إلاّ أن أي مشروع كبير كان بعيداً عن متناول الموارد الناضبة التي كانت تحت تصرفه. ثمة حوار مزعوم بين السلطان وبرني شكا فيه محمد، من أن حركة عصيان جديدة كانت تندلع في إحدى الجهات، كلما توجه نحو جهة ثانية لإخماد حركة عصيان أخرى، يوحي بمدى سخط الرجل وغَضَبه[118]. لقد كان استياء **أمراء المئين**، الذي كان محمد نفسه قد فعل الشيء الكثير لزيادته ومفاقمته، بالغ الحدة وواسع الانتشار، إلى درجة يتعذر معها التغلب عليه، نظراً لمشكلات السلطان ولتدهور أحوال المؤسسة العسكرية المبهرة التي كان قد اضطلع برئاستها في السنوات الأولى من عهده.

(117) باتت حركاته موضحة الآن على أساس المواد المتوافرة في TFS، من قبل ديغبي، «سنوات محمد بن تُغلُق الأخيرة في كاثيافاد وغزواته لثاتّا» في خوهرو (محرراً)، **السند عبر القرون**، 130 ـ 138.

(118) TFS، FS521 .، 538 (تر. 794)، يضع يده بالمثل على المأزق الذي يواجه محمداً في دولت آباد حين يسمع بثورة تغاي للمرة الأولى.

الفصل الرابع عشر

السلاطين ورعاياهم الهندوس

كان سلاطين دلهي، أولاً وقبل كل شيء، حكاماً مسلمين. ففخري، مدبّر يعتبر إلتُتْمش «سلطان الإسلام» (**بادشاهي إسلام**)[1]. أما الجوزجاني، فيرى ناصر الدين محمود شاه على أنه «سلطان» (أو «سلطان سلاطين») «الإسلام»، أو هو «إمبراطور شعوب الأمة الإسلامية»[2]. كان من الممكن تحية العاهل أيضاً، باعتباره «سلطان الترك والعجم («الأعاجم»)[3] ـ أي حاكم أمراء الحرب والجنود والوافدين، الذين كانوا يؤلفون الكتلة السكانية الإسلامية المهاجرة، بعبارة أخرى. ففي أعين كَتَبَة تاريخ السلطنة، كان المسلمون يشكلون ما بات يطلق عليه، في أزمان لاحقة، اسم **أبناء الحكومة** Staatvolk. لم يكن العاهل، بالتأكيد، سلطاناً للهندوس، أو لأهالي هاريانا، مثلاً؛ وقد لوحظ في مصادرنا الإسلامية، أن الهندوس «بحد ذاتهم ليسوا جديرين بالاهتمام، ولا يصبحون جديرين بمثل هذا الاهتمام، إلاّ كمهتدين إلى الدين

---

(1) AH، 15.

(2) TN، ا، 273، واا، 91، 166، 185 وهـ. 3؛ قارن أيضاً اا، 91، **باديشاهي أهلي أيمان**، 205، **باديشاهي مسلمانان**.

(3) Taj، ملف 217 ب. TN، ا، 297 (تر. 231)؛ قارن أيضاً ا، 275، 366 (تر. 183 ـ 388). شعيب، «منقوشات من بالوال»، 2، 3؛ يزداني، «منقوشات عن السلاطين الأتراك»، 15؛ RCEA، X، 72 ـ 73 (رقم: 3703).

الإسلامي، أو كدافعين لضريبة الرأس أو قتلى»[4]. دأب جميع السلاطين، باستثناء وحيد، على إعلان الروح، التي كانوا ينطلقون منها في مقاربة رسالتهم عبر اعتماد لقب (**كنية**) **أبو المظفر** («والد المنتصر») على مسكوكاتهم النقدية ومنقوشاتهم؛ أما الاستثناء، محمد بن تُغْلُق، فقد أطلق على نفسه لقب **المجاهد في سبيل الله**. وبالنسبة إلى الكثير من المراقبين المسلمين، كان التسويغ الأقصى لأي حاكم في العالم الإسلامي، متمثلاً بحماية العقيدة، وتوطيد تقدُّمها. وقد انطوى هذا بالنسبة إلى السلاطين، مثلهم مثل أسلافهم الغزنويين والغوريين، على قمع المسلمين غير المتزمتين، وكان فيروزشاه، يعلق بعض الأهمية، على حقيقة أنه دأب على محاربة **أهل الإلحاد والابتداع**[5]. وانطوى أيضاً على نهب الإمارات الهندوسية المستقلة، وإرغامها على دفع الجزية. إن الفكرة القائلة بأن الحاكم المسلم مكلَّفٌ أيضاً بواجب استئصال الكُفْر وإذلال رعاياه الهندوس عبَّر عنها برني، بتكرار وإصرار استثنائيين، في كل من كتابيه **تاريخي فيروز ـ شاهي وفتاوى جهان داري**، مرايا الأمراء (نصائح الملوك)، الذي ألفه بعد بضع سنوات[6]. إن المدى الذي تم بلوغه على صعيد تطبيق هذه السياسات، بصورة فعلية داخل السلطنة، هو الموضوع الذي نلتفت إليه الآن.

الهندوس في خدمة الإسلام

ليس مفاجئاً وجود هندوسيين عاكفين على أداء وظائفهم الاعتيادية المألوفة في خدمة حكامهم المسلمين، ولفائدة هؤلاء الحكام ومصلحتهم.

---

(4) هاردي، **مؤرخون**...، 114.

(5) FFS، 6 ـ 8 (تر. روي، 454 ـ 456). SFS، 129 وما بعدها. انظر أيضاً KF، 20، وTFS، 336، عن معاملة علاء الدين **لأصحاب الإباحات**. **القرامطة** ـ ربما الإسماعيليين ـ الذين كانوا قد حاولوا القيام بانقلاب في دلهي في عهد رضية: TN، ا، 461 ـ 462 (تر. 646 ـ 647؛ FS، 122 (تر. 236 ـ 237)، يبدو معيداً الأمر إلى حقبة إلتُتمش.

(6) انظر خصوصاً FJ، 165.

فطبقة النبلاء التركية ـ الفارسية، راكمت في سلطنة القرن الثالث عشر ديوناً هائلة اقترضتها من الصرافين والسماسرة الهندوس، من «الملتانيين» **والساهات**، الذين كانوا ما يزالون يُعتَبرون من أغنى وأهم رعايا السلطان، في أعقاب إصلاحات علاء الدين خَلْجي الاقتصادية[7]. يقال إن زعيماً هندوسياً يدعى سادهارانا، عمل أميناً للصندوق أو وزيراً للمالية عند علاء الدين[8]. وعلى درجات أدنى من السلّم الاجتماعي اعتمد السلاطين، في مشروعاتهم الإنشائية الطموح، على جيش من العمال الهندوس (سبعون ألفاً في خدمة علاء الدين إذا صدقنا برني)[9]، الذين كانوا عادة من العبيد، دون شك. غير أن هذه المشروعات كانت، أيضاً، تعتمد على خبرة ومهراة أعداد أقل من معلمي الحرف من أمثال «موخاميهتا، ابن كيتاميهتا الهندي» الذي قام، عبر نقش حَفَرَه سنة 740 هـ / 1340م في جدار الجامع ببارودا، بتخليد ذكراه[10]، والبنّائين الذين جُندوا لإصلاح القطب مِنار[11]. يبدو أن أمثال هؤلاء الحرفيين المهرة، كانوا يكافؤون بالإعفاءات، كما حصل مع النجار الهندوسي الذي منحه والي السلطان في بيجابور سنة 1320م، مزرعةً معفاةً من الرسوم مع أشياء أخرى، مقابل خدماته في إنشاء الجامع الكبير[12]. وكذلك، فإن الحاجة كانت تدعو إلى الاستفادة من طبقة الكتبة الهندوس لملء شواغر الأجهزة الإدارية، ولو تحت إشراف وزراء

(7) TFS، 120، 284. عن أهل مُلتان، انظر أيضاً المصدر نفسه، 311، 385؛ وعن **الساها** ديوغير، IB، IV، 49 (تر. جيب وبكينغهام، 794 ـ 795).

(8) باندیت رام كارنا، «منقوشة لاندو عن ساندهارانا من فكراماسامغات 1373»، EI 12 (1913م ـ 1914)، 19 (البيت 13).

(9) TFS، 341.

(10) ARIE (1963 ـ 1964)، 125 (رقم: 85)؛ عن الجزء السنسكريتي من هذه الكتابة المنقوشة انظر ARIE (1961 ـ 1962م)، 143 (رقم: 1311).

(11) ب. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، 21 ـ 22، 32 ـ 35 (رقم: ا: 9 وا: 14).

(12) ناظم، **منقوشات بيجابور**، 25.

ومدراء مسلمين: ثمة موظف هندوسي في خدمة قطب الدين خَلْجي، كتب دراسة حول عمل دار الضرب في سنة 1318م[13]، وهناك آخر، يدعى غوجارشاه، كان مسؤولاً عن مراقبة استحداث قطع نقدية جديدة، هو **الشاشغاني**، في ظل فيروز شاه التُغْلُقي[14]. وكان السلاطين، أخيراً، يعتمدون على أفراد من الطبقات الهندوسية الوضيعة، لإعدام المتمردين المسلمين والهندوس على حد سواء[15].

لم يكن الوضع مختلفاً في الميدان العسكري حيث احتفظ السلاطين، شأنهم شأن أسلافهم الغزنويين، بوحدات هندوسية كما بأخرى تركية، في قوام قواتهم المسلحة. فحرس المشاة المماليك والبايك في حاشية السلطان، ربما أصبح متمتعاً بذلك النوع من المكانة المرموقة والممتازة، التي كانت تخص الغلمان الأتراك، خلال جزء كبير من القرن الثالث عشر. وفيما قبل الحقبة الخَلْجية، تبقى الدلائل تخطيطية وغامضة: لا نعرف، مثلاً، سوى حقيقة أن فريقاً مؤلفاً من ألف بايك كان في خدمة بلبان، قبل اعتلائه العرش[16]. ومعروف أن علاء الدين خَلْجي قام بتجنيد حوالي ألفي بايك في قارا لحملته على ديوغير سنة 695 هـ / 1296م[17]، ومن المفترض أنهم بقوا في خدمته حين أصبح سلطاناً في وقت لاحق من السنة نفسها. وفي مواجهة مؤامرة دبرها ابن أخيه، إكت خان، لقتله والاستيلاء على العرش، تم الدفاع عن علاء الدين من قبل هندي اسمه ناناك (جرت ترقيته لاحقاً إلى مرتبة ملك مع آخرين من

---

(13) ف. س. آغاروالا، «بحث فريد حول القطع النقدية الهندية الوسيطة» في هـ. ك. شيرواني (محرراً)، **إحياء لذكرى الدكتوم غلام يزداني** (حيد آباد، AP، 1966م)، 187 ـ 101. ج. هـ. خير، «درافيا ـ باريكشا من تاكورا فيرو ـ دراسة»، JNSI 28 (1966م)، 25 ـ 37.

(14) عفيف، 344 ـ 349.

(15) مثل TN، II، 82 (تر. 855)؛ IB، III، 298، 339 ـ 340 (تر. جيب، 700، 719 ـ 720).

(16) TFS، 55.

(17) المصدر نفسه، 222.

البايك العاملين عند السلطان[18]. وحين بادر وزيره ملك كافور، وهو نفسه مملوك هندوسي اهتدى إلى الإسلام، بعد وفاته، إلى استبعاد أبناء السلطان الراشدين، محاولاً أن يحكم من خلال أحد الأمراء الأطفال، فإن بايك علاء الدين كان من القدامى الذين تمكنوا مرة أخرى سنة 715 هـ / 1316م من قتل كافور وتأمين العرش لقطب الدين؛ على الرغم من أنهم راحوا، نتيجة لذلك، حسب زعم برني، يتصرفون بطريقة لا تُطاق وتعيّن وضع حد لهم[19]. غير أن قطب الدين نفسه، ربما احتفظ، حاذياً حذو أبيه، بفرقة من البايك[20]. حتى المسلم المتزمت فيروزشاه، الذي كانت أمه ابنة زعيم بهاتي من البنجاب، درج على عادة استخدام أفراد من أقارب أمه: وفي إحدى المناسبات، حين تعرضت حياته للخطر جراء مؤامرة مدبرة، كان برفقة خاله راي بهيرو الذي أسعفه بسيفه[21]. لا نعرف أن هؤلاء الخدم الهنود قد اعتنقوا الدين الإسلامي، إلاّ في حالات قليلة ـ كما فعل خسرو خان مثلاً، في تناقض حاد مع أتباعه البرواري.

يجري ربط رعاية الهندوس، بصورة خاصة، بعهد محمد بن تُغْلُق. فمصادر جاين، تكثر من تكرار تفضيل السلطان علماء جاين الأكاديميين[22]. ومن الضباط ذوي الأنساب الوضيعة الذين أوردهم برني ممن عينهم محمد في مناصب إدارية، كان البعض هندوساً. وثمة احتمال قوي، بأن تكون أوضاع برهمانيي العاصمة، على الأقل، كممثلين للسكان الهندوس، قد تعرضت لشيء من التنظيم والضبط، بعد موت محمد، لأن هناك من يقول بأن البراهمانيين كانوا بين أولئك الذين سمح لهم بتقديم فروض الولاء والطاعة

(18) المصدر نفسه، 273.

(19) المصدر نفسه، 376 ـ 377.

(20) المصدر نفسه، 392.

(21) عفيف، 103 ـ 104.

(22) حسين، **الأسرة الثغلقية الحاكمة**، الفصل الحادي عشر، مع هوامش كاملة.

للسلطان الجديد، لدى دخول فيروزشاه إلى دلهي[23]؛ وهذا الأمر لا يرد ذكره في أي حفل تنصيب سابق.

لا نملك إلاّ أدلة ضئيلة على طبيعة مواقف رعايا السلطنة الهندوس من حكامهم المسلمين. تبقى أهمية المنقوشات التي تمجد المآثر الظافرة (والوهمية أحياناً) لملوك الساكا مطروحة للنقاش[24]. ثمة نادرة رواها ابن بطوطة، قد تنطوي على قَدْر أكبر من الأهمية. يتحدث عن زعيم هندوسي أقام دعوى على محمد بن تُغْلُق نفسه، متهماً إياه بقتل أخيه، دونما سبب، ودعاه إلى المثول أمام القاضي. امتثل السلطان لما هو مطلوب أصولاً، وجاء راجلاً وبدون سلاح، بعد أن حَظَّر على القاضي محاباته بسبب موقعه، وظل واقفاً حتى أصدر القاضي الحكمَ ضده، وأمره بتقديم التعويض إلى المدعي[25]. صحيح أن هذه حادثة منفردة، وهدف الحكاية هو تسليط الضوء على تواضع الملك والتزامه بالعدل؛ غير أنها تأتي متناغمةً مع الصورة العامة لمحمد كحاكم دأب، في النصف الأول من عهده، على شمل الهندوس برعايته. وإذا كانت تجسد واقعاً فعلياً، فإنها تبين أن هندوسياً ذا مرتبة معينة، كان يعترف بسلطة القاضي المسلم[26].

في وقت مبكر يعود إلى عهد إلْتُتْمش، نجد السلاطين مبادرين، بسرعة، إلى تبني ممارسات كانت هندية مميزة، مثل امتطاء ظهور الفيلة في المناسبات الاحتفالية، واستشارة الفلكيين (المنجمين)، واستبيان ما تقوله النجوم قبل الأحداث الهامة، مثل حفلات الجلوس على العرش وما شابهها. لا يمكن بالطبع أخذ مثل هذه الاقتباسات الثقافية من جانب الحكام المسلمين، على أنها

---

(23) TFS، 546. عفيف، 88.

(24) منقوشة بالام باولي من 1276م، في ب. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، 3 ـ 15 (رقم: ا، 4).

(25) IB، III، 285 (تر. جيب، 692 ـ 693).

(26) هاردي، «نمو نفوذ...»، 194.

دليل توافق مع المشركين؛ فهي لا تمثل إلاّ نوعاً من التكيف مع الأوضاع الهندية (تماماً مثلما يقوم اثنان من طلائع المهاجرين هما فخري مدبر والجوزجاني باستخدام اسم الشهر الهندوسي آهار)[27]. غير أن من شأن نزوع الحكام المسلمين، ولو بقدر محدد، إلى تسيير حياتهم العامة بمصطلحات هندية، أن يكون قد سهّل قبول الزعماء الهندوس بهم[28].

مشكلة «الذِمَّة» والجزية

عموماً، إذن، يبدو أن هندوسيين من فئات مختلفة، أثبتوا استحالة الاستغناء عنهم، على صعيد ممارسة الحكم الإسلامي، كما من حيث الحفاظ على المؤسسات الإسلامية. غير أن السؤال هو التالي: ماذا كان وضعهم تحت الحكم الإسلامي؟ حسب الشريعة، كان لا بد من التعامل مع «**أهل الكتاب**» ـ أولئك الذين يمتلكون كتباً مقدسة اعتبرت تعبيراً منقوصاً عن الحقيقة المتضمنة في القرآن ـ بوصفهم «أناساً محميين» (**أهل ذمة** أو **ذميين**)بعد الاستسلام والقبول بالحكم الإسلامي[29]. كانت عبارة «أهل الكتاب» تنطبق أساساً على الموحِّدين المسيحيين واليهود، غير أن الإتيان على ذكر فريق ثالث، غامضٌ بعض الشيء، في القرآن، الصابئة، مكّن السلطات الإسلامية من توسيع دائرة الذميين، لتصبح شاملةً للمجوس (الزرادشتيين) في إيران. كان من حق الذميين ممارسة عقائدهم الخاصة، ولكن دون السماح لهم بالتبشير والوعظ، أو بناء أماكن جديدة للعبادة. وقد كانوا أيضاً خاضعين **للجزية**، التي هي ضريبة رأس، بدلاً من الخدمة العسكرية التي يؤديها المسلمون الذكور البالغون. أضف إلى ذلك، أن

---

(27) خرائط الأبراج وإلخ: TN، I، 449 (تر. 623)؛ TFS، 142، 456؛ FS، 393 ـ 394 (تر. 598 ـ 599)؛ TMS، 79، آهار: SA، 31 (ترد الكلمة في النص على شكل «ها خطأ)؛ TN، II، 21 (تر. 748).

(28) هاردي «نمو نفوذ...»، 201، و«نفوذ الملوك المسلمين»، 49.

(29) عما يلي، انظر سي ل. كاهن، «الذمة» Enc. Isl²؛ بيرنارد لويس، **يهود الإسلام** (برنستون، 1984م)، الفصل الأول (عن **الجزية**، انظر 14 ـ 16 خصوصاً).

حكاماً معينين أقدموا، في أوقات مختلفة وأجزاء متباينة من العالم الإسلامي، على استحداث وابتداع قوانين تمييزية، تنظم ملابس الذميين، وتمنعهم من ركوب الخيل أو حمل الأسلحة، أو إلخ. . . اختلف الفقهاء المسلمون، فيما بينهم، بشأن الحقوق التي يمكن للذميين أن يتمتعوا بها: فالمذهب الحنفي، الذي كان سائداً في السلطنة، هو المذهب الوحيد الذي يجعل مقدار دية الذمي مساوياً لدية نظيره المسلم[30].

قد تبدو مسألة ما إذا كان من الممكن تصنيف المشركين (متعددي الآلهة) الذين واجهوا الفاتحين المسلمين في شبه القارة الهندية «أهل كتاب» أم لا، مسألة تجريدية غير ذات معنى، من النظرة الأولى. غير أن كتاب **فتوح البلدان** للبلاذري، وهو أحد المراجع الرئيسية عن فتح المسلمين للسند، أوائل القرن الثامن الميلادي، يخبرنا أن القائد العربي محمد بن القاسم تعامل مع هياكل الأصنام (**البُد**) تعامله مع الكنائس المسيحية والكُنُس اليهودية ومعابد النار الزرادشتية (المجوسية)[31]. جرى توسيع معنى كلمة ذمي، لتصبح قادرة على احتضان الأمراء الهندوس وأقوامهم ممن أذعنوا ووافقوا على دفع الجزية، حتى أننا نقرأ عن قبول وضع أهل **الذمة** من قبل أهالي دفاراسامودرا سنة 711 هـ / 1311 ـ 1312م، وحاكم تيلانغ في 718 هـ / 1318م، وراي نغاركوت حوالي 766 هـ / 1364 ـ 1365م[32]. إن قائمة أولئك المستعدين للاعتراف بذمية رعايا السلطنة الهندوس، تشمل، ليس فقط، كلاً من حسن نظامي والجوزجاني وعفيف وابن مهرو وعبد الحميد غزنوي

(30) إ. تيان، «الدية» Enc. Isl²، III، 341. للاطلاع على إعادة إعلان جملة القيود المفروضة على أهل الذمة بموجب «ميثاق عمر»، انظر سيد علي حمداني (متوفى 786 هـ / 1385م)، **ذاكرة الملوك**، تحقيق سيد محمود أنوري (تبريز، 1979)، 285 ـ 287؛ في دي باري، 489 ـ 490.

(31) البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق دي غويه، 439 / تحرير المنجد، 538.

(32) دفاراسامودرا: KF، 132، 135، 136. تيلانغ: nS، 116، 129. ناغاركوت: SFS، 82. قارن أيضاً DR، 46.

والمؤلف مجهول الاسم لكتاب **السيرة**، بل وكلاً من برني، الذي لم يكن، كما سنرى، ذا موقف ودي حتى تجاه الكفار الخاضعين المطيعين، والسلطان التُغْلُقي المعروف بمبالغته في التشدد، فيروز شاه، في كتابه **فتوحات**، الذي صيغ أساساً كنقش وبالتالي، للاستهلاك العام[33]. بل وثمة نص فقهي - قانوني يعود إلى عهد فيروزشاه، يتضمن عدداً من الإشارات إلى الذميين، التي يعني بها الهندوس بوضوح[34].

يبدو أن اعتبار المشركين الهنود الذين خضعوا للحكم الإسلامي «ذميين» أو «أهل ذمة» بات، بالتالي، مسلَّماً به بين كمٍّ، عريض نسبياً، من فئة المتعلمين المسلمين في شبه القارة (الهندية). غير أن الطابع الدقيق للقيود الواجب فرضها على الكافر، كان أمراً أكثر صعوبة. ففي أوائل القرن الثالث عشر، قام فخري مدبر، بإهداء إلتُتْمش كتابه **آداب الحرب والشجاعة** أو **آداب الملوك**، وهو كراس في فن السياسة للملوك، متركز على الشؤون العسكرية في المقام الأول. يستعرض مؤلف الكراس، في الفصل السادس والعشرين، مبادئ الحكومات الإسلامية وممارساتها، فيما يخص رعاياها من غير المسلمين، ويورد قائمة القيود التي يجب أن يعيش هؤلاء في ظلها: يجب أن تبقى زينتهم (**زين**) وملبسهم (جاما) وركوبهم (نيشاست) مختلفة عن نظيراتها عند المسلمين. ويورد أيضاً فئات الناس التي يتعين عليها أن تدفع الجزية، والتي تشتمل على اليهود والمسيحيين والصابئة والزرادشتيين (**المجوس**) و«الوثني» (**بُتْبراستان**)[35]. من الممكن اعتبار هذا دليلاً على أن الهندوس كانوا مقبولين

---

(33) Taj، ملف 149 أ، 155 أ. TN، 11، 79. عفيف، 180، IM264 .، 63، DA102 . ملف 32 ب، 33 ب - 34 أ (تر. رشيد، 64، 65 - 66). TFS، 290، SFS586 .، 129، FFS167 .، 9، 10، 16 (تر. روي، 456، 458، 462).

(34) **فتاوى - ي فيروز - شاهي**، مخطوطة IOL الفارسية 2987 (.Ethc، رقم: 2564)، ملف 410 أ، 412 أ، 414، 416 أ، 418 ب، 419 أ.

(35) AH، 404 - 405.

بنظر الفاتحين الغوريين للهند، كدافعين للجزية (ضريبة الرأس)؛ على الرغم من أن هناك من يقول إن **آداب الحرب** ليس نصاً فقهياً، فضلاً عن أنه لا يتضمن أي إعلان صريح عن تصنيف الهندوس كذميين[36].

وانطلاقاً من الظروف السياسية السائدة في الهند، الخاضعة للحكم الإسلامي أيام فخري مدبر، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: كيف ومتى ومِمَّن، كانت تُحصَّل الجزية؟ قد نتوقع بعض العون في تناول المسألة من الروايات التي وصلتنا عن قصة الفتح الإسلامي للسند، في القرن الثامن الميلادي، والتي كان من شأنها أن تشكل سابقة بالنسبة لفاتحي القرن الثالث عشر. من المؤسف حقاً أن فتح السند جاء قبل بروز التمييز الواضح والصريح بين الجزية والخراج. وبالتالي، فإن أقدم التواريخ لا تقدم لنا أي عون حقيقي. **ففتوح البلدان** للبلاذري لا يقول، في سياق قصة سردية كاملة غير ذات علاقة، إلاَّ أن محمداً بن القاسم فرض الخراج ـ إما ضريبة الأرض أو الجزية الخالصة ـ على مدينة آلور المهزومة[37]. ثم لا نعود نصادف، إلاَّ بعد انقضاء قرن كامل، في زمن خلافة المعتصم (218 ـ 227 هـ / 833 ـ 842م)، والي السند المسلم وهو يحصل الجزية، من الجات هذه المرة[38]. صحيح أن مصدراً لاحقاً هو **التشاتش نامه**، الذي يزعم أنه ترجمة فارسية، تمت في السند سنة 613 هـ / 1216 ـ 1217م ولتاريخ عربي عن الفتح الإسلامي للمنطقة، يبين أن الجزية كانت تجبى من البداية الأولى، ويُزعَم، هنا، أن محمداً بن القاسم قد وافق على اعتبار أهالي براهمان آباد ذميين، وإخضاعهم لضريبة متدرجة (تصاعدية) وفقاً لتقاليد (سنَن) النبي[39]، غير أن جدارة **التشاتش ـ نامه** بالثقة تبقى،

---

(36) هاردي، «غونفوذ...»، 205 ـ 206.

(37) البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق دي غويه، 439 / تحرير المنجد، 538.

(38) المصدر نفسه، تحقيق دي غويه، 445 ـ 446 / تحرير المنجد، 544.

(39) CN، 158 ـ 159. انظر أيضاً ن. آ. بلوخ، «بدايات تقدم الإسلام وتعززه في أراضي باكستان»، HI 3 (1980م)، 66.

باعتراف الجميع، مفتوحة للنقاش. ومع ذلك، فإن هذا العمل الذي رفضه س. هـ. هوديڤالا سنة 1939م بوصفه «مناقضاً للتاريخ في كل ذرة منه، مثله مثل القصائد السانسكريتية الزلقة، وكلام شعراء الراجبوت الشعبيين الزاخر بالتزلف»[40]، ما لبث أن استعاد اعتباره في وقت لاحق، وبات يُعتقد بأنه يتضمن مادة مأخوذة من موروث تاريخي عربي مفقود، لعله تاريخ المدائني العائد إلى القرن التاسع، حسب أقوى الاحتمالات. غير أن البيانات المحددة لضريبة الرأس (الجزية) مثقَلَة، دون شك، بالمفارقات التاريخية؛ وقد رأى الدكتور بيترهاردي أن مثل هذه الشهادة في **التشاتش نامه**، كانت مصممة لتسويغ ما كان قد أصبح سلوكاً سائداً ومألوفاً، مع حلول القرن الثالث عشر. إذا كان ذلك صحيحاً، فإنه يعني، في الحد الأدنى، أن الجزية كانت تُجبى من السند، عشية إيجاد سلطنة دلهي بالذات[41].

من المؤشرات الدالة على المشكلات المحيطة بالجزية، أن أحد مصادرنا الأكثر أهمية، أعني به **طبقات** الجوزجاني، يهمل حتى الإتيان على ذكرها. صحيح أن العبارة تطفو على السطح بصورة متقطعة في المصادر، التي تتحدث عن القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر من حياة السلطنة، غير أنه من الواضح أنها تحمل جملة من المعاني المتباينة[42]. أحياناً يكون الاستخدام غريباً، كما حين يتم الزعم بأن الجزية أُخذت من قائد مسلم متمرد في سلطنة الدكّان المنفصلة، أو طولب (**درويش**) صوفي مسلم بها[43]. لقد ساهمت عبارة

---

(40) هوديڤالا، **دراسات**، ١، 83 ـ 84.

(41) انظر هاردي «هل **التشاتش ـ نامه** قابلة لفهم المؤرخ كنظرية سياسية؟»، في خوهرو (محرراً)، **السند عبر القرون**، 116 ـ 117؛ المصدر نفسه، «الجزية، iii، الهند» Enc. Isl²، أيضاً بوهانان فريدمان، «أصول **التشاتش ـ نامه** وأهميتها»، في فريدمان (محرراً)، **الإسلام في آسيا**، ١، 23 ـ 37؛ وينك، **الهند**، ١، 192 ـ 196.

(42) عما يلي، انظر خصوصاً هاردي «الجزية»؛ ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 67.

(43) FS، 602 (تر. 888). أمير حسن دهلوي، **فوائد الفؤاد**، 233.

خراج وجزية في إحداث الالتباس، حيث يستخدمها أمير خسرو بمعنى عام، للدلالة على الرسم القابل للدفع، مثلاً، من قبل مشاة (أفراد، بايكات) العدو، وهو المعنى الذي يذهب إليه برني أيضاً، بوضوح، في كتابه **تاريخي فيروز ـ شاه**[44]. وحسب ما جاء في **فتاوى جهان داري**، فإن الرايات الهندوس يجبون الجزية والخراج من أهلهم هم[45]. وفي أي من هذه الأمثلة، لا نستطيع تمييز قسمات ضريبة الرأس (الجزية) الإسلامية.

يقوم فخري مدبر بتحديد نوعين من الجزية، أولهما ضريبة (غازيد) المتفق عليها بوصفها مقابل وَقْف الأعمال العدائية، والثاني هو المبلغ الذي يقوم أي حاكم مسلم بجبايته عن الثروة والممتلكات ـ البيوت والأراضي والحاجات القابلة للنقل (خانات ـ وضياع ـ وعقار) ـ العائدة للكفار الأفراد، وهو متدرج. أمّا المعدلات السنوية الواردة في **آداب الحرب**، فهي نفسها المحددة بدقة في **التشاتش نامه**، أي ثمانية وأربعون **درهماً** فضياً بالنسبة إلى الأكثر ثراء، وأربعة وعشرون درهماً عن متوسطي الحال، واثنا عشر عن الأكثر فقراً[46]. والغزنوي الذي نجده حاذياً هنا، بوضوح، حذو فخري مدبر، ويعطي الأرقام نفسها، يساوي بين الصنف الأول من الجزية والـ «**خراجي مقاسمة**» (أي ضريبة الأرض بالذات). يكتب هو أيضاً عن نوعين من الضرائب؛ نوع يتم أخذه حين يكون جيش مسلم قد تمركز في بلد للكفار، نوع يضعه في خانة الغنائم (**غنيمة**) من جهة، ونوع يكون مقدماً قبل الغزو الإسلامي، ويطلق عليه اسم **الجزية** من جهة ثانية. وفي مكان آخر، نجده مستعداً لتصنيف، حتى الأموال النقدية والهدايا التي يرسلها أمراء الكُفْر بين الحين والآخر، في خانة الجزية[47]. من الواضح أن

---

(44) RI، ا، 33، وIV، TFS140 .، 291، TMS574 .، 147. هذا هو ما ضلل لال.

(45) FJ، 166.

(46) AH، CN404 .، 158.

(47) DA، ملف 35 أ ـ 36 ب (تر. رشيد، 67 ـ 68).

ما فُرض، مثلاً، على ملك آرانغال: رودراديڤا في أثناء حملة ملك كافور سنة 710 هـ / 1310 ـ 1311م، ومرة أخرى، حين قام خسروخان بغزو ممتلكاته في 718 هـ / 1318م، هو جزية بالمعنى الضريبي ـ أي جزء من ريع الأرض، يقدمه راي هندوسي[48].

ثمة مؤرخون افترضوا، أن الجزية كانت تُجبى من السكان الهندوس على امتداد حقبة سلطنة دلهي[49]. غير أن هذا يبدو غير محتمل. فأحد الاعتبارات ذات العلاقة، يقول إن الجزية كانت ضريبة تعوض عن الخدمة العسكرية، وإن الهندوس ـ خلافاً لحال اليهود والمسيحيين (أقله خلال هذه الفترة) في الكيانات السياسية الإسلامية الأخرى ـ درجوا، كما رأينا، على القتال في صف الجيوش الإسلامية؛ وقد كان من شأن هذا أن يشكل تسويغاً لتعليق هذه الضريبة ووقفها في الهند المسلمة[50]. ومما ينطوي على قَدْر أكبر من الأهمية، أنه قيل إن التجهيزات اللازمة لعمليات جباية وتحصيل، تطال أعداداً هائلة من المكلفين، ونظراً للجهاز الإداري غير المتطور نسبياً، ولو لدولة إسلامية قروسطية، شكلت عقبة يتعذر التغلب عليها[51]. ومن مثل هذا المنطلق، فقد بدا استنتاج عدم وجود الجزية كضريبة متميزة، بل اعتبارها مندمجة بالخراج أو ضريبة الأرض،

---

(48) KF: 1311، 111. NS: 1318، 84، 121. عن ضريبة **الجزية**، انظر أيضاً QS، 35، 63؛ NS، 84، 121؛ FS، 275، 402 (تر. 450، 608 ـ 609)؛ قارن أيضاً 35 ـ 37 (تر. 84 ـ 85)، عن استخدام مماثل قبل الحقبة الغزنوية، و596 (تر. 879)، حيث نكون عاكفين بوضوح على تناول دفع خراج عامين من جهة والوعد بضريبة (**ساو ـ باج**) مستقبلية من جهة ثانية. كذلك، IB، IV، 231 (تر. جيب وبكينغهام، 877)، يتحدث عن دفع **الجزية** إلى الحاكم المسلم في صوماطره من قبل جيرانه الكفار.

(49) لال، **تاريخ الخلجيين**، 184 ـ 185. يو. ن. داي، **النظام الإداري لسلطنة دلهي** (1206 ـ 1413م) (الله آباد، 1959م)، 106؛ يكون داي هذا في كتابه **حكومة السلطنة** (نيودلهي، 1972م، طبعة ثانية 1993)، 91 ـ 92، أكثر بعداً عن التشدد، وإن لم يضمر أن الضريبة فُرضت في مرحلة متأخرة. ظفر الإسلام، «موقف فيروزشاه من غير المسلمين، إعادة تقويم»، IC 64 (1990م)، ج: 4، 66، يرى أن الجزية فُرضت في حقبة فيروزشاه كـ «رسم جرى إحياؤه».

(50) عزيز أحمد، **دراسات في الثقافة الإسلامية**، 80 ـ 81: الإطار هو عهد الإمبراطور المغولي أكبر.

(51) هاردي «الجزية» و«نفوذ الملوك المسلمين»، 48.

أمراً طبيعياً[52]. وبالفعل، فإن الغزنوي تصوَّرَ إمكانية توحيد الضريبتين في ضريبة واحدة؛ على الرغم من إصراره على ضرورة التحديد الواضح لنسبة كل منهما[53].

قد نستطيع التمييز بين الهندوس في المناطق الريفية، ونظرائهم المقيمين في المدن والقلاع الخاضعة للمسلمين. ففي حالة الفئة الأولى، ربما كان يُنظر إلى الجزية بوصفها جزءاً من ضريبة الأرض أو الرسم الذي يسدده الزعماء[54]؛ وكان من شأن هذا، أن يضفي شيئاً من المعنى على العبارة المحيِّرة الواردة من قبل، مقتبسة من **فتاوى** برني، والتي تقول بأن الملوك الهندوس (أي أولئك التابعين للسلطان المسلم) كانوا يحصِّلون خراجاً وجزية من رعاياهم بالذات. ومن ناحية ثانية، يقوم برني بنسبة كلام إلى جلال الدين خَلْجي، يشير فيه إلى المبالغ التافهة التي يقبلها **صدقةً** من هندوس العاصمة. وكلمة **صَدَقَة** تعني عادة الزكاة، التي يدفعها المسلمون، بالطبع، وليس استخدامها هنا، إلاَّ نوعاً من السخرية، للإيحاء بأن السلطان المسلم هو صاحب اليد السفلى التي تستجدي صَدَقَةَ الكُفّار. قد تكون الاستحقاقات المشار إليها هي الجزية[55]. من المفهوم أن الحَضَريين الهندوس ـ الحرفيين وأعضاء النقابات المهنية وأصحاب المحلات التجارية وإلخ. . . ـ الذين كانوا على اتصال مباشر بالسلطات المالية الإسلامية، كانوا ملزمين بأن يدفعوا من منطلق فردي، أي ضريبة رأس حقيقية. ليس صدفة، بالتأكيد، أن يتحدث فخري مدبّر، في الفقرة المقتبسة من قبل، عن فرض الجزية الشرعية في سياق استسلام المدينة[56]. وفيما أعلم، فإن هذا الحل للمشكلة لم يتم طرحه من قبل، غير أنني أسوقه لما يحمله من قيمة (وإن

---

(52) نظامي، **بعض جوانب الدين والسياسة**، 314 ـ 315. انظر أيضاً قرشي، **إدارة السلطنة**، 119.

(53) DA، ملف 34 أ (تر. رشيد، 66).

(54) هذا الاقتراح طرحه حبيب الله، **أساس**، 250.

(55) TFS، 217. قارن الملاحظة في FJ، 167، حيث يقال إن الكُفَّار يدفعون «بضعة **تانغات كجزية**».

(56) AH، 404.

لم تكن كبيرة في غياب الدعم النصي القوي). غير أننا، مهما كانت الحقيقة، لا نجد أنفسنا إزاء دليل لا لبس فيه عن الجزية بوصفها ضريبة تمييزية مفروضة على الأفراد من غير المسلمين، وللمرة الأولى، إلاّ في عهد فيروزشاه (752 ـ 790 هـ / 1351 ـ 1388م).

يؤكد الكاتب المجهول لسيرة حياة فيروزشاه، حِرْصَ ذلك السلطان على عدم فرض ما هو أكثر من المكوس الشرعية، بما فيها «جزية الهندوس» (**جزيا ـ ي هنود**)[57]. وبرأي عفيف، كان فيروزشاه هذا، أول عاهل يفرض الجزية على البراهمانيين، الذين كانوا مستثنين من قبل (ليس مؤكداً ما إذا كان هذا يعني أن الجزية كانت تُجْبى بالفعل من الجماعات الهندوسية الأخرى، قبل عهد فيروزشاه، أم أن السلطان نفسه كان قد استثنى البراهمانيين في مناسبة سابقة، لدى فرض الضريبة على المجتمع الهندوسي). قام البراهمانيون بإثارة فضيحة كبرى، واجتمعوا خارج القصر مهددين بإحراق أنفسهم حتى الموت. غير أن السلطان نصحهم قائلاً، بأنه من الأفضل لهم أن يفعلوا (أي أن ينفذوا تهديدهم)، لأن تلك كانت الطريقة الوحيدة التي من شأنها أن تجنبهم الدفع ـ في رد فروسي، بعض الشيء، لم يترك أي مجال للتفاؤل. غير أن أزمة مؤكدة أمكن تحاشيها حين تقدم أعيان سكان العاصمة الهندوس، بعرض تسديد الضريبة نيابة عن البراهمانيين. وقد كان فيروزشاه، بدوره، أكثر استعداداً للمصالحة، فجعل ضريبة البراهمانيين عند الحدود الدنيا من اللائحة، رغم استخدام **تانغا** ذات قيمة مختلفة[58]. ففي سيرته الذاتية، يأتي فيروزشاه على ذكر الجزية بين جملة المصادر الشرعية للموارد المسموحة بالنسبة إلى الحاكم المسلم، ويتحدث عن قيام الهندوس بتسديد الضريبة مقابل حماية ممتلكاتهم، ويزعم أنه كسب أعداداً كبيرة يتعذر إحصاؤها من الهندوس، إلى صف العقيدة

---

(57) SFS، 125.

(58) عفيف، 382 ـ 384. عن مغزى هذا المقطع، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 336 ـ 337.

الصحيحة عن طريق إصدار مرسوم يتضمن وعداً بتحريرهم من الجزية، إذا ما اهتدوا (اعتنقوا الإسلام)[59].

يبدو أن عفيفاً يحدد أن المعدلات التي يوردها (تلك المتراوحة بين عشرين وأربعين **تانغا**) كانت مطبقة في دلهي. غير أن هناك أدلة أيضاً، من إقليم واحد على الأقل، تشير إلى فرض الجزية في عهد فيروزشاه. يتم التلميح إلى الضريبة مرتين، في مراسلات والي السند عين الملك بن مهرو، الذي هو أحد ضباط السلطان. في المرة الأولى، يردُّ عين الملك على احتجاجات قوبلت بها زيادة في الجزية المحصَّلة من أصحاب المحلات التجارية الهندوس[60]. وفيما بعد، يشير إلى حقيقة أن السلطان كان قد خصص لأحد ضباط الجيش، كمعاش له، الجزيةَ المدفوعة من قبل فلاحي منطقة معينة. تقوم العبارات المستخدمة بتسليط الضوء على: آ ـ أن الضريبة كانت مرتبطة بحماية الذميّ، وب ـ أن **مالك** الأرض (وهم قضاة تانيسار في هذه الحالة) لم يكن صاحب حق في التصرف بها[61]، مما يلغي احتمال أن نكون بصدد ضريبة أرض عادية. فمحصلة الأدلة تشير، إذن، إلى أن الجزية كانت، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، إن لم يكن من قبل، تجبى كضريبة تمييزية من غير المسلمين[62]؛ على الرغم من صعوبة رؤية إمكانية تطبيق مثل هذا التدبير، حتى في ذلك الوقت، خارج المراكز الرئيسية للسلطة الإسلامية.

التساهل مع ممارسة الشعائر الدينية الهندوسية

ليس ثمة في المصادر إلاّ القليل من المعلومات، عن موقف السلاطين

---

(59) FFS، 6، 9، 16 ـ 17 (تر. روي، 453، 456، 462).

(60) IM، 48.

(61) المصدر نفسه، 62 ـ 63.

(62) انظر أيضاً ذاكر حسين، «بعض الوثائق النُغلُقية الأصيلة ومغزاها»، PIHC 50 (**غوراخبور 1989**) (دلهي، 1990م)، 222.

من ممارسة الشعائر الدينية الهندوسية عموماً؛ ومعظم ما يتوافر من أدلة، يأتي من عهد محمد بن تُغْلُق، الذي لا يمكن اعتباره نموذجياً. لقد كان محمد هذا، معروفاً بعادته السيئة المتمثلة باهتمامه بالممارسات الهندوسية. فعصامي، المعروف بأنه لم يكن صديقاً للسلطان، يتهمه بحضور الاحتفال الديني الهندوسي هولي، فضلاً عن التردد (وهو ما يؤكده ابن بطوطة) على حلقات اليوغا[63]. يلاحظ ابن بطوطة أن إجراء طقس **الساتي** («سوتّي»)، إحراق الأرملة فوق محرقة جنازة زوجها، كان يتطلب إذناً من السلطان[64].

وفيما عدا ذلك، ينصب اهتمام المواد المحدودة التي هي بحوزتنا على إنشاء المعابد الهندوسية أو ترميمها. مر معنا أن الهندوس كان محظراً عليهم، بموجب القانون الإسلامي الصارم، أن يقيموا معابد جديدة للأصنام، أو يرمموا تلك التي تعرضت للخراب والتدمير. غير أن غضَّ النظر عن مثل هذا الحظر في عهد علاء الدين خَلْجي، واضح من أعمال جانبية تكيل المديح لآلب خان، إلى علاء الدين في گوجرات، لأنه سمح بإعادة بناء معابد جرى تدميرها في أثناء الفتح الإسلامي[65]. وثمة شهادة أوفى يوفّرها نقش يعود إلى 1326م من إقليم الدكّان. ففي أثناء حركة بهاء الدين غارشاسب التمردية، جرى استدعاء والي كالياني، أحمد جاجنري؛ وفي الانتفاضات اللاحقة، تم تدمير معبد هندوسي في كالياني، وتعرض **الشيفالِنْغا** للتحطيم. جاء الأعيان المحليون الهندوس، برئاسة الشخص المسؤول عن إدارة المعبد لمقابلة الوالي لدى عودته، والتماس الإذن منه لترميم المعبد واستئناف عبادة الرب (الصنم). تشاور أحمد جاجنري مع أمين سره، الذي لم يكن اسمه اسماً إسلامياً بالتأكيد، ومنح الإذن، مضيفاً أن من الضروري تمكين الملتمسين من ممارسة العبادة،

(63) FS، 515 (تر. 765). IB، IV، 36، 38 ـ 39 (تر. جيب وبكينغهام، 788، 789 ـ 790).

(64) المصدر نفسه، III، 137 (تر. جيب، 614).

(65) ميسرا، **صعود النفوذ الإسلامي**، 68 ـ 69.

نظراً لأن عبادة الرب واجب. جرى إيراد هذه الشهادة كدليل على وجود درجة مدهشة من التسامح[66]. غير أنها تأتي، بالطبع، مثلها مثل المادة المنسوبة إلى آلب خان، من منطقة لم تصبح خاضعة للحكم الإسلامي إلاّ مؤخراً، منطقة كان نفوذ السلطان فيها، بالضرورة، بالغ الهشاشة. إنها لا تقول لنا شيئاً عما كان يمكن حصوله، لو نشأ وضع مشابه في منطقة مركزية مثل هاريانا.

عندنا في الحقيقة، أدلة أخرى، على التساهل الذي كان متاحاً للسلطات الدينية الهندوسية المحلية، في تلك الأيام. فابن بطوطة يحدثنا عن بعثة من «ملك الصين» (أي إمبراطور يوان المغولي) إلى محمد بن تُغْلُق، جاءت تلتمس الإذن لإعادة بناء معبد في منطقة سامبهال، زُعم أنه خُرِّب ونُهِب من قِبَل أحد الجيوش الإسلامية. قيل للمندوبين، رداً على الطلب، إن الإذن بترميم مثل هذه المعابد في البلاد الإسلاميّة لا يمكن منحه، إلاّ لأولئك الذين يدفعون الجزية (لا لكفرة يقيمون في دار الحرب، بعبارة أخرى)[67]. صحيح أن صحة قصة هذه السفارة قابلة للنقاش، ومفهوم، على أية حال، أن يكون ابن بطوطة، كأجنبي، قد أخطأ في فهم الأمور. غير أن الاحتمال الوارد، هو أن شهادته المتعلقة بإعادة بناء معابد الأصنام، جديرة بالثقة. ففيروزشاه يدعي حقاً أن معابد **جديدة** كانت قد شيدت، قبل اعتلائه العرش، في دلهي ومحيطها ـ في تناقض صارخ، بالطبع، مع الشريعة[68]. غير أن ما يدعو للأسف، أن ما نجا من ذلك، لا يشكل إلاّ نَزْراً يسيراً من الأدلة المباشرة. ثمة نقش يبين أن معبداً جديداً أُقيم في ريفاسا، بمنطقة نغوار، سنة 1326م[69]؛ وهناك نتفة من نقش

---

(66) پ. ب. ديساي، «منقوشة كاليانا عن السلطان محمد»، 165 ـ 170. انظر HN، 503؛ أيضاً و. هـ. صدّيقي، «التسامح الديني كما يُستَشَف من منقوشات وسيطة»، في PSMI، 54، حيث يقع خطأ اعتبار الوالي هو أحمدي آياز، وزير السلطان المقبل.

(67) IB، IV، 1 ـ 2 (تر. حبيب وبكينغهام، 773).

(68) FFS، 9 ـ 10 (تر. روي، 456 ـ 458).

(69) تقرير عن عمل ASI (الدائرة الغربية (1909 ـ 1910)، 52، وارد في ولش وكريم «التغالقة: **صناعاً للأسياد**»، 160 هـ. 11.

ثنائي اللغة، بالسانسكريتية والفارسية، يُرجَّح، بقوة، أنه يعود إلى فترة السلطنة، وإنْ لم يكن تاريخه مؤكداً، يتحدث عن شراء اثني عشر **بيغاً** من الأرض بالقرب من قلعة كوهنا في دلهي بالذات، وعن إقامة معبد شري كريشنابهاغوان[70].

ليس خارج إطار الممكن، أن تكون مثل هذه المؤسسات قد حصلت على أوقاف (تبرعات) من جانب السلطات الإسلامية. يقال إن آلب خان تبرع، بسخاء، لأعمال إصلاح معابد الجاين في گوجرات[71]؛ غير أن الأعداد الكبيرة من الوثائق المؤكدة للتبرع بالأرض وبالإعفاءات الضريبية، من قِبَل ملوك مسلمين، لصالح البراهمانيين والجاينيين وجماعات اليوغا والمجوس، كما لصالح معابد شيڤا وڤيشنو تميل، فيما عدا قصة آلب خان، أن تكون صادرة عن الأباطرة المغول، ومعاصريهم في الدول التي جاءت بعد سلطنة دلهي. وعلى الرغم من أن هذه تمنح موارد جديدة، فإن البعض ليس إلاّ تجديداً أو تمديداً لهبات قدمها حكام مسلمون من حقبة سابقة[72]. ثمة علامات تبرعات بأرض معفاة من الرسوم (**مدد ـ ي معاش**) قُدمت إلى براهمانيين، خلال فترة سلاطين لودي، على الأقل، وقد تكون هناك هبات منحها أسلافهم أيضاً. يرى البروفسور صديقي، هذا، استجابة من قِبَل السلاطين للحاجة إلى إدخال «الريف مع زعمائه المتنفذين في دائرة التحكم الفعال»[73].

على العموم، كانت سياسات فيروز شاه أثقل وطأة على السكان الهندوس من الرعية، بالمقارنة مع سياسات أسلافه. يروي عفيف قصة قيام السلطان

---

(70) ASIR (1909 ـ 1910م)، 131.

(71) ميسرا، **صعود النفوذ الإسلامي**، 69.

(72) أرنست، **جنة أبدية**، 48 ـ 49.

(73) إ. هـ. صدّيقي «هبات الوجهي معاش في ظل الملوك الأفغان (1451 ـ 1555م)»، MIM 2 (1972م)، 21، 36. عن الحقبة المغولية، انظر ب. ن. غوسوامي وج. س. غريوال (محررين)، **المغول والجوغي في جاخبار** (سيملا، 1967م): البيانات عن السلطات المحلية في فترة ما قبل المغول واردة في المصدر نفسه، 20.

بإحراق براهماني عند بوابات القصر[74]. وفيروزشاه نفسه يزعم، في معرض وصفه للمعابد التي كانت قد أقيمت في ظل سابقيه، أنه باشر بهدمها واستبدال المساجد بها، فضلاً عن أنه قام، في إحدى المرات، بإعادة إسكان إحدى البلدات (القصبات) بمستوطنين مسلمين[75]. لا بد من تأكيد نقطتين هنا. كانت هذه مباني جديدة أولاً: لم يكن ثمة أي احتمال لتدمير معابد وأديرة أو مزارات كانت موجودة قبل الفتح الإسلامي، وعاش أصحابها بسلام في ظل الحكم الإسلامي. وقد جرت هذه الأحداث كلها، ثانياً، في الدائرة القريبة المحيطة بدلهي. من غير المحتمل أن تكون إرادة السلطان قد اتسعت لتشمل تطبيق مثل هذه السياسة على نطاق أوسع. وهذا واضح من سلوكه، حين أنقذ تمثال جاوالاموخي في نغركوت، في خطوة جاءت، في الحقيقة، متطابقة تماماً مع السياسة التي اعتمدها حكام مسلمون سابقون. غير أنه من الصعب التوفيق بين مثل هذا السلوك من جهة، وبين صورته المعروفة كمحطم أصنام، من جهة ثانية، وقد أدى إلى ظهور شائعات نشرها «كُفّار معينون» ـ وكان عفيف شديد الحرص على دحضها ـ قالت إن السلطان كان قد عبَّر عن آيات احترامه للصنم، وأسدل مظلة (تشاتر، خيمة) فوق رأسه[76]. ومع ذلك، مهما كانت التوصيفات التي تساق على صعيد المدى الذي وصلت إليه، فإن من غير الممكن إنكار حقيقة أن عهد فيروزشاه شهد ردة رجعية (نوعاً من رد الفعل) ضد الأنظمة السابقة. ربما زادت أحوال الهندوس سوءاً في أقاليم معينة بعد موته: ثمة معبد في كيتلاي، بإقليم غورغاؤون، جرى هدمه في 795 هـ / 1392م لاستبدال مسجد به[77].

---

(74) عفيف، 379 ـ 381.

(75) FFS، 9 ـ 10 (تر. روي، 456 ـ 458).

(76) عفيف، 186 ـ 187. عدم المساس بالصنم مذكور باختصار في SFS، 83.

(77) ARIE (1963 ـ 1964م)، 146 (رقم: د 286).

العلاقات الهندوسية ـ الإسلامية: تقويم

تزخر المصادر الأخبارية لدى سردها لقصص المجابهات العسكرية مع الهندوس، بتلميحات غير متملقة، وإن كانت معهودة وتقليدية: لعل أحد أكثر هذه التلميحات تكراراً، هو وصف العدو بصاحب «الوجه الغرابي» [نسبة إلى الغراب (زاغ ـ تشهيراً)][78]. غير أن لهجة أكثر اتصافاً بالحياد، كانت تُسمع أحياناً. فقد تمنى الجوزجاني أن تشفع ميزات ملك البنغال، لاكشاماناسينا، الذي كان قد اشتهر بالعدل والكرم، له على صعيد التخفيف من عذاباته في الجحيم[79]. يقول المؤلف نفسه، إن إقدام مُقْطَع لخناوتي، طُغرُل خان يوزبك على التنكر لسيادة السلطان ناصر الدين محمود (حوالي سنة 652 هـ / 1254م) قوبل بالاستنكار والشجب من جانب الهندوس والمسلمين على حد سواء، في السلطنة[80]. وقد اعتُبر أمير خسرو استثناء، حين قام في كتابه **نوح سفر** (سِفْر نوح) بلفت الأنظار إلى علاقة القربى بين معتقدات هندوسية دينية معينة ونظائرها في الإسلام[81]. ومما كتبه خسرو، بمناسبة السقوط المأساوي لمحمد بن بلبان في أرض المعركة في أثناء القتال ضد المغول، أن «الهندوس فقدوا سوادَه والأتراك بياضَه». قد يكون هذا كلاماً مشحوناً بالشعر؛ غير أن المغزى هو أن خسرو، مثله مثل الجوزجاني، كان يؤمن بأن من الممكن أخذ وجهة نظر الهندوسي مأخذ الجد. ويبدو أن الهندوسي كان جديراً بمكانة لا بأس بها في التدبير السماوي، لدى مقارنته بالوثنيين الآخرين. فالمغول الذين كانوا يعتبرون نموذجاً للأسوأ من الأعمال، وُصفوا بعبارات تحقيرية أقسى

---

(78) آن ماري شيمل: «تركي وهندوسي: صورة شعرية مطبقة على الحقيقة التاريخية»، في سبيروس فريونيس، الابن (محرراً)، **الإسلام والتغيير الثقافي في العصور الوسطى** (فيسبادن، 1975م)، 107 ـ 126: انظر خصوصاً 109 ـ 116.

(79) TN، ا، 425 (تر. 555 ـ 556).

(80) المصدر نفسه، اا، 32 (تر. 764).

(81) يوهانان فريدمان، «آراء إسلامية وسيطة حول أديان الهند»، JAOS 95 (1975م)، 216 ـ 217.

بكثير من تلك التي استُخدمت في وصف الهندوس في الكتابات الهندية ـ الإسلامية. استمد خسرو بعض العزاء من تدخل العناية الإلهية وقيامها بتوظيف علاء الدين غير المؤمن، ناناك، لإلحاق الهزيمة بالمغول غير المؤمنين[82]. أما النصوص القانونية العائدة إلى القرن الرابع عشر، فتكشف النقاب عن نوع من القلق بشأن العلاقات بين المسلمين العاديين والسكان الهندوس. نجد كتاب **فتاوى ـ ي فيروز شاهي**، خصوصاً، مصراً على إصدار الأحكام بشأن السلوك القويم في التعامل الاجتماعي مع الهندوس، ومعاملة الابن المسلم للأبوين الهندوسيين، والحقوق المتكافئة للدائنين الهندوس والمسلمين وإلخ[83]...

قد يبرز هذا كله متناقضاً بشكل صارخ مع اللهجة التي اعتمدها برني. فإحدى الأطروحات التي تتكرر مرة بعد أخرى، في كتابات برني، هي الأطروحة التي تقول بأنه من الواجب، وجوباً مطلقاً، عدم إتاحة الفرصة للملاحدة بأن يعيشوا في راحة وبحبوحة. وفي مقدمة سيرته النبوية **نعت ـ ي محمدي**، يورد جَدَلاً يزعم أنه جرى في بلاط إلتُتْمش قبل قرن وربع القرن. حين بادر «العلماء» (رجال الدين) إلى الإعلان عن عدم امتلاك الهندوس للتمتع بحق المعاملة مثل «أهل الكتاب»، وعن ضرورة إجبارهم على الاختيار بين الموت والإسلام فقط، يقال إن وزير السلطان، جنيدي، وافق على رأيهم. غير أنه يتابع فيقول إن سلوكاً كهذا، كان من شأنه أن يبدو شديد الحماقة والغباء، نظراً لأن المسلمين كانوا لا يزالون قليلي العدد، ولا بد من إرجاء وضعه موضع التطبيق، حتى يصبحوا في وضعية أقوى. وعندئذ أصر «العلماء» على ضرورة امتناع السلطان، على الأقل، عن معاملة الهندوس

---

(82) WH، مخطوطة IOL الفارسية 412، ملف 135 أ. KF، DR38 .، 61. المقارنة مع معاملة المغول يقوم بها هاردي، «نموالنفوذ...»، 193.

(83) ظفر الإسلام، «**فتاوى ـ ي فيروز شاهي** كمصدر»، 105 ـ 107.

باحترام وحفاوة، أو السماح بعبادة الأوثان في العاصمة. ولكن هذا الإخفاق في ذبح الهندوس كان، بزعم برني، السبب الكامن وراء تجذُّر الشِّرك وعبادة الأوثان[84]. يتردد صدى هذا الرأي في حوار افتراضي آخر، يعود إلى الحقبة ذاتها، ونجده في كتاب **تاريخ** لبرني نفسه. ينصح السيد نور الدين غزنوي إلتُتْمش قائلاً، إن ما يؤكد أن حاكماً معيناً يحرص على حماية العقيدة القويمة، هو أنه ما إن يلمح هندوسياً حتى يتورَّد وجهه ويمتلئ رغبة في دفنه حياً. وإذا كان المشركون كثيري العدد، بحيث قد لا يستطيع الحاكم المسلم أن يبيدهم، فإن عليه عندئذ أن يحرص على السعي، على الأقل، إلى إذلالهم وإغراقهم في بحر من المهانة والخزي والعار[85]. ويتكرر الموضوع نفسه في خطاب يُعْزىٰ، إلى أحد مستشاري علاء الدين خَلْجي، هو القاضي مغيث الدين البهاياناوي. وجواباً على أحد أسئلة السلطان عن وضع الهندوس في الشريعة فيما يخص فرض الضرائب، يؤكد القاضي أن على الهندوسي، حين يطالب جابي الضرائب بالفضة، أن يبادر، بلطف واحتشام وتبجيل، إلى تسليمه الذهب؛ وإذا أقدم جابي الضرائب على قذف القذارة في فمه، فإن من واجبه أن يفتح فمه لتلقُّفِها[86].

من الشائع مواجهة مثل هذه الآراء في الكتابات الجدالية الموجهة ضد المشركين، في أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي، في أزمان متباينة[87]. غير أن هناك أفكاراً أخرى، تخص برني بالذات. فبالنسبة إلى هذا الأخير، يبقى أحد واجبات الملوك المسلمين الرئيسية متمثلاً بغسل وتطهير الطبيعة الخاطئة والشريرة المتأصلة للملكية، عن طريق اجتثاث الوثنية والشرك وعبادة الأصنام

---

(84) برني، **نعتي محمد**، مخطوطة RRL 1295، ملف 195 ب ـ 196 أ؛ تر. في س. نور الحسن، «شفاء ـ ي نعتي محمدي لضياء الدين برني»، MIQ 1 (1950)، 101 ـ 103 (النص الفارسي، 104 ـ 105).

(85) TFS، 41 ـ 42.

(86) المصدر نفسه، 290.

(87) الأمثلة تجدها في لويس، **يهود الإسلام**، 32 وما بعدها.

من جذورها[88]. إن الهندوس هم أسوأ أعداء الله والرسول[89]. كان النبي، في الحقيقة، قد أمر بنهب ممتلكاتهم واستعبادهم وقتلهم[90]. يجب بشكل خاص ذبح البراهمانيين، الذين هم قادة عبادة الأصنام والمحرِّضين عليها[91]. وَحْدَه المذهب الحنفي يسمح باعتبار الهندوسي مكلفاً بدفع الجزية؛ أما مؤسسو المذاهب الأخرى، فيصرون، جميعاً، على أن الخيار الوحيد الذي يجب أن يُعرض على الهندوسي هو: إما الإسلام أو الموت[92]. يبقى كثير من هذا، غير تاريخي بصورة صارخة. ففي كتابه **فتاوي جهان داري**، الذي يتنكر مدعياً أنه وصية سياسية صادرة عن محمود الغزنوي، يطلق برني مزيداً من التصريحات التي تبقى، بالمثل، غارقة في بحر من الشك. ولو تسنى لمحمود أن يغزو الهند مرة أخرى، لما تردد في الإقدام على ذبح جميع البراهمانيين، وقطع رؤوس زعماء الهندوس المئتي أو الثلاثمئة ألف (يا له من إحصاء سكاني خادع!)[93]. يقال إن محموداً همس في أذن حاكم كاشغر القراخاني، قادر خان، معبراً له عن خشيته من التعرض يوم الحساب للمساءلة عن سبب قتله للبراهمانيين[94] ـ مع أن محموداً، الحقيقي، كان مُداناً من قِبَل المؤرخين المسلمين المعاصرين، على استخدام قوات هندوسية كافرة في محاربة أشقائه المسلمين خلال حملاته في إيران[95].

أضف إلى ذلك، أنه يبيح لنفسه التلميح المحايد العَرَضي إلى

---

(88) TFS، 41. انظر عموماً هاري «أواشيوركتا» خطاب الرابط المستقيم (الخطاب الحق)، 319.

(89) TFS، 42، 290؛ **نعتي محمدي**، ملف 195 ب ـ 196 أ، تر. نور الحسن، 102 (النص الفارسي، 104 ـ 105).

(90) TFS، 290 ـ 291.

(91) المصدر نفسه، FJ42 .، 165.

(92) المصدر نفسه، 291. قارن أيضاً FJ، 18.

(93) المصدر نفسه.

(94) المصدر نفسه، 230.

(95) بوزوورث، **الغزنويون**، 89، 110.

الهندوس[96]. يرى برني أنه من الجدير بالذكر، أن الهندوس في دلهي كانوا، خلال مجاعة سنة 1291م، يأتون في جماعات مؤلفة من عشرين أو ثلاثين شخصاً ليلقوا بأنفسهم في اليمونه[97]. ويلاحظ أن الهندوس جنباً إلى جنب مع المسلمين، كانوا يدعون لمحمد بن تُغْلُق لدى اعتلائه العرش، ويعبرون عن الفرح عند مجيء فيروز شاه سنة 752 هـ / 1351م، كما لدى عودته سالماً من حملته البنغالية الأولى، بعد بضع سنوات[98]. توحي هذه الملاحظات والتعليقات، بأن برني لم يصل إلى إصدار حكم حاسم يقول بأن القطاع غير المسلم، من المجموع الإجمالي لسكان السلطنة، هو دون مستوى ملاحظة واهتمام المؤرخ بصورة مطلقة، على الرغم من أنه لم يكن مستعداً لأن يعتبر ولو للحظة واحدة، كتابه **تاريخ فيروز ـ شاهي** تاريخاً لجميع سكان هذه السلطنة. لعل التعبير الأشد إثارة لنمط مختلف من التفكير، في مجمل الحوارات الجدلية الملَخَّصة قبل قليل، هو إعلانه عن استعداده لأن يعيش بعد الآن، حياة البراهمانيين[99]. بعبارة أخرى، لا يقوم، عند هذا المنعطف، كما يمكن للمرء أن يتوقع، بإعلان تبني حياة الصوفيين هدفاً له. من الممكن أن يكون برني، في شيخوخته، وفي مواجهة تدهور حاد في أوضاعه المادية، قد وجد شيئاً جديراً بالثناء في درجة نكران الذات، التي يبلغها بعض كبار المبشرين بالعقيدة المنافسة.

مهما يكن من أمر، لا بد من وضع شَجْب برني لحُسْن معاملة غير المسلمين، في إطاره الصحيح. لا يقف الأمر عند صياغة مؤلفاته بالاستناد إلى الذاكرة من قِبَل رجل طاعن في السن؛ كما لا يقف عند كون هذه المؤلفات

(96) ع. حبيب، «نظرية برني»، 111 ـ 113.

(97) TFS، 212.

(98) المصدر نفسه، 457، 547، 596. ع. حبيب، «نظرية برني»، 113.

(99) TFS، 200.

نتاج نديم بلاط، غدا منبوذاً بعد موت محمد بن تُغْلُق، ورجل شديد السُّخْط والمرارة إزاء عبوس الأقدار في وجهة، وغَدْر الزمان له. أضف إلى ذلك، أن برني كان يكتب بوصفه ممثلاً لأسرة سبق لها أن خدمت ضباط بلبان وعلاء الدين خَلْجي. ربما كان أجداده من ناحية الأب، ذوو أصول تركية؛ لكن لعل الاحتمال الأقوى، هو أنهم كانوا ذوي جذور فارسية. كانت أم أبيه تنتمي إلى سلالة الأسياد الشهيرة والمرموقة المعروفة باسم كيثال[100]. وبالتالي، فإن برني يتباهى بنسبه الرفيع، وليس لديه وقتٌ يضيعه من أجل ذوي الأصول الوضيعة. ومن اللافت للنظر، أن لائحته بأسماء خدم محمد بن تُغْلُق وضيعي النسب، تضم ليس فقط الهندوس، بل وأولئك الذين كانوا، كما نستشف من أسمائهم، قد اعتنقوا الإسلام. لقد أشار البروفسور عرفان حبيب، في الحقيقة، إلى أن برني، خلافاً لما فعله عصامي، لم يهاجم السلطان بسبب تقريبه للهندوس وعَطْفِه عليهم، وقد كان اعتراضه على ترقية هؤلاء ـ هندوساً ومسلمين على حد سواء ـ مستنداً، قبل كل شيء، إلى أصولهم المتواضعة[101]. إلى حدود معينة، نرى تأكيدات برني بشأن وضع الكفار، جزءاً من حكمه الأعم القائل، بأن وضيعي النسب كانوا قد استفادوا أكثر منه هو نفسه، من رعاية ولي نعمته الراحل. غير أن برني يبدو، في الحقيقة، لدى رفضه لإمكانية غرس مبادئ الإسلام الأساسية في عقول المهتدين الهنود، مشاطراً عصامي، الذي يرى «أن أي غلام هندوسي سيهرب في النهاية، ولو بلغ مرتبة **الصدر** الأعظم»[102].

قد يكون التعرف على أسباب أعم، لما عبَّر عنه الكُتّاب والحكام المسلمون من عداء تجاه المشركين، ممكناً. ربما كان المرء يخشى من ارتداد

---

(100) TFS، 350.

(101) TFS، 504 ـ 505؛ وقارن FS، 486، 515 (تر. 728، 765). ع. حبيب، «نظرية برني»، 110.

(102) FS، 552 (ترجمتي)؛ قارن أيضاً 370 (تر. 571). FJ. 105.

المسلمين العاديين عن دينهم. ثمة حالة موازية تطرح نفسها، متمثلة بمواقف المسيحية الغربية من الإسلام في العصور الوسطى. فمن الأطروحات الطاغية على الكتابات الجدالية المسيحية التي تتناول الإسلام والمسلمين، أن العقيدة المنافسة قائمة على تشجيع المستوى الدنيء من الأخلاق الجنسية، على مختلف أصعدة تعدد الأزواج، ومعاشرة الجواري واستسهال الطلاق، والأفكار الدائرة حول الجنّة من جهة، مع شحنة الممارسات المظلمة وغير الطبيعية التي كانت البرهنة على وجودها أكثر صعوبة، غير أنها مثقلة بالخبث والنجس لبقائها غامضة من الجهة الأخرى[103]. كان المؤلفون المسيحيون، الذين دأبوا على العزف على مثل هذه الأوتار، يشهدون، دون وعي، على القوة الجاذبة لدينٍ كان يُعتَبر، بنظرهم، قادراً على مخاطبة الشهوانيين والإباحيين. ونحن هنا نستطيع، كما أرى، أن نتحرى ظاهرة موازية لدى الأوساط الإسلامية في الهند. فتحت قشرة الأحداث السياسية التي تنصب عليها المصادر السردية، ثمة طبقة دنيا يشكلها التعامل اليومي بين المسلمين والهندوس.

لقد شارك الموسيقيون المسلمون والهندوس، على حد سواء، في عزف الألحان الموسيقية بمناسبة الاحتفال بزفاف الأمير خضرخان[104]. ويقال إن الهندوس كانوا يندمجون بالمسلمين في بحر الجماهير المحتشدة، احتفالاً بعيد البراءة (النصف من شعبان)[105]. وكثيراً ما كان الهندوس والمسلمون يتزاحمون عند مداخل تكايا (خانقاوات) مشايخ الطرق الصوفية[106]. وبالمقابل، فإن عدداً غير قليل من المسلمين التحقوا بهذه الفرقة أو تلك من فرق اليوغا، في خاجوراهو (كاجّارا) سعياً وراء اكتساب مهراتها[107]. لم يكن محمد بن تُغْلُق

(103) نورمان دانييل، **الإسلام والغرب: صنع صورة** (أدنبره، 1960م)، 135 ـ 161.

(104) TMS، 79.

(105) عفيف، 366.

(106) تُرُول (محرراً) **الأضرحة الإسلامية**، 7، 14.

(107) IB، IV، 40 (تر. جيب وبكينغهام، 790).

إلاّ الشخصية الأبرز على صعيد مشاركة الهندوس احتفالاتهم ومهرجاناتهم: فقد رأى ابن بطوطة، مسلمين في الموكب المصاحب لإحدى الأرامل، وهي في طريقها إلى المحرقة (محرقة جنازة زوجها المتوفى)، كما أن كلاً من فيروزشاه وكاتب سيرته، يتهمان المسلمين العاديين بجريمة المشاركة في الطقوس الدينية الهندوسية[108]. لقد جرى اتهام البراهماني، الذي أُعدم بأمر من فيروزشاه، ليس فقط باستضافة طقوس وثنية في بيته بحضور مسلمين، بل وبإغواء إحدى المسلمات ودفعها إلى الارتداد (عن الدين)[109].

أضف إلى ذلك، أن المسلمين اشتهروا أيضاً بالهرب إلى مناطق الكفار. وبعض هؤلاء الفارين كانوا نبلاء مرموقين، مثل أولئك الذين تورطوا في المؤامرة خلال الحملة التيلانغية لسنة 721 هـ / 1321 ـ 1322 م؛ غير أن المرتدّين العصاة كانوا موجودين على الدوام، من أمثال أولئك المسلمين الذين يزعم ابنُ بطوطة أنه رآهم حين وقع في أسر الهندوس، بالقرب من جلالي[110]. فكما كانت قوات هندوسية تقاتل تحت راية السلاطين المسلمين، تماماً، كان جنود مسلمون يقاتلون في صف الحكام الهندوس ـ سواء أكانوا في خدمة باللالا الثالث، ملك الهويسالا، بعد حوالي ثلاثة عقود، أم مسلمين «تافهين» **(ناباكار)** تحت راية نارايان حين زحف ضد مؤسس الأسرة الحاكمة البهمانية[111]. وفي ظل مثل هذه الظروف، ربما كان هناك نوع من الشعور بعدم الارتياح أو الاطمئنان، من وجود أقلية مسلمة، في بلاد وثنية بأكثريتها الطاغية، أقلية مسلمة معرَّضة لخطر الإغواء بالكفر. **فحجة الهند** للمحرابي، التي هي

---

(108) IB، III، 137 (تر. جيب، 614). عفيف، FFS380 .، 9 ـ 10 (تر. روي 457). انظر أيضاً أرنست، **جنة أبدية**، 27 و289 هـ. 107.

(109) عفيف، 379 ـ 381.

(110) IB، IV، 10 ـ 11 (تر. جيب وبكينغهام، 777).

(111) KF، 149، وDR، 72، عن جيش باندیا؛ IB، IV، 195 ـ 196 (تر. جيب وبكينغهام، 861)، عن جيش باللا الثالث؛ FS، 592 (تر. 873، عن نارايان). ثمة أمثلة أخرى في بوشون، «بعض وجوه...»، 30.

دراسة نجت من الضياع، ووصلتنا من نهاية القرن الرابع عشر، تستهدف مجابهة مثل هذه الردة بالذات، في المناطق الريفية[112].

لا شك أن السلاطين كانوا أيضاً ضحية ضغوط من نوع مختف. وقد أظهر مؤرخون كتبوا عن العالم الإسلامي، وخصوصاً البروفسور برنارد لويس، أن الحكام المسلمين لا يمكن اعتبارهم قط موحَّدين في نظرتهم إلى رعاياهم من غير المسلمين. فسياساتهم ظلت متأرجحة وفقاً للظروف: مثل وجود تهديد عسكري خارجي، متمثل بأشقاء في الدين للرعية المعينة؛ أو حاجة الحاكم إلى طمأنة السكان المسلمين، إذا ما ساد شعور بأن جماعات طائفية أخرى كانت قد أصبحت مستفيدة من الليونة المفرطة، أو العطف المبالغ فيه؛ أو الرغبة المجردة لدى سلطان جديد، في تدعيم سلطة ذات مشروعية ملتبسة عن طريق الحصول على دعم طبقة متزمتة وأصولية من الفقهاء والوُعّاظ[113]. كذلك لا يمكن تجاهل مثل هذه الظروف، في أي تحليل لجملة العلاقات الهندوسية ـ الإسلامية، داخل سلطنة دلهي. انظروا إلى رعاية محمد بن تُغْلُق للهندوس، مثلاً. وقد دأب محمد أيضاً على بذل جهود أكبر مما بذله أي حاكم دلهوي (نسبة إلى دلهي) آخر، في اجتذاب مسلمين من جميع أصقاع العالم الإسلامي، لإدخالهم في خدمته. والمفارقة هنا ظاهرية، أكثر مما هي حقيقية. كان ثمة ذراعان لسياسة استهدفت خَلْق قوة موازية للأرستقراطية الإسلامية الهندية، لأن الأسرة الحاكمة التُغْلُقية لم تكن قد وصلت إلى الحكم، قبل عدد قليل من السنين، إلاَّ بعد التغلب على معارضة إسلامية هندية بالغة التصميم. علينا أيضاً أن نتذكر، أن توسيعاً درامياً مثيراً للنفوذ الإسلامي، كان قد حصل. فحروب العقود الثلاثة الماضية كانت قد أجهزت

---

(112) بيتر هاردي «الإسلام والمسلمون في آسيا الجنوبية»، في رافائيل إسرائيلي (محرراً)، **الهلال في الشرق: الإسلام في آسيا الصغرى** (لندن، 1982)، 43.

(113) لويس، **يهود الإسلام**، 32 ـ 61 في أماكن كثيرة.

على أكثرية تلك الممالك الهندوسية المستقلة الكبرى، التي كان من شأنها تشكيل مركز جذب منافس، أو بؤرة ولاء مناوئة. مفيدٌ على هذا الصعيد أن تتم مقارنة وضع المسيحيين في مصر أو الأناضول، مثلاً، حيث لم يستطع المسلمون نسيان علاقات هؤلاء، بقوى أجنبية مهتمة أو ذات مصلحة. كان سلطان دلهي قادراً على ترقية الكثير من العاملين الهندوس، كما فعل، أو رعاية مؤسسات دينية هندوسية، حين بدت مثل تلك الرعاية مناسبة له، تحديداً لأن الهند لم تكن فيها **إمبراطورية** منافسة شبيهة بالإمبراطورية البيزنطية، أو دول أوروبا الكاثوليكية[114].

ربما كان فيروز شاه، بدوره، شخصية أكثر تزمُّتاً وأشد وَرَعاً وتقوى من ابن عمه الراحل؛ غير أن عوامل خارجية كانت أيضاً كامنة، بالتأكيد، وراء سياساته. فعملية اعتلاء السلطان للعرش لم تمر دون تحد؛ بل وكان، إضافة إلى ذلك، شاعراً بنوع من الحاجة إلى أن ينأى بنفسه عن المبالغات المتهورة لمحمد، الذي كان قد تصادم مع «المؤسسة الدينية» الإسلامية، وأعدم عدداً غير قليل من رموزها. من المهم أيضاً، على هذا الصعيد، ألاَّ يتم النظر إلى السياسات المتَّبعة مع الذميين، بمعزل عن الإجراءات الأخرى. كثيراً ما جاءت مترابطة مع المحاولات الرامية إلى قمع المسلمين المعارضين (الشيعة)، أو مع إلغاء الضرائب غير الشرعية، وهما ما كان فيروز شاه حريصاً على القيام بهما، واللذان كانا سبب كَيْل المديح له من قِبَل كاتب سيرة حياته، عفيف[115]. ينبغي النظر إلى أي تشدد مع الذميين، كجزء من خط سياسي أَعْرَض، بدلاً من اعتباره هدفاً بحد ذاته.

عبْر معايَنَة قَدْر بالغ الضآلة من البيِّنات والأدلة الموجودة في حوزتنا،

---

(114) نقطة أجادارنست في إثارتها، **جنة أبدية**، 50 ـ 51.

(115) TFS، 5 ـ 6 (تر. روي، 453 ـ 454). عفيف، 373، 379. انظر عموماً ظفر الإسلام، موقف فيروزشاه».

وتحت تصرفنا، حاولتُ تقديم منظور معين للعلاقات الهندوسية ـ الإسلامية، منظور من شأنه الإيحاء بأن الصيغ التقليدية لن تكون مجدية. من المستحيل معرفة المدى الذي بلغه برني، في موقفه من الهندوس، على صعيد تشكيل نموذج نمطي يمثل الطبقة **المتعلمة** المسلمة؛ فضلاً عن أن نظرته لم تكن، هي الأخرى، إلاّ خليطاً عجيباً. غير أن تشدده بالذات، يوحي أحياناً، كما تؤكد أدلة من مصادر أخرى، بوجود هوة سحيقة وواسعة بين الشرع الإسلامي من جهة، وتوجهات الحكام والطبقة العسكرية وممارساتهم من الجهة المقابلة. كان السلاطين في مواجهة وضع لم يسبق أن واجهه حكام مسلمون في الأماكن الأخرى، على امتداد بضعة قرون. نرى أن برني يجعل جلال الدين خَلْجي يطرح السؤال التالي:

«ألا ترى كيف أن الهنود باتوا... يمرون كل يوم بقصري، وهم يقرعون طبولهم، وينفخون في أبواقهم، ويتابعون مسيرتهم إلى اليمونه، لممارسة طقوسهم الدينية الوثنية، وكيف باتوا يؤدون فروض الشرك والإلحاد وعبادة الأوثان، أمام عيني... أنا الذي أطلقت على نفسي اسم حاكم المسلمين وسلطان الإسلام؟... عار علي، وعلى نظامي الملكي... أن أسمح بذكر اسمي من على المنبر، كل يوم جمعة، وأن يكرر الخطباء والوُعّاظ بألسنتهم الكاذبة، إعلاني مدافعاً عن الإسلام، فيما يعيش تحت حكمي، أمام عيني وفي عاصمتي بالذات، أعداءُ الله والعقيدة في وفرة وراحة محاطين بالمئين من أسباب الرفاهية والرخاء... ويتبخترون متباهين بين حشود المسلمين، ويمارسون عبادة الأوثان علناً...»[116].

صحيح أن الخطاب مشكوك فيه كسائر الخطب الأخرى جميعها، غير أن الكلمات التي وضعها برني في فم السلطان، تنطوي على رنّةِ صدق: إنها لا

(116) TFS، 216 ـ 217.

تصف ما ينبغي أن يكون، بل ما هو كائن، في الواقع. فالقرارات التي كان السلاطين يتخذونها حول السلوك الذي يتعين عليهم اعتماده في التعامل، مع المشركين الذين كانوا يشكلون أكثرية الرعية، كانت تقوم على اعتبارات أكثر تعقيداً بما لا يقاس، مما درجنا على الافتراض في الغالب. من المؤكد أن علينا أن ننطلق من الافتراض المسبق بأنهم، في إطار ممتلكاتهم، نجحوا، لبعض الوقت، في مقاربة المشكلة، لا كمقاتلين في حرب مقدسة دائبة على تحطيم الأصنام، بل بِقَدْرٍ معين من اللطف والرقة. لعل التمييز الرئيسي بالنسبة إليهم، لم يكن متمثلاً بالفرق بين المسلمين والهندوس (على أهمية مثل هذا الفرق) بل بين الرعية المسالمة من العاملين لدى الحكومة من جهة، ومثيري الشغب والمتاعب من المتمردين والعصاة، من جهة ثانية.

الفصل الخامس عشر

ركود فتدهور: فيروزشاه وخلفاؤه

السلطنة المتقلِّصة

استناداً إلى ملاحظات المؤرخ «الرسمي»، كانت حقيقة أن يكون إلياس شاه، سلطان البنغال المغرور، قد بدأ حياته العملية مجرد خادم أو وصيف، لضابط من عمال محمد بن تُغْلُق، مبعثَ شيء من الاعتزاز في بلاط فيروزشاه[1]. أضف إلى ذلك، أنه كان طاغية؛ لم يكن بوسع فيروزشاه أن يبقى عديم التأثر بنداءات رعاياه المعذبين الدائبين على التماس النجدة والإغاثة[2]. كذلك كانت البراءات التي حصل عليها السلطان الجديد من الخليفة العباسي ـ استناداً، مرة أخرى، إلى الطريقة التي عوملت بها في **السيرة** ـ منطوية على دور مهم في توطيد المشروعية الحصرية لحكمه. **فشيخ الشيوخ** المصري، ركن الدين المَلَطَى، الذي كان قد جلب شهادةً أو منشوراً لمحمد من الحَكَم (لعله الحاكم بأمر الله)، غادر الهند أوائل عهد فيروزشاه، ووصل القاهرة أوائل سنة

---

(1) SFS، 47.

(2) **فرمان** صادر عن فيروزشاه منشور في IM، 16؛ تر. في مولوي عبد الولي، «حياة ورسائل ملك عن الملك مهرو وأضواء جانبية على حملات فيروزشاه إلى لخناوتي وجاجناغار»، JASB ns I9 (1923م)، SFS279 .، 34 (تر. باسو، JBORS 23 [1937 م]، 111). عفيف، 137 ـ 140، 143.

754 هـ / 1353م بعد غياب دام حوالي عشر سنوات[3]. غير أن سفارة أخرى، ما لبثت أن وصلت إلى دلهي في السنة نفسها، موفدة من الخليفة المعتضد بالله، ومعها تفويض (منشور) لفيروزشاه يخوِّلُه حكمَ الهند ويضفي عليه لقبي **سيف الخلافة وقسيم أمير المؤمنين**. وفي سنة 764 هـ / 1362 ـ 1363م، بادر الخليفة التالي، المتوكل على الله، إلى إرسال بعثة ثانية إلى دلهي، ومعها تفويض يخاطب فيروزشاه بوصفه **سيد السلاطين** ويعلنه **والياً**. ثمة بعثات مماثلة جاءت سنة 766 هـ / 1364 ـ 1365م، وكل سنة بعد ذلك، حسبما جاء في **السيرة**[4].

أبدى المتوكل قدراً كبيراً من الحرص على تأكيد الفكرة التي تقول، بأن طاعة السلطان تعني طاعة الخليفة نفسه؛ وأن السلطان مفوضٌ بخوض **الجهاد** ضد المتمردين؛ وأنه لا هو ولا سلفاه، كانوا قد أصدروا أي تفويض لأي حاكم هندي، عدا سلطان دلهي وسيدها[5]. وهكذا، فإن الخليفة قد نصّب فيروزشاه وسيطاً له في التعامل مع الأمراء المسلمين الآخرين، في شبه القارة. فالأقاليم المذكورة في شهادة المعتضد، شملت ليس فقط البنغال والمعبر وتيلانغ وكاولام (قويلون) وهيناور وباكاناور وباقي المناطق الساحلية (**سواحل ـ ي بحر**)، بل و«جزيرة سرنديب (سيلان) أيضاً» مع «الجاوات» (جاوا الكبرى وجاوا الصغرى) وجبال قراشيل، و«الأقاليم الأفغانية (**حدود ـ ي أفغانية**) وجبالها حتى كشمير، وزاوولستان حتى حدود الترك وما وراء النهر»[6]. لم يكن هذا، في أحسن

---

(3) المقريزي، **سلوك**...، II، ج: 3، 887. يجب أن يكون الرقم الذي أورده عن عشر سنوات وتسعة أشهر خطأ.

(4) SFS، 282 ـ 285 (تر. رشيد، «تطويب فيروزشاه»، 70 ـ 71). عفيف، 274 ـ 276، لا يذكر إلاّ بعثة خلافية واحدة من المعتضد إلى فيروزشاه. TMS، 126، يضع الأولى (ولكنها من الحكم) في 757 هـ / 1336 م؛ انظر أيضاً 127.

(5) SFS، 283 ـ 284 (تر. رشيد، 70 ـ 71).

(6) المصدر نفسه، 283 (تر. رشيد، 70، تُحذف ديوغير مع غيرها). ليست باكاناور إلاّ فاكانور =

الأحوال، إلاّ برنامجاً لفتح مستقبلي (ولنوع من إعادة الفتح).

عَلِمَ عفيف من أبويه، أنه كانت هناك في الجزء الأول من العهد، فترة امتدت سبع سنوات، لم يُمْضِ منها فيروزشاه في دلهي، إلاّ ما بلغ مجموعه ثلاثة عشر يوماً: ففي كل عودة له من إحدى الحملات المطولة، كان ينطلق مرة أخرى بعيد دخوله العاصمة بصورة شبه مباشرة[7]. قد يكون غياب الاستقرار والراحة هذا، ناشئاً عن نوع من الإدراك والإحساس بالخسائر الإقليمية التي تكبدتها السلطنة، في عهد محمد بن تُغْلُق. كانت الأنباء السارة لمقتل تغاي على يد قادة مُوالين في گوجرات، قد وصلت فيروزشاه يوم إذعان خواجاجهان[8]. غير أن حلفاء المتمرد من سومرا، كانوا لا يزالون طليقين؛ ويوحىٰ إلينا أن السلطان كان شديد الحساسية إزاء كؤوس الذل التي تجرعها ابن عمه في السِّنْد، فصمم على الأخذ بالثأر[9]. كما أنه لم يكن قادراً على البقاء غير آبهٍ لفقدان الأقاليم الواقعة إلى الجنوب من الفينديا.

كانت الحقيقة، بالطبع، أن فيروزشاه لم يكن في وضع يمكِّنه من استعادة المناطق التي ضاعت أيام حكم سَلَفه. كان لا بد من إيداع المعبر في سلة النسيان. زعم المبعوثون المعبريون الذين قابلوا السلطان غداة عودته من حملته على الثاتّا، أن حاكمهم كان قد هُزم وقتل على يد بوكّا، ملك فيجاياناغارا، وأن المسلمين باتوا في أوضاع عسيرة تبعث على اليأس. حاول فيروزشاه أن يطيل النقاش، كَسْباً للوقت، معلِّقاً بفظاظة، أنه حين أرسل إليهم **فَرَماناً** لدى اعتلائه العرش، كان أهالي المعبر قد أخفقوا في الاعتراف بسلطته، وجاؤوا

= عند IB، IV، 78 ـ 79 (تر. جيب وبكينغهام، 808). عن الجاوتين أي صوماطرا وجاوا بالذات (وتسمى مول جاوا أحياناً في المصادر الإسلامية)، انظر المصدر نفسه، IV، 228 ـ 247 (تر. جيب وبكينغهام، 876 ـ 884)؛ بليو، **ملاحظات حول ماركو بولو**، 755 ـ 758.

(7) عفيف، 399.

(8) SFS، 19، 27 ـ 28، تر. باسو، JBORS 23 [1937م]، 105 ـ 106).

(9) عفيف، 191 ـ 192.

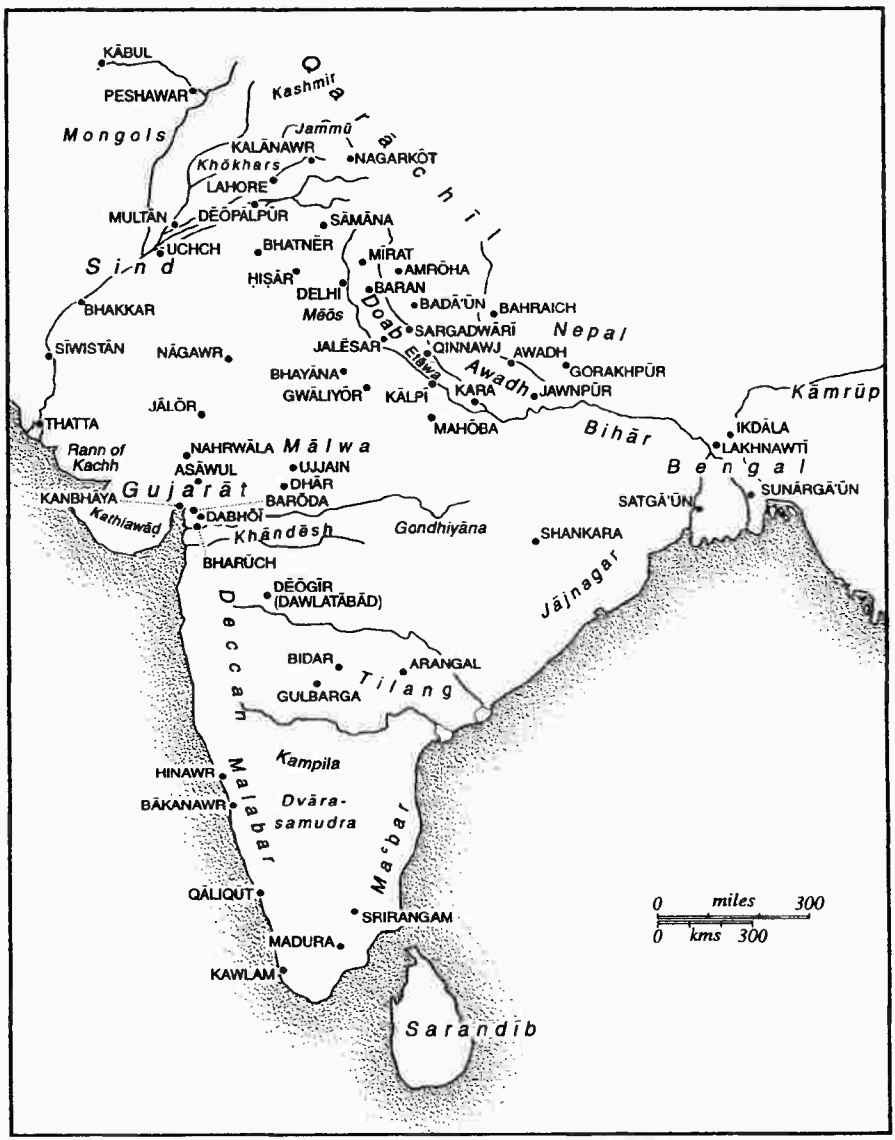

السلطنة في ظل التُّغْلُقيين

الآن يتوسلون مستَجْدين مساعدته، لأنهم أصبحوا في ضيق شديد؛ كان سيزحف جنوباً بعد أن تنال قواتُه قسطاً من الراحة[10]. وفي مكان آخر، يُقال لنا إن السلطان خرج في رحلة صيد نحو جهات دولت أباد، غير أنه ما لبث أن تحول راجعاً إلى بهايانا، حرصاً منه على «مصالح المملكة»، واضطلع برئاسة حملة قادها إلى تاغاركوت، بدلاً من المعبر[11]. وفي أثناء هجومه الثاني على ثاتا، بعث بهرم خان مازنداراني، صهر حسن غانغو، في سياق صراع مع ابن الأخير، رسالة إلى فيروزشاه داعياً إياه إلى الجنوب لوضع اليد على دولت أباد؛ غير أن السلطان، الذي كان عاكفاً على إعادة تنظيم جيشه في گوجرات، قرر إعطاء الأولوية لثاتا، مما أدى إلى إضاعة الفرصة[12]. وفيما بعد، أعلن فيروزشاه عن اعتزامه الزحف على دولت أباد، أي الإطاحة بالبهمانيين، غير أن الوزير خان جهان، سرعان ما أقنعه بالعدول عن خطته، على أساس عدم جواز شن الحرب على مسلمين[13]. ومع ذلك، فإن البهمانيين ربما ظلوا يخشون حدوث هجوم من الشمال، لأن الإدارة الفعالة للوالي ظفرخان (الثاني) في گجرات (أواخر سبعينيات القرن الرابع عشر) أحدثت، برأي عفيف، ذعراً (لارزا) في دولت أباد[14].

قلما كانت تلك المشروعات العسكرية التي أقدم عليها فيروزشاه، مثار إعجاب أو إطراء لدى المؤرخين المُحْدَثين. فالدكتور بَنَرْجي يعتبره «بعيداً حتى عن أن يكون قائداً عسكرياً متوسطاً»؛ وبالنسبة للبروفسور ساكسينا «لم يكن من

(10) المصدر نفسه، 261 ـ 263. هوديڤالا، **دراسات**، ١، 326 ـ 327، يرى أن الحاكم الميت، ويعتبر أحد أقرباء حسن غانغو، كان هو فخر الدين مبارك شاه، سلطان المعبر ما قبل الأخير. وعن حكام المعبر خلال هذه الفترة، انظر س. عبد القادر حسيني، «سلطنة مادورا»، في HN، 1023 ـ 1025.

(11) عفيف، 185 ـ 186.

(12) المصدر نفسه، 224 ـ 225. انظر هوديڤالا، **دراسات**، ١، 322، عن التسلسل التاريخي.

(13) عفيف، 263 ـ 266.

(14) عفيف، 499.

طينَةِ الفاتحين»؛ أما البروفسور رياض الإسلام، فيعلن «أنه كان معدوم الكفاءة، كلياً، كجنرال (كقائد عسكري)»[15]. وثمة وفرة من الشواهد المؤيدة لوجهات النظر هذه، في عمليات السلطان في البنغال[16]. ففي سنة 754 هـ / 1353م، جرى حشد جيوش كبيرة ضد شمس الدين إلياس شاه، الذي كان قد اعتدى على أراضي سلطان دلهي، وفي 760 هـ / 1359م ضد ابنه وخلفه سيكاندر (اسكندر). وفي الغزوين كليهما، تمكنت قوات دلهي من إجبار العدو على الاختباء في قلعة إيكدالا الجزيرية[17]، غير أنها ما لبثت أن تخلت عن الحَمْلة. في المرة الأولى، نجح فيروزشاه في إلحاق الهزيمة بقوات إلياس في معركة التحام عنيفة، وفي احتلال بلدة إيكدالا، غير أنه ما لبث، تحت تأثير عويل النساء المسلمات في القلعة، أن رفض نصيحة جنرالاته القاضية باقتحامها[18]. أما في الحَمْلة على سيكاندر، فقد تمت رشوة فيروزشاه واستمالته بالهدايا، وقبل بالصلح، شرط تنصيب عميله ظفرخان حاكماً لسونارغاؤون؛ غير أن القصة ما لبثت أن انقلبت إلى مسرحية هزلية، حين فضَّل ظفرخان، إدراكاً منه لافتقاره إلى أية قاعدة نفوذ حقيقية في سونارغاؤون، أن يعود مع السلطان إلى دلهي، بدلاً من تولي المنصب[19]. وفي أثناء انسحاب جيش دلهي عبر جاجنَغَر، أضاع طريقه، ولم يتمكن السلطان من الاجتماع بأمتعته الثقيلة في قارا، إلاَّ بعد ستة أشهر[20]. غداة كل حملة، كان حاكم البنغال يرسل أعداداً

---

(15) بزجي، **تاريخ فيروزشاه**، 28؛ انظر أيضاً 26، 32 ـ 33. ساكسينا، في HN، 582. رياض الإسلام، فيروزشاه تُغلُق، Enc. Isl^2، II، 924.

(16) حملات فيروزشاه البنغالية، انظر بزجي، **تاريخ فيروزشاه**، 28 ـ 36 وHN 582 ـ 585، 589 ـ 591.

(17) عن موقع إيكدالا، وهي الآن قرية في منطقة دنياجبور وعلى مسافة 23 ميلاً إلى الشمال من باندوا، و42 ميلاً إلى الشمال من لخناوتي، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 311 ـ 312.

(18) عفيف، 118 ـ 119.

(19) عفيف، 156 ـ 158، 162.

(20) عفيف، 172 ـ 173. ساكسينا (في HN، 593) بغض النظر عن هذه القصة غير الموجودة في أي مصدر آخر).

من الفيلة وهدايا أخرى إلى فيروزشاه، ويزعم عفيف، أن السلطان بقي على علاقات ودية مع سيكاندر، متبادلاً معه الهدايا سنوياً، إلى أن قضى نَحْبَه[21].

أمّا ضد دلتا الإندوس، الذي بات خاضعاً لاثنين من أمراء السمّا هما علاء الدين جاونا الذي، كان يحمل لقب **جام**، وابن أخيه بانبهينا، فلم يتحرك السلطان حتى حوالي سنة 767 هـ / 1365 ـ 1366م[22]. كان فسادُهما قد دام، حسب ما جاء في **السيرة**، جيلاً كاملاً[23]. فمراسلات ابن مهرو تبين أن بانبهينا كان قد أغار على گجرات، كما هاجم البنجاب بمعونة مغولية، ربما في أثناء غياب فيروزشاه الثاني في البنغال. كانت الحكومة عاكفة على تعزيز مواقع أمير سومرا، هامّيردودا، الذي كان بالمثل مهدداً من السمّا[24]. يحلو لِكتاب **السيرة**، الذي جرى تأليفه بعد سنوات قليلة فقط، أن يقنعنا بأن جاما وابن أخيه أُجبرا على السعي إلى السلم، وكان فيروزشاه سخياً في الشروط معهما، غير أن كُتّاباً آخرين، يُبْدون قَدْراً أقل من التفاؤل والثقة. ففي رواية عفيف، التي تتكرر لهجتها لدى سرهندي، كانت عمليات فيروزشاه فاشلة. ثمة وباء كان قد أجهز على ثلاثة أرباع فرسانها، كما تسببت أسعار الحبوب المرتفعة بحصول مجاعة في صفوف القوات، مما اضطره، بعد بضعة أسابيع من المناوشات، للانسحاب إلى داخل گجرات، لإعادة تنظيم صفوف جيشه. وفي أثناء عملية

---

(21) عفيف، TMS161 .، 126، TFS128 .، 597، أيضاً يشير باقتضاب إلى هدايا من إلياس.

(22) عن العمليات في دلتا الإندوس، انظر عموماً بزجي، **تاريخ فيروزشاه**، 36 ـ 40؛ HN، 595 ـ 599. تتم مناقشة التاريخ في هوديفالا، **دراسات**، 322، على أساس البيان الوارد في عفيف، 191، والذي يقول إن أربع سنوات كاملة كانت قد انقضت على عودة فيروزشاه من جاجناغار (بتاريخ 762 هـ / 1361م في TMS، 130).

(23) SFS، 84.

(24) IM، 100 ـ 103، 230 ـ 235؛ تر. في رياض الإسلام، «صعود السّاما»، 361 ـ 362. ن. ب. راي، «أضواء جانبية مثيرة على حملة فيروزشاه تُغلُق على تاتّا»، JASB، **رسائل**، السلسلة الثالثة، 4 (1936م)، 285 ـ 292، تقدم أولى هذه الرسائل كاملة، غير أن اسم هامّير دودا ملتبس بما يفضي إلى قيام الترجمة باختزال أي ذكر له: انظر المصدر نفسه، 286 هـ. 2، عن تاريخ هذه الرسالة.

الانسحاب، وقع الأسطول كله بأيدي العدو، وقام المرشدون والأدلاّء بإدخال جيش دلهي في بادية ران كاتش المِلْحية، التي عانت منها القوات كثيراً، بدلاً من متابعة الطريق إلى گوجرات. وحين وصل فيروزشاه إلى گوجرات، أخيراً، جرى طرد واليها لإخفاقه في توفير التجهيزات اللازمة لجيش جديد[25]. غير أن السلطان نجح، مع مرور الزمن، في العودة إلى السند، ووقّت وصوله بما يتناسب مع وضع اليد على المحصول الذي كانت قوات السمّا قد عوّلت عليه. ومع ذلك، فإن هذه القوات بذلت مقاومة يائسة، ولم يتم تجنب صراع طويل، إلاّ بفضل تدخل الرجل الصالح المحلي جلال الدين بخاري، ذلك التدخل الذي جاء في الوقت الملائم بالنسبة إلى قوات دلهي، كما بالنسبة للسمّا. استسلم جام وبانبهينا فأخذهما السلطان معه لإبقائهما في بلاطه، تاركاً ابن جام وشقيق بانبهينا تاماتشي، شريكين في الحكم، لتمثيل مصالحه[26]. ولكن المشكلات استمرت في هذه البقاع، وتعين على فيروزشاه لاحقاً، أن يوفد جاماً لقمع عصيان قاده تاماتشي. يبدو أيضاً أن السمّا ما لبثوا أن سحقوا أمير السومرا، هامّيردودا، الذي نصادفه منفيّاً في گوجرات قبل انتهاء عهد فيروزشاه[27].

لم تكن انتصارات فيروزشاه العسكرية على القوى الهندوسية هي الأخرى على مستوى يكفي لتبييض صفحته، وتحسين سمعته. يقول عفيف في إحدى فقراته المشحونة مديحاً، إن أهل دار الحرب كانوا يتعرضون، سنوياً، لعمليات

---

(25) SFS، 86 ـ 87. عفيف، 200، 201، 207 ـ 208، عن الوباء والمجاعة؛ 203 ـ 205، 220، عن قرار إعادة تأهيل الجيش في گوجرات؛ 207 عن فقدان الأسطول؛ 208 ـ 219، عن الران؛ 219 ـ 220 عن طرد الوالي: TMS، 131. بيهامادحاني، ملف 410 ب (تر. زكي، 9).

(26) رياض الإسلام، «صعود السامّا»، 377 ـ 379، مورداً طبعتين عن موعظة القديس (الولي)، **ملفوظاتي مخدومي جاهنيان وسراج الهداية**.

(27) عفيف، 254. رياض الإسلام، «صعود السامّا»، 380. منقوش يعود إلى 784 هـ / 1382م في مسجد فاتح، بَرَنريج، منطقة ساباركانثا، في ديساي، «منقوشات خلجية وتُغلُقية، من گوجرات»، 21 ـ 22.

الإغارة والسلب[28]. كان الهدف، حاله غالباً في الماضي، هو تحصيل الجزية المستحقة المتأخرة. وعلى الطريق إلى البنغال في 754 هـ / 1353م، كان السلطان قد استغل الفرصة لتأكيد سلطته على الزعماء الهندوس، حين وصل إلى أوَذ، ولتحصيل مبالغ الجزية المتأخرة من رايات خارونسا وغوراخبور، الذين بادر الأخيرون منهم، كما يقول سرهندي، إلى تسليم عشرين **لاكاً** (20,000,000) من **التانغات** الفضية[29]. تتجلى الطبيعة المحدودة لأهداف السلطان، في أشكال تعامله مع جاجنَغَر (أوريسّا). فبعد شن هجوم قصير على مملكة شانكار (سارانغاره)، التي هرب حاكمها[30]، تقدم ودخل جاجنَغَر التي كان رايُها (أميرها ـ ملكها)، فيرابها نوديڤا الثالث، قد توقف عن إرسال الجزية[31]. وحين قام فيروزشاه باقتلاع تمثال (صنم) جاغانّاث، وتحصيل كمية ذات شأن من الغنائم، بما فيها عدد من الفيلة، أرسل الملك الهندوسي عَرْضاً بالاستسلام، فأقدم العاهلان على أداء رقصة مينويت دبلوماسية زعم فيها الراي، أنه تابع السلطان المطيع من البداية، وادعى السلطان أنه لم يدخل البلاد إلاّ لاقتناص الفيلة.

يبدو أن حملة فيروزشاه الأنجح ـ رغم صعوبة اعتبارها انتصاراً[32] ـ

---

(28) عفيف، 180.

(29) TFS، 587 ـ TMS588 .، 124 ـ 125. عفيف، 111، يكتفي بإعلان أن السلطان أنعم على راي «تشابَرَن» بمظلة (تشاتر): عن جعل هذا الأمير الهندوسي متماهياً مع راي برني غوراخبور، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 311.

(30) TMS، 129. بيهامادخاني، ملف 409 ب ـ 410 أ (تر. زكي، 8)، معتبراً شانكارا «واحدة من مدن جاجنغار العظيمة». تم التعرف على المدينة من قبل هوديڤالا، **دراسات**، ا، 387، وا، 149، على أساس IM، 30. تقع سارانغاره على بعد 32 ميلاً شمال ـ غرب سامبالبور، عند نقطة 21 درجة / 26 دقيقة شمالاً، 38 درجة / 7 دقائق شرقاً.

(31) هو كذلك حسب **الفتح ـ نامه** المعاد إنتاجه في IM، 28. فكل من SFS، 54 وبعدها (تر. روي، «حملة جاجنغار»، 62، 63 ـ 64، وعفيف، 163، يعلق على ازدهار جاجنغار. عن هوية الراي، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 318. تتم مناقشة الحملة في بزجي، **تاريخ فيروزشاه**، 40 ـ 42. وفي HN، 591 ـ 593.

(32) ر. سي. جوهري، «غزو قروسطي لناغاركوت (1363م)»؛ JIH 44 (1966م) 571 ـ 576.

كانت تلك التي استهدفت ناغاركوت. كان الأمير الهندوسي، الذي كان قد استسلم لمحمد بن تُغْلُق سنة 738 هـ / 1337م، قد مات، فبادر ابنه وخَلَفُه إلى التنكر لسيادة دلهي. تحرك السلطان ضده حوالي سنة 766 هـ / 1365م، وأخضع القلعة لحصار دام عدداً من الأشهر. وأخيراً أذعن الراي، والتزم باستئناف تسديد الجزية. تعامل فيروزشاه مع المكان باحترام، وأبدى عزوفاً لافتاً عن تحطيم صنم (تمثال) جوالا موخي تلبيةً لطلبٍ صريحٍ من الراي[33]. بقيت منطقة ناغاركوت خاضعة بعد ذلك، وكانت ستشكل قاعدة مهمة وقيِّمة بالنسبة إلى محمد، نجل فيروزشاه، خلال الحرب الأهلية الناشبة في تسعينيات القرن الرابع عشر.

من الواضح أن اقتناء أعداد كبيرة من الفيلة كان أحد الأهداف المرجوة من هذه الحملات. تمت مصادرة سبعة وأربعين (فيلاً) من إلياس، وقام سيكاندر بتقديم أربعين، كما جرى الاستيلاء على ثلاثة وثلاثين في جاجنَغَر. وحسب كلام ابن مهرو، كان راي جاجنَغَر قد توقف عن تزويد السلطان بالفيلة، وقصة هذه الحملة في **السيرة** تعكس الأولوية الممنوحة لوضع اليد على الفيلة[34]. أضف إلى ذلك، أن إقليم البنغال كان غنياً على الصعيد الزراعي ـ يشهد زائر صيني في أربعينيات القرن الرابع عشر بأن عمليات الاستصلاح، كانت قد جعلت مساحات واسعة جديدة من الأراضي في الدلتا، قابلة للحراثة والزراعة[35] ـ وكان إلياس قد شن سنة 1346م غارة مربحة على نيبال[36].

---

(33) SFS، 82 ـ 83. عفيف، 186 ـ 190. عن التاريخ، انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 322.

(34) IM، SFS28 .، 54، 58، 63 (تر. روي، «حملة جاجنغار»، 61 ـ 62، 65). عفيف، 123، 161، 163، 167، 171؛ قارن أيضاً 172، 175، عن مجموع الفيلة الـ 73 من البنغال وجاجنغار. TFS. 592، 594، يعطي الرقم الإجمالي للفيلة التي أُخذت في الحملة البنغالية الأولى على أنه 44.

(35) و. و. روكهيل، «ملاحظات عن علاقات الصين وتجارتها مع الأرخبيل الشرقي وساحل المحيط الهندي في القرن الرابع عشر»، **تونغ باو** 16 (1915م)، 435 ـ 436.

(36) ك. ب. جاياسوال، «منقوش محمدي غير مسجل من نيبال»، JBORS 22 (1936)، ج: 2، 93ـ 95. داني، **منقوشات إسلامية من البنغال**، 129.

كذلك قام فيروزشاه بجلب كميات كبيرة من الفضة التي كان البنغال قادراً على توفيرها بكثرة، والتي كانت ما تزال تعاني من النُدرة في بلاده هو[37]. ربما لم يكن السلطان، الذي يُزعم أنه قال لتتارخان سنة 754 هـ / 1353م إن أسلافه كانوا قد أخضعوا البنغال، ولكنهم أخفقوا في فرض السيطرة عليه، نظراً لطبيعة المنطقة[38]، يرمي إلى ما هو أكثر من إعادة ملء خزانته و**الپيلخانه** (حظائر الفيلة).

لم يشارك السلطان، في الأكثرية الساحقة من العمليات التي جرت ضد الهندوس، والتي يتحدث عنها عفيف، ربما لأن هذه العمليات تمت تحت إشراف المُقْطَعين المحليين؛ ولا يتردد سرهندي في كيل المديح لكبار القادة والأمراء في جهات «هندوستان»، لنجاحهم في تأديب «المشركين العصاة» والحفاظ على سلطة دلهي ونفوذها[39]. غير أن الأوضاع ربما شهدت تدهوراً خلال السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة من حكم السلطان، حين أقلع، كما يُفترض، عن ممارسة النشاط العسكري، غير أننا لا نلبث أن نراه، فجأة، مضطلعاً، شخصياً، بقيادة حملة في كاتيهر وإيتاوا بهدف تأمين الجزية؛ وحاذياً حذو فيروزشاه نفسه، يقوم عفيف بإضفاء ثوب رحلات الصيد على هذه الحملات[40]. ففي 787 هـ / 1385 ـ 1386م أنشأ السلطان قلعة فيروزبور الجديدة في بيولي، على بعد حوالي خمسة عشرة ميلاً عن بداؤون، كجزء من تدبيره الدفاعية في المنطقة[41]. أما في إيتاوا، فقد جرى، خلال حملة تمت في 779 هـ / 1377 ـ 1378م، نَقْلُ **المقدَّمَيْن** (الزعيمين): السومرا وأودّهاران إلى

(37) TFS، 597. سيمون ديغبي، «مخزون القطع النقدية دليلاً على استيراد الغالوتا عبر البحر العربي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر»، JRAS (1980م)، 129، 135 ـ 136 هـ. ع.

(38) عفيف، 119.

(39) TMS، 133.

(40) عفيف، 493، 497.

(41) TMS، 135. عن موقع بيولي، انظر هوديفالا، **دراسات**، ١، 389.

دلهي، كما تم بناء قلعتين في كل من آكهال (تُغْلُق بور الجديدة) وبتلاهي. ثمة قلعة جديدة في فيروزبور (بالقرب من كانار)، ما لبثت أن أصبحت مركز **شقة** جديدة، جامعة بين تُغْلُق بور ورابري، وُضعت بين يدي ملك زاده فيروز (وزير السلطان تُغْلُق شاه الثاني فيما بعد)، ابن تاج الدين ترك: كانت مرشحة لأن تغدو نواة أمارة كالبي[42].

السلطان والطبقة الأرستقراطية

يقوم كل من عفيف وسرهندي بتسليط الضوء على حقيقة أن حقبة فيروزشاه لم تشهد سوى ثورة واحدة (كانت بقيادة أمير مسلم)، أَلاَ وهي ثورة شمس الدين دامغاني في 782 هـ / 1380 ـ 1381م، ويصر الأول، صراحة، على إبراز تناقضها مع الفوضى التي سادت عهد محمد بن تُغْلُق[43]. أخفق دامغاني، وهو النائب المعين لإقطاع گجرات في 778 هـ / 1377م، في تحصيل المبالغ الهائلة التي كان قد تعاقد عليها، وأوقف إرسال أية موارد سبق له تحصيلها إلى البلاد، وانتفض في عصيان مكشوف. غير أن تدبيره القمعية التي اتبعها في انتزاع الضرائب عنوة، كانت قد أثارت عداء أولئك، الذين كانت حركته التمردية معتمدة على تأييدهم ودعمهم، أي عداء **أمراء المئين (أميراني صدا)** في گوجرات، الذين ظلوا موالين للسلطان؛ ما لبث هؤلاء أن أغاروا عليه وقتلوه. إضافة إلى هذه الحادثة التي يستخف بها عفيف، واصفاً إياها بالمسرحية الهزلية[44]، يأتي غياب تمرد الأرستقراطية الإسلامية ليؤكد صحة الصورة التي قدمتها مصادرنا عن العهد، بوصفه حقبة تميزت بالقناعة التي عمت صفوف الأرستقراطية[45].

---

(42) بيهامادخاني، ملف 412 ب (تر. زكي، 13 ـ 14). TMS، 133 ـ 134.

(43) عفيف، 492 ـ 493 عن تاريخ العصيان الذي تجري مناقشته في هوديڤالا، **دراسات**، ا، 388 ـ 389. TMS، 132، يعطي سنة 778 هـ، تاريخاً لتعيين دامغاني.

(44) عفيف، 499 ـ 502.

(45) عفيف، 288، 297 ـ 298.

إلاّ أن هذا الهدوء الاستثنائي، لم يتحقق دون ثمن. ففيروزشاه لم يكن، خلافاً لحال سلفه، متحلّياً بالحرص والاهتمام بتفاصيل الإدارة المالية اليومية[46]، ومنذ البداية تقريباً، ترك تسيير الأمور للوزيرخان جهان، هذا الوزير الجديد الذي برهن على أنه مُرْتَكَز النظام وعماده. ففي أثناء فترات غياب فيروزشاه في الحملات، تعمد زرع الرعب والخوف في قلوب أهالي العاصمة عن طريق عرض العضلات العسكرية، وأخفى، بمهارة، عن المواطنين انقطاع الأخبار عن السلطان، حين تاه جيش دلهي وأضاع طريقه، في أثناء مسيرة العودة من جاجنَغَر، ومرة أخرى، حين وجد فيروز شاه نفسه في بيداء ران الكاتشية[47]. ولكن خان جهان كان، كما كان برني قد أبرز بجلاء، متمتعاً بسلطات، أوسع بكثير، من تلك التي سبق لأي وزير سابق الحصول عليها، ويورد عفيف عن لسان السلطان نفسه، أن خان جهان كان الحاكم الفعلي لدلهي[48]. وحين تصادم الوزير مع عين الملك ابن مهرو، الذي كان يعمل محاسباً عاماً آنذاك **(مشرفي ممالك)**، أصر على فرض رأيه مهدداً بالرحيل إلى مكة. أذعن السلطان، وأجاز لخان جهان استخدام أو استبعاد من يشاء. وهكذا، فإن ابن مهرو فقد وظيفته؛ رغم أنه حين مُنح، بعيد ذلك، إقطاعات مُلْتان وسيويستان وبهكّر، نجح في الحصول على تنازل من فيروز شاه، يقضي بإبقاء الشؤون المالية لهذه الأقاليم، خارج نطاق إدارة الوزير[49].

يبدو أن فيروزشاه كان قد جعل مساحات واسعة جداً من أراضي السلطنة، إقطاعاً، مما أدى إلى تقليص مساحة الخاصة. أضف إلى ذلك، أن الأرستقراطية ككل، باتت الآن متمتعة بقَدْر من الامتيازات أكبر مما في أيام

(46) عفيف، 341 ـ 342.

(47) عفيف، 173، 211 ـ 214، 398 ـ 399.

(48) TFS، 578 ـ 579. عفيف، 400؛ قارن أيضاً 411.

(49) عفيف، 408 ـ 414.

محمد بن تُغْلُق. قد نستطيع تفسير كون مرتَّبات الخانات والملوك، الآن، كانت أكبر مما في العهد السابق، باعتباره تدبيراً استهدف حمايتهم من التضخم[50]. ولكن برني كان، حتى في غضون السنوات الست الأولى من حقبة فيروزشاه، قادراً على ملاحظة عدم خضوع الواردات الآتية من الإقطاعات للتدقيق، بالقدر نفسه من الصرامة، كما من قبل؛ ويحدثنا عفيف، تحديداً، عن أن السلطان أقلع عن الممارسات السابقة، باعتماد قيام ولاة الأقاليم، بتقديم هدايا سنوية يجري تقويمها واحتسابها من الضريبة المفروضة على هذه الأقاليم. ثمة أمراء معينون، وخصوصاً **العارض** (الحاجب) عماد الملك بشير، راكموا ثروات طائلة[51].

ومن سياسات السلطان، أيضاً، السماح لوريث أي مير أو مُقْطَع أو موظف، أن يرث وظيفة أبيه مع لقبه أو إقطاعه أو مرتَّباته الأخرى. هذا النمط من الوراثة كان قد تحقق إلى حدود معينة في السابق ـ في القرن الثالث عشر بالتأكيد، حتى وإن جرى التخفيف منه في ظل علاء الدين، حتى أَبْطَلَه التُغْلُقيان. أما في ظل فيروزشاه، فقد أصبح مبدأ دون أدنى شك. فحين قضى خان جهان (الأول) نحبه، مثلاً، ما لبث منصبه كوزير وعنوانه، قد انتقلا إلى ابنه جاونان، الذي أصبح يعرف منذ ذلك التاريخ باسم خان جهان (الثاني)؛ أما ظفرخان، ذلك الأمير اللاجئ من البنغال، فقد خلفه في إقطاعه گوجرات، ابنُه داریاخان، الذي مُنح بالمثل لقب ظَفَرخان (الثاني)؛ وكذلك فإن مرتبة **العارض** (الحاجب) عماد الملك بشير ولقبه، انتقلا بعد وفاته إلى ابنه إسحاق[52]. يمكن مضاعفة مثل هذه

---

(50) عفيف، 296 ـ 297. حبيب؛ «الاقتصاد الزراعي»، 73.

(51) TFS، 555 ـ 556. عفيف، 268 ـ 269. عن ثروة بشير، انظر المصدر نفسه، 438، 439 ـ 440، 445.

(52) خان جهان، المصدر نفسه، 425 ـ 426. ظفرخان: المصدر نفسه، 286، 499؛ TMS، 131. عماد الملك: عفيف، SFS445 .، 153 ـ 154، يقدم لائحة بمثل هذه التعيينات الوراثية، برئاسة خان جهان (الأول).

الأمثلة، وقد اتسعت لتشمل مختلف مستويات الرتب البيروقراطية[53]. حتى في حالات الطوارئ، كما لدى نقله لناصر الملك مردان دولت من الشرق إلى حدود مُلْتان، للتعامل مع الخطر المغولي، لم يهمل فيروزشاه المبدأ الوراثي: ببساطة، تم تخصيص إقطاعي ناصر الملك قارا وماهوبا، لابنه المتبنى سليمان[54]. ثم تبعه ابن ناصر الملك ملك شاه، لفترة وجيزة، في قيادة مُلْتان؛ وبعد موته، نقل سليمان إلى مُلْتان، حيث خلفه، بدوره، ابنُه هو، خضر خان[55].

يشير التلميح إلى نظام المناصب الوراثية في كتاب **فتوحاتي فيروز ـ شاهي**، إلى أن السلطان كان يفاخر به بعض الشيء، كما يعتبره مؤلفُ **السيرة**[56] من حَسَنات السلطان ومآثره. غير أن احتمال تأدية سياسة كهذه، إلى زرع موظفين غير أكفاء وغير مؤهلين لأداء مهماتهم المحددة في الأجهزة الوزارية، **ديواني وزارات**، مثلاً، كان مصدر شكوى شمس الدين أبو رجا، حين كان مراقباً عاماً (**مستوفي ممالك**)[57]. ولدى تطبيقه على الإدارات المناطقية، كان من شأنه الإفضاء، مع مرور الزمن، إلى خلق المصالح الإقليمية المتجذرة والإمارات المستقلة، التي ما لبثت أن برزت في حقبة أحفاد فيروز شاه.

الحرب الأهلية الأولى

يطلعنا اثنان من المؤلِّفين هما: سرهندي وبيهاماندخاني، على أشياء

---

(53) عن مثالين من **ديواني وزارات**، انظر عفيف، 482.

(54) TMS، 133.

(55) TMS، HN182 .، 632، قد يكون على خطأ في تأكيد كون تعيينات خلفاء ماردان قد بدأت بعد موت فيروزشاه؛ كان خضرخان الذي حصل على لقبه في 791 هـ / 1389م، فيما مضى، حين كان مُقْطَعاً لِمُلْتان، قد حمل هو نفسه لقب ناصر الملك: TMS، 146، 147.

(56) FFS، 18 ت. روي؛ 463). SFS، 153 ـ 155.

(57) عفيف، 474 ـ 475.

كثيرة عن أحداث الأزمة التي بدأت في سنوات انحطاط عهد فيروز شاه[58]. ولكن السبيل إلى تفسير تلك الأشياء، هو الأكثر مراوغة؛ وهنا نجد عفيفاً يزودنا، عبر سلسلة من الإشارات العابرة، إلى المشكلات في كتابه **تاريخ فيروز شاه**، برؤيا أكثر عمقاً. يبدو أن نشاطات شمس الدين أبو رجا، الذي كان قد عادى جميع الأمراء، والذي جاءت فضيحته عام 786 هـ / 1384م سابقة للأزمة، كانت قد أغرقت الدولة في بحر من الفوضى[59]، ربما لأن الأرستقراطية رأت استقلالها المالي مُعَرَّضاً للخطر. ولا بد أيضاً أن نتذكَّر أن فيرز شاه كان قد أصبح متقدماً، نسبياً، في السن (كان في الثالثة والثمانين من سنواته القمرية حين وافته المنية عام 790 هـ / 1388م) وكان طريح فراش المرض منذ عام 786 هـ / 1384م، كما كان معظم، أو جميع، مجايليه من النبلاء قد سبقوه، كما يقول عفيف، إلى دار الحق[60]. ربما كانت الروابط الجامعة بين السلطان والجيل الجديد من الأمراء، قد تراخت وضعفت. غير أن ما جلب الكارثة، خصوصاً، على الامبراطورية، كان، برأي عفيف، متمثلاً بالتنافس بين الوزير، خان جهان (الثاني) ومحمد بن فيروز شاه[61].

خلال سنوات السلطان الأخيرة، كان الوزير قادراً على ممارسة السلطة الفعلية غير المنقوصة، واستغل الفرصة لإزاحة وإبعاد عدد غير قليل من الأمراء والملوك المعارضين له[62]. شكَّلت وفاة حفيد فيروز شاه، فاتح خان عام

---

(58) عما يلي، انظر عموماً HN، 618 ـ 622؛ حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 441 ـ 450.

(59) عفيف، 455 ـ 456، 457، 459، 492، 498.

(60) عفيف، 444 ـ 445، 497 (حيث يقال إن الأكثرية ماتت في 781 هـ / 1379 ـ 1380م) 498. للاطلاع على لائحة أسماء كبار الأمراء الذين قضوا قبل 772 هـ / 1370 ـ 1371م، بمن فيهم خوداوند خان وداودخان بن بايو، وابن مهرو واختيار الدين نوا، انظر SFS، 154 .

(61) عفيف، 427.

(62) TMS، 135 ـ 136.

778هـ / 1376م، ضربة موجعة بالنسبة إليه[63]. ويزعم بيهاماندخاني أنه اختار لوراثته ابن حفيده، ابن فاتح خان، تُغْلُق شاه (انظر الملحق رقم: 6)[64]. وحين حاول الوزير في 788 هـ / 1387م، أن يوغر صدر السلطان الدُّمية ضد ابنه الباقي الوحيد، الأمير محمد، نشأت أزمة؛ اضطر لأن يلوذ بالفرار، ولكنه ما لبث أن قُتل في إقليم ميو. ومن أولئك الذين أُعدموا من أتباع الوزير، بعد الإطاحة به، ملكُ بهزادي فاتح خاني، وربما مملوك سابق لدى الأمير فاتح خان[65]، كما قد نكون بصدد التعامل، ببساطة، مع جماعتين كانتا قد تحالفتا حول كل من محمد من جهة، وذرية شقيقه الأكبر، من جهة ثانية. جرى تعيين محمد وزيراً، ثم أُجلس على العرش كسلطان شريك في شعبان 789 هـ / آب 1387 م. وفي هذه المرحلة، يقال لنا، كان متمتعاً بتعاطف ليس فقط الأمراء وأهالي العاصمة، بل ومماليك فيروز شاه[66]. ربما التحقت هذه الجماعة برَكْبِه كُرهاً للوزير، لأن المماليك الرئيسيين كانوا قد شعروا بالخطر، كما قيل، في تاريخ سابق، جراء تزايد نفوذ خان جهان الأول[67]. إلاَّ أن المماليك ما لبثوا أن انقلبوا، بعد خمسة أشهر، على محمد، حسب رواية سرهندي، بسبب كرههم لبعض المقرَّبين، مثل سماء الدين (الملقب بمعين الملك الآن)، وكمال الدين (دستور خان) نجلي ملك عمر، الـ **عارضي يانداغاني خاص**؛ وإن عفيفاً يعزو تغير الولاء، بغموض، إلى المبالغ الهائلة التي تركها **عارض** السلطان القديم ملك بشير عماد الملك[68].

ما لبث محمد، هو الآخر، أن طُرد من العاصمة فانسحب إلى

---

(63) عفيف، 494.

(64) بيهاماندخاني، ملف 414 أ (تر. زكي، 16).

(65) TMS، 137.

(66) TMS، 136 ـ 137.

(67) عفيف، 415.

(68) TMS، 139. عفيف، 400.

نغاركوت، وبات السلطان القديم معتَرَفاً به كحاكم شريك باسم تُغْلُق شاه، الذي جرى تنصيبه تحت لقب السلطان غياث الدين لدى وفاة فيروز شاه في الثالث عشر من رمضان 790 هـ / العشرين من أيلول 1388 م. إلاّ أن تُغْلُق شاه ووزيره ملك زاده فيروز (فيروز خان) بن تاج الدين ترك (جد حكام كالبي اللاحقين)، قُتلا، يوم 21 صفر 791 هـ / 20 شباط 1389م، في انتفاضة قادها **نائب الوزير** ركن الدين جوندا، الذي نَصَّب أبا بكر شاه، أحد أحفاد فيروز شاه، على العرش. تم ترفيع جوندا إلى مرتبة وزير، غير أنه ما لبث أن سارع إلى التآمرلإزاحة أبي بكر أيضاً، ربما معلناً حفيداً آخر من أحفاد فيروز شاه، يدعى فيروز شاه بن ظَفَر حاكماً، ولكنه قُتل[69]. خلال العامين التاليين، قام محمد، الذي اتخذ مقراً له في سامانا أولاً، وفي جاليسار بإقليم الدواب بعد ذلك، بإرسال قوات لنهب وتخريب المناطق المحيطة بدلهي، كما بادر شخصياً إلى بذل ثلاث محاولات غير موفقة، لاحتلال العاصمة.

كان الوضعُ، كما لاحظ سر هندي، وضعَ استنقاع وجمود، لتعذُّر خلع أبي بكر، الذي بقي عاجزاً، حتى بعد الانتصار، عن مغادرة العاصمة لمطاردة عدوه؛ وفي الجهة المقابلة، كان يقف في صف محمد «جميع الأمراء والملوك والقوات (الحشم) والخدم مع رعية الامبراطورية»[70]. كانت قوة أبي بكر تكمن في حيازته للعاصمة، ولمجموعات الفيلة، كما في ولاء مماليك جدّه[71]. إن محمداً، الذي اعتبر هؤلاء العقبةَ الرئيسية على طريق نجاحه، أوعز إلى أنصاره في الأقاليم، أن يبادروا إلى اعتقال وقتل جميع مماليك السلطان القديم في

(69) «ملاحظة حول قطعة نقدية ذهبية تحمل اسم الأمير فيروزشاه ظفر، ابن فيروزشاه من دلهي»، JASB 40 (1871م)، 160. توماس، 300، غير أن المؤلفين، كليهما، يخطئان إذ يفترضان أن الأمير الذي ورد اسمه هو ابن السلطان العجوز ظفر وأن هذه الولادة الحاصلة سنة 791 هـ كانت بالتالي بعد موته. قارن أيضاً CMSD، 191 ـ 194 أ (رقم: 771 ـ 779 آ)، 223 ـ 224.

(70) TMS، 148.

(71) TMS، 146. بيهامادخاني، ملف 421 ب، 422 أ (تر. زكي، 30، 31).

التاسع عشر من رمضان 791 هـ / الحادي عشر من أيلول سنة 1389م[72]. يشكّل هذا الإعدام الجماعي، شاهداً على وجود تأييد واسع لمحمد بين صفوف الطبقة العسكرية، خارج مجمع دلهي. كان تُغْلُق خان قد نفى غالب خان، ابن وخلف ملك مقبول «قران خان»، وحرمه من سامانا؛ غير أن من عيَّنه مُقْطَعاً قُتل في صفر 791 هـ / شباط 1339م، على أيدي أمراء المئين **الأميران صدا** في تلك المنطقة، الذين قاموا بدعوة محمد، واستعادة غالب خان[73]. ومن القادة الذين التحقوا مع قواتهم بركب محمد، دعماً لهجماته المختلفة على دلهي، مُقْطَعا مُلْتان وبيهار، نجلا حاكمي قِنَّوج وأوَذ، وزعماء المئين والبهاتي الذين كانوا يملكون إقطاعات في البنجاب الشرقي، و**مقدمون** من المرتفعات (سفوح جبال قراشيل ربما)، وعدد من الرايات والرانات من إيتاوا[74]. أما تأييد أبي بكر، فلم يكن موجوداً إلاَّ في آلوار، حيث كان بوسعه التعويل على زعيم الميو بهادور ناهير[75]. وفي گوجرات كان النائب، المملوك الفيروز شاهي المعروف باسم ملك مفرّج سلطاني، قد أقدم سنة 789 هـ / 1387م على قتل سيكاندر خان، الواصل حديثاً بوصفه والياً عن محمد، وكان قد تم الاعتراف به من قبل تُغْلُق شاه والياً تحت اسم رشتي خان؛ غير أننا لا نعلم ما إذا كان قد حَوَّل ولاءه إلى أبي بكر[76].

ليس واضحاً لماذا حصل، في رمضان 792 هـ / 1390م، انشقاق في صفوف المماليك، وبادرت مجموعة منهم، برئاسة إسلام خان مبشري تشاب

---

(72) TMS، 146؛ عن المذبحة، انظر، 147.

(73) TMS، 140، 145؛ عن غالب خان المستعاد في سامانا، المصدر نفسه، 147، 156. ونَسَبَهُ وارد في بيهامادخاني، ملف 431 ب (تر. زكي، 45).

(74) TMS، 145، 146 ـ 147.

(75) TMS، 146، 149، 151؛ كان أيضاً قد دعم تُغلُق شاه (المصدر نفسه، 142). بيهامادخاني، ملف 423 أ، 426 (تر. زكي، 32، 35).

(76) TMS، 138؛ أيضاً 142 عن اعتراف تُغلُق شاه.

سلطاني، إلى دعوة محمد. قد تساعد حقيقة وجود مماليك فيروز شاهين ـ مثل ملك سروار، **شحنة** دلهي، الذي كان محمد قد استوزره منعماً عليه بلقب خواجا جهان، والذي يظهر، باستمرار، على أنه تابعه الوفي ـ في حزب الأمير الخاص[77]، على تفسير استعداد مماليك معينين في معسكر أبي بكر، لتمكينه من الاستيلاء على العاصمة. أضف إلى ذلك، أن بيهامادخاني يقول إن ملك شاهين سلطاني، الملقب بعماد الملك، القائد السابق **لپيلخانة** فيروز شاه، كان قد طُرد من المدينة من قِبَل الأمراء المسؤولين عن مبادرات انفتاح على محمد[78]، موحياً بأن الانقلاب في الولاء، ربما جاء مرتبطاً بالتنافس بين إسلام خان وعماد الملك. غير أن محمداً، وقد أصبح ممسكاً بزمام فرقة الفيالة (راكبي الفيلة)، وموفراً، ربما، ضمانة لحليفه الجديد إسلام خان. كان قد أمر بطرد جميع المماليك من دلهي أو إعدامهم[79]. سارع خواجا جهان ساروار، الذي كان إسلام خان قد خلفه وزيراً، سنة 794 هـ / 1392م، إلى سوق جملة من الاتهامات ضد منافسه وغريمه؛ وقد تم إعدام إسلام خان، رغم خدماته الكثيرة في الاشتباك الأخير مع أبي بكر[80]. ثمة نُتَفُ أنباءٍ بقيت تتردد بين الحين والآخر، بعد ذلك التاريخ، عن مماليك فيروز شاهيين[81]؛ إلاّ أن جلوس محمد على العرش، يشكل منعطف تدمير هذا العنصر سريع التقلب، كقوة قادرة على تنصيب السلاطين وعزلهم.

---

(77) TMS، 146، 147، 152 ـ 153. بيهامادخاني، ملف 421 ب (تر. زكي، 30). عفيف، 338، يقول إنه كان مسؤولاً عن مستودع مجوهرات فيروزشاه (**جواهر ـ خانه**).

(78) TMS، 148، 149 ـ 150. بيهامادخاني، ملف 421 أ، 423 أ (تر. زكي، 29، 32). عن شاهين، انظر أيضاً عفيف، 338.

(79) TMS، 149 ـ 150، بيهامادخاني، ملف 425 ب، قائلاً إن السلطان **عهدو بايمان با ـ تا جديد دار آورد**، مع إسلام خان (تر. زكي، 34).

(80) TMS، 152 ـ 153. بيهامادخاني، ملف 430 ب (تر. زكي، 44)، يروي قصة أكثر إيجازاً عن المؤامرة ولكنه لا يأتي على ذكر دور الخواجاجهان.

(81) TMS، 160. يزدي، ZN، تحقيق إلاهْداد، II، 64 / تحقيق أورونبايف، ملف 310 أ، يبدو، مع ذلك، عاطفاً العبارة (خطأ) على مالو إقبال خان وأصحابه.

برأي بيهامادخاني، جاء انتصار محمد بالسلم والهدوء[82]. أما أبو بكر المطرود من دلهي، فقد هرب إلى آلوار حيث هزمته قوات عمه في محرم من العام التالي / كانون أول 1390 م؛ وما لبث أن مات بعيد ذلك، وهو سجين في آمروها. سارع السلطان أيضاً إلى استعادة سلطته ونفوذه في گوجرات، حيث تم، في صفر 794 هـ / كانون الثاني 1392م، إلحاقُ الهزيمة بالخصم مفرِّج (رشتي خان) وقَتْلِه من قِبَل عامل محمد، ظفر خان وجيه الملك[83]. غير أن مديح بيهامادخاني لا ينطبق إلاَّ على العاصمة والمناطق الأبعد غرباً، لأن السلطان اضطر لقضاء باقي عهده، وهو يحارب الزعماء الهندوس في آلوار والدواب.

فقدان الأرض لصالح الكفار

يقول سر هندي «جراء الصراع بين المسلمين على السلطة، بات كفار هندوستان أكثر قوة، وعزفوا عن دفع الجزية والخراج وقاموا بنهب البلدات **(القصبات)** الإسلامية[84]. وكما رأينا، فإن السنوات الأخيرة للسلطان العجوز، لم تكن خالية من الاضطرابات، غير أن الأمراء الهندوس بادروا، على ما يبدو، إلى تأكيد ذواتهم بقَدْر أكبر من التصميم والحسم، غداة طرد محمد من دلهي عام 789 هـ / 1387 م. ثمة مؤشرات دالة على وجود صراع مع الهندوس المحليين حوالي نغوار في ذلك العام كما في 791 هـ / 1389م مرة أخرى، حين قُتل نائب **شقة** نغوار وجالور[85]. إن ما لدينا من معلومات عن الأوضاع في المناطق الجنوبية من الدواب، كما في إيتاوا مثلاً، والمناطق الواقعة إلى

---

(82) بيهامادخاني، ملف 424 ب (تر. زكي، 33).

(83) هاراوي، III، 83، 84 ـ 85. ميسرا، 141 ـ 142، مستشهداً بـ **طبقاتي ـ محمود شاه ومرآتي سيكانداري**، لعرض الأحداث التاريخية في گوجرات خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر على التوالي.

(84) TMS، 147.

(85) ARIE (1975 ـ 1976م)، 163 (د 188). ARIE (1969 ـ 1970م)، 93، (د 167).

الجنوب من اليمونه، التي لن تلبث، فيما بعد، أن تشكِّل إمارة كالبي المستقلة، أوْفَى وأكمل. ففي إيتاوا، عاد أودّهاران وسومرا، اللذان كانا قد دعما محمداً، إلى البلاد، وقادا حركة تمرد في أعقاب اعتلاء تُغْلُق شاه العرش، وألحقا هزيمة كبرى بملك محمود، الذي كان حاكماً **لشقة** فيروزبور، خلفاً لأبيه، الوزير فيروز خان بن تاج الدين تِرك. جرى تسليم تُغْلُق بور إلى العدو، في حين سقطت بلدات تشانداوار وبهونغاؤون، وريوا، مع غيرها بأيدي الأمراء الهندوس. آنياً، كان ملك محمود قادراً على فعل ما هو أكثر من احتلال كالبي، التي أعاد تسميتها مطلِقاً عليها اسم محمد آباد، عام 792 هـ / 1390م، وجعلها مقر قيادة له[86].

في 794 هـ / 1391 ـ 1392م، نزل محمد إلى الساحة لمحاربة العدو في إيتاوا، حيث كان أودهاران وسومرا قد استباحا بالارم. وبعد قيامه بمسح إيتاوا عن وجه الأرض، عاد محمد، عبر الغانج، وقام بتأديب هندوس قِنَّوج ودالماو، بانياً قلعةً في جاليسار، التي أعاد تسميتها: محمد آباد. وفي آلوار، استمر بهادورناهير الذي كان، باطراد، في صف خصوم محمد شاه في تحدِّي الأخير، فتوجب طرده من كوتلا؛ أما في الغرب، فقد ثار زعيم الخوخار: شايخا ونهب لاهور في 796 هـ / 1394م، وكانت حملة تأديبية قيد الإعداد، بقيادة ابن محمد شاه، همايون خان، حين قضى السلطان نحبه[87].

الحرب الأهلية الثانية

لم يدم استمتاع محمد بالعرش، الذي كان قد خاض في سبيله مثل هذا النضال العنيد والحاسم، طويلاً، لأنه تُوُفي في السابع عشر من ربيع الأول

---

(86) هذه الأحداث موصوفة فقط من قبل بيهامادخاني، ملف 418 ب ـ 419 ب.

(87) TMS، 154.

سنة 796 هـ/ العشرين من كانون الثاني 1394م[88]. أما همايون خان، الذي خلفه باسم علاء الدين سيكاندر شاه، فما لبث أن تبعه سريعاً إلى القَبْر، في الخامس من جمادى الأولى / الثامن من آذار، ليتم إعلان نجل أصغر سلطاناً باسم ناصر الدين محمود شاه. كان العاهل الجديد سيثبت أنه أكثر من مجرَّد صِفْر أو رمز أجوف. ثمة ما يوحي بأن تنصيبه لم يحظ إلاَّ بقدر قليل من التأييد والدعم، لأن الوزير خواجا جهان سروار كان قد اضطر لإقناع الأمراء الذين كانت أقاليمهم واقعة إلى جهة الغرب، مثل غالب خان الساماني والراي كمال الدين مائين، بعدم مغادرة دلهي، قبل الالتزام بالولاء[89]. غير أن الخواجا جهان أُرسل في رجب 796 هـ / 1394م، على رأس جيش نحو الشرق، مع عشرين فيلاً ولقب سلطان الشرق، مؤتمناً على الأقاليم الممتدة «من قِنَّوج إلى بيهار»، ليتمكن من تطهير المنطقة من الزعماء الهندوس العصاة والمتمرِّدين[90]. أقام مقر قيادته في جاوبور، ولم يعد إلى دلهي قط مرة أخرى. كانت السلطة في القصر، موضوع صراع بين عدد من أمراء الحرب، وخصوصاً محمد (تترخان)، ابن وجيه الملك ظَفَرخان والي گوجرات، ومجموعة يعتبرها بيهاماندخاني مماليك محمد شاه الأكثر أهمية **باندغاني كبيار**، ولا سيما مقرب المُلْك (المعروف بمقرَّب خان)، وعبد الرشيد سلطاني (الملقب بسعادات خان)، ومالّو (إقبال خان لاحقاً). تمَّت الإطاحة بسعادات خان عن طريق مؤامرة تواطأ معها مالّو، فلاذ بالفرار ولجأ إلى تترخان. وكان حِزْبُ تترخان، بعد فقدان السيطرة على السلطان، قد بادر في

(88) عن الحرب الأهلية الثانية، انظر عموماً HN، 623 ـ 625؛ حسين، **الأسرة التُغلُقية الحاكمة**، 452 ـ 60. لال، **غروب شمس**. . . 8 ـ 12.

(89) TMS، 156.

(90) المصدر نفسه، 156، 157. يجري تعقب حياته العملية في ميان محمد سعيد، **سلطنة جاونبور الشرقية** (كراتشي، 1972م) 20 ـ 35.

محرم 797 هـ / تشرين أول 1394م، إلى تنصيب ناصر الدين نُصْرت شاه، أحد أشقاء تُغْلُق شاه الثاني الأصغر سناً، سلطاناً[91].

مرة أخرى، برز على الساحة سلطانان متنافسان، لكل منهما عاصمته ومؤسسته العسكرية، وكلٌّ منهما دُمْيَةٌ بأيدي مجموعة قوية من النبلاء. دام هذا الوضع ثلاثة أعوام، مع بقاء القتال بين الجانبين أمراً شبه يومي. لم يكن فريق محمود شاه يسيطر، برأي سر هندي، إلاّ على دلهي القديمة وسيري. أما في فيروز آباد، فإن نُصرت شاه وتترخان كانا متمتعين بولاء الدواب، جنباً إلى جنب، مع ولاء كل من سونبات وبانبيات وجهايهار وروهتاك[92]. إن من شأن حذف اسم أي من أقاليم السلطان الأخرى أن يسلط الضوء على مدى ضآلة تأثير الأحداث الجارية في المركز، علاوة على المناطق والولايات الرئيسية، على الرغم من أن القطع النقدية والمنقوشات، ظلّت تشي بنوع من الولاء الاسمي: فمحمود شاه كان معترفاً به في الأقاليم الخاضعة لسيطرة خواجا جهان، في حين كان ظفرخان في گوجرات موالياً لنُصْرت شاه[93].

لدى سرده لقصة غزو تيمور بعد بضع سنوات، كان المؤرخ التيموري شرف الدين يزدي، متوهماً أن مالوا وأخاه سارانغ خان كانا، منذ تولي محمود شاه لمنصب ولاية دَيْبلْپور، السيدين والحاكمين الفعليين لإمبراطوريته[94]؛

---

(91) المصدر نفسه، 158 ـ 159، بيهاماندخاني، ملف 432 ب ـ 433 أ (تر. زكي، 47 ـ 48)، وحده يشير إلى مالّو والآخرين بوصفهم مماليك لمحمد شاه؛ إنه لا يأتي على ذكر المؤامرة ضد سعادات خان، ويزيد من إبراز دور تترخان مقارنة مع سرهندي على هذا الصعيد. يبدو أن لقب نصر الدين هو شمس الدين في المنقوش العائد إلى سنة 797 هـ / 1395 م: ديساي، «منقوشات خلجية وتُغلُقية من گوجرات»، 37 ـ 38.

(92) TMS، 159 ـ 161. بيهامادخاني. ملف 433 (تر. زكي، 48).

(93) ديساي، «منقوشات خلجية وتُغلُقية من گوجرات»، 34 ـ 38. سيد يوسف كمال بخاري، «منقوشات من مانير»، EIAPS (1951 ـ 1952م)، 15 ـ 16.

(94) يزدي، ZN، تحقيق الأفْداد II، 14 ـ 15 / تحقيق أورونبايف، ملف 296 أ (مكرر في 301 أ). عن تعيين سارانغ خان، انظر TMS، 156.

وقد بيَّنَ البروفسور هامبلي كيف أن الشراكة المطلوبة للسيطرة على السلطنة كانت هدفاً لقاعدتين متمايزتين، هما قاعدة سارانغ خان في البنجاب من جهة، وقاعدة مالّو إقبال خان في دلهي[95]. فمن ديالبور، كان سارانغ خان قد أطلق سنة 798 هـ / 1395 ـ 1396م مسعى دؤوباً لإخضاع الأقاليم المجاورة لسيطرته وتحكُّمه هو (وسيطرة محمود شاه، بصورة غير مباشرة، بالتالي). تم إلحاق الهزيمة بشَيْخا، واحتُلت لاهور من جديد[96]. بل وبقي سارانغ خان واضعاً يده على مُلْتان، لبعض الوقت؛ فالمُقْطَع: خضرخان أُسر، ولكنه ما لبث أن لاذ بالفرار، لاحقاً. أما حين شن سارانغ خان هجومه على سامانا، فقد بادر غالب خان إلى التماس معونة تترخان الذي نجح، في محرم 800 هـ / تشرين الأول / أكتوبر 1397م، في إلحاق الهزيمة بسارانغ خان، وإعادته مطروداً إلى مُلْتان، معيداً تنصيب صنيعته في سامانا[97]. وفي ذي القعدة / تشرين الأول / أكتوبر ـ تشرين الثاني / نوفمبر 1398م تحرك مالّو، الذي كان في هذه الأثناء قد والىٰ نصرت شاه مؤقتاً، لا لشيء، إلاَّ ليضع يده على فيَلَتِهِ، وكان بعد ذلك قد تولى قيادة المجموعة المنافسة، عبر الإجهاز على مقرّب خان، ضد قاعدة تترخان في بانيبات، التي تمكن من احتلالها. أما تترخان، الذي أضعفه تخلي كبار مؤيديه عنه، فلاذ بأبيه في گوجرات[98]. وهكذا، فإن مالّو إقبال خان بقي مسيطراً دون منازع، على العاصمتين كلتيهما: دلهي وفيروز آباد،

---

(95) غافين ر. ج. هامبلي «غروب شمس دلهي التُغلُقية»، في فريكنبرغ (محرراً)، **دلهي عبر العصور**، 47 ـ 56.

(96) TMS، 157 ـ 158.

(97) المصدر نفسه، 161 ـ 162. لا يرد ذكر أسر خضر خان إلاَّ على لسان يزدي، ZN، تحقيق الأهْداد، II، 175 (محذوف من الطبعة التي حققها أورونبايف، ملف 341 أ).

(98) TMS، 163 ـ 165. بيهامادخاني، ملف 433 ب ـ 434 ب (تر. زكي، 49 ـ 50). فضل الله بلخي ياوراً لمالّو في 801 هـ / 1398 م: غياث الدين يزدي، تر. سيمنوف، 121؛ شامي، ZN، I، 191؛ يزدي، ZN، تحقيق الأهْداد، II، 116 / تحقيق أورونبايف، ملف 324 ب. TMS، 160، يورده من قبل في قائمة أنصار نُصْرت شاه.

كما على السلطان محمود شاه. يوحي مسلسل تصرفاته المختلفة والمتعاقبة القائمة على النفاق والازدواجية، بأنه كان دائباً على تعزيز موقعه، رداً عى قضاء قوات تيمور على أخيه سارانغ خان في مُلْتان. غير أن مالوا نَفْسَه، ما لبث، بعد بضعة أسابيع فقط، أن تعرض للإزالة الفعلية من الوجود على يد تيمور[99].

الحدود الشمالية الغربية واجتياح تيمور

تقوم المصادر بتصوير عهد فيرزشاه متحرراً نسبياً من الهجمات المغولية[100]. غير أن مثل هذه الهجمات كانت، مع ذلك، لا تزال تشكل أحداثاً متكررة بانتظام. يكتفي برني بذكر غارتين ثانويتين، خلال فترة السنوات الست، التي سبقت توقفه عن الكتابة[101]. تمت الأولى، في مكان قريب من نهر السودرا (التشيناب)، في حين كانت الثانية في گوجرات، وهي التي صُدّت من جانب قوات السلطان جزئياً، ومن قِبَل **مقدّمي** المنطقة من ناحية أخرى، وربما جاءت مرتبطة بتشجيع بانبهينا، أمير سامّا، للمغول، ذلك التشجيع الذي يشكو منه ابن مهرو[102]. يحدثنا سرهندي، بإيجاز، عن أن المغول قاموا، نهاية سنة 759 هـ / 1358م، باجتياح إقليم دَيْبلْپور، ولكنهم ما لبثوا أن انسحبوا أمام تقدُّم قوات السلطان، بقيادة ملك قبول («قرآن خوان»)[103]. وأخيراً، فإن **السيرة** تزعم أن المغول درجوا على عادة التوغل في البياه، وإزعاج القرى، إلاَّ

---

(99) هامبلي، «غروب شمس...»، 50 ـ 51، يرى بالمثل أن نشاطات مالو وسارانغ خان كانت وثيقة الترابط. غير أنني لست مقتنعاً بقوله إن تحرك سارانغ خان ضد سامانا كان جزءاً من خطة رامية إلى الالتحاق بأخيه في سبيل تحسين مقاومة الغزو الوشيك لبير محمد. فتأريخ سرهندي يوضح بجلاء أن سارانغ خان كان قد تم استنصاله قبل إقدام مالّو على تدبير دسائسه المعقدة بين السلطانين المتنافسين.

(100) عفيف، 321.

(101) TFS، 601.

(102) IM، 101؛ وانظر أيضاً 320.

(103) TMS، 127. ما لبث قران خوان أن أصبح، لاحقاً، مُقْطَع سامانا.

أنها تشير إلى هزيمة ألحقها بهم جيشُ دلهي، في سنة قيام فيروز شاه بحملته الناغاركوتية (أي حوالي 767 هـ / 1365 1366م)[104]. بلغ قلقُ السلطان بشأن الحدود المغولية مستوى جعله ينقل إليها، من الشرق، ناصرَ المُلْك مالكَ مردان دولت، لافتقاره المزعوم إلى أي شخص آخر، من النوعية أو الطينة الضرورية للتعامل مع الخطر المغولي[105].

لا تنبئنا المصادر بما هو أكثر من ذلك؛ فضلاً عن أن الهجمات التي نعلم عنها ليست سهلة الارتباط بأحداث جارية، في الأقاليم الجغتائية. فموت حليف محمد بن تُغْلُق، نويان القراؤونيين، قازاغان، سنة 759 هـ / 1358م كان قد دشَّن فترة مستديمة من الصراع، بين قادة العشائر واستجر عمليتي تدخل وجيزتين في بلاد ما وراء النهر، من جانب خان الجغتائيين الشرقيين، تُغْلُق تيمور. وتيمور هذا، وهو أحد أبناء عشيرة بارلاس التركية ـ المغولية، تعاون مع حفيد قازاغان، حسين، ضد الغُزاة؛ غير أن الحليفين سرعان ما تشاجرا، وأقدم تيمور، سنة 771 هـ / 1369 ـ 1370م، على سحق حسين والحلول محله، بوصفه الحاكم الفعلي للقبائل الجغتائية الغربية[106]. ترددت أصداء هذه الانتفاضات والاضطرابات في المناطق الحدودية الهندية، كما في بلاد ما وراء النهر. يقال إن جيشَ تُغْلُق تيمور قام سنة 763 هـ / 1361 ـ 1362م، بنهب المنطقة وصولاً إلى هندوكوش[107]. وكان أولاد قازاغان قد هربوا إلى كابُل وغزنة، إثر مقتل أبيهم، ويبدو أن المنطقة شكلت مركز انطلاق حسين الذي ركز نشاطه هناك في سنة 761 هـ / 1360م، وتمكن فيما

---

(104) SFS، 285 ـ 286.

(105) TMS، 133: يشير السياق بعقد سبعينيات القرن الرابع عشر.

(106) بياتريس فوربس مانز، «أمة (دولة) الجغتاي قبل صعود نفوذ تَمُر وبعده: التحول من اتحاد قَبَلي إلى جيش فتوحات»، CAJ 27 (1983م)، 86 ـ 95، وكتابها **صعود وحكم**. . .، 41 ـ 57.

(107) شامي، ZN، I، 18 ـ 19. يزدي، ZN، تحقيق الأهْداد، I، 59 / تحقيق أورونبايف، ملف 100 أ. ب. جاكسون، «تُغلُق تَمُر»، .Enc. Isl².

بعد، بمساعدة تيمور، من استعادة كابُل من خصومه[108]. لقد رأينا كيف أن الأمراء المغول لاذوا بما وراء الإندوس، بحثاً عن ملجأ، خلال السنوات الأولى من القرن؛ كما أن القادة الذين خرجوا خاسرين من هذه الصراعات الجديدة، توجهوا، بالمثل، نحو الهند، مثل ما فكر حسين أن يفعل في إحدى المنعطفات، وكما فعل أبناؤه غداة الإطاحة به سنة 771 هـ / 1369 ـ 1370م[109]. إلاَّ أن مصادرنا الهندية لا توفّر، ما يكفي من التفاصيل، لتمكيننا من إقامة أية روابط، مع العدد القليل من الغارات المغولية التي تقوم بتسجيلها.

ما إن كان تيمور قد نجح في اقتلاع حسين كحاكم **فعلي** للنصف الغربي من الدولة (الأمة) الجغتائية، حتى بات حيوياً بالنسبة إليه أن يصرف طاقات القبائل على حملات خارجية؛ وقد شكل هذا، في الوقت نفسه، وسيلة لحرمان الأمراء (النوبانات) المنشقين من أي ملجأ خارج الدولة (الأمة)[110]. إلاَّ أن تيموراً، الذي لم تكن الدماء الجارية في عروقه دماء جنكيزية والذي كان يحكم الأمة عن طريق خان دُمْيَة (اختير من سلالة أغودي)، رأىٰ أن من واجبه إعادة تأسيس إمبراطورية جنكيزخان، ولو على شكل محميات خاضعة للسيادة الجغتائية إلى حد كبير[111]. وانطلاقاً من هذه الفكرة، شنَّ سلسلةً من الهجمات على المملكة الكرتية في هراة، التي كان حاكمها «الطاجيكي» قد أظهر وقاحة تقلُّد لقب السلطان؛ على القوى الأخرى المختلفة، التي كانت قد

---

(108) ناتانزي، 197. شامي، ZN، ا، 51. يزدي، ZN، تحقيق الأَهْداد، ا، 48 / تحقيق أورونبايف، ملف 97 أ، 130 ب.

(109) شامي، ZN، ا، 31. يزدي، ZN، تحقيق الأَهْداد، ا، 71، 206 / تحقيق أورونبايف، ملف 103 أ، 139 أ.

(110) مانز «أمة (دولة) الجغتاي...»، 98.

(111) هانس روبرت رويمر، «تَمُر في إيران»، في پ. جاكسون ول. لوكهارت (محررين)، **تاريخ إيران، كامبردج**، VI، **الحقبتان التَمُرية والصَفَوية** (كامبردج، 1986م)، 52، 57، 72.

برزت من زحمة أطلال وأنقاض الإيلخانية؛ كما على القبيلة الذهبية[112]. وعلى الرغم من أن التبرير الذي يُساق لتسويغ غزوه للهند، أواخر القرن، كان دينياً وملفوفاً بذرائع نشر الإسلام، فإن ذلك لم يكن إلاَّ قِناعاً: فجُلُّ ما يمكن قولُه على هذا الصعيد، هو أن الهدف ربما كان متمثلاً بمعاقبة حكام مسلمين، لإعطائهم كل هذا القَدْر من الحرية، للأعداد الكبيرة من رعاياهم وخدمهم الهندوس[113].

كان تيمور وفيروزشاه، حسب ما يقوله بيهامادخاني، قد تبادلا الرسائل، وقد يكون ذلك هو السبب الذي دفع محمداً بن تُغْلُق إلى التفكير، في إحدى اللحظات، بالتخلي عن النضال ضد أبي بكر شاه، والتماس مساعدة تيمور؛ وقد كان متوجهاً فعلاً إلى سمرقند مع مجموعة صغيرة من الأتباع، حين دُعي للقدوم إلى دلهي، من أجل الجلوس على العرش[114]. وعلى الرغم من أن الرحلة إلى ما وراء النهر، لم تكن ضرورية، فإن من الممكن أن تكون رسائل معينة قد تم إرسالها إلى سمرقند، بصورة مسبقة. غير أن الاحتمالات كلها تشير إلى أن تيمور لم يكن بحاجة إلى أية دعوة، ليبادر إلى التدخل في الفوضى السائدة داخل سلطنة دلهي، تلك الفوضى التي وفرت له فرصة مثالية للنهب، والسلب[115].

عَبَرَ حفيدُ تيمور، بير محمد، الذي حكم الجزء الأكبر من أفغانستان الحالية، من كابُل، نهر السِّنْد في ربيع أول 800 هـ / تشرين ثاني / نوفمبر ـ

---

(112) عن هذه الحملات، انظر المصدر السابق، 46 ـ 73؛ تيلمان ناغل، **تَمُر الفاتح والعالم الإسلامي أواخر العصور الوسطى** (ميونيخ، 1993م) 377 ـ 386؛ ثمة عرض موجز في مانس **صعود وحكم**. . . 76 ـ 73.

(113) انظر مثلاً، غياث الدين يزدي، **روز ـ مانه**، تر. سيمنوف، 60؛ شامي، ZN ،I، 170؛ يزدي، ZN، تحقيق إلاهداد، II، 15 / تحقيق أورونبايف، ملف 296 أ.

(114) بيهامادخاني، ملف 422 ب ـ 423 أ (تر. زكي، 32)؛ عن فيروزشاه وتَمُر، انظر ملف 442 ب (تر. زكي، 59 ـ 60).

(115) وجهة نظر رويمر، «تَمُر في إيران»، 70.

كانون الأول / ديسمبر 1397م، وهزَم القواتِ المرسلة لتحرير أوتشش، من قِبَل سارانغ خان، الذي ما لبث أن أُجبِر على الخلي عن مُلْتان منتصف صفر 801 هـ / أواخر تشرين الأول / أكتوبر. ومُرْسِلاً قوتَه الرئيسية عن طريق دَيْبالْپور وساماناً، زحف عبر بهاتنر وسارساتي، مستبيحاً الموقعين الحصينين كليهما، قبل الالتحاق، ثانية، بباقي قواته المسلحة على ضفاف الغاغار. خاض في السابع من ربيع الأول 801 هـ / 16 أيلول / سبتمبر 1398م، معركة مع مالّو إقبال خان ومحمود شاه، في السهل الواقع خارج العاصمة[116]. وعلى الرغم من أن الجيش الهندي قاتل بشجاعة، فقد هُزم. انسحب السلطان ومالو إلى داخل المدينة، ثم ما لبثا أن لاذا بالفرار، مالّو إلى داخل إقليم الدواب، ومحمود شاه إلى گوجرات، فيما كانت الخُطْبة في دلهي باتت تقرأ باسم السلطان الذي عينه تيمور، محمود خان الأوغودي[117]. لم يكن العوض الذي حصل عليه مواطنو دلهي يعني شيئاً حين توغلت قوات تيمور في المدينة ونشبت أشكال الفوضى: بدأت أعمال النهب في التاسع من ربيع الثاني / الثامن عشر من كانون الأول / ديسمبر واستمرت لبضعة أيام. وبعد زَحْفه شرقاً إلى ما وراء اليمونه، حيث اجتاح ميرات (التي كانت قد نجحت في التصدي لترما شيرين قبل سبعين سنة) وشن هجوماً غير موفق على قلعة هاردوار، انسحب تيمور أخيراً إلى جهة الغرب، عبر سفوح الجبال، مهاجماً جامّو على الطريق (منتصف جمادي الثانية / أواخر شباط / فبراير 1399م)[118]. ورغم كل تباهيه، فإن غَزْوَه كان قد أغرق الأمراء المسلمين، جنباً إلى جنب، مع الزعماء الهندوس، على حد سواء، في بحر مشترك وعام، من الدماء. يقول بيهاماندخاني إن سارانغ خان كان قد أُعدم؛ كما أن بهادورناهير، الذي كان قد

---

(116) TMS، 162، 163.

(117) شامي، ZN، I، 192؛ وانظر وودز، «صعود التاريخ التَمُري»، 104 ـ 105.

(118) عن مسح تفصيلي لحملة الهند، انظر لال، **غروب شمس**، 16 ـ 40.

استسلم بعد استباحة دلهي، ربما جرى تقييده بالسلاسل، وزعيم الخوخار شيخا، الذي كان قد عمل مرشداً للغزاة، اعتُقل مع أفراد أسرته، خلال رحلة عودة الفاتح[119].

قد يكون من المناسب طرح سؤال: ما الذي مكّن تيموراً من النجاح ـ من إلحاق الهزيمة بجيش السلطة والاستيلاء على عاصمتها ـ حيث كان أسلافُه الجغتائيون قد أخفقوا. الأسباب كثيرة، منها أن الغازي (الفاتح) كان يتصرف بموارد مادية وبشرية لم تكن متوفرة للأمراء الجغتائيين من أمثال قُطْلُغ قوتشا وترماشيرين، لأن حملاته في إيران وضد القبيلة الذهبية، كانت قد أكسبته خَراجاً، وفصائل قوات مسلحة من مناطق وأقاليم واقعة خارج حدود الدولة (الأمة) الجغتائية، في العقود السابقة من القرن؛ وكان أيضاً قد تمكن من إذابة القوات القَبَلية الجغتائية في بوتقة آلة حربية، أكبر وأكثر جبروتاً بما لا يقاس[120]. غير أن ما ينطوي على قَدْر أكبر من الأهمية، وما يجب تسجيله هو التدهور الحاد، الذي كان قد أصاب المؤسسة العسكرية لدى سلطنة دلهي في ظل حكم فيروزشاه وخلفائه.

تناقص موارد السلطنة

يُقَدِّر الكُتَّابُ التيموريون ـ وهم غير ميالين على الإطلاق ـ ونستطيع أن نكون واثقين ممّا نقوله ـ إلى الإقلال من شأن المقاومة التي سحقها بطلُهم خارج دلهي ـ الجَيْشَ الذي قابله به محمود شاه ومالّو بعشرة آلاف فارس، وعشرين ألف راجل، ومئة وعشرين فيلاً[121]. ولا تشكل هذه الأرقام إلاّ قوة

---

(119) يزدي، ZN، تحقيق، الإهداء، II، 127 ـ 128 / تحقيق أورونبايف، ملف 323 ب ـ 328 أ. TMS، 166 ـ 167. بيهامادخاني، ملف 307 أ (تر. زكي، 93).

(120) مانس، **صعود وحكم**...، الفصلان 4 و5.

(121) غياث الدين يزدي، **روز ـ نامه**، تر. سيمنوف، 115. شامي، ZN, I، 189. يزدي، ZN، تحقيق الإهداء، II، 100 / تحقيق أورونبايف، ملف 320 ب، يعطي 40,000 من المشاة، ولا يحدد عند =

مثيرة للشفقة والرثاء مقارنة بتلك التي رافقت فيروزشاه في حملاته. فذلك السلطان كان قادراً، للإعداد لحملتيه على البنغال، على تجييش قواتٍ مؤلفة من ثمانين أو تسعين ألفاً من الفرسان، وأربعمئة وخمسين فيلاً[122]؛ ولحملته على الثاتا، تسعين ألفاً من الفرسان، وأربعمئة وثمانين فيلاً[123]. يخبرنا عفيف، وقد يكون مديناً بهذه الأرقام لأبيه الذي كان يعمل في **ديوان الوزارات**، في مناسبة أخرى، أن السلطان كان لديه ما مجموعة ثمانون ألفاً من الفرسان، عدا مماليكه[124]. ومع ذلك، فإن مثل هذه الإحصائيات تبقى صوراً باهتة عن الأرقام الموجودة في سجلات تجنيد علاء الدين خَلْجي أو في السنوات الأولى من حكم محمد بن تُغْلُق.

لا يمكن إلقاء اللوم كله، عن الحالة غير الجيدة التي وصلت إليها المؤسسة العسكرية أيام غزو تيمور، على فيروزشاه. فالانخفاض في عدد الفيلة يعكس، حسب جميع الاحتمالات، حقيقة أن تلك الحيوانات التي كانت تُرسَل إلى سلطان دلهي، كجزية من البنغال وجاجنَغَر، باتت الآن تُرسَل إلى خواجا جهان في جاونبور، بدلاً من السلطان[125]. حتى حيث يمكن تعقُّب آثار التدهور وإرجاعه إلى حقبته ـ حقبة فيروز شاه ـ فإن من الحماقة إغماض العين عن الظروف التي كانت خارج نطاق سيطرة هذا الرجل. فالاطمئنان إلى عدم وجود خطر هجوم خارجي، ينطوي على عقابه الخاص المتمثل، كما اعترف عفيف، بحصول نوع من التدهور والانحطاط في نوعية الجيش، ومواصفاته

= هذه المرحلة عدد الفيلة. غير أنه يخبرنا فيما بعد أن 120 فيلاً تم وضع اليد عليها: تحقيق الإهداء، II، 118 / تحقيق أورونبايف، ملف 325 أ.

(122) عفيف، 144؛ غير أن عليك معرفة شيء عن الحملة الأولى أن تقارن 115 (ثلاث فرق يتألف كل منها من 30,000 من الخيالة)، وهوديغالا، **دراسات**، II، 123 ـ 124.

(123) عفيف، 197، 200.

(124) المصدر نفسه، 298. عن والد عفيف، انظر المصدر نفسه، 197. ديغبي، **جياد الحرب**، 24، 25.

(125) TMS، 157. ديغبي، **جياد الحرب**، 64، 76 ـ 77.

القتالية [جاهزيته القتالية بلغة عصرنا][126]. وعلى هذا الصعيد، فإن تراجع تواتر الهجمات المغولية كان من شأنه، دون شك، أن يكون قد لعب دوراً. علينا أيضاً، ألاَّ نستبعد جملة من العوامل الخارجية الفاعلة في عملية توفير الخيول الحربية. ففي أيام رحلات ابن بطوطة، درجت سهوب وبطاح القبيلة الذهبية على تصدير مطايا رائعة في قطعان يصل تعداد كل منها إلى ستة آلاف جواد؛ غير أن وفرة مثل هذه الخيول، ربما تعرضت، بصورة شبه مؤكدة، للتقلص إلى حد كبير، جراء الصراع بين العدد الكبير من خانات البوكية أو الجوكية منذ سنة 759 هـ / 1358م[127]. ومما ينطوي على معنى، أن أحداً لم يعثر على مخزونات كبيرة من القطع النقدية السلطانية العائدة، لما بعد عهد فيروزشاه، في الأراضي الروسية[128].

إلى أي مدى يمكن إرجاع التدهور في الفاعلية العسكرية إلى الظروف الاقتصادية؟ يبدو أن شهرة الازدهار الواسع التي اكتسبها عهد فيروزشاه مستمدة من ظرفين مترابطين ترابطاً وثيقاً هما: استعادة الإنتاجية الزراعية بعد موت محمد بن تُغْلُق، وحصول انخفاض في أسعار الحبوب مع الكثير من السلع الأخرى. وفيما يخص السبب الأول، فإن جهود فيروزشاه الشخصية، الرامية إلى تحسين أحوال الزراعة، معروفة جيداً. فالكثير من قنوات الري التي أمر بحفرها حوّلت مساحات الرعي التقليدية إلى أرض زراعية مزدهرة[129]. يكرس عفيف مجالاً خاصاً لقناتين، كانتا ترويان مؤسسة السلطان الجديدة، المعروفة باسم حصار فيروزا، موفرتين إمكانية زرع محصول ربيعي للمرة الأولى، إضافة إلى المحاصيل الخريفية التي كانت

---

(126) عفيف، 23.

(127) عن تجارة الخيل، انظر IB ,II، 372 ـ 374 (تر. جيب، 478 ـ 479)؛ ديغبي، **جياد الحرب**، 35 ـ 36.

(128) ديغبي، «النظام النقدي»، 100؛ آ. آ. بيكوف، «لُقى قطع نقدية هندية من العصر الوسيط في شرق أوروبا»، JNSI، 27 (1965م)، 151 ـ 155.

(129) TFS، 566، 567 ـ SFS571 .، 74 ـ 75، 161 وبعدها، 216 ـ 217.

تُجْنى تقليدياً في المنطقة[130]. ثمة أيضاً خطوات اتخذت لتحويل الأرض اليباب إلى زراعية، ولاستعادة المستوطنات والمزارع التي كانت مرتبطة بمؤسسات خيرية مثل أَضرحة المشايخ والسلاطين السابقين[131]. لقد مُنح **الدراويش (الفقراء)** وغيرهم من المحتاجين، مئة ألف **بيغا** من الأراضي البور[132].

ومع ذلك، لا يبدو أن التعافي الزراعي جَلَب معه انتعاشاً في القوة العسكرية التي كانت قد طَبَعَتْ العقد الأول من عهد محمد بن تُغْلُق؛ ويظهر أن السببين تمثلا، بتقلُّص في موارد الحكومة من جهة، وبزيادة في الإنفاق على الإنشاءات والأعمال الخيرية، من جهة أخرى. هناك ما يشير إلى أن ضريبة الأرض (الخراج) كانت، في تلك الأيام، قد خُفِّضَتْ إلى عشرين ـ بل وحتى عشرة ـ بالمئة[133]. أضف إلى ذلك، أن إجمالي الموارد كان، سنة 759 هـ / 1358م، قد حُدِّد، استناداً إلى جولة على الإمبراطورية قام بها حسام الدين جنيدي، بِستٌ **كرورات** وخمسة وسبعين **لاكاً (67,500,000 تانغا)**، وبقي على هذا المستوى حتى النهاية، مما حال دون استفادة الحكومة من الإنتاج المتزايد في الأقاليم[134]. وقد قيل لعفيف أيضاً أن إلغاء الضرائب غير الشرعية في 777 هـ / 1375 ـ 1376م كلَّفَتْ فيروزشاه مبلغَ ثلاثين **لاكاً** (3,000,000) من **التانغات**[135]. وفي الوقت نفسه، يقال إن السلطان قام بوضع مبلغ إجمالي وصل إلى 3,600,000 **تانغا** لصالح رجال الدين «العلماء» والمشايخ

---

(130) عفيف، 127 ـ 128.

(131) عفيف، 130، 332 ـ 333.

(132) عفيف، 179؛ للاطلاع على القراءة الصحيحة للجملة، انظر هوديغالا، **دراسات**، II، 129 ـ 130.

(133) رياض الإسلام، «بعض جوانب اقتصاد شمال جنوب آسيا في القرن الرابع عشر»، JCA، ج: 2 (1988م)، 9 وهـ. 21 (مستشهداً بمطهّر). ولكن قارن عفيف، 484، **ياكي باداه**.

(134) المصدر نفسه، 94، قائلاً إن جندياً جال في الامبراطورية ست سنوات؛ في 296 يكون الرقم ستة **كرورات** وخمسة وثمانين **لاكاً**. رياض الإسلام، «بعض جوانب...»، 17 ـ 18.

(135) عفيف، 378 ـ 379.

والأولياء[136]. ثمة رسالة لابن مهرو، تُلْقي بعض الضوء على الأوضاع في إقليم مُلْتان، ربما بعد بضع سنوات من اعتلاء فيروزشاه العرش. ففي معرض الرد على الانتقاد المتمثل، بين انتقادات أخرى، بأنه دأب على تخصيص أراض غير منتجة كمعاشات وهِبات، يقوم ابن مهرو بلفت الأنظار إلى حقيقة، أن إلغاء **المكوس** في ظل محمد بن تُغْلُق، إضافة إلى إخفاق فيروزشاه في إعادتها، ما لبث أن قلَّص موارد السلطان؛ كما يشير، في الوقت نفسه، إلى سخاء فيروزشاه في تخصيص، مبلغ مرتفع غير مسبوق، وصل إلى 300,000 **تانغا** لتسديد المعاشات والهبات[137].

تقوم رسالة ابن مهرو بإبراز مشكلة أخرى واجهتها الحكومة. إن قيمة الرواتب والمعاشات التي كانت قد حُدِّدَتْ عيناً في وقت فيه أسعار الحبوب عالية، كانت قد تعرضت لاختزال بالغ القسوة حين تهاوت تلك الأسعار ـ من مستوى مرتفع، يصل إلى ثمانين **جيتالاً** إلى ثمانية **جيتالات للمان** الواحد، إذا كانت أرقام ابن مهرو جديرة بالتصديق. وحتى بدون انحياز السلطان إلى صف الأسياد والمشايخ، وقضايا جديرة أخرى، كان لا بد من رفع مواز لمثل هذه المنح، بأسعار الحبوب لحماية المستفيدين من العوز[138]. من جهة أخرى، لم يشهد التضخم الحاد في أسعار أخرى، نتيجة قيام محمد بخفض قيمة النقد، أي تراجع معكوس، مما أبقى الحكومة في مواجهة فاتورة أعلى بكثير لشراء المواد الحربية الأساسية. فأسعار الجياد، مثلاً، زادت، كما يبدو، إلى ست بل ثمانية أضعاف ما كانت عليه، منذ أيام علاء الدين خَلْجي[139].

وهكذا، فإن المبالغ المتوفرة للإنفاق على الجيش، كانت قد تعرضت

---

(136) عفيف، 179، TFS، 559، يشير فقط إلى زيادة في المبلغ المخصص لتمويل صندوق التقاعد.

(137) IM، 79 ـ 80.

(138) IM، 74.

(139) ديغبي، **جياد الحرب**، 37 ـ 40.

للتقليص من نواح كثيرة. لعل ذلك هو السبب الذي كان قد دعا فيروزشاه ـ في تاريخ مبكر، لأن ذلك مذكور عند برني ـ لأن يعود إلى سياسة تسديد رواتب الجنود النظاميين بمخصصات من الأرض؛ وقد يكون عفيف مشيراً إلى هذا حين يزعم أن السلطان تخلى عن إمبراطوريته كلها على شكل إقطاعات[140]. وهو يطلق على الجنود المعنيين اسم **وَجْهْدارات**، مقارنة بمن هم **(غير وَجْهيين)** ممن كانوا يتلقون رواتبهم، إما نقداً أو على شكل **(براءات)** شيكات مسحوبة على الإيراد المحلي. معلقاً على رفض علاء الدين خَلْجي اعتماد مثل هذه الطريقة، بحجة تمخُّضها عن خلق مصالح محلية راسخة، يقوم عفيف بإيراد الأمر، وكأنه رأيُه الخاص، زاعماً مع ذلك، استحالة تحري أية آثار سلبية على امتداد السنوات الأربعين من حكم فيروزشاه[141]. غير أن مشكلات قصيرة الأجل كانت موجودة بالتأكيد. لعل أحد الفروق بين نمطي الجنود هو أن **الوَجْهْدار** كانوا مطالبين بتوفير جيادهم، مما جعلهم في وضع أسوأ، مقارنة **بغير الوَجْهيين** وأَحدث في صفوفهم قَدْراً غير قليل من الضيق والعوز، في أثناء انسحاب السلطان من ثاتا إلى گوجرات، حين فُقدت أكثرية الجياد جراء النفوق: تعين تسليف هؤلاء مبالغ كبيرة من القروض، نظراً لأن مخصصاتهم من الأرض كانت بعيدة جداً عن متناولهم[142]. غير أن آثاراً سلبية طويلة الأَجَل كانت هي الأخرى موجودة. يحدثنا عفيف عن جنود لم يكونوا يحصلون، لدى تقديم براءاتهم (شيكاتهم) إلى الإقطاعات، إلاّ على نصف المبلغ المستحق. وفي هذه الظروف كان كثيرون منهم مستعدين لبيع شيكاتهم في دلهي، بثلث القيمة الإجمالية المستحقة موفِّرين على أنفسهم الجهود والنفقات اللازمة للسفر

---

(140) عفيف، 94 ـ 95، TFS279 .، 553.

(141) عفيف، 96. عن نمطي الجنود المختلفين، انظر أيضاً المصدر نفسه، 193 ـ 194، 296؛ هوديغالا، **دراسات**، ا، 321 ـ 322.

(142) عفيف، 220 ـ 221.

إلى الإقطاع، مما أدى إلى نشوء سوق بالغة الخفة والرشاقة للاتجار بشيكات رواتب الجنود، فغدا عدد كبير من الأشخاص، أغنياء عن طريق شراء الشيكات بثلث القيمة الاسمية وصرفها في الإقليم المعني مقابل خمسين بالمئة من تلك القيمة[143].

في الوقت الذي تم فيه استحداث دفع الراتب عن طريق التخصيص، كان السلطان قد اعتمد إجراء آخر يجيز **للوجَهْدار** نقل مؤسسته **(استقامته)** إلى ابنه أو صهره: وفي حال عدم توفرهما كان لا بد لها من الانتقال إلى مملوكه أو بعض الأقارب، وفي غياب هؤلاء، أخيراً، إلى نسائه **(آورات)**[144]. إن العواقب السلبية التي ينطوي عليها مثل هذا الإجراء من وجهة النظر العسكرية، واضحة للعيان. فالشكوى التي قدمها ملك إسحاق، وهو ابن **العارض** بشير عماد المُلْك، إلى السلطان، قائلاً إن كثيرين من الجنود باتوا أكبر سناً من أن يكونوا صالحين للخدمة، تردِّد صدى رواية برني لقصة محاولة بلبان الرامية إلى تغيير حال الأمور في الأطراف (الحوالي)، والدواب بُعَيْدَ اعتلائه العرش. وقد أصدر فيروز شاه أمراً قضى بأنَّ على كل جندي لا يستطيع القيام بواجبه أن يؤمّن بديلاً (وكيلاً)[145]. ومع ذلك فإن هدف نظام السلطان ربما كان متمثلاً بتشجيع استثمار الأرض عن طريق إعطاء كل أسرة حصة دائمة في المساحة المحددة المخصصة لها. ورسالة ابن مهرو التي سبقت الإشارة إليها، تؤيد منح مساحة مؤلفة من أرض زراعية وأخرى بور، كراتب أو معاش تقاعدي[146]. من المؤكد أن ذلك كان منسجماً مع اهتمام السلطان الشخصي وحِرْصه على توسيع الرقعة المزروعة.

مهما يكن، لا بد لعدد قوات محمود شاه المسلَّحة سنة 1398م من إعطاء

---

(143) عفيف، 296 ـ 297.

(144) عفيف، 96. يحول ذكر النساء دون اعتبار **استقامات** «مرتبة».

(145) عفيف، 302 ـ 303.

(146) IM، 79 ـ 80.

فكرة عن الضربات التي تلقَّتها موارد السلطان جراء عقود من سوء الإدارة أولاً، ونتيجة سنوات من الصراع الداخلي بعد ذلك. وفي السنوات الأولى من عهد فيروزشاه، كان برني قد علق على مبالغة السلطان في محاباة الجيش[147]. أما عفيف فقد كان أكثر صراحة حين وصف كيف أصبح فيروزشاه يغُضُّ النظَرَ عن تقديم جياد وأسلحة دون المستوى، في الاستعراضات السنوية، وأعاد سَرْد قصة عن سعي السلطان نفسه لمساعدة جندي كان قد تأخر عن الموعد المحدد[148]. من المؤسف أن الأدلّة التفصيلية ضئيلة؛ غير أننا نبقى ميالين للاقتناع بأن مؤسسة السلطنة العسكرية كانت قد تدهورت وأصبحت في الحضيض. ومثل هذا النزوع لم يكن بوسعه إلاَّ أن يزداد تفاقماً وسوءاً، جراء الصراعات الداخلية وحركات التمرد الإقليمية التي طبعت السنوات التي أعقبت وفاة السلطان. يكتب عفيف بلغة غنائية رعوية عن الوضع المزدهر للدوآب في ظل فيروزشاه[149]؛ غير أن جزءاً كبيراً من الإقليم كان قد تعرض، في غضون بضع سنوات، للتدمير والخراب جراء سلسلة الحملات التي شنها الرايات (الأمراء) الهندوس والأمراء التُغْلُقيون المنافسون.

الدول الوريثة

يحدد سرهندي تاريخ ظهور حكام إقليميين مستقلين على المسرح بزمن الحرب الأهلية الثانية، حين «بات أمراء الإمبراطورية وملوكُها»، كما يزعم، «سادة مستقلين وقادرين على تحصيل الضرائب والإنتاج بأنفسهم»[150]. كانت العملية قد بدأت، في الحقيقة، قبل ذلك بوقت غير قصير، في عهد فيروزشاه، مع إيجاد إمارة مستقلة في خانَدْش سنة 782 هـ / 1380م تحت حكم ملك

(147) TFS، 553.

(148) عفيف، 298 ـ 302.

(149) عفيف، 295.

(150) TMS، 160 ـ 161.

راجا، الذي لا نعرف عنه إلاّ الشيء القليل[151]. ومن الحقائق المثيرة، بعيداً عن ملك راجا ومع الاستثناء الموصوف لمؤسس كيان كالبي السياسي، محمود ابن فيروزخان، الذي كانت أسرتُه في البداية قد أيدت تُغْلُق شاه الثاني، أنَّ مؤسسي سلسلة الأُسر الحاكمة الإقليمية[152] ـ خضرخان في مُلْتان، ظَفَرخان وجيه الملك في گوجرات، عميد شاه (ديلاورخان) في مالوا، شمس خان أوحدي في بهايانا، وخواجا جهان في ساروار وجاونبور ـ كانوا جميعاً من مرشحي السلطان محمد شاه بن فيروز، أو مؤيديه في الأساس[153]. حتى محمود بن فيروزخان كان بالضرورة قد تصالح مع محمد شاه، الذي كان لدى زيارته للمنطقة سنة 794 هـ / 1391 ـ 1392، قد أنعم عليه بإقطاع ماهوبا، إضافة كامل **شقة** فيروزبور التي كانت بيده من قبل[154]. يذهب بيهامادخاني بعيداً إلى حد المساواة بين بروز الممالك الجديدة وصدور قانون إداري مناسب عن محمد شاه، قانون يقضي رسمياً بتقسيم أراضيه إلى وحدات إدارية، غداة انتصاره على أبي بكر[155]. وحَدْه تسلسلُ حياة ملك محمود العملية يبين بأن بوسعنا أن نعتبر هذه القصة منطوية على شيء من الحقيقة (يحتوي على ذرة ملح).

لعل خضرخان في مُلْتان حالةٌ خاصة. كان الرجل، كما رأينا من قبل، قد فقد السيطرة على منطقته لصالح سارانغ خان، ولم يعد يشعر، دون شك، بأي قَدْر من الولاء ـ اللهم إذا كان قد فعل ذلك من قبل ـ تجاه السلطان محمود

---

(151) پ. هاردي، «الفاروقيون»، Enc. Isl^2.

(152) ترد أسماؤهم بأكثريتها في TMS، 168 ـ 169.

(153) مشار إليهم جميعاً من قبل بيهامادخاني، ملف 416 أ، 421 ب ـ 422 أ، 426 ب (تر. زكي، 19، 30، 36)، عدا شمس خان الوارد في TMS، 147. كذلك كان خضر خان أحد أنصار محمد شاه، المصدر نفسه، 14، 147.

(154) المصدر نفسه، 152. بيهامادخاني، ملف 429 ب ـ 430 أ (تر. زكي، 42 ـ 43).

(155) المصدر نفسه، ملف 426 ب، 429 (تر. زكي، 36، 42). ربما كان مصدر الرواية المماثلة في هاراوي، III، 288.

شاه، الذي كان ألعوبة بيد مالّو شقيق سارانغ خان. هارباً من قبضة سارانغ خان هذا، كان قد فر إلى بهايانا، ومن هناك شق طريقه إلى مضرب خيام تيمور وعرض عليه الطاعة والخضوع. من المؤكد أن زعم سرهندي القائل بأن تيموراً ولاّه على دلهي باطلٌ، وهو ليس أكثر من محاولة لترسيخ مشروعية أسرة السيد الحاكمة، التي كان يكتب لصالحها، والتي كانت قد اعترفت بسيادة تيمور عن طريق **فرمان** صادر عن الفاتح. غير أننا لا نملك ما يدعونا إلى الشك بصحة كلامه عن أن تيموراً ثبّت خضرخان والياً على مُلْتان ودَيْبالْپور[156]. فمن منطلق ولاء خضرخان هذا، كانت هاتان المنطقتان قد توقفتا عن كونهما جزءاً من سلطنة دلهي.

وفيما عدا ذلك، لم يكن الحكام الجدد، على أية حال، يمثّلون أناساً كانوا قد وصلوا إلى السلطة والنفوذ من خلال أية عملية عصيان رسمية. فخواجا جهان سروار، وزير كل من محمد شاه ومحمود شاه بالتتابع، ونائب الثاني عبر الأقاليم الشرقية، ربما كان المثال الأبرز لنصير، يدين بالولاء، وجد الاستقلال مُقْحَماً عليه عُنوة. وجدير بالملاحظة، أيضاً، أن هؤلاء الحكام المحليين كانوا شديدي التردد في الإعلان عن سيادتهم، وفي رفض سلطة السلطان في دلهي. لم يُقْدم خواجا جهان قط على اتخاذ لقب السلطان؛ وابنه المُتَبنىٰ وخَلَفُه في جاونبور، لم يبادر، حتى موته في 802 هـ / 1399م (إلى ما بعد استباحة دلهي بالتالي)، إلى اعتماد لَقَب السلطان مبارك شاه، مستثيراً حَمْلَة فاشلة جَرَّدها ضدَّه مالو إقبال خان من دلهي[157]. أما في گوجرات، فإن ظفرخان بن وجيه الملك قد أظهر، رغم قول بيهامادخاني العكس، نوعاً من

---

(156) TMS، 166 ـ 167. يازدي، ZN، تحقيق إلاهداد، II، 175 (مبسطاً في طبعة أورونبايف، ملف 341 أ)، لا يشير إلاّ إلى حكومة مُلْتان.

(157) TMS، 169. هراوي، III، 274. سعيد، **السلطنة الشرقية**، 32 ـ 33، يقال إنه حوالي زمن غزو تَمْر تقلّد لقب **الأتابك الأعظم** وجعل الخطباء يخطبون باسمه هو؛ غير أن بيهامادخاني، وهناك مرجع تم الاستشهاد به، لا يؤيد هذا الكلام. قارن أيضاً نظامي، في HN، 713.

التمنع إزاء تبني اللَّقب السلطاني، وهو أمر يثير قدراً أكبر من الاستغراب من شخص كان قد اعترف بنُصرت شاه، وكان ابنه تتارخان وزير ذلك السلطان. قد يفيد هذا في تفسير حرج ظفرخان حين برز محمود شاه، منافس نصرت شاه، في گوجرات بعد سنة أو نحوها، غداة غزو تيمور؛ يبدو أن السلطان الهارب لم يكن قد حصل على أية مساعدة بل شَدَّ الرحال إلى مالوا[158]. وفي سنة 806 هـ / 1404م، كان ظَفَرخان، الذي يصوره نقش يعود إلى تلك السنة «وزيراً» فقط، قد أُزيح لفترة وجيزة من قبل ابنه الطموح تترخان، الذي كان يخطط للاستيلاء على دلهي وتقلَّد لقب السلطان ناصر الدين محمد شاه. ولكن ظفرخان بقي مصراً، حتى بعد وفاة تترخان واستعادته للعرش بعد شهرين، على تسمية نفسه بِمُقْطَع گوجرات؛ ولم يعتمد لَقَب السلطان حتى سنة 810 هـ / 1407م[159]. ثمة مزاعم تقول إن ديلاورخان فعل ذلك [اعتمد لقب السلطان] في 804 هـ / 1401 ـ 1402م، بعد زيارة محمود شاه لمالوا، غير أن الدليل الوحيد على الأمر يبدو متمثلاً بنقش يعود إلى سنة 807 هـ / 1405 م؛ في حين تبقى البينة الدالة على قيام خلفه هوشانغ شاه بتقلد اللقب الملكي أو السلطاني، أقوى بكثير[160].

تبقى قضية التقلّد اللاحق لمرتبة السلطنة الملكية من قبل محمود شاه بن

(158) بيهامادخاني، ملف 427 ب (تر. زكي، 38). TMS، 166، 170. هراوي، III، 89. سيكاندار، «مانجهو» 20 (تر. بايلي، 79 ـ 80). لال، **غروب**...، 47.

(159) ج. هـ. يزداني، «سبعة منقوشات جديدة من ولاية بارودا»، EIM (1939 ـ 1940م)، 2 ـ 3. ز. أ. ديساي، «منقوشات عن سلاطين گوجرات»، EIAPS (1963م)، 6 ـ 10؛ **أيضاً**، «منقوشات خلجية وتُغلُقية من گوجرات»، 32 ـ 33، 38 ـ TMS40 .، 172. هراوي، III، 90 ـ 93، مضمراً أنه اعتمد اللقب الملكي بعد وفاة تترخان. سيكاندار «مانجهو»، 21 ـ 25 (تر. بايلي، 80، 81، 83 ـ 84). ميسرا، **النفوذ الإسلامي**، 152 ـ 156.

(160) يو. ن. داي، **مالوا الوسيطة: تاريخ سياسي وثقافي، 1401 ـ 1562 م** (دلهي، 1965م)، 21؛ HN، 898، 899. عن المنقوشات، انظر EIM (1909 ـ 1910م)، 11 ـ 12، تلخيص داي، 435. عن هوشانغ، انظر المصدر نفسه، 25.

فيروزخان، مؤسس أمارة كالپي الذي حكم تحت اسم ناصر الدين محمود شاه، قَضية محيِّرة جداً بالنسبة إلى المؤرخ المحلي بيهامادخاني، الذي يزعم أن سلطان دلهي محمود شاه بن محمد زوّده بمظلة (تشاتر) وصولجان (دورباش) مع لقب سلطان مرة؛ ثم لا يلبث، بعد قليل، أن يقول إن محموداً قد نَصَّب نفسه على كالپي بعد وفاة محمود شاه ـ وهو مستحيل لأنه مات سنة 813 هـ / 1410 ـ 1411م، وعاش سلطان دلهي بعده سنتين أخريين. ومع كلام بيهامادخاني التالي مباشرة حيث يقال إن محمود شاه تبنى لقب السلطنة غداة غزو تيمور، نكون قد بلغنا أقصى ما يمكن بلوغه قرباً من الحقيقة، دون شك[161].

لقد كان انقضاض تيمور على دلهي حاسماً. فالحرفيون والعمال المهرة الآخرون الذين كانوا قد ساهموا في تزيين أماكن إقامة فيروزشاه وتجميلها كانوا قد نُقِلوا لتزيين مقر قيادة الغازي في سمرقند[162]. وكان الكثير من أهالي المدينة الآخرين قد لاذوا بالفرار إلى أماكن أخرى، طلباً للأمن ولم يعودوا ثانية. من المؤكد أن بيهامادخاني يوحي بأن أَمْنَ كالپي وازدهارها قد تعززا كثيراً جراء تدفق المهاجرين القادمين من دلهي، غداة تعرضها للاستباحة من قِبَل المغول الجغتائيين[163]. لم يكن انهيار سلطنة دلهي، مثله مثل انفصال أكثرية أقاليمها الباقية، إلاَّ ضربةً قاتلة بالنسبة إلى المدينة ـ العاصمة.

---

(161) بيهامادخاني، ملف 436 (تر. زكي، 52، 53)؛ وانظر أيضاً ملف 412 ب (تر. 15). عن موت محمود شاه من كالپي، انظر المصدر نفسه، ملف 445 ب (تر. 62).

(162) غياث الدين يزدي، **روز ـ نامه**، تر. سيمنوف، 124 ـ 125. يزدي، ZN، تحقيق الاهْداد، II، 124 / تحقيق أورونبايف، ملف 326 ب. عن بلدات أخرى تعرضت للاستباحة والنهب (انظر فيرما، **آليات الحياة الحضرية**، 65 ـ 66.

(163) بيهامادخاني، ملف 436 ب، 442 ب ـ 443 أ (تر. زكي، 35، 59 ـ 60). عن كيان كالپي السياسي، انظر عموماً إقتدار حسين صديقي، «كالپي في القرن الخامس عشر»، IC 61 (1987م)، ج: 3، 90 ـ 120.

تذييل (1400 ـ 1526م)

نهاية آل تُغْلُق

خلال العقد الذي أعقب هجوم تيمور، عادت السلطنة واحدة فقط من عدد من القوى المتنافسة في النصف الشمالي من شبه القارة، مع انقسام إمبراطورية فيروزشاه إلى دول مختلفة. فلسنوات ثلاث، بعد إغارة تيمور، بقيت دلهي دون سلطان. فنُصْرت شاه الذي عاد من الدواب ليقيم في فيروز آباد في رجب 801 هـ / آذار / مارس ـ نيسان / أبريل 1399م، هُزم من قبل مالوا إقبال خان وأُجبر على الفرار إلى قلب منطقة الميو، حيث قضى نحبه. ثم أقام مالوا مقر قيادته في سيرى، التي يقال إنه انطلق منها لاستعادة السيطرة على «**شقة** الدواب وإقطاعات الأطراف (**الحوالي**)[1]. غير أنه، على الرغم من تغلبه على سومر وحلفائه في موقع قريب من باتيالي سنة 803 هـ / 1401م، بقي عاجزاً عن استعادة غواليور من خليفة فيراسينها زعيم التومارا، الذي كان قد احتلها في أثناء فترة الفوضى التي جاءت مع اجتياح تيمور للبلاد[2]. تمكن مالوا من أن يحكم لبعض الوقت عبر محمود شاه الذي أقنعه بالالتحاق به ثانية؛ إلاَّ

(1) TMS، 167 ـ 168.

(2) TMS، 169 ـ 170، 171 ـ 172.

أن السلطان ما لبث أن راودته الشكوك حول الرجل في أثناء حملة ضد جاونبور فاتخذ قِنَّوج مقراً له، ولم يعد إلى دلهي إلاّ بعد مقتل مالوا في ساحة القتال مع خضرخان سنة 808 هـ / 1405م، واحتفظ هناك بما يشبه ظِلَّ سلطة حتى وافته المنية هو الآخر سنة 815 هـ / 1412 م. وبعد العهد الوجيز لكبير الأمراء دولت خان، تمكن خضرخان، أخيراً، من الفوز بمدينة دلهي.

الأسرتان الحاكمتان: السيِّد ولودي

تولى حكام ما يُعرف بأسرتي السيد (817 ـ 855 هـ / 1414 ـ 1451م) ولودي (855 ـ 932 هـ / 1451 ـ 1526) الحاكمتين[3] رئاسة إمبراطورية لم تكن إلاّ ظلاً لكيانها السابق والتي استمرت تتمزق. فالسلطنة المقلَّمة كانت محاطة، وأحياناً مهددة، بسلطنات إسلامية منافسة مثل جاونبور وگوجرات، مالوا والبنغال، كما بإمارات هندوسية عادت إلى الحياة مجدداً في كل من ميوار وآلوار والدواب. وفي عدد من المناسبات، بقيت دلهي معرضة لتهديد غزاة من هذه المملكة الإسلامية أو تلك، كما حصل مع سلطان مالوا سنة 844 هـ / 1440م ومع سلطان جاونبور في 810 هـ / 1407م، وفي 856 هـ / 1452م، وفي سنة 1466م، وفي 883 هـ / 1479م، قبيل الإطاحة بسلطنة جاونبور من قبل بهلول لودي. باتت شهادات الخلافة الآتية من القاهرة تُرسل إلى عواهل مسلمين آخرين في شبه القارة[4].

يستند لَقَبُ «السيد» (مفرد سادة أو سادات) المعطوفة على أسرة خضرخان الحاكمة (817 ـ 824 هـ / 1414 ـ 1421م) إلى التحدُّر عن النبي

---

(3) عن هذه الأسرة الحاكمة، انظر عموماً ك. أ. نظامي «الأسياد»، (السادة؛ السادات)، Enc. Isl.²؛ المصدر نفسه، «الأسياد (1414 ـ 1451م)»، في HN، 630 ـ 663؛ أيضاً «اللودي (1451 ـ 1526م)»، المصدر نفسه، 664 ـ 709؛ إمام الدين، «اللودي»، Enc. Isl.²؛ لال، **غروب**...

(4) أوتو سبايز، «خليفة عباسي في القاهرة ينصب ملكاً هندياً»، في س. م. عبد الله (محرراً) **كتاب تقديم البرفسور محمد شافعي** (لاهور، 1955)، 241 ـ 253.

الذي يضفيه عليها سرهندي بالاستناد إلى أسباب وجيهة. لم يُقْدِم خضرخان قط على ارتداء ثوب السلطنة، مفضلاً لقب **رايتي أعلى** («الراية المرفوعة»). وبما يتناسب مع حاكم مدين بمنصبه لتيمور، كان يدفع الخراج لشاه رُخ، أصغر أبناء الفاتح، الذيّ أصبح مهيمناً على القسم الشرقي من العالم الإسلامي من عاصمته هراة، وحصل مقابل ذلك على خلعة شرف وراية. وعلى الرغم من أن خضرخان يحيى بن خضرخان وخلفه، مبارك شاه (824 ـ 837 هـ / 1421 ـ 1434م) باعتباره سلطاناً[5]، فإننا نعلم أنه، هو أيضاً، حصل من هراة على عباءة ومظلة (تشاتر)[6]. يبقى سرهندي صامتاً إزاء هذه الصلات، كما أن القطع النقدية الصادرة عن **السادة** لم تحمل اسم شاه رُخ، جراء الاكتفاء بالإصدارات التُغْلُقية المعدّلة. ولولا بيهاماندخاني الذي يؤكد لنا أن أوامر شاه رُخ بقيت نافذة في دلهي طوال ما يقرب من أربعين سنة، وأن الحاكم الراهن، محمد شاه، ابن شقيق مبارك (837 ـ 849 هـ / 1434 ـ 1445م)، كان لا يزال تابعاً مطيعاً لشاه رُخ هذا وقت الكتابة، لما علمنا شيئاً عن ولاء حكام دلهي[7]. غير أن إذعان خضرخان وخلائفه، واستعدادهم للخدمة لم يضمنا لسلطنة دلهي البقاء بمنأى عن هجمات المغول. فالشيخ علي الذي كان يحكم كابُل باسم ابن شاه رُخ ما لبث أن استغل مصاعب **السادة** للانقضاض على الهند عدداً من المرات، محتلاً لاهور لفترة وجيزة سنة 836 هـ / 1432 ـ 1433م.

يبدو أن نفوذ شاه رُخ في شبه القارة كان واسعاً. فبهامادخاني، الذي ينظم شعراً في مديح ملوكية (**سَلْطَنَتْ**) ذلك العاهل، ويطلق عليه لقب «**خاتم الملوك**»[8]، يزعم أن السلطان هو شانغ المالوالي [نسبة إلى مالوا] التمس منه

---

(5) TMS، 193.

(6) بيهامادخاني، ملف 311 ب ـ 312 أ (تر. زكي، 95).

(7) المصدر نفسه، ملف 312 أ (تر. زكي، 95).

(8) المصدر نفسه، ملف 312 ب ـ 313 أ (ليس موجوداً في تر. زكي).

العون ضد غزو تعرض له من گوجرات؛ في حين يقوم المصدر التيموري بوصف سلطان البنغال، هو الآخر، ساعياً إلى الحصول على المساعدة من هراة للوقوف في وجه جاونبور[9]. من المحتمل جداً أن تكون هذه السيادة قد تعرضت للانقطاع، مع اندلاع الحرب الأهلية غداة موت شاه رُخ في 850 هـ / 1447م، وبروز الخطر التركماني الذي بات يهدد التيموريين في إيران الغربية[10]. غير أن بابُر، سليل تيمور، كان لدى قيامه بشن غزواته الخمس على الهند بالانطلاق من كابُل أوائل القرن السادس عشر، يعيد إحياء ادعاءات أجداده القائمة على المطالبة بالسيادة على شرق السند، رغم أنَّ فَتْحَ دلهي نفسها والاستيلاء عليها، كان هدفه ولكن في الوقت المناسب[11].

كان سلاطين أوائل القرن السادس عشر عاجزين تقريباً عن فرض سلطتهم على مقطعاتهم بالذات من جهة، أو على الأمراء الهندوس المحليين من جهة ثانية. ما لبثت مُلْتان، معقل خضرخان يوماً، أن انفصلت سنة 847 هـ / 1443م، بزعامة الشيخ يوسف قريشي، أحد أحفاد الشيخ بهاء الدين زكريا، الذي ما لبث، بدوره، أن جرى اقتلاعه واستبدال أسرة اللانغاه الأفغانية الحاكمة به. ليس مَسْحُ سرهندي للعقود الأولى من أسرة السادة الحاكمة أكثر من إطراء مستمر باعث على الملل لسلسلة من الحملات ضد الخوخار والميو ومقدَّمي كاتيهر، وتشاوان إيتاوا وتومار غواليور، الرامية إلى تحصيل «الموارد» على شكل جزية وخراج. فسلطنة دلهي لم تكن تضم أكثر من المناطق المحيطة مباشرة بالعاصمة نفسها، تلك المناطق المعروفة باسم الأطراف (**الحوالي**) منذ زمن بعيد. ثمة لَفْتَةٌ معاصرة لمؤرخ من القرن السادس عشر، اعتبرت دائرة نفوذ

---

(9) المصدر نفسه، ملف 312 ب (تر. زكي، 96). عبد الرزاق سمرقندي، **مطلع السعدين**، تحقيق م. شافعي (لاهور، 1941 ـ 1949م جزءان)، II، 782 ـ 783، وارد في HN، 719.

(10) انظر هـ. ر. رويمر، «خلفاء تَمُر»، في جاكسون ولوكهارت (محررين) **تاريخ إيران، كامبردج**، VI، 105 وبعدها.

(11) **بابور ـ نامه**، تر. بيفريدج، II، 377، 380، 382، 478.

آخر الحكام السادة، علاء الدين عالم ـ شاه (**شاهي عالم**، «**ملك العالم**») ممتدة من دلهي إلى بالام[12].

سعياً منه لتنفيذ مخططاته المتعلقة بدلهي، كان خضرخان قد جنّد أعداداً كبيرة من الزعماء الأفغان وحواشيهم. فمنذ أيام عهده هو كان الزعيم اللودي، سلطان شاه (إسلام خان لاحقاً)، الذي كان قد قَتَل مالّو إقبال خان، حاكماً لسرهندي؛ غير أنه سقط في المعركة سنة 834 هـ / 1431م وهو يقاتل قوة تيمورية غازية. وخلال عقد الأربعينيات من القرن الخامس عشر، أصبح النبلاء الأفغان أصحاب السلطة الفعلية في السلطنة. فابن شقيق إسلام خان وخلفه في ولاية سرهندي، بهلول لودي، الذي كان قد مُنح لاهور ودَيْبلْپور مقابل مساعدة قدمها ضد قوات مالوا الغازية، خرج لاحتلال الجزء الأكبر من البنجاب، وبذل محاولتين لفتح دلهي. قرر عَلَم شاه أن يهجر العاصمة ليرحل إلى بداؤون في 852 هـ / 1448م، وما لبث بهلول أن دخل المدينة بعد ثلاث سنوات، حيث جرى تنصيبه على العرش سلطاناً.

شهدت الحقبة اللودية نوعاً من الإحياء أو الصحوة. ثمة مبارزة طويلة مع جاونبور ما لبثت أن انتهت بضمها (جاونبور) (في 884 هـ / 1479م)؛ ثم جرى منح المنطقة لنجل السلطان بهلول الأصغر، الباربك شاه؛ هرب السلطان الشرقي الأخير إلى أعماق بيهار، حيث بقي محافظاً على منصبه حتى تم طرده وضم تلك المنطقة من قبل سيكاندر شاه بن بهلول (894 ـ 923 هـ / 1489 ـ 1517م)، الذي كان من قَبْلُ قد أزاح أخاه باربك عن جانبور. وفي ظل سيكاندر هذا، تحققت أيضاً مكاسب ذات شأن جهة الجنوب. تم أخيراً، سنة 898 هـ / 1492م، طرد الأوحديين، الذين استمروا يحكمون بهايانا تحت سيادة دلهي،

(12) أحمد يادغار، **تاريخي شاهي أو تاريخي سلطنتي أفغانية** تحقيق م. هدايت حسين، BI (كالكوتا، 1939م)، 5، وارد في لال، **غروب...**، 124 هـ 64.

حين جرى إخضاع المكان لسلطة شخص عَيَّنه السلطان. أما ناروار فقد تم انتزاعها من قبضة أمير غواليور في 914 هـ / 1508م، كما انتُزعت منطقة تشاندري من سلطنة مالوا سنة 921 هـ / 1515 م؛ وكذلك فإن نغوار أصبحت، سنة 915 هـ / 1509م، تابعة لدلهي. نجح ابن سيكاندر وخلفه، إبراهيم (923 ـ 932 هـ / 1517 ـ 1526م) في اجتياح غواليور التي طالما راوغت أباه، غير أنه خسر تشاندري ونغوار لصالح أمراء ميروار وماروار الهندوس على التوالي. ومن أعراض انشغال السلطان المهووس بإخضاع آلوار وغواليور وبهايانا، أن سيكاندر كان قد أقدم في 911 هـ / 1505م على نقل مقر إقامته من دلهي إلى أغرا. غير أن النتيجة الطبيعية التي ترتبت على هذه السياسة الجريئة والطموح في الجنوب، تمثلت بإهمال الحدود المعرضة للخطر في البنجاب.

بقيت هجرة الزعماء الأفغان وأتباعهم متسارعة على قدم وساق في ظل الحكامين اللوديين الأولين، خصوصاً حين حاول بهلول، في مواجهة التهديد القادم من جاونبور، أن يعزز قوته العسكرية، عبر استدعاء رجال القبائل الأفغان من عشائر الروه[13]. كان مركز الزعماء الأفغان، مع واحدة أو اثنتين من العشائر غير الأفغانية الآتية من الجهة الشمالية الغربية، التي كانوا يشاطرونها السلطة، أقوى بما لا يقاس من مركز أسلافهم خلال القرن الرابع عشر: جدير بالذكر أن السلطان، في هذه الأيام تقريباً، فَقَد احتكاره المفضل، منذ زمن طويل، لاقتناء الفيلة[14]. لقد حكم بهلول بوصفه **أولاً بين أنداد** ليس إلاَّ. وقد قام سيكاندر، الذي كانت طموحاته أكثر فردية (دكتاتورية)، بتعزيز موقعه تدريجياً وبمهارة؛ أما إبراهيم فقد أثبت، من البداية، أنه غير قابل للمساومة على مخططاته الرامية إلى لجم وكبح نفوذ الأرستقراطية القديمة، وبناء نخبة

---

(13) **تاريخي شير ـ شاهي**، وارد في HN، 679 ـ 680.

(14) HN، 665. عن وضع الأفغان في سلطنة اللوديين (السلطنة اللودية)، انظر اقتدار حسين صدّيقي، «تركيبة الطبقة الارستقراطية في ظل حكم السلاطين اللوديين»، MIM 4 (1977م)، 10 ـ 66.

يمكنه التعويل عليها[15]. ما لبثت تصرفاته المتعسفة ضد عدد من الشخصيات القيادية، أن تمخضت عن انفصال بيهار بقيادة منافس، تمكن من السيطرة على المنطقة الممتدة حتى قِنَّوج غرباً[16]، وعن مبادرة دولت خان لودي، والي البنجاب، إلى دعوة الأمير التجوري بابُر لشن غزوتيه الأخيرتين على الهند. في الحملة الرابعة تم احتلال لاهور (930 هـ / 1524م)، وفي الخامسة نجح بابُر في إلحاق الهزيمة بسلطنة دلهي وفتحها. ففي الثامن من رجب 932 / العشرين من نيسان / أبريل 1526م، تمكنت مدفعيَّةُ بابُر، عند موقع بانيبات، من إحراز التفوق على الأعداد الأضخم لقوات إبراهيم، الذي سقط في أرض المعركة. وعلى الرغم من أن طرد همايون بن بابُر، والتأسيس المؤقت لكيان سياسي جديد خاضع للحكم الأفغاني، على يد شير شاه، سنة 947 هـ / 1540م، يتمتع بشيء من الجدارة بأن يُعْتَبر إحياء السلطنة دلهي، فإن الاشتباك في بانيبات يشكل بداية الإمبراطورية المغولية.

يحرص بابُر على مقارنة انتصاره هو على حاكم الجزء الأكبر من الهند الشمالية، بانتصارات الفاتحين السابقين: محمود الغزنوي وعز الدين محمد الغوري، اللذين واجها خصوماً أضعف وأقل شأناً (وجبة أسهل على الازدراد والهضم). وبرأيه، فإن جشع إبراهيم هو المسؤول عن بقاء جيشه محدوداً بما لا يزيد عن مئة ألف رغم قُدْرَته على تجييش ضعف ذلك الرقم أو ثلاثة أمثاله[17]. غير أن هذا قد لا يكون منصفاً لغياب المساعدة من ولايات السلطان اللودي الشرقية المتمردة، مع اغتراب أكثر انتشاراً بين صفوف جيشه كما ورد

---

(15) عن علاقات السلاطين اللوديين بأمرائهم وأعيانهم، انظر عموماً اقتدار حسين صدّيقي، **بعض جوانب الاستبداد الأفغاني في الهند** (عليكره، 1969م)، الفصلان الأول والثاني.

(16) **بابور ـ نامه**، تر. بيفريدج، 523.

(17) **بابور ـ نامه**، 470، 480؛ انظر أيضاً تعليقه على ثروة الهند من الذهب والفضة، المصدر نفسه، 518، 519.

في مصدر لاحق[18]. ممكن أيضاً أن بابُراً كان يبالغ في تقويم ثروة خصمه. يشكل عدم استمرار سك القطع النقدية الفضية والذهبية في ظل السلاطين السادة واللوديين، واستخدام معادن أرخص مثل خليط البلّور والنحاس دليلاً على الضعف الاقتصادي لسلطنة القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، وهي السلطنة التي فقدت السيطرة على الجزء الأكبر من مواردها، ولم تعد متمتعة بالقدرة على الوصول إلى المبالغ الهائلة التي كانت تُحصَّل على شكل غنائم، أو كخراج وجزية أيام الخَلْجيين والتُغْلُقيين.

(18) أحمد يادغار، **تاريخي شاهي**، 96.